الأستاذ فوزي سعد الله

قصبة الجزائر

الذاكرة الحاضر والخواطر



وزارة الثقافة
ALGERIE

قـصـبـــة الجـزائـر..
الذاكرة..
الحـاضر والخـواطر

بلدٌ أعارتْه الحمامةُ طوقَها   وكسَاهُ حُلّةَ ريشِه الطاووسُ

"Elle est unique. Elle n'a pas pareille. Aucune autre n'a à la fois cette orientation, cette position, ce climat, cette précise architecture (...) Elle est le trés pur fruit du génie algérien".

André Ravéreau

هي فريدة، لا مثيل لها، لا واحدة غيرها تملك هذا التوجه، وهذا الموقع، وهذا المناخ، وهذه الهندسة المعمارية الدقيقة، (...) إنها الثمرة الصافية للعبقرية الجزائرية".

أندري رافيرو

فَدَعْني مِنْ غرناطة ورُبُوعِها وشَنيل فالحُسْن انْتَهى للجزائر
فمَا تفضل الحمْراء بَيضاء غادَة مقرطـــة بالبَــدْر ذات غــدائِر

عبد الرحمــن الجـامعـــي
(في وصف مدينة الجزائر)

“Si d’un côté je voyais le chemin du ciel avec la permission d’y aller et de l’autre celui d’Alger, je choisirai plutôt ce dernier.”!

Pére Levacher (Consul de France à Alger**)**

لو رأيت من جهة صراط السماء وهو مفتوح في وجهي، ومن جهة أخرى الطريق المؤدي إلى مدينة الجزائر، لاخترتُ هذا الأخير !

الراهب لوفاشي (قنصل فرنسا في مدينة الجزائر)

“Alger a passé mes attentes. Quelle est jolie, la ville de neige sous l’éblouissante lumière !
(..) De la pointe de la jetée, le coup d’oeil sur la ville est merveilleux. On regarde extasié cette cascade éclatante de maisons dégringolant les unes sur les autres du haut de la montagne jusqu’à la mer. On dirait une écume de torrent, une écume d’une blancheur folle; et de place en place, comme un bouillonnement plus gros, une mosquée éclatante luit sous le soleil.”

Guy de Maupassant

"Alger…quelle ville mon cher ami! Les Arabes l’appelaient El-Bahdja, la blanche, et comme elle est encore la bien nommée ! Et quand le soleil se lève pour l’éclairer, quand elle s’illumine et se colore à ce rayon vermeil qui tous les matins lui vient de la Mecque, on la croirait sortie de la veille d’un immense bloc de marbre blanc, veiné de rose."

Eugène Fromentin, Une Année dans le soleil (1859)

"الجزائر...أيُّ مدينة هي يا صديقي العزيز! يسميها العرب "البهجة"، البيضاء، وكم أصابوا في في هذه التسمية! وعندما تشرق الشمس لتنيرها، عندما يكسوها النور وتتلون بهذا الشعاع الذهبي الذي يأتيها كل صباح من مكة (القِبلة)، تبدو وكأنها انبثقت البارحة من كتلة ضخمة من الرخام الأبيض المزركش بخطوط وردية".

أوجين فرومونتان، "عام تحت الشمس" (1859م)

مقدمة:

الفصل الأول: قصبة الجزائر...المرسى، بيوت الله والرّجال

الفصل الثاني: العيشُ والموتُ في المدينة..."البَارحْ و اليَوْمْ"

" دار الغُولَـــة"..دار الطفولة...
عين مَحْشَاشَة: من المهندس شَاصِيرْيُو إلى.. "مصطفى القَرْعَة"
لاَبْوَانْتْ بِيسْكَادْ: من مرسى "الذبَّان" إلى "الرَّايَسْ حَمِّيدُو"
الأَبْيَـــار... الحي الذي وُلِدَ بورجوازيًا
عندما كان الوسخ من...الشيطان
وادي الحَرَّاشْ: في هذه البلاد..."العاقل يَاكْلُوهْ"
"كِيلُو"..، لكن شَرِيف: "اللّيل، اللّيل.. أنا خابَطْ ونْقُولْ قْلِيلْ..."

الفصل الثالث: بُورْتْرِيهَات...

حميدو بن علي.. آخر الريـَّـاس
الشيخ عبد الرحمن القِينْعِي.. "بَـابَـا نُـوَالْ" الفـقـراء
"خَالْتِي مِينَة": آخـر تحفـة بشرية في قصبـة الجزائـر
حْسِيسَنْ مَانْيُوسْ... ضمير القصبة
تَحيَّـة لِحَمِيـرِ القصبـة !

الفصل الرابع: تَحَوُّلاَت و..غُمُوض

متى تُسْتَرْجَع كنوز القصبة...؟
بَابَا مَرْزُوقْ.. المدفع الجزائري الذي لايزال أسيرًا في فرنسا
خُبْزُ..لُوجْيَا قصبة الجزائر
"فُوقَــاصُ.. لُوجْيــَا"
الفن المعماري النِيُومُورِيسْكِي: القصبة تتحدى العمران الأوربي
"دْرُوجْ" البهجة، "وَقْتَاشْ تْجِي... الفَرْجَة!"
تمـاثيـل البـؤس والـرداءة
بؤساء.. "ديدوش مراد"...
الجنة الضائعة

الفصل الخامس:المدينة "البهجة"

فقهـاء ينقـذون الغناء الأندلسي
إيدمون يافيل والموسيقى الأندلسية: من مطعم اللُّوبْيَة إلى... قاعة الأُولِمْبْيَا
"والله مَا نْسِيتَكْ يَا لِيلة البَارَحْ...!"
"كَاسِي يَا كَاسْ غَازُوزْ... نَشْرْبُوهْ أَنَا وعَزُّوزْ"
مَرْيَمْ فَكَّايْ... آخـر المْسَـامْعِيَـاتْ

قاعة الأُوبِرَا: الصَّخرة التي تَحَوَّلَتْ إلى... مسـرح الأطفال و إبداعات زمان.. "يَا حَسْرَة كِي كُنْتْ صْغِيرْ"...

خاتمة:

مقدمة:

"الجْدِيدْ حَبُّه و القْدِيمْ لاَ تْفَرَّطْ فِيهْ"...

هذه المدينة، التي نَتفرَّجْ اليوم على انهيارِ ما تَبقَّى مِن أطلالِها بِقدرٍ كبيرٍ من اللامبالاة، تتنفس التاريخ وتعيش عليه، تحفظ الذاكرة و تزجر الذين غرقوا في النسيان أو الذين لا يُحْسِنون احترامَ الجذورِالتي أنْبَتَتْهُم...
فهي بمجرد وجودها على قيد الحياة، و لَوْ في حالةِ الاحتضار، تُؤَدِّي دورَ الجدّ والجدّة، وسط العائلة، ساهرةً على استمرارِ القِيم و تَوَاصُلِها مابين الأجيال، وتقف مثل "مِسْمَار جُحَا" في وَجْهِ العاجزين على فهْمِ المَثَل الشعبي القائل "الجْدِيدْ حَبُّه و القْدِيمْ لاَ تْفَرَّطْ فِيهْ"...
اليَوْم، قَصَبَةُ الجَزائر، أو قصبة بني مَزْغَنَّة، حِصْنٌ ثقافيٌّ حيوي ثقيلٌ بالرُّموزِ والقِيَم رغم مظاهر الشيخوخة التي شوّهتها وانهيار الجسد المثقَل بمئات السنين وآلاف الأحداث وما لا يُحصى من الحكايات. والحصونُ دائما مستهدَفة لا ترتاح ولا تنعم بالهدوء والسّكون. وكأن قدرَ هذه المدينة التاريخية العتيقة شاء ألاَّ تكون سوى حِصنٍ أو قلعةٍ قبل أن تكون أي شيء آخر: لغويًا، لأن "القصبة" تعني القلعة، وعسكرياً لدورِها التاريخي في البحر المتوسط كَجَبْهَةٍ مُتَقَدِّمَة للعالم الإسلامي على أبواب الغرب الأوربي المسيحي خلال العهد العثماني، وثقافيا كحافظة للقِيم ورادعة للإعوجاج كُلَّمَا اقتضتْ الأمورُ مثلما تفعل منذ عقود جاهِرةً بصوتها وزاجرة ومُنتفِضة عندما لا يُصغ إليها...
وللتعبير عن عدم الرضى، قد لا تتردد القصبة، وهي المعروفة بالشهامة والأنفة والإباء، حتى في المواجهة والصِّدام الذي قد يصل إلى حد الدماء والدموع...
هذه هي قصبة الجزائر في ماضِيها كَمَا في حاضرِها...

لكنها ليست هذا وحسب، بل هي أيضا أرضٌ لِصناعة الجمال و الأحلام، و مَهْد الأساطير العجيبة و الحكايات الشعبية، و الغناء، و الفنون، وغَنْم "السّاعات الهَنِيَّة" و"النزاهات" في البساتين والرِّيَاض والقصُورعلى هضبة الأبْيَار وفي جِنَان مُصْطَفَى بَاشَا والجنان الأخضر المطلة على خليج المدينة أو بِدار عبد اللطيف بفَحْص الحَامَّة... وهي كذلك تلك الأرض التي كانت أرضَ كلّ الفُرَص؛ تَحْتَضِنُ كلّ مَن عَبَسَتْ في وجْهِهِ الحياة في جِنْوَة و البُندُقِية وتوسكانيا بإيطاليا وفي مرسيليا وكُورْسِيكَا بفرنسا كما في إسبانيا وألمانيا وبريطانيا والسويد وحتى مَن لم يجد لنفسه مكانا تحت أشعة الشمس في اليونان وبلغاريا وأرمينيا وجورجيا وروسيا وغيرها من البلدان الأوربية والآسيوية.
بِرِفْقٍ وحنان، كانت مدينة سيدي عبد الرحمن تعرف كيف تمسح الحزنَ الجاثم على جبينِ وتقاسيم كل هؤلاء وتُعيد لهم الابتسامةَ المفقودةَ والأمل في غد أفضل.
قصبة الجزائر هي كذلك تلك الاستعراضات العسكرية الزَّاهِيَة تحت أنغام الزُّرْنَة والطُّبُول التركية في فَحْصِ بابْ عَزّونْ التي كان يرعاها الباشوات والدايات، وهي الألعاب البهلوانية خارج أسوار المدينة في الرِّحَابِ والأسواقِ في مختلف الأعياد والمناسبات، و"الدَّرْدبَة" الزِّنْجِيَّة التي كان يُحْيِيهَا زُنُوجُ المدينة، أحرارُها وعَبيدُها، قُرْبَ سُور بابْ الوَادي و حَوْمة قَاْع السُّورْ، تحت أنظار السُّكان المبتهجين الملتَفّين حولهم في إعجاب؛ بالضبط كما كُنَّا نفعل في طفولتنا في نفس أزِقَّة هذه المدينة العتيقة حَوْلَ ما كان يُعْرَف بـ: "بَابَا سَالَمْ" أو "بُوسَعْدِيَّة" كما يُسَمَّى في شرق البلاد.
قصبة الجزائر هي أيام وليالي "النِّزَاهَة" التي كانت تَجمَع، مثلما كانت تفعل في الأندلس، حول الرَّبَابَات والكَمَنْجَات والعِيدَان والطَّرْ والقْوِيطْرَات وغيرها من الآلات الموسيقية أَجْمَلَ ما كان يَتَدفَّق من أصواتٍ مِنْ حَناجر خَيْرَةِ مُطربِي المدينة على أنغامِ خليطٍ موسيقيٍّ جزائري – غَرْنَاطِي – قُرْطُبِي – بَلَنْسِي في غاية الرِّقَّة و الإبْدَاع حول أكواب الشاي وفناجين القهوة وأطباق المقروض والبَاقْلاَوَة و"التشَارَاكْ" و"الدْزِيرِيَّاتْ" و"القْنِيدْلاَتْ"... وما أدراك ما"القنيدلات"...!
هذه المدينة هي أيضا أرضُ "البُوقَالاَتْ" التي كانت تُنظمها النساء في سهرات رمضان في أفنية الدِّيَارِ والقُصُورِ كما في اللقاءات والمجالس النسوية المُنْتَظِمَة في الحَمَّامَات. نساءٌ جَعَلْنَ أيضا مِنْ المقابر فضَاءً روحِياً حميمياً رومانسيا تلتقي فيه الموتُ بالحياةِ والدُّنيَا بِالآخِرَة وَنغم تِلاوة القرآن بنحيب

الباكيات. في هذه الجبّانات، كن يقضين الساعات بين عبير الورود والأزهار ورائحةِ احتراقِ القلُوبِ لِفُقْدَانِ الأَحِبَّة ورحيل الأعزاء والعزيزات. وفي أجواء الموت تلك، لم تكن تغيب الحياة حيث تُروِّح النسوة عن أنفسهن تحت سماء بهيجة بزَقْزَقَةِ العصافير وخَرِيرِ قطرات المياه المُنْسَكِبَة على أياديهن على فتحات القبور المُورِقَة و المُزْهِرَة بالياسمين والسوسان تحت الظلال الوارفة للدوالي و الصَّبَّار ومختلف الأشجار... إنهن نفس النسوة اللواتي كُنَّ يَمْلأن الأضرحة الساكنة، الصامتة، الجميلة، الكثيرة العدد في مدينة سيدي عبد الرحمن حياةً وجمالاً؛ من سيدي ابراهيم الغُبْرِينِي وسيدي الكَتَّانِي، أقربهم إلى ساحل البحر، إلى سيدي عبد القادر القريب من ساحل تافورة وسيدي يَحْيَ بِحَيْدَرَة وسيدي أبو النُّور وسيدي مَجْبَرْ على مرتفعات بوزريعة...

وقد وَرَثْنَا إلى اليوم الكثير من هذه العادات والطقوس وإن أضفنا لها أو حذفنا منها ما لم يعد يناسبنا..مثلما حذفنا تلك الزيارات التي تشبه الطقوس التي كنا نقوم بها ونحن أطفال إلى العيون العمومية التي ورثناها عن أجدادنا، وتحمل بصمات قايد العيون المْعَلَّم موسى الثغري الأندلسي، في شارع الباب الجديد، أي "بُورْتْ نَافْ" (Porte neuve)، وفي عين الشَّارع" بـ: "الزوج عْيون" وفي بئر الجَبَّاحْ في "الجْبل"، أو قرب قهوة العريش للاغتسال بعد مبارياتنا في كرة القدم أو بعد الانتهاء من ألعاب "تْشْيلَة" (« Tu es là ? ») أو "تْشِيلَة فُونْتُومَاكْسْ" وما شابههما...

قصبة الجزائر هي كذلك المقاهي التي فاق عددُها السّتين مقهًى شعبيًا والتي كانت مراكز ثقافية، بكل مايحمله هذا التشبيه من معانٍ، نابِضةً بالحَياة طيلة أكثر من ثلاثةِ قُرون حتى جاء الاستعمارُ لِيُهَدِّمَ أغلبَها وأهمَّها التي كانت متمركزةً في ما يُعرَف اليوم بـ: ساحةِ الشهداءِ.

هذه القصبة هي أيضا الكتاتيب، والمدارس، والمساجد، والجوامع، والمؤسسات الوقفية، والأسواق، والسويقات، والحوانيت التي بقي منها ما يُعرف حاليا بـ: "حْوَانِيتْ سيدي عبد الله" في أعَالِي المدينة. وهي أيضا الأزقة المُلْتَوِيَة الضيِّقة والسَّاباطات، و والديار والدويرات والقصور والسطوح والمرسى الذي وضع أسسه خير الدين بن يعقوب الشهير بـ: بربروس، وكذلك البحر الأزرق الأزلي الحضور الشاهد الذي لا ينطق أبدا ويكتفي منذ بداية الكون بالنظر إلى هذه البقعة من الأرض في تأملٍ عميقٍ عن إيمانٍ بأن الصمتَ حِكمةٌ...

و في الأخير القصبة هي كذلك الثكنات، التي كنا نسميها في العهد العثماني القشْلات، والأسوار، والأبراج، والقلاع، والحصون، والممرات السرية تحت الأرض والأنفاق والخنادق، بالإضافة إلى الأسوار والستارات التي انبثقتْ منها تسمية حومة بأكملها ما زات موجودة إلى اليوم على الطرف الجنوبي الغربي للمدينة العتيقة: السُّور والسّتارة أو سور السّتارة قبل أن تصبح "سُوسْطَارَة" بعد التحريف...
القصبة هي كل هذه المعالم والمحطات والعادات والتي من قلب كل حجرة منها وعادة يتدفق التاريخ سيولاً وأنهارًا من الوقائع والذكريات والقصص والحكايات والأعاجيب والتي من أجلها جميعا ومن أجل نُبقيها حاضرة في الخواطر والأذهان وَضَعْنَا هذا الكتاب، وحافزنا الوحيد من وراء ذلك هو نفس الحافز الذي يُعِين القصبة منذ قرون وحتى الآن على الصمود والاستمرر في الوجود وهو ترسيخ القِيَم التي قامت على أُسسها المدينة وأهلها وتواصلها ما بين الأجيال.
لكننا نحلم أيضا، ودون أوهام، بأن نطيل عمر هذه المدينة/الحصن المحتضرة، بسبب الإهمال الذي لا يبدو بريئا، بعد أن كانت من أجمل وأعذب وأطيب مدن البحر الأبيض المتوسط والعالم للعيش، على الأقل في أعماق القلوب والشَّرايين لعل بعضها يتحرك لاستدراك ما يمكن استدراكه، وشعارنا هو نفس شعار الأجداد والجدات والآباء والأمهات في هذه المدينة منذ قرون: "الجْدِيدْ حَبُّه والقْدِيمْ لاَ تْفَرَّطْ فِيهْ"، مثلما لم يُفرِّط مع التمسُّك بالتجديد كل من خير الدين وعروج وحسان آغا والعلج علي وصالح رايس والرايس مامي والرايس حمّيدو بن علي وصالح باي والباي أحمد وسيدي محمد بن الشاهد وستّنا مريم والأميرة نفيسة وخداوج العمياء وسيدي ابن عمَّار وابن المفتي وابن حمادوش وابن العنابي الذين صنعوا جميعا الماضي ويُعوِّلون علينا لتعزيز أسس الحاضر والمستقبل...فلا للتفريط في الجذور في لحظة افتتان بالفروع، لأن إذا قُطِعتْ الجذور انقطعت شرايين الحياة ويبست الفروع...

باريس: جانفي 2007

الفصل الأول:

قصبة الجزائر...
المرسى، بيوت الله والّرجال

مْدينَة الحْضَرْ العَذْراء الجزايَرْ   مَكْمُـــولَــــةْ البْــهَـــاء زينـــــة البُلْــدانْ
سَلَّمْتْ عْليها وَعْيُونِـي تَتْقَاطَرْ   ونْقُولْ جِيتْ عَنْدَكْ عَاشَـقْ سَرْحانْ

عَمْــرو الزَّاهـــي

مرســى الجزائــر.. الجــزر التي صنعت العاصمــة

الرَّايَـسْ نَــاجَــــــمْ   حَقّْ بَالرَّمْلِيَة بُوسْطَة
وْكـَـارْطَه
في قَلْبْ القَامْرَة مْقَيَّدْ يَدْري الأوْقاتْ
الكُــــــورْ تْكَلَّــــمْ   فَعْفَعْ في المْدَايَنْ الَجْبَالْ وَالْوْطَا
خْرَبْ مْدينَة مَالْطَا بَالقَهْرْ تْوَاطَـاتْ

الـهاشمـي قروابـي

ذاكرةُ النسيان جَعلتْهُ في أعْينِ الناس مُجرَّدَ كُتلةٍ من الإسمنت المسلح العائم على سطح البحر..، لكن ماضيه يشهد بأنه صَنَعَ من قرية منسية على الضفة الجنوبية من البحر المتوسط عاصمة كبيرة للجزائريين، للعرب، للمسلمين و للعالم.

لا يعرفه أهل البهجة إلا بتسمية "الموَلْ" الفرنسية، أما الأميرالية فما هي سوى اللفظة المُعرَّبة لـ:"لاميروتي" (**L'Amirauté**) التي أطلقها عليه الاستعمار الفرنسي لأنه كان يحتضن مقر إمارة البحر منذ عهد خير الدين بربروس.
احتضن المرسى القديم لمدينة الجزائر الذي شهد تعاقب 101 دايـا وباشا على حكم البلاد في العهد العثماني، وخمس جمهوريات فرنسية في عهد الاحتلال وسبعة رؤساء في عهد الجزائر المستقلة، أحداثا كبيرة صنعت تاريخ الحوض الغربي للمتوسط طوال قرون. لم يعد هذا المرسىَ اليوم في نظر أهل المدينة سوى قاعدة بحرية للجيش الوطني الشعبي ومتحفا لذكريات العوْم واصطياد "الكَحْلة" على أنغام الحاج مْحَمَّد العنقاء و عَمْرو الزاهي في السبعينات وبداية الثمانينات، التي كانت تجمع "أولاد الحومة" من مختلف الأحياء الشعبية العاصمية المطلة على البحر.
وبالنسبة لأتباع مذهب أبي نواس في المجون، يُعتبر المرسى العتيق "مَحْشاشة" في الهواء الطلق بعيدة عن أنظار الرقيب، سَخَّرَتْهَا الطبيعةُ لِتَعَاطِي "الرُّوجْ" بالزيتون "كاسي" و"الكاشيرْ" و سمك "الأَنْشْوا" وسط صمت رومانسي لا يقطعه سوى تلاطم الأمواج على الصخور وعذوبة أوتار القيثارة الإسبانية أو "المنْدولْ" العَنْقَاوِيّ. "الزَّمْبْريطو"، الذي وَحَّد بين الكحول و"غازوزْ" حمود بوعلام، له أيضا حكايات وأساطير حميمية وتاريخ مَسَحَ من الذاكرة ملحمة هذا المرسى الجليل الذي سيبلغ عمره في شهر ماي القادم 478 عاما.

البداية من صخرة "السّطُفْلَة"

تعاقبتْ أممٌ كثيرةٌ على مدينة الجزائر في القديم؛ فينيقيون، يونانيون، رومان، بيزنطيون، وندال، وعرب مسلمون استقروا فيها إلى اليوم بعد أن انصهروا مع البربر. لذا أُطْلِقتْ عليها أسماءٌ عديدة انتقلتْ من إيكوسيسْ وإيكوسْيومْ إلى جزائر الغرب، ثم جزائر بني مزغنة والمحروسة ودار الجهاد والبهجة وحتى "اسطمبول الصغيرة" قبل أن تستقر عند تسمية: الجزائر. إلى غاية سنة 1510م لم يجد هؤلاء على ساحل هذه المدينة التي كانت صغيرة لم تُفطم بعد سوى خليج محمي طبيعيا من العواصف الخطيرة والتيارات القوية، وثلاث جزر تتوسطها أضْخَمُهَا وهي صخرة "السّطفلة" التي ذكرها الرحالة البكري في "الَمسَالِك والمَمَالِك"، وينبوع ماء زُلالٍ على الساحل المقابل لهذه الجزر ارْتَوَتْ منه أجيال من البحارة المتوسطيين، ولم يستطع ابن حوقل تجاهله أثناء تأليفه لكتابه الشهير.

أهَّلتْ هذه الميزة الطبيعية شاطئ هذه المدينة العريقة لأن يكون مرفأً طبيعيًا تَرْسُو به السفنُ التجارية التابعة للأمم المتوسطية لتحتميَ به من هَوْلِ العَواصفِ في انتظار تعبئة أَقْبِيَتِهِ بالزيت والتِّين الجاف (الكَرْمُوسْ) والزبد والعسل المحليين.

في نهاية القرن 15م، لجأ عدد كبير من الأندلسيين هروبا من القمع والإبادة ومحاكم التفتيش الإسبانيين ألى جزائر بني مزغنة، فبنوا بها الجامع الكبير، بشارع البحرية حاليا، وبنوا أيضا على صخرة السطفلة برجا عاليا لمراقبة حركة السفن عن بعد، والاحتياط من هجمات ومُلاحقات الإسبان. لكن سرعان ما استولى القائد الإسباني بيدْرُو نافارو(**P. Navaro**) على هذا البرج في يوم 31 ماي 1510م وبنى مكانَه في نفسِ العَام ما سيشتهرُ عند المؤرخين باسم: حِصن البنيون (**Peñon**) ؛ أي صخرة السّطُفْلة الكبيرة بِلُغةِ سيرْفَانْتيسْ. وانطلاقا منه سوف يُسَيْطر على بني مزغنة طيلة 19 سنة كاملة.

فما كان أمام أهل المدينة من حيلة سوى الصبر إزاء هذا الاعتداء حتى يوم 27 ماي 1529م ليأتي الخلاص على يد "يَعْقُوبْ أُوغْلُو خِذْرْ" الشهير بـ: خير الدين بربروس حسب الاسم الشرفي الذي أعطاه إياه الخليفة العثماني سليمان القانوني.

حطم خير الدين الحصن بعد معركة شرسة وأسر 120 عسكريا إسبانيا أو حتى 500 حسب مصادر أخرى. وقد كانت خطة هذا التحرير مخابراتية بحيث اخترق خير الدين الحصن بواسطة جاسوسيْن من أهل المدينة، حسبما ذكر هو نفسه في مذكراته التي أملاها على كاتب وصديق له في الباب العالي واشتهرت فيما بعد بـ:"غزوات خير الدين وعروج". سلَّمَ الجاسوسان نفسيهما للقائد مارْتانْ دِي فارْغاسْ بالحصن طالبين اللجوء السياسي وتظاهرا باعتناق المسيحية على يديه. في نفس الوقت، جَهَّزَ خير الدين جيشه وبقي ينتظر منهما إشارة الاقتحام مُعْتَكِفًا بالصَّلاة والصّيام كغيره من أغلبية سكان المدينة الصغيرة. وجاءتْ الإشارةُ في يومِ جُمعة من شهر ماي في الصباح الباكر من فوق أسوار الحصن أثناء انشغال الإسبان بالصلاة في الكنيسة. ودامتْ محاولة الاقتحام بالسلالم طيلة أسبوع كامل تحت غطاء مدفعي كثيف، ولم تتكلل بالنجاح إلا بعد إحداث ثغرة في أسوار الحصن. فاتورةُ التحرير لم تكن بسيطة: عشرات الضحايا، مئات الجرحى، إصابة عدد من مباني المدينة بالقذائف الإسبانية كالجامع الكبير الذي تحطمت

مِئذَنَتُه، بالإضافة إلى إعدامِ الجاسوسيْن من طرف مارْتان دي فارْغاسْ (**Martin de Vargas**) بعد انكشاف أَمْرِهما. حَدَثَ ذلك قبْل 478 سنة...

أما الأسرى وعلى رأسهم القائد دي فارغاس فقد فرض عليهم خير الدين مهمتين كبيرتين، يساعدهم على إنجازها الأسرى المسيحيين بالمدينة: تتمثل الأولى في ترميم الأبراج والحصون التي حطموها أثناء قصفهم للمدينة وإصلاح الأضرار العمرانية التي خَلَّفَهَا القصفُ الإسبانيُّ، أما الثانية وهي الأهمّ فتَكْمُنُ في ربطِ الجزرِ الثلاثةِ ببعضها البعض لتصبح كتلةً واحدةً بواسطةِ أحجار حصن البنيون، قبل إيصالها بالمدينة بجسرٍ من الصخور وبقايا أطلال مدينة تَامَنْفُوسْتْ الرومانية وأحجار محجرة باب الوادي. وكان خير الدين عند تفقده لسير العمل دائم الترديد على مسامع الأسرى الإسبان بِتَهَكُّم: "لقد حَطمْتُمْ مدينتنا بمدافعكم فأعيدوا بناءَها الآن كما وَجَدْتُمُوهَا".

هكذا، إذن، وُلدَ مرسى الجزائر القديم في عهده الأول، وسوف يشتهر باسم مُؤَسِّسِهِ حتى اليوم؛ أي رصيف خير الدين... خير الدين الذي كادت ملحمته هو وإخوانه عروج وإسحاق وإلياس أن تُصبح بعد 431 سنة فيلماً يؤدي الأدوار فيه أبرز نجوم هوليوود في بداية الستينات لولا أن بن بلة الذي عُوِّل عليه لتمويل الإنتاج تَمَّتْ الإطاحة بِه قبْل أن يَنطلق المشروع.

المدينة تتنفس من مينائها

لكن هَبَّتْ عاصفة قوية في نفس العام على المدينة وكشفت نقائص هذا البناء الجديد في حماية السفن الراسية به من الرياح القوية الآتية من الشمال، أي من جهة باب الوادي و الرايس حميدو، لذلك تكفل صالح رايس، أحد كبار أميرالات الجزائر وحكامها، بمجرد وصوله إلى قمة السلطة، بتطويره وتدعيمه بأرضية من 200 مترا طولا و25 مترا عرضا و4 أمتار ارتفاعا في سنة 1556م ليواصل توسيعه وتدعيمه برصيف "الصِّحة" (**Quai de la Santé**)، الذي لا يزال قائما إلى يومنا هذا، كل من الباشا أحمد أَعْرَاب في سنة 1573م وبَابَا علي النَّقْسِيسْ في 1574م.

ومنذ هذه الفترة، أصبحتْ مدينة سيدي عبد الرحمن قطبا بحريا أساسيا في الحوض الغربي للمتوسط سوف يغيّر مرساها الجديد مصيرها ويرسم لها مستقبلا أهم بكثير من ماضيها، لم يتصوره أبدا مؤسسها الرئيسي بولوغين بن زيري الصنهاجي في القرن 10م. وبهذا الإنجاز التاريخي أصبح للمدينة ميناءٌ حقيقيّ وأصبح للجزائريين عاصمة تُسمى إلى يومنا هذا الجزائر نسبة إلى الجزائر أو الجزر التي بُني عليها المرسى .

الأميرالية التي نشاهدها اليوم جاثمة على أديم البحر في صمت حكيم، فقدت أغلب معالمها القديمة ولم تبق منها سوى باب برج الفنار ومقر قائد البحرية (وكيل الحَرج) الذي بناه الداي حسين وسَكَنَهُ لفترة محدودة قبل الغزوالفرنسي في 1830م بالإضافة إلى ضريح سيدي ابراهيم الغبريني السلامي البغدادي. أما صمتها فهو صمت الوقار الذي صَنَعَتْهُ تجربةُ قرونٍ من الحيوية التجارية – العسكرية .

تَدَعَّمَ المرسى القديم بعد فشل حملة شارل الخامس على المدينة في 1541م بتحصينات دفاعية تتمثل في الأسوار والأبراج وبطاريات المدافع المقدرة بالمئات وعلى رأسها

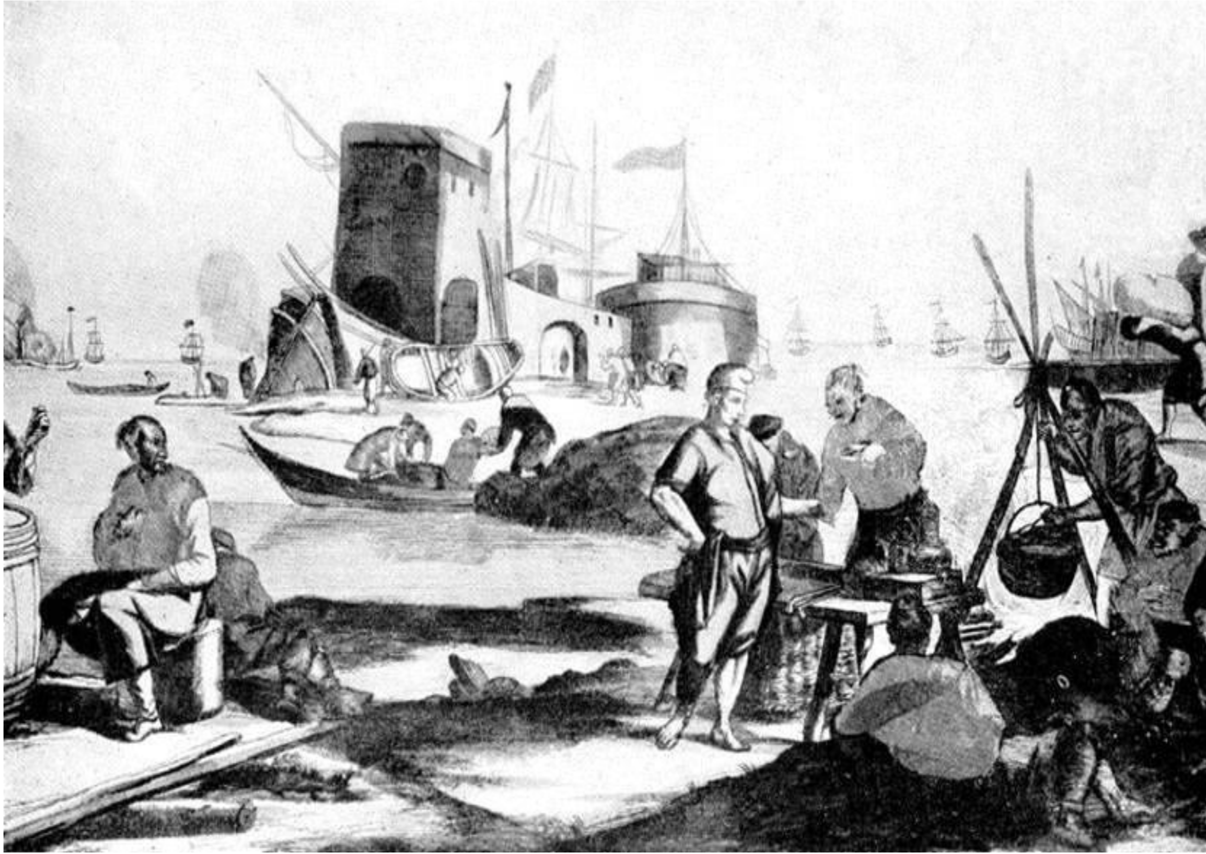
مدفع "بابا مَرْزوقْ" والمدفع ذو الفوهات السبع، بالإضافة إلى ورشة لصناعة السفن ومخازن للحبال والعتاد البحري في الأنفاق الواقعة تحت ساحة الشهداء (أنفاق مالاكوفْ حاليا).
كما بنى الجزائريون بابا ضخما يفصل بين المدينة والمرسى سُمّي بِعِدَّةِ أسْماءٍ؛ باب البحر وباب الجهاد وباب الجزيرة (باب دْزِيرَة)، قبل أن تُهدمه فرنسا لأسبابٍ عمرانية بعد الاحتلال.
بلغ هذا الميناء من التطور ما جعله يستوعب 40 سفينة كبيرة مرة واحدة دفعت مسؤوليه إلى التفكير في طريقة لغلقه ليلا لحمايتها، فاهتدوا إلى غلقه بسلسلة حديدية طويلة وضخمة تربط بين أقصى نقطة منه ورصيف "الصّحة" أسفل الجامع الجديد. ثم تُغلق "باب دْزيرَة" أيضا وتُسَلَّمُ المفاتيح إلى "قايَدْ البابْ" كغيرها من مفاتيح الأبواب الأخرى للمدينة. ويسهر جيشٌ من الحُرَّاسِ طِوَال الليل على حراسته وسلامته. حراسةٌ أكثر من ضرورية كانت تُبَرِّرُهَا بعضُ عمليات الكُومَانْدُو الأوربية لاختراق المرسى ليلاً و إضرام النار في أسطوله و تخريبه في إطار عمليات غايتها احتلال المدينة باءت جميعها بالفشل. وسوف يشهد المرسى حسب الحاجة والضرورة الدفاعية - التجارية ترميمات وعمليات توسيع وإعادات تَهْيِأة لمواجهة التحديات مثلما حدث بعد الحملة الفرنسية بقيادة فرانسوا دوكان في 1683م والحملة البريطانية الضخمة التي قادها اللورد إيكْسْموثْ سنة 1816م وغيرها من الحملات العدوانية... لكن هذا المرسى العتيق لم تقتصر حياته على تلقي ضربات الأعداء، بل ربما ضَرَب أكثر مما ضُرِب. فقد كانت السفن تخرج من حوضه غازية مُحمَّلة فقط ب:"البَشْمَاطْ"؛ أي الخبز الجاف، و"الخْليعْ"، والزيتون، وزيت الزيتون، والتين الجاف، ورجال من خيرة البحرية العالمية في ذلك الوقت يرأسهم قادة من حجم خيرالدين بربروس وأخوه بابا عروج، وصالح رايس، ومامي غرناوط، والعلج علي، ومراد رايس الذي وهو في الستينات من عمره كان لا يزال يجوب البحار والمحيطات مثيرا نفس الرعب والهلع في نفوس الأعداء الذي كان يُثيره و هو في شبابه، ثم علي بتشين، والرايس الحاج موسى، الرايس الحاج مبارك، والرايس حميدو...
كانت سفنهم تُودِّع المرسى بعد تحية سيدي عبد الرحمن ثم سيدي "بَتْقَة" (أبو التُّقَى) بطلقات مدفعية لترجع معبأة بانتصارات خيالية لم يكن يقدر عليها غيرهم. وقد كتب عنهم الدبلوماسي المغربي التَّمَغْروتي (توفي في 1593م-1594م) في "النَّفْحَة المِسْكِيَة.." بأن هؤلاء الرجال كانوا أكفأ بكثير حتى من رِيَّاس اسطمبول وأكثر إثارة للخوف في نفوس الأعداء من غيرهم من بَحَّارة امبراطوريةِ آلْ عُثْمَان...

انفجار برج الفْنَارْ

في 1830م، عندما سقطت مدينة الجزائر في يد الاستعمار، قاوم هذا المرسى بمدفعيته وبطارياته مقاومةً شرسةً، والله شاهد على ذلك، لكن الأمور تَجاوَزَتْهُ في هذه المرة لأن العاصمة الجزائرية لم تُهاجم من البحر كما جرت العادة طيلة ثلاثة قرون وإنما اختار الجنرال دوبورمونت دخولها من اليابسة، وبالضبط من جبل بوزريعة، التي كانت تُشكل نقطة ضعفها الدفاعية.

سَقطتْ المدينةُ، ونُفيتْ أغلبية إطاراتها العسكرية "التُّركية" والمحلية وجزء هام من نخبة البلاد إلى المشرق وإسطمبول وتونس، بمن فيهم الداي حسين وأهله وأقاربه المقدر عددهم بـ: 110 شخصا، وخُرب النسيج العمراني...، لكن المرسى بقوته وحساسيته جعل المحتلون لا يفكرون في تخريبه أو تهديمه بل زادوا في توسيعه وتجهيزه كي يستفيدوا من خدماته الاستراتيجية.
لكنه لم يغفر لهم جريمة اعتدائهم على البلاد وسوف يكبدهم في آخر ثورة له خسائر مادية وبشرية هائلة قُدرت بحوالي مائة عسكري فرنسي، وذلك أثناء الانفجار الرهيب الذي حدث داخل مخزن سري يحتوي على أطنان من البارود في برج الفنار لم يكتشفه الفرنسيون إلا في إحدى ليالي 1845م. وقَدْ حَوَّلَتْ النيران المتطايرة حواليه على سفح المدينة الليل نهاراً...!
اعتبر الأهالي هذا الانفجار لعنة إلهية ضد المحتلين على تدنيسهم للمقدسات الإسلامية وتحويلها إلى إسطبلات وفنادق ومخازن للجيش وتهديم العديد منها مثلما حدث لمسجد الحُوَّاتين الذي كان يقع على مقربة من رصيف الصحة، بموقع السَمَّاكة الحالي أسفل الجامع الجديد، وجامع السيدة الذي كان أكبر وأجمل مساجد مدينة الجزائر آنذاك، وجامع ميزومورتو، وغيرها.
وفي نهايات القرن الماضي اكتشفت السلطات الاحتلالية على مرمى حجر جنوب المرسى العتيق صخرة كبيرة تحت سطح البحر تُعرف بـ: "الجَفْنَـة" ومجموعة من الصخور المتوسطة القادرة على تحمل ثقل رصيف جديد، فانطلقت في أشغال طويلة النَّفَس انتهت إلى إنجاز الميناء الحديث بالشكل الذي نعرفه الآن. وسوف يتكفل هذا الأخير بالتجارة والاقتصاد ويترك المرفأ القديم للتسلية والسياحة ليستريح من تعب وعناء القرون الماضية تحت رعاية وبركة ولي البحار ودفين المرسى سيدي ابراهيم الغبريني السلامي البغدادي، ويصبح رمزا لمسار المدينة وفضاءً للحنين، وحتى محشاشَة للحشّاشين قبل أن يسترجع دوره العسكري منذ أواسط الثمانينيات.
على كل، أصبحت قرية بني مزغنة في ظرف فترة قصيرة، بفضل هذا المرسى الذي أسسه خير الدين، أهم من مرسيليا ونابولي ورُومَا والبندقية...
لقد وجد بها الجنرال دوبورمونت في جويلية 1830م أكثر من 5000 قصرا و"دويرة"، 159 مسجدا، عشرات الكنائس المسيحية والبيع اليهودية، حوالي 1000 مدفع، أكثر من 100 عَيْن عمومية، أكثر من 60 مقهى، عشرات الحرف من بينها حوالي 400 خباز، عشرات الأسواق المتعددة التخصصات، أكثر من 100000 ساكن إضافة إلى كنز عمومي قُدِّرَتْ قيمته بـ: 700 إلى 800 مليار فرنكا فرنسيا بالقيم الحالية ذهبت كلها تقريبا إلى خزائن الملك شارل العاشر...

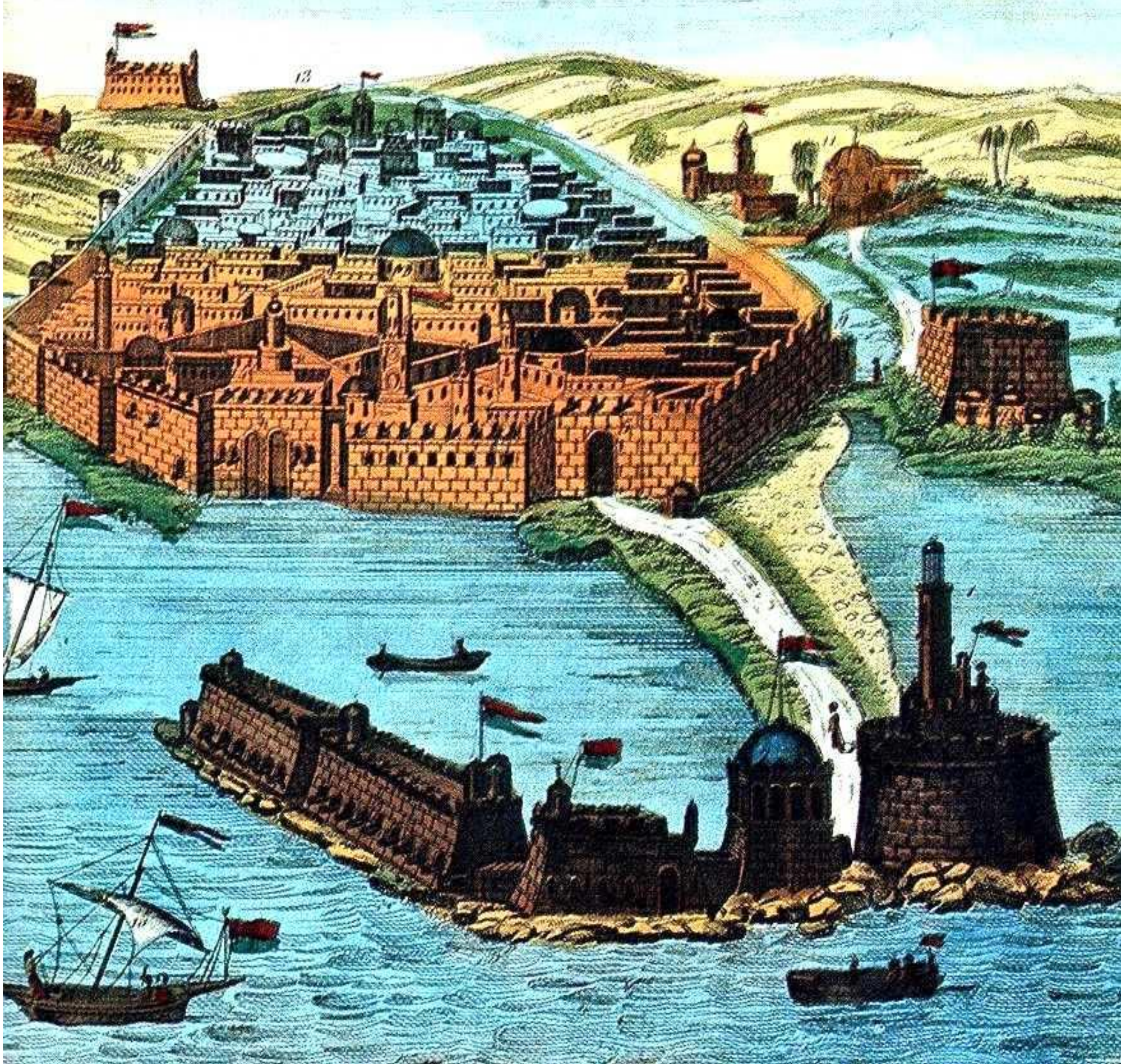
حصن البنيون الذي بناه المحتلون الإسبان فوق صخرة "السَّطُفْلَة". حينها، لم يكن يوجد رصيف خير الدين بربروس الذي يُوصِل هذه الصخرة باليابسة، الشاطئ، حيث كان العبور إليها يتم بالمراكب كما يظهر على الصورة.





Vue du Penon d'Alger " en Barbarie " durant l'occupation espagnole, d'après une vieille gravure. (Collection du Dr Raynaud). A remarquer les deux tours constituant l'ouvrage.

الجزر الثلاث التي بنى فوقها خير الدين بربروس أول مرسى وبرج الفنار في المدينة وأوصلها باليابسة بواسطة الرصيف الذي يحمل اسمه إلى اليوم: رصيف خير الدين.



عروج بن يعقوب...استنجد به الجزائريون وأغاثهم في مسعى غَيَّر جيوسيًا قَدَر الجزائر ومستقبل الجهة الغربية من البحر الأبيض المتوسط وعزَّز أيضًا نفوذ الدولة العثمانية في هذه المنطقة من العالم.



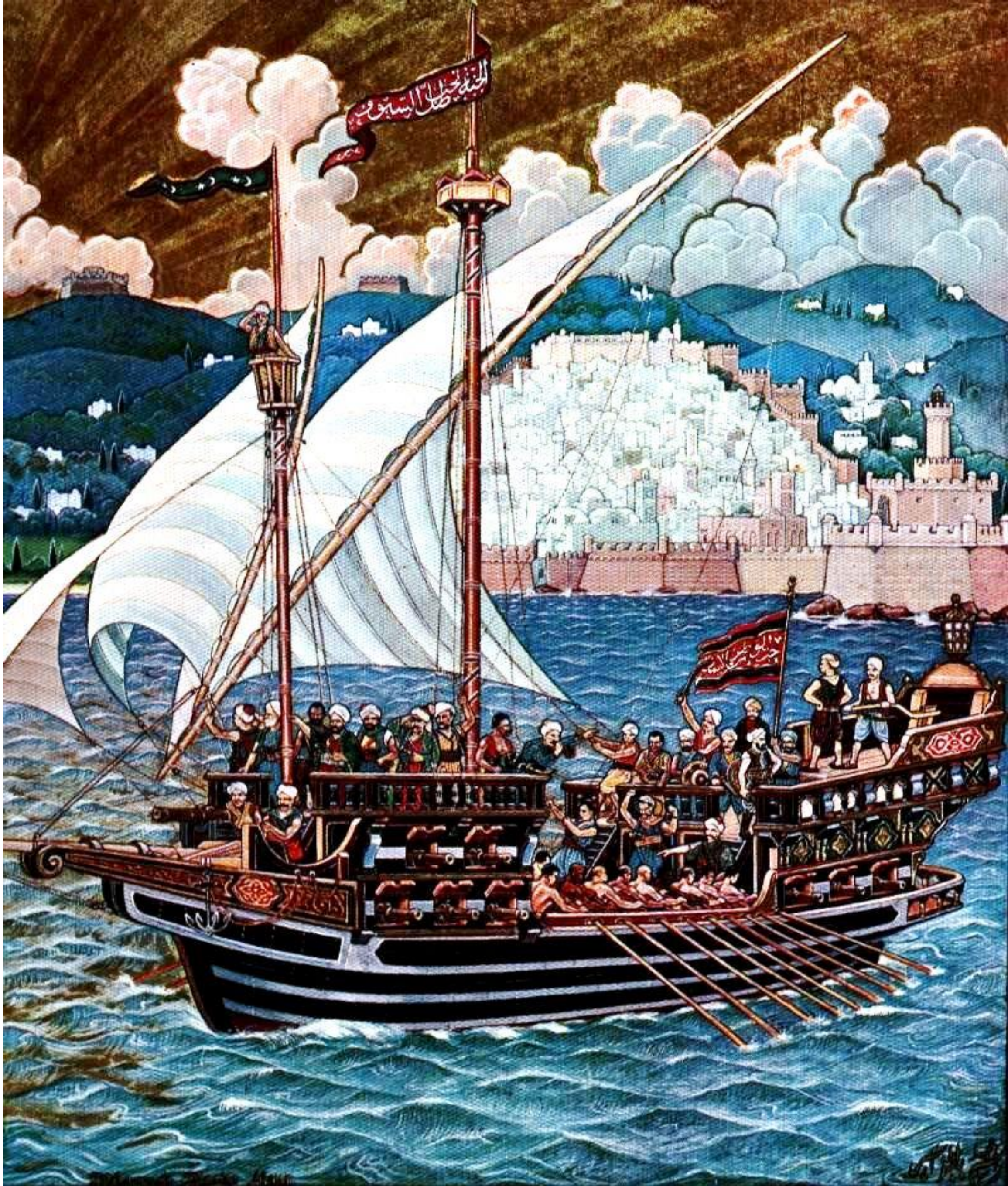
خير الدين بربروس بن يعقوب شقيق عروج وخليفته بعد استشهاده في تلمسان في معركة غير متكافئة ضد القوات الإسبانية



سِنان باشا، الرفيق الوفيّ لِعروج وخير الدين، وأحد كبار أبطال بداية عهد التحالف الجيوسياسي الجزائري-العثماني في بداية القرن 16م.



القوات البحرية الجزائرية – العثمانية قبالة مدينة الجزائر العتيقة، "القصبة"، محاطة بالأسوار والأبراج على غرار برج الفنار على اليمين في أسفل الصورة. اللوحة من منمنمات الفنان محمد راسم الجزائري.



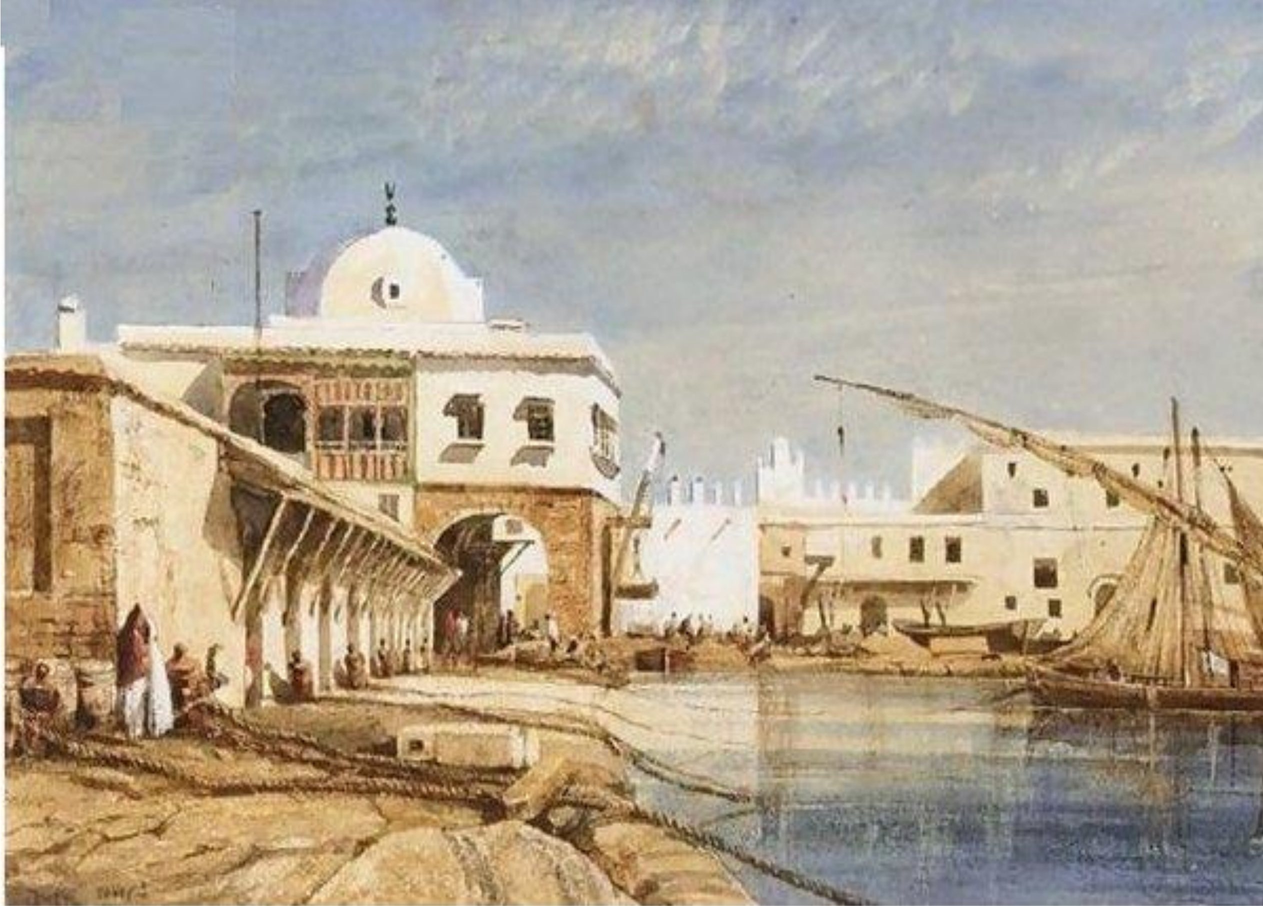
"أميرالية الجزائر"، مقر قائد القوات البحرية الجزائرية في العهد العثماني، أو أمير البحر، في لوحة للفنان الفرنسي ألفونس بيرْك (Alphonse Birck) (1859-1942).



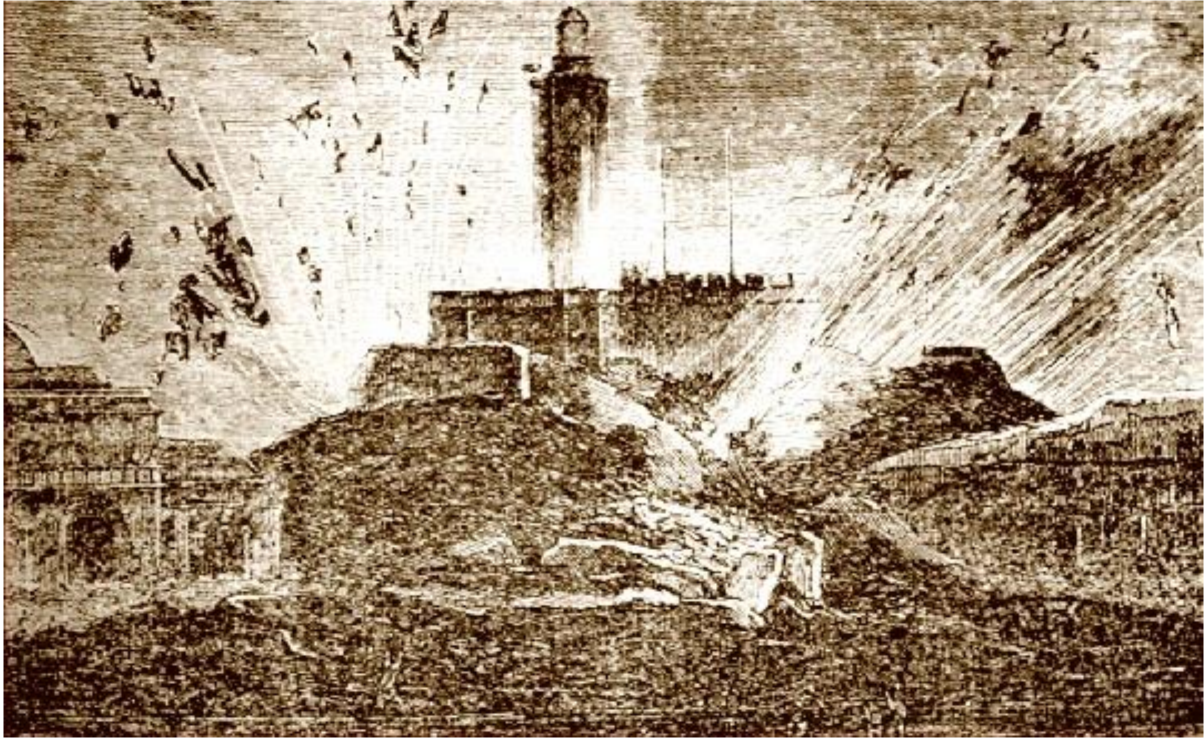
برج الفنار متوسطا اللوحة، وبرج "رَاسْ المُولْ" على اليمين حيث القوارب ببابه الواسع مستمدا اسمه من كونه أقصى نقطة في المرسى التاريخي الجزائري – العثماني. المدفعان المغروسان مقلوبيْن عند الباب دليل أن اللوحة رُسِمتْ بعد الاحتلال.



على الرصيف داخل ميناء الجزائر العثماني حيث مقر أمير البحر، أو الأميرالية، وهي البناية المُقبَّبة على اليسار، وضريح سيدي إبراهيم الذي بناه خير الدين بربروس داخل المرسى على يمين الصورة خَلْف الزورق الشراعي. لاحظ، هنا أيضا على اليسار، المدافع المغروسة في الأرض من جهة فوهتها في عملية رمزية قامت بها القوات الاستعمارية بعد احتلالها الجزائر.



صورة للحظة انفجار برج الفنار بما فيه من بارود وذخيرة سنة 1845م



الخراب الذي أحدثه الانفجار في محيط المرسى.



لوحة للرسام الفرنسي إيتيان شوفاليي (Etienne Chevalier) (1910-1982): "أميرالية مدينة الجزائر، منظر من سكْوَارْ بْرُوسُونْ (Square Bresson) في العهد الاستعماري" ساحة بور سعيد حاليا.



مقطع من ميناء الجزائر العثماني والبنايات الحديثة التي أُضيفت له مع خليج المدينة وساحل الحراش في الخلف.اللوحة للفنان ألْبيرْ مارْكِي (Albert Marquet).



المرسى التاريخي وبرج الفنار في منتصف سبعينيات القرن 20م بعد مرور نحو 5 قرون على بنائه من طرف خير الدين بربروس.



منظران جَوِّيان للمرسى التاريخي وجزره الثلاث ومدينة الجزائر العثمانية خلفه بشكلها الشبيه بمثلث





صُورتان حديثتان للجزر التي بُني عليها المرسى ورصيف خير الدين خلال بداية الحقبة العثمانية من تاريخ الجزائر. فوق أكبر الجزر الثلاث بُني برج الفنار الذي ما زال موجودا إلى اليوم كما يظهر في الصورة.





خمسة أبواب لثلاثة قرون: أبــوابٌ صنـعتْ التَّــاريـخ

"أَمِنْ صُولة الأعداء سُور الجزائر   سرى فيكَ رعبٌ أمْ ركنْتَ إلى الأسْرِ"

المفتي الشاعر محمد بن الشاهد

لايمكن لأي زائر لمدينة الجزائر أن لا يسمع بأحياء عريقة وشهيرة تُنسب في تسميتها إلى الأبواب، مثل باب الوادي، باب عزون وباب الجديد... لكن، قليلون هم الذين يُدركون سر هذا "التبويب"، الذي قد يبدو غريبا، لأهم أحياء مدينة الجهاد ورياس البحر...

تعود جذور هذا اللغز إلى أكثر من أربعة قرون عندما اتسعت مدينة بني مزغنة الصغيرة لتصبح عاصمة محاطة بالأسوار والخنادق والقلاع والأبراج منذ بدايات القرن 16م.
بعد سقوط حصن البنيون الذي بناه الإسبان في 1510م على صخرة "السَّطُفْلَة"، إحدى القواعد الأساسية لرصيف خيرالدين، الذي يشكل الجزء الرئيسي للمرسى القديم، في 27 ماي 1529م، شرع البيلرباي خير الدين بربروس في بناء ما سيُعرف بعد قرون وحتى اليوم بـ: قصبة الجزائر.
هذه المدينة القلعة، وَجدَتْ نفسها محاطة بعد توسعها في القرن 18م بـ: 2500 إلى 3000 متر من الأسوار المزدوجة، التي لم يتجرأ على اختراقها أحد قبل عام 1830م، بعرض يتراوح ما بين 11م و70م من جهة البحر وبعلو 11م إلى 13م، مدعمة بخنادق عرضها 11,5م إلى 14,5متر وذات عمق لا يقل عن 6 أمتار ولا يزيد عن 10 أمتار.
وعلى امتداد الأسوار، انتشرت المدافع المصوَّبة من 214 فتحة نحو مختلف الاتجاهات وكذلك الأبراج و16 حصنا زاد عددهم كلما ازدادت الاعتداءات الأجنبية على المدينة.
لكن هذه المدينة - القلعة ليست جزيرة، ولا يمكنها العيش منقطعة عن العالم الموجود خلف الأسوار حيث البساتين والأراضي الزراعية وعمق البلاد بقبائلها وأراضيها الشاسعة. لذلك حفرت في أسوارها خمسة أبواب كبرى كانت جسورَ وقنواتِ اتصالها مع العالم لخارجي: اثنان من جهة الشرق، وثالثة من جهة الغرب ورابعة في جنوب المدينة، وخامسة بشمالها. وقد بلغت هذه الأبواب الخمسة من الأهمية والشهرة ما جعل أسماءها تصمد عبر القرون حتى يومنا هذا رغم المصائب الكثيرة التي حلت بالبلاد ومسحت مساحات كثيرة من ذاكرتها. أما الأسوار و إن كانت تبدو مجرد أسوار، أي حجارة وطين ومواد بناء أخرى، فإن بناءها اقتضى جهدا متواصلا على مدى سنوات

طويلة من طرف بيلربايات الجزائر؛ من خيرالدين وابنه حسن آغا إلى صالح رايس وأحمد أعراب باشا والعلج علي... بمعنى أن الإنجاز تطلب حوالي 85 سنة بالتَّمَام.
تتمثل أبواب قصبة الجزائرعلى التوالي في: "باب دْزيرَة" (باب الجزيرة) والتي سُميت أيضا "باب الجهاد" أو "باب البحر"، و"باب الديوانة" التي كانت تُدعى في نفس الوقت "باب التَّرْسَانَة" أو"باب السَّرْدِينْ" شرقاً، ثم "الباب الجديد" جنوب غرب المدينة، و"باب عزون" جنوباً فـ: "باب الوادي" شمالاً.
وتذكُر بعض المصادر التاريخية وجود باب سيدي رمضان في حَوْمَة سيدي رمضان بأعلى المدينة خلال الحقبة الأولى من العهد العثماني تم إلغاؤها في وقتٍ مبكِّر، وأيضا باب القصبة، أيْ باب القلعة لأن القصبة أصلاً ليست المدينة وإنما القلعة التي نسميها اليوم "دار السلطان" ليس إلاَّ، وحتى هذه الباب خضعت لعدة تعديلات وتطورات عبْر الزمن قبل أن تختفي هي الأخرى. وبالتالي، فإن الأبواب الثابتة عبر تاريخ المدينة خلال العهد العثماني وحتى النصف الثاني من القرن 19م لا تتجاوز الأبواب الخمسة المذكورة.

باب عَزُّونْ

كانت باب عزون، المنسوبة إلى شهيد من أهل البلد اسمه عزون توفي على مقربة منها، إحدى أشهر أبواب القصبة، بحيث كانت القناة الرئيسية للمبادلات الاقتصادية - الاجتماعية مع بقية البلاد، ويبدو أنها قديمة قِدَم المدينة نفسها لأنها كانت موجودة على الأقل منذ سنة 1541م أثناء حملة شارلكان الصليبية على البلاد. وسجلت كتب التاريخ الجزائري والأوروبي- المتوسطي أن الفارس المسيحي الشهير آنذاك بونس دُو بْلاقِي (Ponce de Blaguer) المعروف بـ: سَافِينْيَاكْ (Savignac)، بعد فشل الحملة وانهزام الصليبية أمام كبرياء سور باب عزون، غرس خنجره بقوة في الباب وهو يصيح في الجزائريين الذين كانوا يراقبونه خلف الأسوار: "سنعـود...! "
خَلْف هذا الباب التاريخي الذي كبر مع المدينة وقاسمها ملاحمها كان يوجد نفقان، أيْ سَباطان كما يُقال في هذه المدينة، ومفرده سَبَاط، الأول قُدر طوله بـ:34 مترا ويقع مباشرة خلف الباب الخارجي، والثاني لم يتجاوز طوله 17 مترا ويؤدي مباشرة إلى داخل القصبة: أين كان يوجد مباشرة على يمين طرفه الداخل نحو المدينة شجرة الدُّلْب الضخمة العتيقة وقبة الولي الصالح سيدي منصور، الإسكافي الفقير الذي أعدمه السلطان ظلما. وتحكي الروايات الأسطورية أن رأس سيدي منصور الذي تمَّ قطعه بحدِّ السَّيف عُلِّق على أحد الأنياب الحديدية الحادة الشهيرة فوق باب عزون طيلة أيام. ومع ذلك نطق وهو ميتا في الليلة التي أعقبت إعدامه ليُحدث المعجزة، حسب الأسطورة، ويُصبح وليًّا مُقدَّسًا يزوره سكان القصبة طلبا للبركة والشفاء من الأمراض والهموم اليومية. أما على يسار الخارج من باب عزون إلى الضاحية، فقد غرست السلطة عددا من الأنياب الحديدية كانت تُلقي إليها من أعلى السور بالمجرمين وقطاع الطرق بصفة خاصة.

لم يكن باب عزون بقعة لتنفيذ الإعدامات فقط، بل كان يستقبل القوافل التجارية التي تحط رحالها بمحاذاته، حيث يوجد المسرح الوطني و"السَّكْوارْ بورْ سعيد" اليوم، وكذلك مختلف السلع القادمة من داخل البلاد وحتى من إفريقيا السوداء ليتم بيعها في أسواق المدينة أو تصديرها إلى أوربا.
في سنة 1841م حطم الاستعمار البابيْن الداخلي والخارجي لباب عزون وعوضهما بآخريْن قبل أن يُزيلهما نهائيا بعد تحطيم الأسوار لتوسيع المدينة في النصف الثاني من القرن 19م.

باب الوادي "ادَّاهْ الوادي"

أما باب الوادي فكان "باب الموت"، كما يُقال، لأنه كان يطل ليس فقط على وادٍ بل أيضا على المقابر الواسعة والمتعددة الخاصة بالديانات التوحيدية الثلاثة: الإسلام، المسيحية واليهودية. لقد كان موقعه قرب ثانوية الأمير عبد القادر الحالية، ويتمتع بنكهة سريالية وبنوع من الروحانية لأنه كان يطل أيضا على عدد هام من القبب وأضرحة الأولياء والصالحين وعلى رأسهم سيدي عبد الرحمن الثعالبي، سيدي السعدي وسيدي يعقوب. باب الوادي التي كانت جسرا نحو عدد من الحصون والقلاع الهامة بالمدينة مثل برج الزُّوبْيَة وحصن الإنجليز، عانت أيضا من الرائحة الكريهة للنفايات التي كان يجمعها الزبَّالون و"قايَدْ الزّبل" آنذاك على مقربة منها. لكنها أُهينت إهانة كبيرة في 5 جويلية 1830م عندما دخل الجنرال دوبورمونت منها إلى مدينة الجزائر ليعلن عن بداية الاحتلال.
في سنة 1841م تم توسيعها قبل أن تُمْحَى نهائيا من الوجود عند انطلاق بناء ثانوية الأمير عبد القادر (Lycée Bugeaud) حوالي سنة 1862م وميلاد حي باب الوادي الأوربي المعروف حاليا.

باب دْزيـــرَة

باب دزيرة الذي اختفى كتسمية لحي البحرية الأسفل منذ السبعينات فقط، كان بابا للجهاد وباباً للبحرية الجزائرية الشهيرة التي كانت تخرج منه، بعد زيارتها لضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي، لملاقاة السفن الأوربية في عرض مياه البحر المتوسط و المحيط الأطلسي. لذلك فقد تشرفت عبر قرون طويلة بعبورها من طرف أبطال من حجم الرايس حَمِّيدو بن علي والعُلْجْ علي ومراد رايس وعلي بتشين والداي حسين ميزومورْتُو والداي حسان فينيزْيَانُو... لقد كان باب دزيرة ذاكرة عسكرية شهدت أكبر وأشهر المعارك البحرية الجزائرية، وربما لسوء حظه كُتب له أن يعيش حتى يشاهد بأم عينيه الباشا حسين، مرفوقا بحاشيته وزوجته "ميمي" وبقية حريمه، يعْبُره متوجها نحو السفينة "جانْ دارْكْ" (Jeanne d'Arc) التي كانت ستنقله إلى منفاه... الباشا الذي كان يسير بخطوات متثاقلة والدمع يترقرق في عينيه من الحسرة والألم على ضياع الجزائر، تحت أنظار الجنرال دوبورمونت وسكان المدينة المنكوبة المُشْفِقين..، قبل أن يُلقي نظرة أخيرة من سطح السفينة وهي تبتعد عن المرسى مع طلوع الفجر. نظرة وداع على البيوت والقصور والمساجد المنحدرة في انسياب من أعلى الجبل نحو البحر..

على قصره "الدار الحمراء" الذي ترك على إدارته القنصل الأنجليزي روبيرت سان جون (Robert Saint-John)، على "دار الصوف"، على قصر الجنينة الذي سَتُزيله الإدارة الاستعمارية من الوجود في 1856م ، على الجامع الجديد وجامع السيدة اللّذيْن صلى فيهما منذ أن حط رحاله وهو شاب بمدينة الجزائر هاربا من القصاص بعد أن تورط في جريمة قتل بالأناضول، وعلى كل ما كان يشعر بأنه لن يشاهده مرة أخرى في حياته... بكل تأكيد كان المشهد أليماً وحزينا، بل تراجيديًا... وهذه هي المأساة التي عاشها باب الجزيرة لحظة بلحظة بمرارة المهزوم الذي ضاعت منه كرامته...

في سنة 1708م تم تزيين هذا الباب بنواقيس مدينة وهران بعد تحريرها من الإسبان.. وفي 1870م هدمها الاستعمار لبناء شارع الأميرال بْيــارْ (L'Amiral Pierre) الرابط بين شارع جيش التحرير و حي البحرية وباب الوادي. لقد كان باب دزيرة أيضا باب الحَمَّالين والسلع الأوربية والأسرى الأوربيين، الذين حملوا عنه ذكريات خاصة إلى بلدانهم، وغنائم البحر التي كان يأتي بها رياس البحرية...

باب الدِّيــوَانــَة

وعلى مقربة منه، وبالضبط أسفل الجامع الجديد، كان يقع باب الديوانة، أي الجمارك، أو باب السَّرْدين لأن جميع "الحُوَّاتين" كانوا يمرون عَبْرهُ من الطريق المتدرج المعروف بـ: بابا عروج، المجانب للجامع، والشهير حاليا بمطاعمه المختصة في الأسماك. كان هذا الباب يؤدي أيضا إلى سوق السمك وأنفاق مالاكوف، حيث كانت تُخزَّن المعدات البحرية والأشْرِعَة وحتى السِّلاح، المسماة آنذاك بـ: التَّرْسانة أو "دار الصناعة" على النحو الذي كان يُسَمِّي به أهلُ قرطبة العتيقة ترسانتهم المطلة على الوادي الكبير. وكان هذا الباب ممرًّا كذلك إلى مسجد صغير خاص بمحترفي الصيد البحري وهو جامع الرّبطة الذي أزاله الاستعمار مع الباب عند بناء شارع شي غيفارا، أو الواجهة البحرية للمدينة آنذاك، على يد المهندس شارل فريديريك شاصيرْيُو (Charles Frédéric Chassériau) (1802م – 1896م) في بداية النصف الثاني من القرن 19م. أما أسوأ ما شاع عن باب الديوانة في فترات تَضَعْضُع السلطة واختلاط الحابل بالنابل هو أنها باب "التِّشيِيَّة"، أي الرَّشوة بعبارة أكثر تهذيباً، الرشوة التي اخترع لها الأتراك العثمانيون، آنذاك، اسما خاصا أصبح متداولا عالميا و في كل اللغات و القواميس تقريبا وهو: البَقْشِيشْ.

الباب الجديد

أما الباب الذي يقال إنه كان أحدث أبواب القصبة من حيث حداثة بنائه فهو الباب الجديد حتى وإن كان قد شهد النور في القرن 16م. لقد كان باب الطمأنينة والأمان عكس بابيْ عَزُّون ودْزِيرَة حتى دخله الجيش الفرنسي فجأة سنة 1830م بعد سقوط حصن الإمبراطور بـ: "الثغرة" (Tagarins).

الباب الجديد الذي شهد انتقال مقر السلطة على يد الداي علي خوجة "اللُّوكُو" (Loco) (أي المجنون باللغة الإيطالية) من ساحة الشهداء إلى "القلعة" بأعلى بقعة بالقصبة وتشرف بتنقلات هذا الأخير والداي حسين عَبْرهُ، أصبح اسم أحد أكبر وأهم شوارع

المدينة العتيقة (Rue Porte Neuve) الممتد حتى سفحها والذي كان قبل الاحتلال يصل حتى شاطئ البحر. ولايضاهيه في الأهمية سوى شارع القصبة ذي الـ:497 "دَرْجَة". لكنه لن يُعمَّر أكثر من غيره من الأبواب، لأن الاستعمار أزاله لبناء شارع النصر (Boulevard de la Victoire) في سنة 1866م حسب الباحث المستشرق هنري كلاين. عند غروب الشمس، كان البوابون، وهم عادة من الأغواطيين المشهورين بالأمانة والوفاء، يغلقون الأبواب الخمس، التي كانت ستة قبل إلغاء باب سيدي رمضان في بداية العهد العثماني، ويسلمون مفاتيحها لقائد الباب. غير أن بعض الدايات كانوا يفضلون الاحتفاظ بمفاتيح بابيْ دزيرة والديوانة وباب الوادي عندهم لحساسيتها حتى طلوع الفجر تحسباً لأيّ طارئ.

أما اليوم الذي تسعد فيه هذه الأبواب فهو يوم استراحتها الذي لم يكن سوى يوم الجمعة، بحيث تُغلق جميعها عند الصلاة الأسبوعية كما تُغلق معها جميع الدكاكين التي يذهب أغلب أصحابها بعد الصلاة إلى التنزه في البساتين وزيارة الأهل والأحباب. تَنَزُّهٌ لا يختلف كثيرا في طقوسه عن ماكان يجري بالأندلس قبل سقوطها، وذلك أمر طبيعي بِحُكْمِ التأثير الكبير لنمط الحياة الأندلسي في "برّ العُدوة" وبحكم الهجرة الجماهيرية الأندلسية إلى الجزائر منذ ما قبل سقوط غرناطة. ولعلّ من بين مظاهر هذا التأثير الأخرى هو ذلك التطابق المعماري في البناءات بما فيها العمومية. لذلك قد لا يكون من باب الصدفة أن للباب الجديد وباب الوادي وباب الجزيرة نظراء بِنفس الأسماء في قَصَبَاتَ قرْطُبَةِ القرْنِ العاشرِ الميلاديِّ، والمَرِيَّة (Almeria) ومَالَقَة (Malaga)، اللتيْن توجد بينهما وبين قصبة الجزائر عمومة عمرانية - معمارية مُلفتة للانتباه. فَلِمَدِينَة قرطبة في أعلاها باب كان السكان يُطلِقون عليه الباب الجديد مثلما هو الأمر في قصبة الجزائر، سواء من حيث التسمية أو من حيث الموقع. ولها باب آخر يُدعى باب الجزيرة لإطلاله على جزيرة صغيرة تتوسط الوادي الكبير(Guadalkevir)، كما هو الشأن لـ: "باب دزيرة" الجزائرية المطلة على جزيرة السطفلة. كما لِمالَقَة باب يعبر وادي المدينة (Guadalmedina) يُدعى باب الوادي هو الآخر أصبح يُسَمَّى باللغة الإسبانية بعد رحيل المسلمين Puerta Fontanella، وهو اسم سوف نعثر عليه في العديد من الرسوم الطبوغرافية لمدينة الجزائر التي قام بها الجواسيس والغزاة الإسبان في القرن 16م عند تناولهم لباب الوادي.

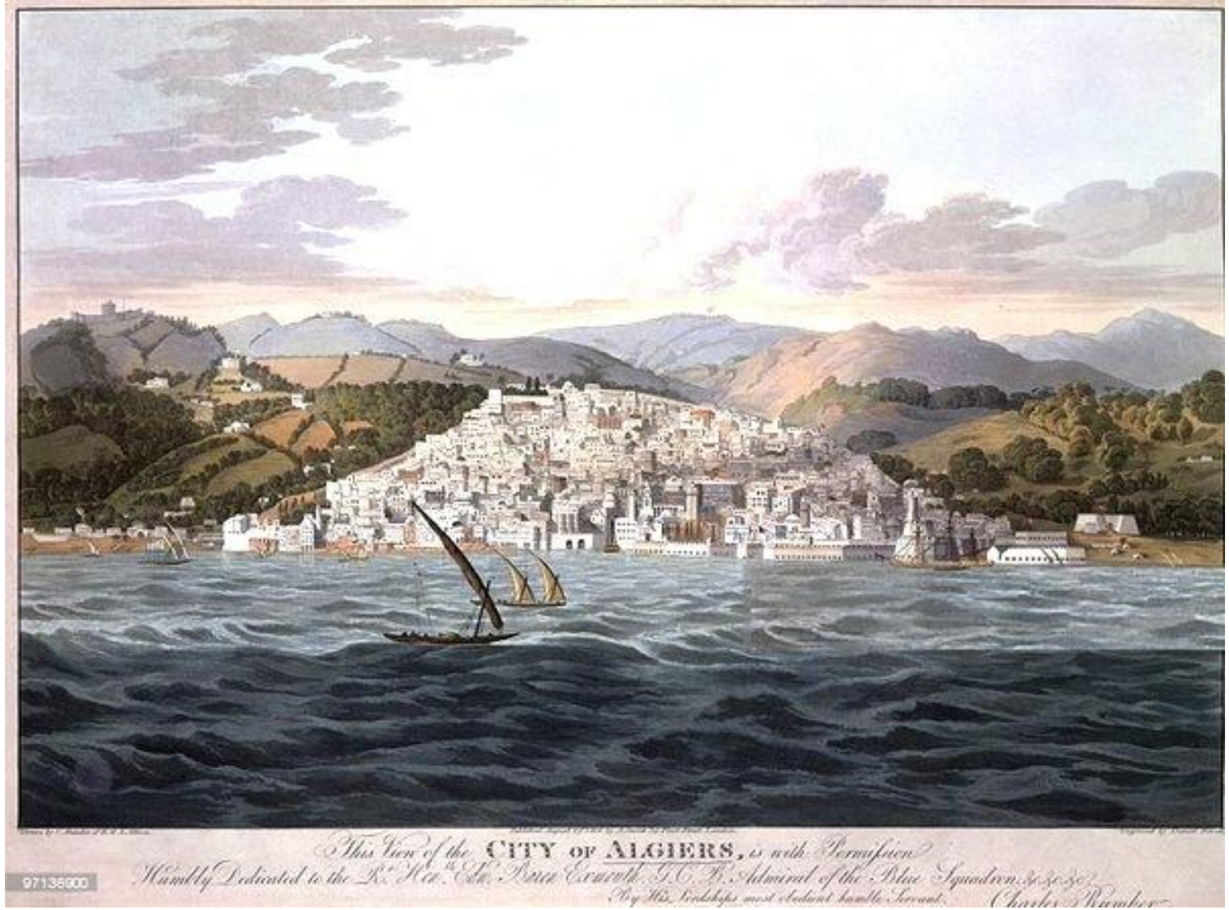
وفوق كل ذلك، فإن أيادي وعبقرية المهندسين المعماريين الأندلسيين لها فضل كبير على مدينة الجزائر حيث كانت وراء أبرز الإنجازات العمرانية العسكرية والمدنية بين القرن 16م والقرن 17م على الأقل، ومن أبرزها الأوسطه موسى الثغري الحميري في القرن 17م وابنه الحاج إبراهيم وقبلهما بنحو قرن مهندس آخر من ألمرية، جنوب شرق إسبانيا، صَمَّم الخنادق الدفاعية المحيطة بأسوار مدينة سيدي عبد الرحمن الثعالبي بالإضافة إلى تنفيذه مشاريع أخرى عسكرية دفعت إمبراطور إسبانيا إلى ترجّيه عن طريق وسطاء بالتوقف عن هذه الإنجازات في "المحروسة" والعودة إلى إسبانيا مقابل إغراءات مالية هامة. لكن المهندس الأندلسي رفض العرض واختار البقاء

في الجزائر وأن يكون جزائريًا بعد كل الاضطهاد الديني والثقافي الذي لقيه الأندلسيون وأبناؤهم أحفادهم في شبه الجزيرة الإيبيرية.
لأَبْواب "قصبة" الجزائر إذن، بالإضافة إلى الحكايات والمغامرات و الأساطير، أهل وأقارب على الضفة الأخرى للمتوسط، ولها ذاكرة وجذور، وفلسفة وُجودٍ وروح يمكن فك رموزها أكثر بالإطلاع على الفقه العمراني الإسلامي...
فهذا هو إذن سر "التبويب"، الذي قد يبدو غريبا، لأهم أحياء مدينة الجهاد ورياس البحر بعد زوال الوادي والأبواب تحت الجرافات الاستعمارية واختفاء الجزر تحت الإسمنت والأحجار واندثار الشهيد عَزّون من الذاكرة الشعبية... و على كل حال، هذه سُنّة الحياة ودوام الحال من المحال.

مدينة الجزائر خلال العهد العثماني محاطة بالأسوار. تظهر في هذه اللوحة أبوابها الشرقية على ساحل البحر، وهي باب الجهاد المؤدية إلى المرسى وبالقرب منها باب الديوانة حيث الترسانة. أما باب الوادي فهي على يمين الصورة غير ظاهرة وباب عزون على اليسار، فيما الباب الجديد في الأعلى يسارا ولا تُرى هي الاخرى في هذه الصورة.



المدينة والأسوار في لوحة فنية تعود إلى القرن 19م. على اليمين باب الوادي وفحصه، ويسارا باب عزون و فحصه.



واجهة المدينة بمرساها وأبراجها وأسوارها في القرن 18م عند خروج سفن هولندية من المرسى عائدة إلى بلادها.



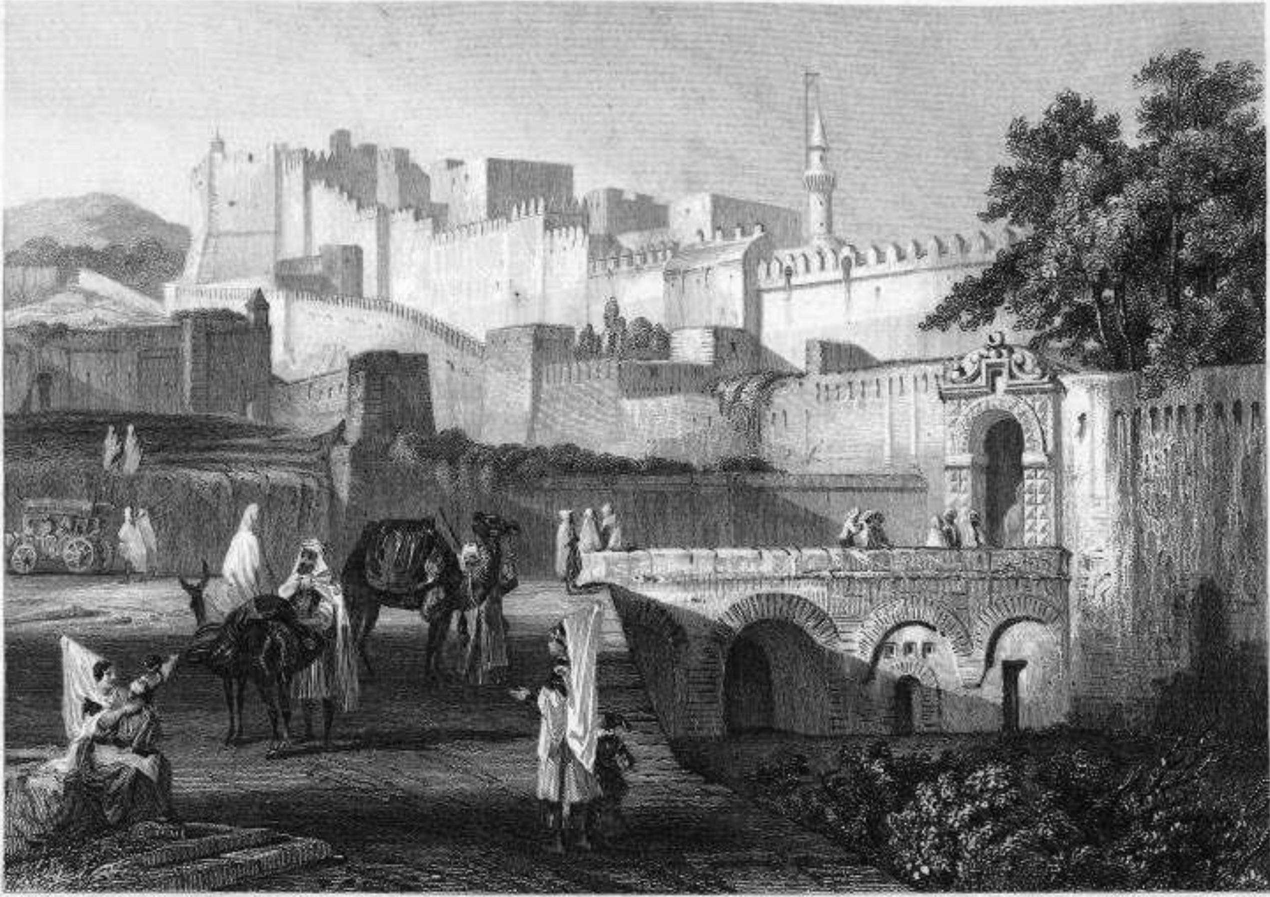
سور المدينة الجنوبي الغربي يلف بدار السلطان لينزل عبر الباب الجديد ثم حومة السور والسطارة فباب عزون. الباب الجديد كان يقع على بُعد خطوات من مقطع السور الذي نراه هنا عليى اليمين. في أسفل الصورة، عين الصبّارة باللون الأبيض. هذه الحومة تُعرف عند أهلها بـ: السّْوَارَجْ.



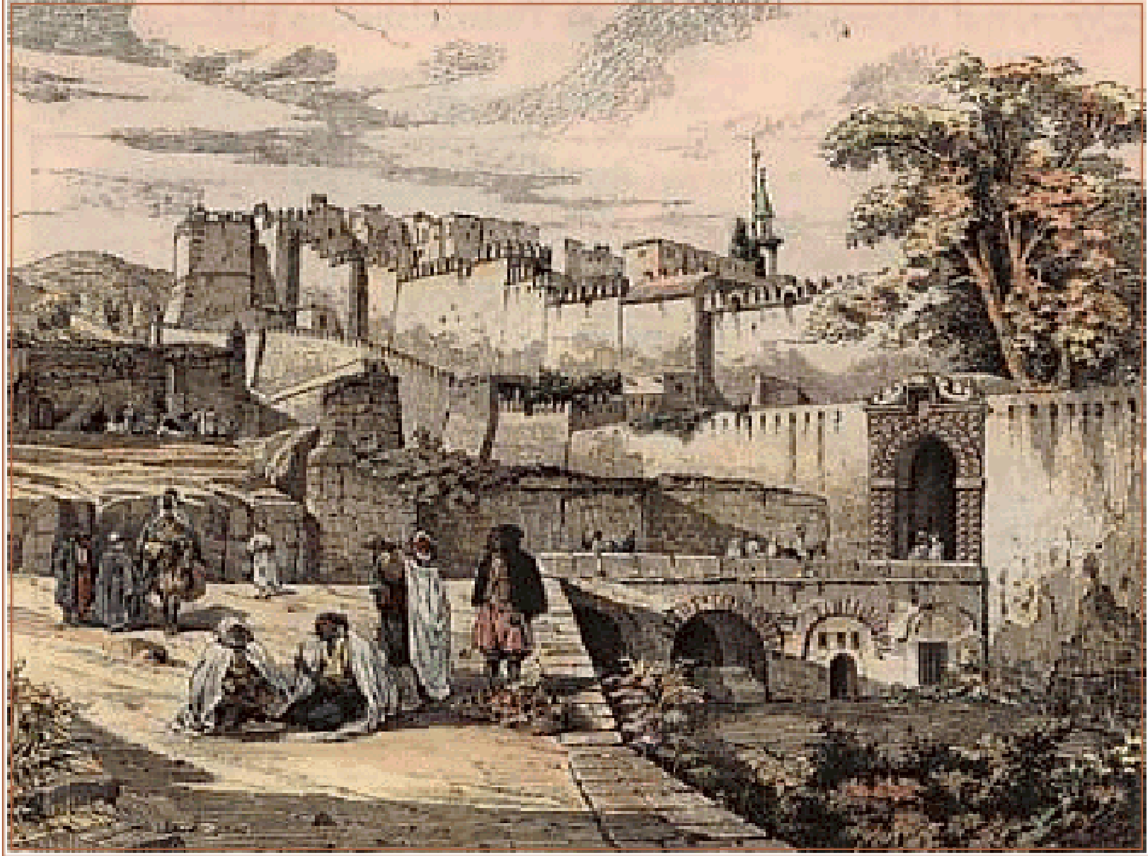
حومة الباب الجديد في نهاية القرن 19م. موقع الباب التي أعطت اسمها للحومة كان يقع قبل تهديمه في أقصى أسفل الشارع. أما فوق الربوة، على اليمين، فنُشاهد مقر حُكم البلاد: "دار السلطان" أو قصر الدَّاي. يليه السّْوَارَجْ في الأسفل على اليمين.

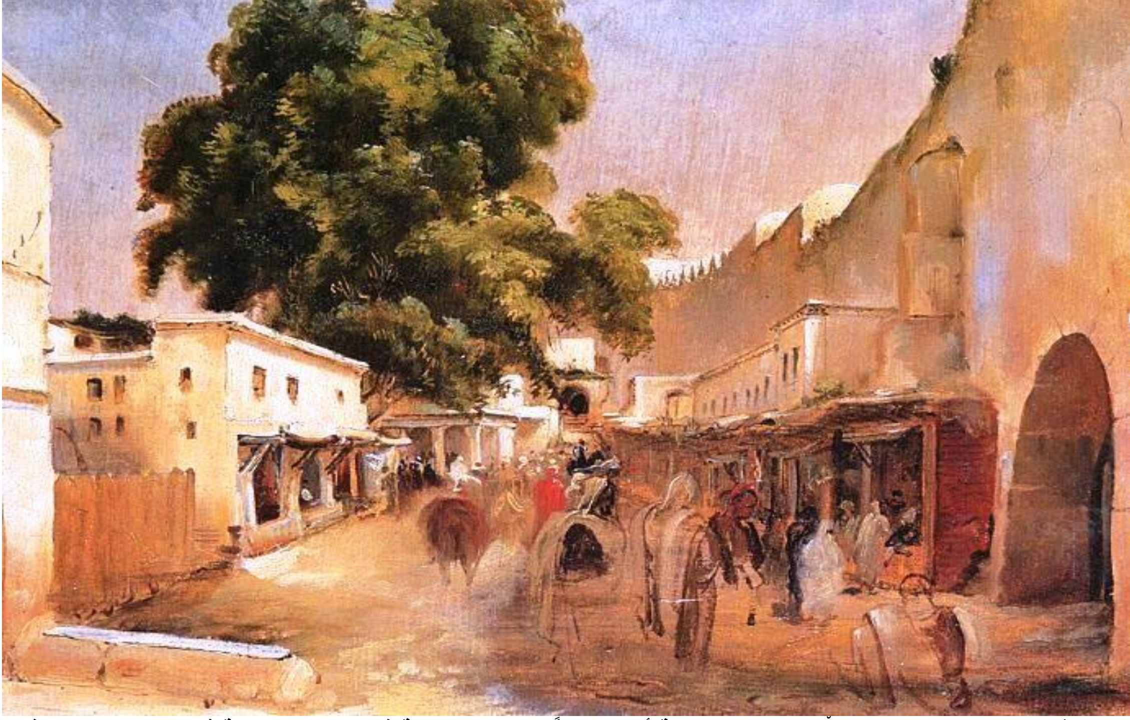


لوحة لِباب عزون وشجرة الدّلب المظلّلة لِمحل وضريح سيدي منصور المتدلية فوق الباب. ويَظهر السور منحدرا من "دار السلطان" (أيْ "القصبة" أو القلعة) عبْر الباب الجديد والسُّور والسّتارة نحو البحر. المئذنة المطلة من خلف السور هي مئذنة جامع الدّاي، الإيطالي الأصل، الحاج حسين مِيزُّو مُورْتُو (Mezzo Morto)، أيْ "نصف الميّت" أو المشلول، أما في الساحة على اليسار، فيوجد حاليا مسرح محيي الدين باش طرزي أو الأوبرّا (Opéra) سابقًا في عهد الاحتلال وحتى بعد الاستقلال ببضع سنوات.



باب عزون وشجرة سيدي منصور، وفي الخلف تظهر مئذنة جامع ميزو مورتو. الرحبة الموجودة خلف الناس يسارا هي رحبة الفحم التي ترَكت مكانها في خمسينيات القرن 19م للمسرح الذي ما زال قائما إلى اليوم في ساحة بور سعيد (الأوبرا في العهد الاستعماري، ثم المسرح الوطني الجزائري بعد استقلال البلاد تحت إدارة الشهيد محمد بودية، وحاليا مسرح محيي الدين باش طرزي). الصورة السفلى: باب عزون الداخلية في الأسفل على اليمين، أما الخارجية فحيث شجرة سيدي منصور يسارا.

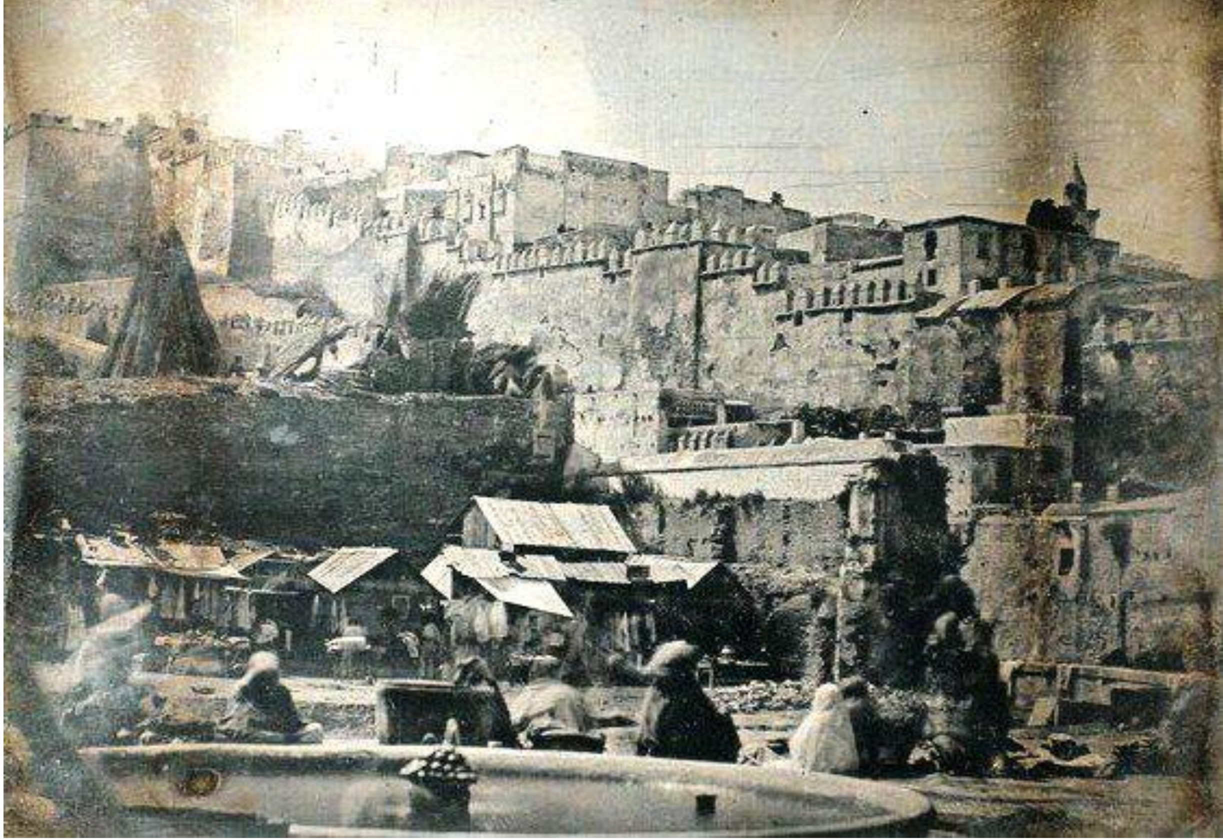




عندما نعبُر باب عزون عبْر "سَبَاطْ"، نفق من بضعة أمتار طولاً، نصل إلى رَحبة فيها محلات وباعة في الهواء الطلق وفندق وشجرة وضريح سيدي منصور. نميل بضعة أمتار على اليمن لنجد الباب الثاني يقابلنا على بعد أقل من 20 مترا في السور الداخلي للمدينة الذي نراه في اللوحة أعلاه. عندما نجتاز الباب الثاني عبْر نفق صغير كسابقه، نجد أنفسنا في هذا الشارع، وهو شارع باب عزون التاريخي الذي يبدأ هنا، وعلى يسارنا نصادف جامع الحاج حسين ميزو مورتو ومئذنته الدائرية المصممة على النمط العثماني، عكس مآذن الجامع الكبير والجامع الجديد وجامع سيدي رمضان، على سبيل المثال، المصممة على النمط المعماري الأندلسي/المغاربي. تقابل جامع ميزو مورتو حظيرة الداي للحيوانات التي تتضمن الأسود والنمور وغيرها تُستَخدم كهدايا للملوك الاجانب وللاستعراضات خلال الاحتفالات في المدينة.



باب عزون والُّسور الجنوبي للمدينة في أوّل صورة التُقطتْ لهما في أربعينيات القرن 19م، سنة 1844م، بالإضافة إلى رحبة الفحم التي غزتها البنايات والمحلات كما يظهر في الصورة. لاحظ مئذنة جامع ميزومورتو وراء السور، على اليمين.



باب الوادي والسور الشمالي للمدينة مقابلا، تقريبًا، ضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي وثانوية الأمير عبد القادر الجزائري اللذيْن لا نراهما في هذه اللوحة المؤرخة بسنة 1830م، أيْ بُعيْد دخول المحتلين.



السور الشرقي للمدينة مطلا على البحر والتحصينات المُدجَّجة بالمدفعية أسفل الجامع الكبير، يسار الصورة، لرد الاعتداءات القادمة من البحر.



السور الشرقي للمدينة العتيقة مقابلاً البحر بين حومة قاع السور الحالية وقصر رياس البحر على اليمين وما يليهما. في اللوحة أيضا السور الشمالي منحدرا من أعلى المدينة على اليمين بحوْمة سيدي رمضان و"القصبة القديمة"، أيْ القلعة القديمة المقابلة حاليًا لمدخَل مستشفى آيت إيدير. الرّسم يعود إلى النصف الثاني من القرن 19م حيث نشاهد، في أقصى اليمين، ثانوية الأمير عبد القادر (Bugeaud سابقا) التي بُنيتْ بين 1862م و1868م خارج ما تبقى آنذاك من السور.



السور الجنوبي لمدينة الجزائر منحدرا من حومة الباب الجديد و"دار السلطان" نحو باب عزون فالبحر، وخارجه النواة الاولى لساحة بور سعيد وشارع علي بومنجل الذي نعرف اليوم.



هنا، السور والتحصينات الشرقية للمدينة. الفتحات في السُّور هي فتحات لفوهات المدافع المقابلة للبحر. تظهر في اللوحة الترْسانة، أو "دار الصناعة"، حيث تُصنَع السُّفن وعتادها، وبابها الذي يبدو كالنفق، وأعلاها الجامع الجديد.



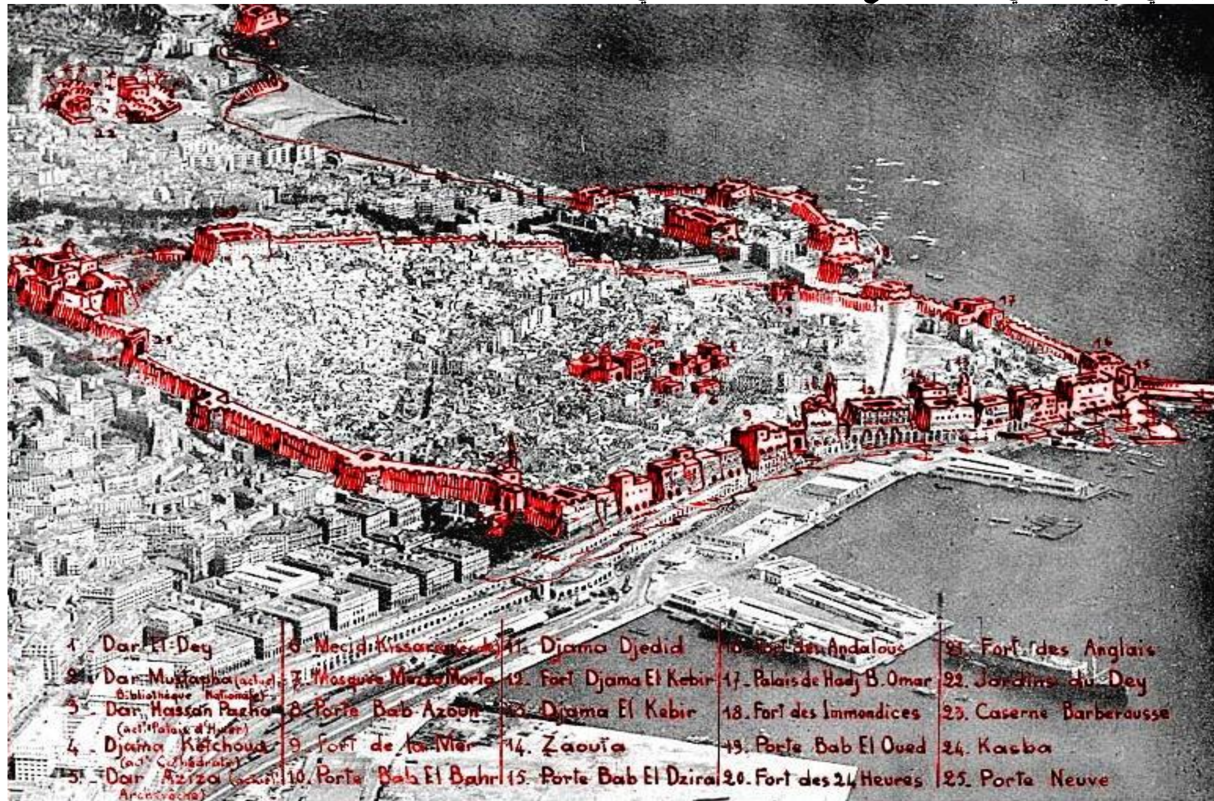
باب الترسانة: هو النفق الكبير على اليسار. وفي الأعلى، الجامع الجديد مطلا على الشاطئ من فوق السور الشرقي للمدينة.



السور الجنوبي الشرقي للمدينة، أو قاع السور، أسفل المدينة من جهة باب عزون عند الحدود الجنوبية للمدينة.



منظر عام جوي لمدينة الجزائر خلال القرن 20م. أُضِيَف للصورة رسمٌ تقريبي لأسوار وأبراج وأبواب المدينة مثلما كانت عليه في العهد العثماني. العمران خارج الأسوار عمرانٌ أوروبي، وما هو داخل الأسوار هو المدينة التاريخية، "القصبة".





شارل الخامس على أبواب الجزائر: المعركة التي صنعت جزائر "الرّيَّاس"

مدينةُ الجَزائر.. جمالُها بَاهر "غَصّ ببهْجتِهَا كلُّ عَدَوٍّ كافِر،
لذلك يتربصون بها الدَّوائر ، ويُرسلون عليها صواعقَ لم تُعهَد في الزَّمنِ الغَابِر".

ابن زاكـور

كان الهلع والارتباك باديا على وجوه الناس الذين تجمعوا على السطوح لمشاهدة عملية الإنزال.. لم يحدث أن فقدوا ثقتهم بأنفسهم كما حدث في هذه المرة منذ أن استقر بينهم الأخوان عروج وخير الدين بربروس في 1516م.
في الأفق على ساحلٍ يَبْعُدُ حوالي 10 كلم شرقاً عن قصبتهم العتيقة، المدينة الفتية التي كانت تنمو وتتوسع على مرتفعات قرية مزغنة، كان المشهد مُرعبًا.. تتوقف له الأنفاس.. مدينة سيدي عبد الرحمن الثعالبي كانت تعيش على الأعصاب أصعب لحظاتها. على هذا الساحل الذي يُنسب اليوم إلى وادي الحراش الذي يعبره نحو البحر، كانت الجيوش المسيحية الصليبية تتحرك كالنمل في مشهد رهيب.
كان يحركها دافع وحيد، الحقد الدفين الذي تكنه الكنيسة الأوروبية للإسلام وديار الإسلام منذ أيام الظَّاهِر بِيبَرْسْ وصلاح الدين الأيوبي وقُطُزْ وتلك الاصطدامات التاريخية على مشارف بيت المقدس وأبواب عكا وفي الأندلس المفقودة...

شارلكان الإسباني الصليبي الرهيب

لكن في أعماق قائد هذه الحملة الشرسة على الجزائر، الإمبراطور الإسباني شارل الخامس، المشهور بِاسْمِهِ الإيبيري كارلوسْ كِينْتُو (Carlos Quinto) أو شَارْلُكَانْ (charles quint) لدى الفرنسيين، كانت تنام دوافع أخرى كلها أطماع اقتصادية ومنافع استراتيجية تزيد في قوة إسبانيا ونفوذها في البحر المتوسط وفي حظوظ تفوقها على أكبر قوة عظمى ناشئة في ذلك الوقت: الإمبراطورية العثمانية المسلمة.
لقد أتى الإمبراطور الإسباني يسبح في الأحلام كما أتى من قبله ببضعة قرون القائد الصليبي الإنجليزي قلب الأسد (Richard Coeur de Lion) إلى بيت المقدس، يجر وراءه جيوشا من مختلف أجناس أوربا ومللها، من ألمان وإسبان وصقليين ومالطيين..، بعشرات الآلاف مدججة بالسلاح ومجهزة بأحدث ما أنتجته ترسانات القارة "القديمة".
لقد جاء أيضا للثأر لتحطيم خير الدين بمساعدة أهل المدينة لحصن البنيون (Peñon) سنة

1529، الحصن الذي كان قد أقامه الإسبان على إحدى الجزر المقابلة لأسوار المدينة على شاطئ الأميرالية الحالية الواقعة أسفل ما يعرف اليوم بساحة الشهداء.
كان اليوم يوم أربعاء، ولم يبق من جمادي الثانية لسنة 948 هجرية إلا ثلاثة أيام، ووافق ذلك يوم 19 إلى 20 أكتوبر من سنة 1541م.
في هذا اليوم بالذات، أطلت الأسراب الأولى من الأسطول الصليبي تتهادى على مياه البحر. ومع إطلالها دَبَّ الرعبُ في مدينة الأولياء والصالحين، واحتار الناس في ما يمكن أن يفعلوه لرد هذا الاعتداء الرهيب الذي كانوا يتوقعونه منذ فترة طويلة...
في يوم الغد الخميس أثناء صلاة العصر أعطى الإمبراطور الأمر بالإرساء في خليج تامَنْفوسْتْ (Cap Matifou) على مرأى من القصبة، ثم بدأ الإنزال في يوم الأحد الموالي، أي في 23 أكتوبر 1541م، قبل غروب الشمس. كان المشهد عظيما عندما نزل شارلكان إلى اليابسة محاطا بأعوانه وخلفه 90.000 رجل حسب بعض الروايات، و40.000 حسب الأخرى، يتبعون خطواته في نظام محكم. ولم تفلح المحاولات الأولى في مقاومة هذا الإنزال الذي بدأ الإمبراطور التحضير له منذ حوالي 5 سنوات بمباركة البابا نفسه في تحقيق شيء يُذكر.
وأيّة مقاومة أو حيلة تنفع مع هذه "الأَرْمَادَة" التي يصفها المؤرخون بأكبر أسطول بحري عرفه تاريخ البحر الأبيض المتوسط حتى ذلك الحين؟ أسطول يتكون من 515 قطعة بحرية من مختلف الأحجام يقودها أكثر البحارة والقادة العسكريين الإسبان خبرة ودهاء في وقت كانت فيه إسبانيا سيدة البحار والمحيطات منذ سقوط الأندلس واكتشاف كولومبس للعالم الجديد .
لقد شارك في هذه الحملة كقائد للأسطول القائد الإسباني الكبير أنْدري دورْيا (Doria André) الذي سبق له أن التقى الجزائريين في عدة معارك على السواحل الجزائرية، وكذلك الأميرال الإسباني الشهير كورْتيزْ (Cortez) الذي قاد غزو المكسيك واحتلالها.
فماذا بقي أمام الجزائر الصغيرة من حظوظ ضد هذا الخطر، وهي التي لم تكن تملكُ على الأكثر سوى 1500 انكشاري و6000 من الأهالي الأندلسيي الأصل، المطرودين من ديارهم من طرف فِرْدِينَانْد (Fernando) وإيزَابِيلاَّ (Isabel)، وعدد متواضع من البحارة ورياس البحر، والمدنيين عند الضرورة، والقطع البحرية المتوسطة الحجم والقدرات الحربية المتواضعة؟ ماذا بقي أمام هذا الاختلال العميق في موازين القوة غير الدعاء والابتهال وطلب الرحمة واللطف من الله ...؟

وحانت ساعة الحسم!

في حين كان شارلكان يتقدم إلى الأمام ويضع فسطاطه على ربوة الثغرة (Tagarins) لموقعها الإستراتيجي المطل على القصبة والقريب منها في نفس الوقت، كان الجزائريون يُصَلُّون ويَبْتَهِلُون، لكن دون أن يتخلّوْا عن الخيار العسكري رغم تواضع إمكانياتهم.
فقد أجمع أهل البلاد بعد تفكير ورَوِيَّة على المقاومة حتى آخر نفس بعد أن زالت صدمة المفاجأة التي تلت ظهور الأسطول الصليبي الهائل في عرض البحر. وفي خضم

التحضير المستعجل للدفاع من أجل النصر أوالاستشهاد، تقاسم أهل البلد الأدوار.. فحصنوا البيوت والقصور، والأسوار والأبراج وزادوا في تدعيمها بالمدافع والعساكر، وحفروا الخنادق، وأعدوا خطتهم الدفاعية، ونصبوا الحراسة المشددة على المدينة، وفتحوا أعينهم على كل حركة كبيرة أوصغيرة. في نفس الوقت، أعدت البحرية سفنها الشراعية ونصبت بطارياتها، ثم جاء المدد إلى المدينة من الأقاليم والقبائل المجاورة ليقلص من حدة الضغط عليها ويعيد إليها بعض الطمأنينة والأمل في النصر.
في أثناء هذه الحركة الدؤوبة، لعب الأئمة والفقهاء، والأولياء الصالحون دورا تعبويا هائلا في تحريك الهمم وشحذ العزائم والحماس الجماهيري لملاقاة العدو بأمل وقوة وشجاعة.

الولي دَادَه، سِيدي بُوقْدُورْ، سيدي بَتْقَة.. والكرامات التي قَلَبتْ الموازين

كان الإمبراطور قد شرع في ضرب المدينة بمدافعه من ساحل وادي الحراش والحامّة وفتح البطاريات من ربوة الثغرة على مرتفعات القصبة لتهويل السكان وحاكم البلاد، البيلَرْبَايْ بالنيابة عن خير الدين بربروس، حسن آغا. آنذاك كان خير الدين في مهمة طويلة الأمد باسطمبول تتمثل في تَوَلّيه إمارة البحر، أي القائد الأعلى للأسطول العثماني، بأمر من الخليفة العثماني "سليمان القانوني" منذ 1532م.
كان الإمبراطور لايزال طامعا في أن تستسلم له المدينة وتُسَلَّم له مفاتيحها حسب نمط تسليم غرناطة، حينما نزل أحد شيوخها مغتاظا إلى شاطئ "تافورة"، أسفل ساحة البريد المركزي الحالية، يجر جسده الهزيل المُنْهَك جَرًّا. كان ذلك الشيخ من أكثر أهلها تقى وورعا، يتمتع باحترام وإجلال كل الناس الذين يلقبونه بـ: الولي داده... وبمجرد أن غاصت قدماه النحيفتان في مياه الشاطئ ضرب بعصاه البحر الساكن في غضب وغيظ عدة ضربات قوية، ثم رفع رأسه ويديه إلى السماء مبتهلا وطالبا الرحمة بالمسلمين ومدينتهم الجميلة المجاهدة... بعدها، رجع مُدْبِرًا نحو "القصبة" عبْر باب عزون ليتوارى خلفَ الأسوار حيث كان الناس في انتظاره في إكبار وإعجاب... وتقول الرواية الشعبية إنه ما إن خطا خطواته الأولى داخل المدينة، حتى اكفهر الجو وتلبدت السماء وتجهَّمتْ بسحب كثيفة داكنة وسالت أمطار غزيرة كالسيول لم تشهد "المحروسة" مثلها...فكانت عاصفة هوجاء من أغرب العواصف التي عرفتها الجزائر، هبت كالصاعقة وحرّكت بقوة أمواج البحر العاتية.. فكانت عونا للأهالي المقاوِمين على المعتدين وضربة قاضية للأسطول الصليبي وقواته المرابطة على مشارف القصبة، وحوَّلت الحملة المسيحية الرهيبة إلى برد وسلام على الجزائر. هل هي كرامات الولي داده؟.. الحكايات الشعبية تعتقد بذلك..
ويُحْكَى أيضا أن ابتهالات وبركات الولي الصالح سيدي بُوقْدُورْ كان لها نصيب هي الأخرى في هذا الانقلاب الجوي "العجيب" الذي ساعد على حسم المعركة لأهل البلد. كما تروي الأساطير الشعبية بأن هيجان البحر والتهاطل الغزير والمتواصل للأمطار طوال أيام الحملة والمعارك التي تخللتها جاءا بعد أن ألقى الشيخ الجليل قُدورَهُ في البحر بعد أن قرأ عليها بعض الأدعية والتَّعَازِيم... لكن يبقى هذا الإنجاز إلى اليوم محل

نزاع ليس بين الولي داده وسيدي بوالقدور فقط بل سوف يُضاف إليهما سيدي بَتْقَة (أبو التّقيَ) الذي كان ضريحه بساحة بور سعيد، قرب مقهى "طونْطونْفيلْ"، من أهم الأضرحة في المدينة وأكثرها إجلالا عند الناس.

مقاومة واستشهاد..، فنصر أسطوري

هذا ما حفظته الذاكرة الشعبية والأساطير للأجيال.. أما ما حفظته لنا الوقائع التاريخية، فهو شيء آخر، كله أحداث بطولية ملحمية سجلها التاريخ للجزائر.

فمنذ الإنزال، بدأت أولى محاولات مقاومته وعَرْقَلَتِهِ.. لكنها فشلت، ونجح جيش الإمبراطور في الزحف حتى بلغ حي الحامة قرب "بِلْكُورْ" حيث قضى به ليلة الأحد إلى الإثنين قبل أن يواصل سيره في الصباح نحو القصبة. وعندما اقترب منها، تغطت السهول والتلال المحيطة بالمدينة بعساكره الذين واجهوا صمودا كبيرا من الأهالي من فوق الأسوار حيث رُشِقوا بالسهام والحجارة، وقصفوا بالبارود والمدافع المنصبة في فتحات الأبراج الخارجية والداخلية على طولها، ثم بدأت المواجهات المباشرة في ساحة القتال حيث خرجت عدة فيالق قادها أبطال البلاد: الحاج باشا، حيدر، الحاج بكير، الحاج مامي الذي كلفه حسن آغا بالدفاع عن باب عزون، والقائد يوسف الذي تكفل بباب الوادي، فقاتلوا واستماتوا من أجل دينهم ومن أجل الجزائر في معارك انتحارية بشجاعة فائقة أدهشت الصليبيين أنفسهم. في نفس الوقت، راح شيخ البلد سيدي سعيد الشريف يحث أهل المدينة على الجهاد والصمود في وجه النصارى المعتدين وحرر بيانا ساخنا يلهب المشاعر الدينية والقومية، فزاد في عزيمة الناس ورفع معنوياتهم، فهبوا جميعا في إيمان من أجل النصر أو الاستشهاد.

تمكنت المقاومة من وقف الزحف الصليبي عند حي تافورة وضواحي ربوة الثغرة في الأعالي رغم القصف العنيف الذي تعرضوا له. ورد رجال حسن آغا بشراسة على كل محاولات التقدم أكثر، بقنابلهم وبارودهم وحتى بأجسادهم التي تحولت إلى سلاح فتاك، فاستمر الحال على هذا الوضع طوال هذا اليوم حتى وقت متأخر من الليل.

العاصفة تنقذ الموقف

في يوم الغد الثلاثاء، هبت العاصفة ونزلت من السماء سيولٌ من الأمطار مع بداية الليل، فانقطعتْ الحبالُ التي كانت تربط سفنَ و مراكبَ ضخمة من الأسطول الصليبي باليابسة على شاطئ الحراش.. وتحطمت على صخوره 140 قطعة بحرية معبأة بالمؤن والعساكر من أحسن وأقوى ما يملك الإمبراطور، فتمكن العبيد و الأسرى المسلمون الذين كانوا على متنها من الفرار، وفتح حسن آغا بن خير الدين (من أُمٍّ جزائرية) أبواب القصبة لتخرج منها جموع كبيرة من المجاهدين تحت المطر الغزير والرياح الهوجاء تحت قيادته في هجوم حاسم مستغلين الارتباك والفوضى التي حدثت في صفوف العدو بسبب الانقلاب الجوي المفاجئ، فألحقوا به خسائر فادحة نالت من عزيمته ومعنوياته، واضطرت قائد الأسطول أندري دوريا أن يراسل قائد الحملة شارلكان الذي كان في فسطاطه على ربوة الثغرة، أو كدية الصابون كما كان يسميها أهل القصبة، ليطلب منه الانسحاب فورا وإنقاذ ما يمكن إنقاذه قبل فوات الأوان. لقد

كانت الكارثة كبيرة جدا والهزيمة ثقيلة جدا بانعكاساتها السياسية والنفسية ليس فقط على الإمبراطور ورجاله وبلاده بل على أوربا والعالم المسيحي كله.
لم يجد شارلكان أمام هذه الحالة الكارثية التي حلت به من حلّ أخر سوى الفرار والنجاة بما تبقى له من رجال وعدة، لكن الانسحاب كان أصعب مما كان يتصور بسبب مطاردة الأهالي إلى درجة أنه استغرق أكثر من يوم في التحرك من الحامة والحراش نحو بضعة سفن كان قد تركها في تامنفوست. ويُحكى أنه ترك خلفه في كل خطوة إلى الوراء خطاها دماءً كثيرةً وجثثاً ومعداتٍ وأسلحة ومؤونة غنمها الجزائريون. ومن تامنفوست أبْحَرَ إلى بجاية بحثا عن مؤونة يَقتاتُ بها بقايا حاشيته، لكنه قوبل بالرفض وبالسلاح من طرف أهلها، فواصل إبحاره إلى إسبانيا التي وصلها بعد أن هلك أغلب عساكره جوعا وعطشا. وقيل أنه لم يصل إلى إسبانيا حصان واحد لأن خيل الإمبراطور إما هلكت أوغُنمت أو أُكِلت عندما اشتد الجوع برجاله أثناء العودة، وقيل أيضا إنه استهلك أثناء الانسحاب نحو تَامَنْفُوسْتْ فقط 400 حصان أي بين يومي الثلاثاء والأربعاء 25 و26 أكتوبر 1541م.
أما البقية فقد أُكِلتْ مابين الخميس 27 أكتوبر، تاريخ وصوله إلى تامنفوست، ويوم وصوله إلى إسبانيا.
رجع شارلكان إلى قرطاجنة يجر أذياله في خيبة كبيرة، فارغ اليدين لا يتجرأ على رفع رأسه أمام ذويه من الخجل... فضاعت سمعتُه وكاريسماتيتُه وتأثيرُه السياسي ـ الروحي في أوربا.. وأصبح مهزلة لدى الناس وسخرية للأطفال في الزقاق.. وبانهزامه أمام الجزائريين، انتهت إلى الأبد سياسته الرامية إلى الهيمنة الجيوسياسية على البحر الأبيض المتوسط. ومات بعد سنوات دون أن يبرأ من فشله في "المحروسة بالله"، رغم انتصاراته الأوروبية.

الجزائر تولد من جديد

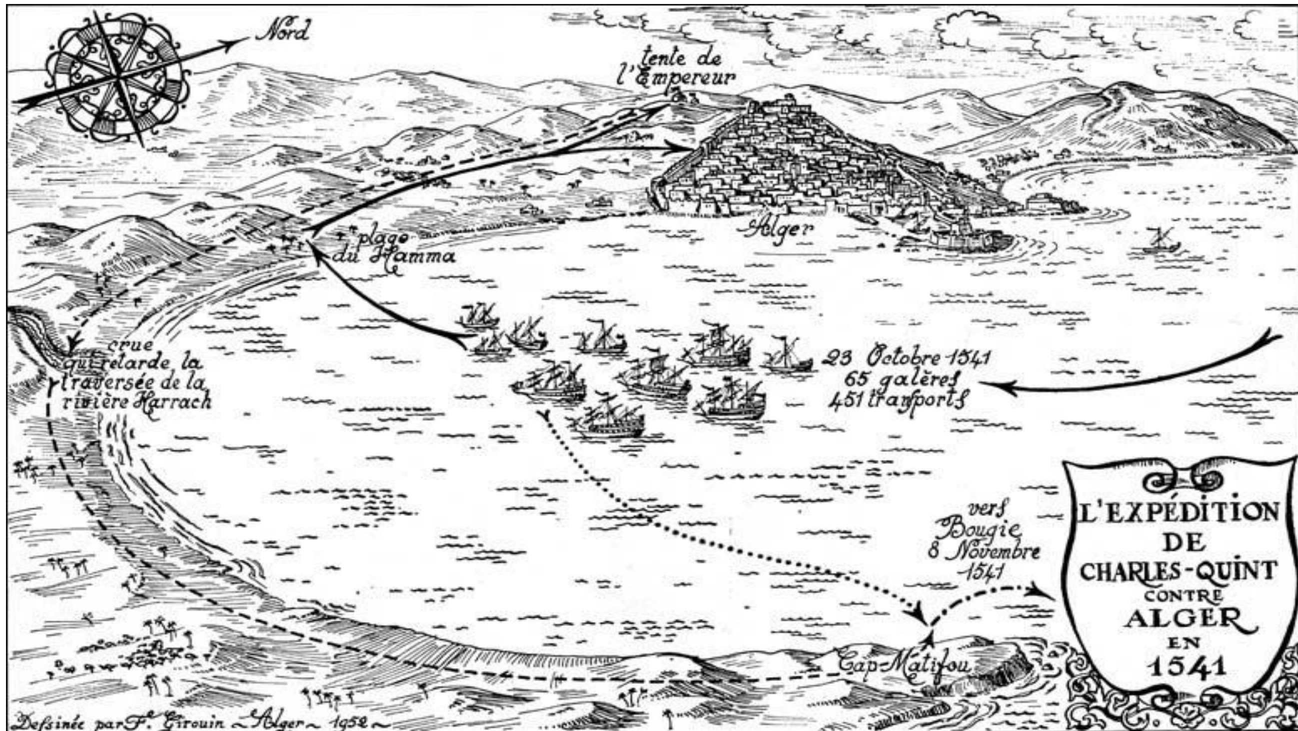
لم يخسر شارلكان حربا فقط، بل ساهم في تدعيم الأسطول الجزائري بالأسلحة والمعدات التي تخلى عنها أثناء الانسحاب، وأثرى الاحتياطات الغذائية المحلية بالمؤن الكثيرة التي بقيت وراءه. ويذكر التاريخ أن الجزائر غنمت سفنا ومراكب بحرية مختلفة الأحجام، وحوالي 200 مدفع من أحسن مدافع أوربا، وآلاف الأسرى المسيحيين من بينهم 1300 من النساء والأطفال...
لقد كان الإمبراطور يطمح، دون شك، إلى احتلال الجزائر والاستقرار بها..، وكان هذا الحُلم صعبا ومكلفا جدا إلى درجة أن أوربا لم تتجرأ على التفكير فيه ثانية إلا بعد ثلاثة قرون؛ في سنة 1830م.
لقد تردد صدى هذه الهزيمة الكبيرة للصليب في كافة أنحاء أوربا وشمال إفريقيا وعم الفرح والبهجة في مدينة "البهجة" طوال عدة أسابيع، وأقيمت الأفراح والحفلات في زقاق القصبة وسبح الناس بحمد الله وشكروا الولي داده وسيدي بوقدور وسيدي بتقة والمجاهدين الأبطال ورياس البحر، وزاد إيمانهم بالله واعتقادهم ببركات الأولياء

والصالحين وبعنايتهم بمدينتهم المجاهدة، كما شاع الاعتقاد بعصمة "القصبة" وتفوقها وبأن العناية الإلهية تسهر عليها، فسميت: "المحروسة".. بل "المحروسة بالله"...
ثم أصبحت تقام الاحتفالات كل سنة في ذكرى حملة شارلكان.. وحتى الجالية اليهودية بمدينة الجزائر فرحت كثيرا بهذا النصر وجعلت من ذكراه عيدا دينيا سنويا سمي: "عيد البُورِيمْ الأوّل"، لأن الجزائر أشفتْ غليلها في الانتقام من الإسبان الذين أذاقوها الهوان والذل إثر سقوط الأندلس في 1492م، أي قبل 49 سنة فقط من هذا التاريخ المشؤوم...
فتبدد الخوف الذي ساد في بداية الحملة، وتحول إلى سعادة وطمأنينة في النهاية، وثقة في النفس بفضل الإيمان والتضحيات وعناية القدر، فنامت "البهجة" مطمئنة، قريرة العين طوال سنوات، تحميها سمعتها القوية التي صنعتها ضد شارلكان، وأصبح مجرد ذكر اسم الجزائر في أوربا ترتعد له الأبدان وترتجف له القلوب من الخوف والذعر خصوصا بعد أن طورت أسطولها وقدراتها البحرية.
لا تزال آثار هذه الواقعة التاريخية بادية إلى اليوم في "قصبة" الجزائر من خلال ضريحيْ الولي دادَه، الموجودة رفاته في ضريح سيدي عبد الرحمان الثعالبي، وسيدي بوقدور في "الجْبَلْ"، أي في القصبة العليا، وقد بُنِيَ مسجدٌ كاملٌ حول قبره إكراما له وتبركا ببركاته وكراماته حسب المعتقدات و الأساطير الشعبية.
كما اقترن اسم شارلكان، أو كارلوس كينتو، منذ 1541م باسم كُدْيَة الصابون الواقعة في أسفل حي الأبيار التي حط عليها فسطاطه، وأصبحت بالتالي تدعى: حصن الإمبراطور (Fort l`Empereur) أوحِصْن "بُولِيلَة" إلى يومنا هذا. وهي في الوقت الحالي ثكنة عسكرية متخصصة في الاتصال...
وحتى خليج تامنفوست تفطنت الجزائر في العهد العثماني إلى موقعه الإستراتيجي، فحَوّلته إلى نقطة دفاعية بحرية عن المدينة متقدمة، وفي موقع الإنزال بالذات بنى الجزائريون حِصْنًا مَنيعًا مُزَوَّدًا بالمدافع الكبيرة من الأحجار والآثار التي بقيت من المدينة الرومانية القديمة، وهو لا يزال موجودا إلى اليوم كما كان، إذْ لم يتغير فيه شيء باستثناء تقدُّم السِّن به وإصابته بالشيخوخة.
لقد بقيت معركة أكتوبر 1541م الحاسمة في تاريخ الصراع على النفوذ في الحوض المتوسط الغربي مجالا للدراسات والبحوث لكونها فاتحة عهد جديد وميلاد جديد للجزائر العثمانية جعلها قوة بحرية عظيمة نهضت من رماد الحرب وحِممها وحوّلت البحر المتوسط إلى مياه إقليمية جزائرية.

هنا عند هذا السور، المنحدر من دار السلطان والباب الجديد فحومة السور والستارة (سوسطارة) إلى باب عزون والبحر، جرت معارك ضارية حيث حاول الغزاة الصليبيون اقتحام المدينة "المحروسة بالله" بعبور الخندق ثم اختراق الأسوار...لكن جميع محاولاتهم باءت بالفشل أمام المقاومة الشرسة للمجاهدين.



غزو الإمبراطور الإسباني شارل الخامس لمدينة الجزائر في شهر أكتوبر/تشرين الأول 1541م بقوات صليبية من مختلف دول أوروبا وبمباركة دينية من زعماء الكنيسة الكاثوليكية.



المجاهدون يقاومون المعتدين عند باب عزون مقاومة شرسة. أحد قادتهم من أصل فرنسي بونس دو بالاغي (Ponce de Balaguer) الملقَّب بـ: سافينياك (Savignac)، وهو من تنظيم فرسان مالطا الصليبي، يغرس خنجره على الباب يأسا متوعدا بالعودة. وعندما احتلت فرنسا الجزائر في 1830م، اعتبرتْ ما قامت به إنجازا لحلم القائد الصليبي المهزوم، وتكرر التذكير بذلك في الأدبيات الاستعمارية الفرنسية مثلما فعل لاحقًا الجنرال الفرنسي غورو عند دخوله دمشق في 1925م محتلاً إياها حيث زار قبر صلاح الدين، تقول مصادر، وقال: "ها قد عدنا يا صلاح الدين !".



بعد مرور قرابة 5 قرون على هجوم شارلكان على "المحروسة" في 1541م، في الصورة ملك إسبانيا السابق خوان كارلوس في بداية سنوات 1980م، كصديق للجزائر، عائدا من زيارة "دار السلطان" في حومة الباب الجديد في "الجْبَل".



جامع كَتْشَاوَة..."رَحْبَة المْعِيزْ"

"حسراه وينها مزغنة سلطانة المدن الجملة
ولات غير في يد اعدانا"

الشيخ عبدالقادر
(شاعر شعبي من مدينة الجزائر عند سقوطها)

كَتْشَاوَة مسجدٌ فَخْمٌ وتُحفةٌ فنيةٌ نادرةٌ من السُّلالات المعماريةِ الرَّاقيةِ..، بناهُ الملوكُ لِتخْلِيدِ مَآثرهم وذكراهم منذ أكْثَر من قرنيْن..، لكن حَظَّهُ السَّيّءِ حَوَّلَه إلى حارسٍ لإحدى أكبر "زُوبْيَاتْ" القصبة...

في سنة 1794 كانت قد مضت ثلاث سنوات على اعتلاء الداي بابا حسن لسدة الحكم في الجزائر خلفا للداي الراحل محمد بن عثمان باشا. فبعد أن أنشأ بستانا كبيرا مازال يُعْرَفُ بِاسْمِهِ إلى اليوم أي: "جْنَانْ حَسَانْ"، الذي لم يبق منه حاليا سوى مستشفى "مايو" (Maillot) بباب الوادي وبعض قصوره الإسلامية العتيقة، قَرَّرَ تَخْلِيدَ حُكْمِهِ للبلاد ببناءِ مسجدٍ جميلٍ كعادة الحُكام والوجهاء في ذلك الزمان.
هذا المسجد أراده الداي أن يكون كبيرا وأنيقا في مستوى فخامته ومحاذيا لقصره الخاص المعروف بـ: "قصر الشتاء" الذي تحول في السنوات الأخيرة إلى مديرية الشؤون الدينية. لذلك وضع "رَحْبَة المْعِيزْ" (ساحة وسوق الماعز) تحت تصرف المهندسين لتوسيع وتجديد المسجد القديم البالي الصغير الذي كان نواته الأساسية التي لايُعرَف عنها سوى أنها كانت موجودة منذ 1612م على الأقل وهي سنة أوَّل ذِكر معروف له في الوثائق والأرشيف الموجود حاليا. ومنذ ذلك الوقت، سوف لن يُعْرَف هذا المسجد التحفة إلا باسم هذه "الرّحبة" بعد أن تُرْجِمَ إلى اللغة التركية ليصبح "قَتْجَاوَة"حسب بعض المصادر التاريخية، أو"قَتْشَاوَة" حسب البعض الآخر، و"كتشاوة" بشكل نهائي في الوقت الحاضر.

أحواض "رَحْبَة" و"بادْسْتَانْ"

جامع كتشاوة، أو جامع "رحبة المعيز"، الجاثم منذ 1795/1794 في القصبة السفلى مطلا بمئذنتيه الشهيرتين على ساحة الشهداء والسفن العائمة على سطح البحر، كان موقعه في العهد الروماني عبارة عن أحواض لجمع مياه الشرب المتدفقة في السواقي من القصبة العليا وحصن الإمبراطور لتموين سكان المدينة التي كانت تنحصر في حي البحرية وما حوله. "البهجة" كان اسمها آنذاك رومانياً اشتهر بـ: إيكوسْيُومْ.
وقبل إعادة بنائه بصورة راديكالية، كانت "رحبة المعيز" سوقا للنخاسة وتجارة "العبيد" الذين يتعرضون للأسر أثناء المعارك البحرية الجزائرية في العهد العثماني ضد الأمم الأوربية المسيحية، لذلك سُمِّيَتْ هذه "الرحبة" في نفس الوقت بـ: "البَادَسْتَانْ".

على أنقاض الهيكل القديم، أقام الداي حسن جامعا جديدا استلهم أشكاله وفلسفته المعمارية من جامع "السيدة" الفاخر الذي كان أعظم وأجمل مسجد في "البهجة" قبل أن يهدمه الاستعمار، وقد قال عنه المؤرخ عبد الرحمن الجيلالي أنه كان "من أجمل وأفخم مآثر (بابا حسن) العمرانية الطيبة..." إذ ".. أنفق عليه أموالا طائلة وبذل في إتقانه.. الجهود الفائقة، وجلب له مواد البناء الجيدة من جهات قاصية ولاسيما سواريه الرخامية التي أمر بصنعها في إيطاليا، واستخدم فيها مهرة (..) الصناع من الأهالي المسلمين والأسرى المسيحيين". وأوقف عليه عقارات وضيعات وهكتارات من البساتين منذ عام 1796م لتمويل صيانته ونشاطاته الدينية – التربوية التي كان يقوم بها 47 موظفا.

خلافات رُوفِيغُو و بِيشُونْ..

كما لم يغفل بابا حسن ضرورة تدعيمه "بكمية وافرة من الكتب النفيسة، حسب الشيخ الجيلالي، ضاع أكثرها..." ولم يبق منها اليوم إلا عددا قليلا محفوظا بخزانة الجامع الجديد".

كتشاوة الذي بناه هذا الداي لا يشبه كثيرا كتشاوة الحالي، لأن الاستعمار الفرنسي حرمه من شكله الأصيل عندما هَدَّمه بشكل شبه كامل، باستثناء بعض الأجزاء الداخلية، كي يحوّله منذ سنة 1832م إلى كنيسة القديس فيليب (Saint Philippe)، بعد أن استولى عليه دوق دو روفيغو في يوم 17 ديسمبر 1831م، ثم إلى كاتدرائية مدينة الجزائر، لكنه لم يتمكن من ذلك بسهولة لأن سكان القصبة وضواحيها تظاهروا ضد هذا الاعتداء على أحد أجمل مقدساتهم وقاوموه بشدة إلى أن سقط من بينهم عددا من الجرحى والقتلى تحت ضربات القوات الفرنسية داخل الجامع وخارجه. كما أدى هذا المشروع إلى خلافات عميقة بين الجنرال دوق روفيغو والمهندس العسكري بِيشُونْ الذي عارضه حتى كادت الخلافات بينهما أن تتحول إلى أزمة سياسية كبيرة.

كتشاوة الداي حسن كان "مُرَبَّع الشكل ومحاطا بعدد كبير من السواري الرخامية الدائرية الضخمة.."، التي نعرفها اليوم من خلال اللوحات الفنية القليلة التي خلَّدتها في تلك الأشهر الأولى للعدوان والاحتلال، وكان مدخله الرئيسي في شارع الدّيوان، عكس ماهو عليه اليوم، حيث تُزينه باب ضخمة خشبية صنعها أكبر فناني حرفة النجارة العاصمية آنذاك، وأمين نقابة النجارين "المْعَلَّمْ اللَّبْلاَبْتْشِي" (هل يكون هذا الاسم تحريفًا فرنسيًا لِـ: البْلاَطْتْشِي أو البْلاَطْجِي؟)، أو"أحمد بن البلاطي" حسب الشيخ الجيلالي، و زَيَّنَ الدايُّ حسن الشارع المقابل للباب الرئيسية للجامع بحديقة جميلة ونافورة مياه من طراز تلك التي تُزَيِّنُ أَفْنِيَة وسط ديار وقصور "القصبة"، حسب عالم الآثار والمستشرق الفرنسي هنري كلاين. لكن لا الباب بقيتْ ولا الحديقة أو النافورة صمدت أمام همجية مَعاوِل الهدم الفرنسية. لذلك، لم يبق من كتشاوة الأصيل الذي بناه بابا حسن سوى بضعة سواري رخامية وباب النجار "اللبلابتشي" التي "أهدتها" سلطات الاحتلال سنة 1843 لجامع علي بتشين بعدما حولته هو الآخر إلى كنيسة "سيدة الانتصار" (نُوتْردام دو لافيكْتْوارْ)، وهذه الباب موجودة حاليا في المتحف الوطني للآثار لمن يرغب في رؤيتها...

أهم ما نسيه الناس هو أن بعد انتهاء الداي من إنجاز مشروعه الضخم، دَعَّمَهُ السُّلطانُ العُثمانيُّ من الباب العالي بمصحف ضخم وفاخر كهدية له وللرعايا الجزائريين الذين كانوا درعا منيعا للخلافة الإسلامية في غرب البحر المتوسط، وهو اليوم محفوظ بنفس المتحف سابق الذكر.

اعتداءات الاحتلال وخيبة الاستقلال

لم يحترم الجنرال دوبورمونت تعهداته باحترام الأملاك وحرية ممارسة الشعائر والعبادات التي ضمنها وثيقة الاستسلام الشهيرة في 5 جويلية 1830 والتي وقعها الداي حسين قبل رحيله إلى الإسكندرية. ولم تكن هذه الخيانة غريبة عن سلوك الأوربيين تجاهنا؛ فقد كانت أشهر سابقة أوربية مسيحية في نقض العهود تلك التي حصلت في الأندلس عند سقوط غرناطة في 1492م على يد فرناندو وإيسابيل.

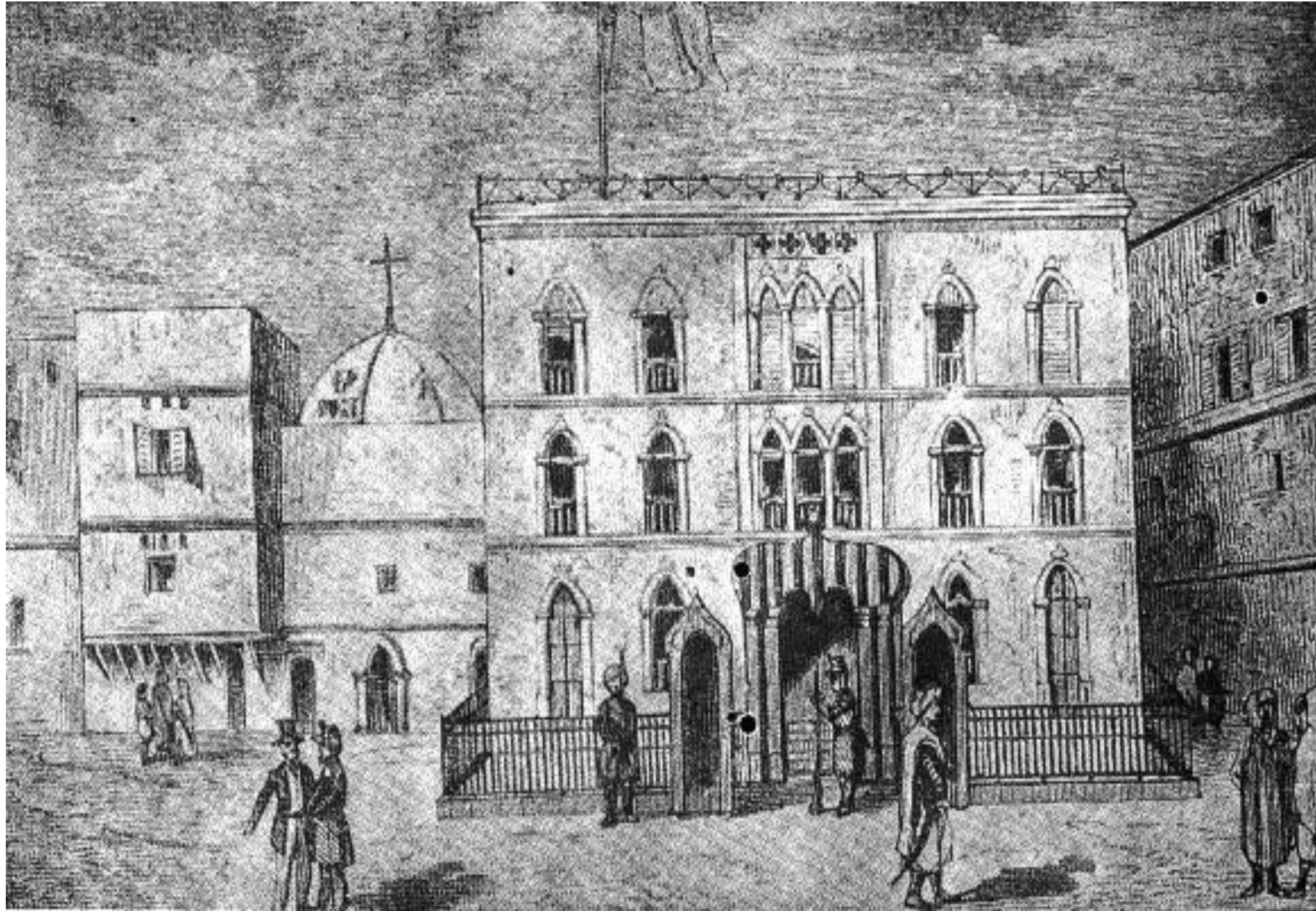
بعد التراجع عن الالتزامات، بدأت سلسلة الاعتداءات الاستعمارية على المقدسات الإسلامية، فاسْتُبْدِلَتْ، بعد سنوات من توقيع وثيقة الاستسلام، مئذنة جامع كتشاوة بالأجراس وأصبح هذا الصرح الإسلامي يحمل اسم كاتدرائية الكاردينال لافيجري، كما وُسِّعَ بناؤه وأضيفت له الكثير من التحويرات فيما بين 1845م وسنة 1860م التي شهدت تقليص إرتفاع مئذنته بـ: 15مترا، بعد أن حطمت الصاعقة في 1851م الصليب الذي كان يعلوها...

بعد هذه التشويهات المعمارية، أصبح جامع كتشاوة أقرب في شكله إلى كنائس العصور الوسطى بأوربا منه إلى المساجد، ولم تكن بأيدي المسلمين حيلة سوى الصبر حتى 5 جويلية 1962 كي يسترجعوه ويصلوا فيه أول صلاة جمعة بعد 132سنة من الأسر، حضرها عدد كبير من الشخصيات الوطنية الدينية والثقافية كالمؤرخ أحمد توفيق المدني والشيخ عبد اللطيف السلطاني.

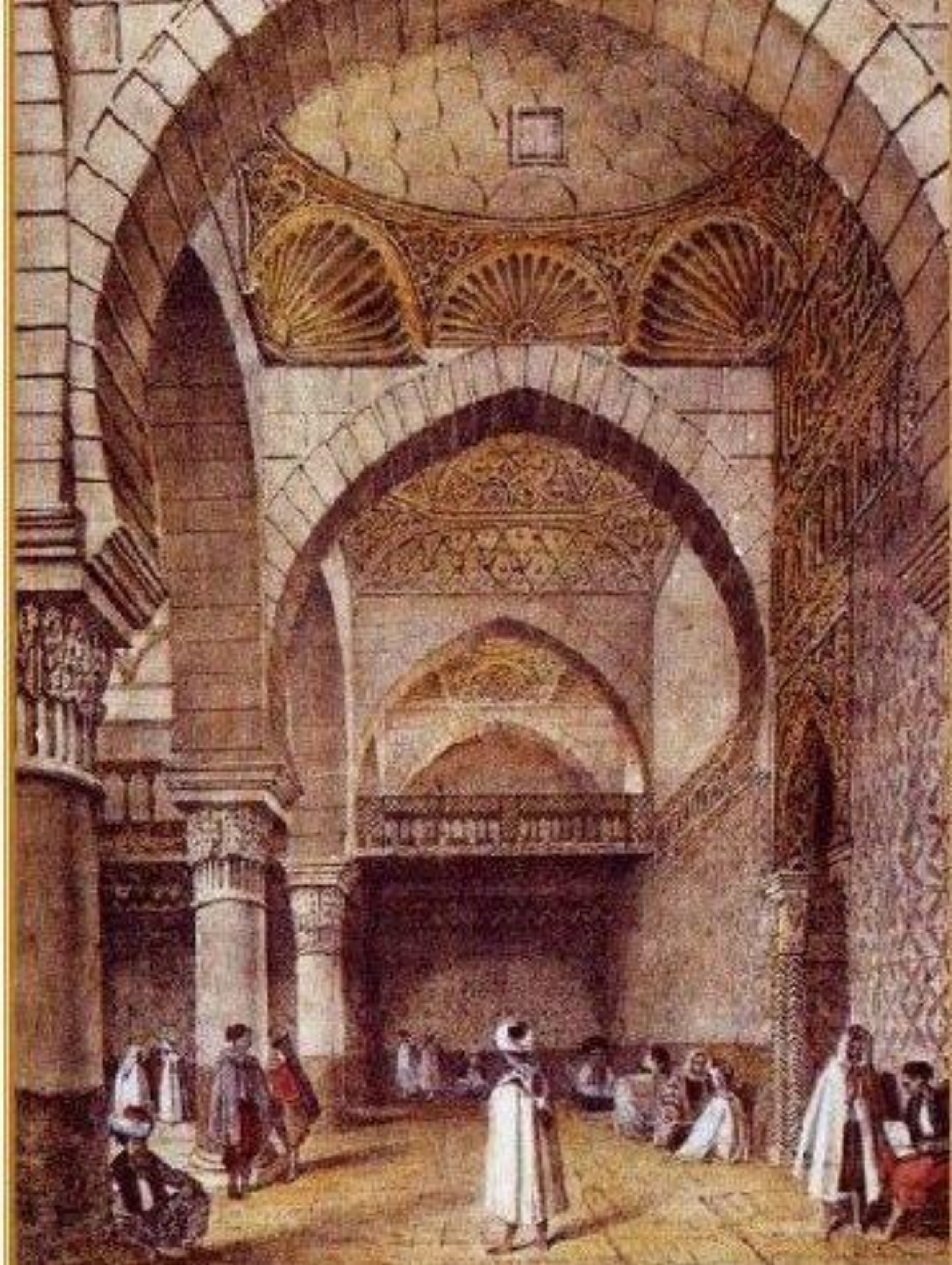
توجد اليوم على مدخل جامع كتشاوة شارة كُتِب عليها اسمه وعبارة "آثار ومناظر"، لكن توجد أيضا إلى جانبها إحدى أكبر مزبلات القصبة وأكثرها تَعَفّناً، تزول أحيانا ثم تعود أحيانا أخرى، لم تستثر عطف لا شيوخ البلد الجدد ولا وكيل الأوقاف ولا قايد الزبل ولا "المِزْوَرْ" ولا أعيان البلد المعاصرين، ولا حتى منتجي الزبل منذ اخْتلاطِ الحَابِل بالنَّابِلِ..."والعياذ بالله"...

هذه الظاهرة "السّريالية" لم يعشها كتشاوة لا في عهد الأتراك رغم ما يشاع عن خشونتهم و"مساوئهم"، ولا في عهد الاحتلال رغم همجيته..، هذه الظاهرة "مكسب" من "مكاسب" جيلنا من جزائريي الاستقلال، ويبدو أننا ساهرين على استمراريته بأمانة وتفاني في انتظار الموقف الحاسم من الداي الجديد إنشاء الله... !

هذا هو جامع كتشاوة الأصلي، على اليسار، الذي بناه الجزائريون خلال العهد العثماني في صورة نشرتها مجلة فرنسية سنة 1938 هي L'Algérie Catholique (الجزائر الكاثوليكية). البناية على اليمين هي قصر "دار حسان باشا"، وهي حاليا مديرية الشؤون الدينية. وضع المحتلون على قبة الجامع الصليب إثر مصادرته بالحديد والنار.



جامع كتشاوة كما كان قبل الاحتلال الفرنسي. اللوحة بريشة الفنان البريطاني ويليم وايلد (William Wyld) (1806-1889).



جامع كتشاوة في نسخته الجزائرية الأصلية بريشة الفنان البريطاني ويليم وايلد



جامع كتشاوة في نسخته الفرنسية حيث هدمت إدارة الاحتلال الجامع تهديما كاملا وبنَتْ محلَّهُ هذه الكنيسة المستوحاة من الأسلوب المعماري الكنسي البيزنطي. غداة استقلال البلاد في 1962م، استرجعت الدولة الجزائرية هذه البناية لتحوّلها إلى جامع مع الإبقاء على شكلها مثلما بنته فرنسا الاستعمارية. لكن الجامع الأصلي لم يكن بهذا الشكل. بجانب الجامع، قصر حسان باشا الذي كان دايا على الجزائر من 1792م إلى غاية وفاته في 1798م.



لوحة مائية لجامع كتشاوة تتقدمه دار عزيزة، وهي البناية البيضاء الناصعة ، على اليمين، التي كانت ملاصقة لـ: "دار السلطان القديمة" أو "دار الإمارة" أو "قصر الجنينة" قبل تهديمه من طرف المحتلين الفرنسيين في منتصف القرن 19م.



جامع كتشاوة في صورة فوتوغرافية وإلى جانبه دار حسان باشا



جامع كتشاوة و"دار حسان" وشارع لالير/زرينة في عمق الصورة في لوحة مائية



جامع علي بتشين.. شاهد على 4 قرون

الشخصُ الذي مَوَّل بناء هذا المسجد العتيق لم يكن شخصا عاديا..، لقد كان يسبح في الثراء ويملك من الجاه ما لم يجعله يتصور أبدا أن هذا العمل الخيري لِوَجْه الله سيستولي عليه الفرنسيون ذات يوم ليعبثوا به كما يشاؤون...

بين ساحة الشهداء و ثانوية الأمير عبد القادر بالعاصمة، توجد وسط شارع باب الوادي بناية صغيرة تعلوها بضعة نوافذ ومئذنة تبدو غريبة من حيث الشكل والارتفاع المحدود، فلاهي تشبه المسجد تماما ولا هي تشبه بقية ديار وقصور "القصبة"، لكن على مدخلها وضعت السلطات المحلية إشارة إشهارية كتب عليها: "آثار ومناظر"، وبالبنط العريض في الأسفل: جامع علي بتشين.

يعد هذا المسجدُ الوحيدَ في "القصبة" الذي بُني فوق محلات تجارية ويتميز عن غيره بهندسة معمارية فريدة، بحيث ترتفع به قاعة الصلاة عن سطح الأرض بحوالي 5 إلى 6 أمتار، لتفسح المجال لقيام نشاط تجاري أسفلها عبر عدد من المحلات. من بين هذه المحلات حمّام معروف استمر وجوده إلى غاية السنوات الأولى للاحتلال على الأقل. ويعتقد تُولْ شُوفَالْ (Tal Shuval)، الباحثُ الإسرائيليُّ المطَّلع على تاريخ مدينة الجزائر في العهد العثماني، بأنه بني على موقع سجن أو قصر قديم... ومهما بدا هذا الجامع اليوم متواضعا للعيان، فإنه يبقى مع ذلك من أقدم وأوسع وأجمل مساجد "البهجة" لولا التشوهات المتتالية التي تعرض لها عبر التاريخ.

الشخص الذي مَوّل بناء هذا المسجد العتيق لم يكن شخصا عاديا، لقد كان يسبح في الثراء؛ كان يملك قصرين فاخرين بمدينة الجزائر، حوالي 500 عبدا، وعددا آخرا من العبيد والخدم موزعين بين العمل في التجديف على سفنه وزوارقه العديدة والنشاط الفلاحي في ضيعاته وبساتينه. ولا ضرورة للانزعاج أوللخجل من عبارة "العبيد" لسبب بسيط يتمثل في كَوْنِ الاقتصاد العالمي كان لا يزال يعتمد على نظام العبودية من جهة ولم يكن خصوصية جزائرية أو إسلامية، و من جهة أخرى لِكَوْنِ الكثير من المسيحيين كانوا يفضلون العبودية في الجزائر على العيش أحرارا في بلدانهم، حتى أن عددا منهم رفضوا العودة من حيث أتوا عندما جاء من بلاد النصارى من يَفْديهم بالمال ويعيد لهم حُرِّيتَهم. وباختصار، لقد كانوا في بعض الأحيان أكثر حرية وأكثر نعيما في عبوديتهم الجزائرية حتى من أهل البلد أنفسهم.

عندما كان بتشين يتكلّم باللغة العربية كانت لَدَيْه لكنة أعجمية غريبة عن الجزائر. السبب..؟ لأنه قبل حلوله بها كان إيطاليًا من منطقة توسكانيا في شمال البلاد، وذلك قبل

أن يقع أسيرا في قبضة البحرية الجزائرية. ولا شك أنه يكون قد حمد الله طوال حياته على هذه "المصيبة" / النعمة المباركة التي حولته من لا شيء إلى أحد أهم وأقوى وأغنى الشخصيات السياسية - العسكرية في العالم بين 1630 و1646م بعد أن تخلى عن المسيحية واعتنق الإسلام.
بيتشيني (Piccini)، أو بيتشينيني (Piccininni) حسب مصادر أخرى، أصبح في ظرف سنوات "وْلِيدْ البلاد" بأتم معنى الكلمة ومن وجهاء مدينة سيدي عبد الرحمن، لكن في "طبعة جديدة" دخل بمقتضاها حتى اسمه في الإسلام وتعرّب فأصبح: علي بتشين. ثم ارتقى في سُلَّم الرتب العسكرية البحرية الجزائرية التي أصبح من كبار مجاهديها إلى أن تَوَلَّى قيادتها العامة في النصف الأول من القرن 17م وحاز على لقب "الرايس" علي بتشين الذي يعادل "الأميرال" في العصر الحديث. وأصبحت ترتعد لذكر اسمه مدن وقرى بلدان جنوب أوربا الساحلية المطلة على البحر المتوسط والمحيط الأطلسي.. بل وحتى السلطة المركزية نفسها في الباب العالي.
تزوج الرايس علي بتشين من إحدى بنات سلطان جبل "كُوكُو" القريب من مدينة الجزائر، و دَعَّم بالتالي نفوذه بتعاطف وتضامن منطقة القبائل معه بفضل المصاهرة. وهو لم يبدع في شيء بقيامه بمثل هذه المبادرة لأنها كانت موضة العصر في مجال التحالفات السياسية. أَلَمْ يتزوج خير الدين بربروس نفسه من امرأة جيجْلِية عند حلوله بجيجل لمساعدة أهلها؟ ألم يصاهر صالح باي بن مصطفى "باي البايات"، الذي "قالوا العْرَبَ" "ما نَعْطوهْ هيهات"، آل المقراني في مجّانة ببرج بوعريريج وهو في نفس الوقت صهر الباي، الذي سبقه على بايلك قسنطينة، سي أحمد القُلّي..؟
أصبح بتشين إذن بمصاهرته لسلطان كوكو الرجل الأقوى بامتياز في "دار الجهاد" الذي تحدى السلطان العثماني وأثار ارتباكه إلى الحد الذي دفع بهذا الأخير إلى إرسال كوموندو خاص إلى الجزائر ليأتيه برأسه في 1644م... لكن دون جدوى. كيف؟ هذه القضية ترجع إلى خلاف وقع بينه وبين الداي بلغ درجة من التعقيد استدعت تدخل الباب العالي... غير أن السلطان أساء تقدير قوة بتشين ونفوذه، وبالتالي بمجرد حلول مبعوثيه بالمرسى كان الأميرال يُحضِّر ضربته دون اكتراث... ولما شعر الكوموندو المُكَوَّن من عَوْنَيْن بالخطر من الفخّ المُهَيَّأ له، لجأ إلى ضريح سيدي عبد الرحمن، بنصيحة من الداي والديوان، للاحتماء من بطش الأميرال و الاستفادة من حصانة مقام الوليّ الصالح، وبقي بداخله طوال عدة أيام حتى هدأ غضب علي بتشين وأعطاه "الأمان".
لم ينته مسلسل عصيان بتشين عند هذا الحد، بل سرعان ما قاد انقلابا عسكريا بمساعدة بعض قبائل فْلِيسَة، لم يُكتب له النجاح، ضد باشا الجزائر الذي عَيَّنَهُ السلطان، ودخل في تمرد ومواجهة صريحة و مفتوحة ضد هذا الأخير إلى أن...اغتيل مسموما، حسب عدد من المصادر التاريخية، في بداية خمسينيات القرن 17م. ومع ذلك أُقيمَتْ له جنازة فخمة وضخمة تليق بمرتبته لم تشهد مدينة سيدي الثعالبي مثلها أبدا.

لم ينس علي بتشين، رغم طموحاته السياسية في الاستيلاء على الحكم، ككل السياسيين الجزائريين الذين سبقوه والذين خلفوه إلى يومنا هذا، أن يعمل لآخرته كما يعمل لدنياه، فبنى المسجد الذي لازال يحمل اسمه إلى اليوم بالقرب من ساحة الشهداء بمفترق طرق شارعي باب الوادي والقصبة، على مساحة 500 متر مربع، والذي كان قمة في الفن والجمال... لذا يبدو أن "هواية" تدشين المساجد في الجزائر المعاصرة ليست سوى صيغة مكيفة للسُّنة التي بدأتها الأجيال السياسية العتيقة من باب "أعمل لآخرتك"...!!.

انتهى علي بتشين من إنجاز مسجده الذي بعث البهجة والامتنان في قلوب أهل المدينة في سنة 1622، وبقي شاهدا على مآثره بعد وفاته وشامخا بمئذنته العالية التي سيضع الاستعمار الفرنسي حدا لشموخها بتقليص ارتفاعها من 15م إلى بضعة أمتار وتشويه شكلها تشويها جذريا في سنة 1860.

فرنسا "حقوق الإنسان" و"العبء الحضاري" لم تكتف فقط بِبَتْرِ المئذنة، بل حولت منذ 1830 هذا المسجد الأصيل إلى "الصيدلية المركزية" لجيش الاحتلال قبل أن تلحقه بالهياكل الدينية المسيحية ليصبح معروفا باسم: كنيسة نُوتْردامْ دُو لافيكْتْوار. وغيَّرَتْ معالمه تغييرا راديكاليا أفقده الروح المعمارية الإسلامية ونكهته الشرقية ووَجْهَهُ الأصلي "البيتشيني" الذي لم تعثر الجزائر المستقلة بعد سنة 1962م سوى على آثار محدودة منه تشهد على أصالته الأولى. وعندما حوَّلتْه إدارة الاحتلال إلى كنيسة كانت قد هدمت، قبل ذلك، أعظم وأجمل مسجد جامع في الجزائر في العهد العثماني عرف بـ: جامع السيدة، بالإضافة إلى عشرات المساجد الأخرى، لذلك لم يكن إرث علي بتشين الضحية الأولى ولا الأخيرة لهمجية الاستعمار الفرنسي.

عندما أصبح هذا المسجد كنيسة مسيحية، استولى المحتلون على باب جامع كتشاوة الفاخرة التي صنعها ونحتها أحد كبار حرفيي الجزائر آنذاك أمين النجارين "اللبلابتشي"، أو "البْلاَطْشِي"، لِيُزَيِّنُوا بها كنيستهم الجديدة على حساب المقدسات الدينية الإسلامية.

ما نسوه هو أن اللهَ يُمهل ولايُهمل...

في سنة 1962م استرجعت الجزائر استقلالها وأُعيدت جميع الأوقاف الإسلامية التي اغتصبها الفرنسيون إلى المسلمين، فأزيل الصليب من مئذنة "كنيسة نوتردام دولافيكتوار" وصلى فيها الناس بعد أن كُتِب على مدخلها: "جامع علي بتشين"، وباللغة العربية... لغة القرآن. لقد كانت لحظات الاسترجاع هذه لحظات تاريخية قوية وسعيدة دون شك للذين أسعفهم الحظ في أن يعيشوها... و الحمدلله.

هكذا كان جامع علي بتشين ومئذنته والعين أسفلها، حيث يرتوي الناس إلى اليوم، خلال السنوات الأولى للاحتلال الفرنسي للجزائر قبل أن يتعرض للتشويه وللتوظيف في مجالات إدارية/عسكرية ليصبح لاحقا كنيسة سيدة الانتصار (Notre Dame de la Victoire).



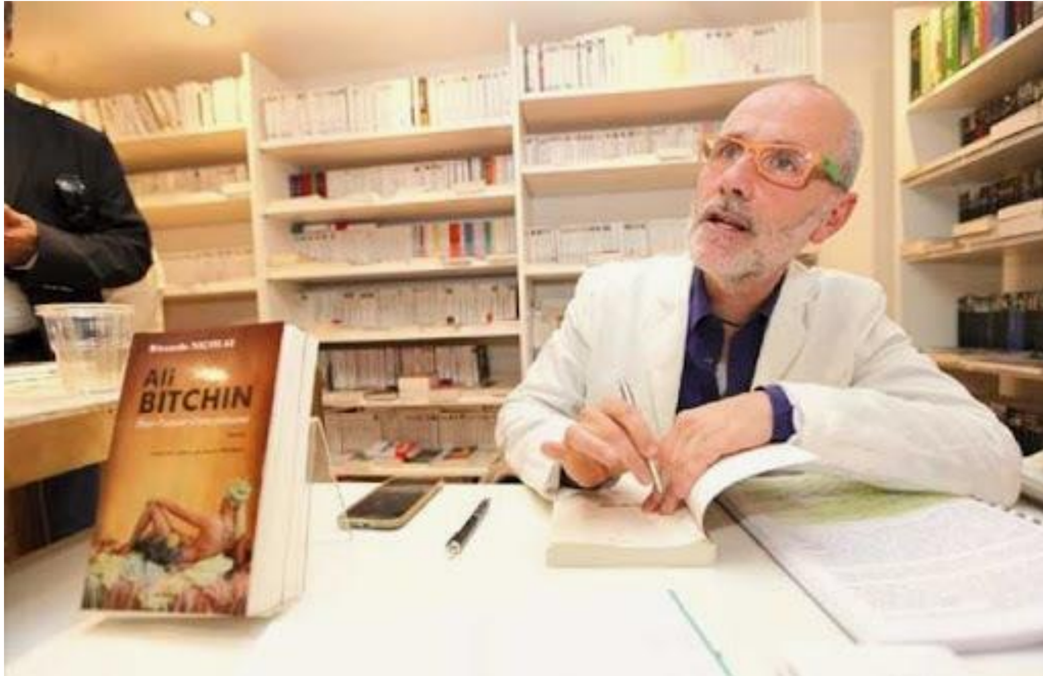
جامع وعين علي بتشين في شارع باب الوادي المؤدي إلى الباب التي تحمل نفس الاسم



جامع الرايس علي بتشين مبتور المئذنة في حومة "زوج عيون" منذ العهد الاستعماري قبل ترميمه قبل بضع سنوات. وفي الخلف على يسار ساحة الشهداء وقبة الجامع الجديد.



الروائي الإيطالي والصديق ريكاردو نيكولاي أصدر قبل بضع سنوات رواية عن علي بتشين ابن بلدته "ماسَا"، الواقعة في توسكانيا، وتمت ترجمتُها إلى الفرنسية ونشرُها بالجزائر. لأوَّل مرة منذ أن حط علي بتشين أقدامه في مدينة الجزائر في بداية القرن 17م تتذكره إيطاليا وبلدته وأحد أبناء بلدته تحديدا في عمل مكتوب. هذه الرواية اقتُبِستْ في مسرحية تم عرضُها في إيطاليا وفي الجزائر معًا قبل بضع سنوات، وتبعت هذه الرواية نسخة أخرى في شكل قصة مصوَّرة للأطفال.



جامع علي بتشين بعد ترميمه من طرف الدولة الجزائرية قبل بضع سنوات وإعادة بناء ما تم بتره من صومعته خلال الحقبة الاستعمارية.

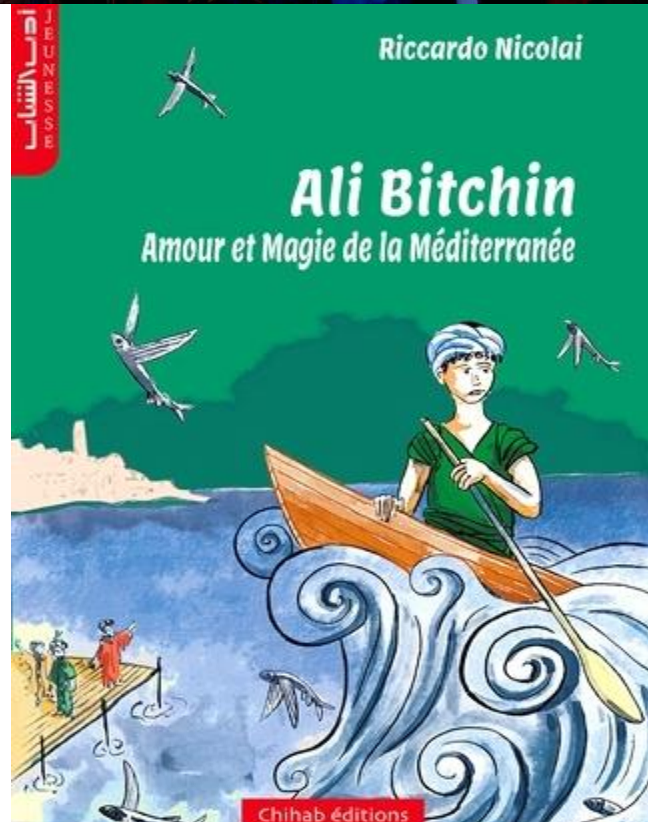


جامع علي بتشين والصومعة بعد ترميمه.



الجامع والعين في أسفله على اليمين بعد المحلات التجارية.





باب جامع الرايس الجزائري العثماني، التوسكاني الإيطالي الأصل، علي بتشين.



صورة مركبة ثلاثية الأبعاد لجامع علي بتشي



الجامع الجديد : خدعة المسيحي والإبداع الجزائري

لِلمَسَاجِدِ أَيْضًا حياة لا تختلف كثيرا عن حياةِ البشر..لها شبابٌ وشيخوخةٌ..ولها فترات قوة وفترات انتكاس..الجامعُ الجديدُ كان إحدى هذه المساجد التي يُقدَّرُ عُمْرهَا بِمئَاتِ السِّنِين.

تقول الأسطورة إن الداي طلب في أواسط القرن 17م من مهندس مسيحي كان أسيرا بالجزائر أن يُشيِّد له مسجدا كبيرا وجميلا بوسط مدينة سيدي عبد الرحمن في قلب أرقى أحيائها: حي البحرية وحي القيسَرِية، حيث ساحة الشهداء الحالية. فاغتنم الأسير الفرصة للمكر والانتقام من المسلمين بحيث وضع تصميما جميلا للمسجد الذي سيُعرف إلى يومنا هذا بـ "الجامع الجديد". جامع فيه الكثير من جمال قبب الأتراك العثمانيين، التي كانت موضة العصر في إمبراطورية آل عثمان، تُذَكِّرُ بجامع السلطان سليم وغيره... لكن فيه أيضا شيءٌ، نَوْعًا ما، غريب وهو شكله العام الذي ليس سوى شكل صليب من صلبان المسيحيين لا يمكن الانتباه له إلا بمشاهدته من الأعلى.

في سنة 1660م/1070 هجرية تم إنجاز هذا الصرح الديني الضخم بمقاييس ذلك العهد... وفي نفس الفترة تم إعدام المهندس المسيحي بعد أن تفطن مسؤولو البلاد لدسيسته... هذا ما تقوله رواية ضعيفة التداول بين الناس منذ ماقبل الاحتلال الفرنسي وأوردها الألماني هايْنْريشْ فونْ مالْتْسانْ، الذي زار الجزائر في السنوات الأولى للاحتلال، في كتابه "ثلاث سنوات في شمال إفريقيا" الذي ترجمه إلى اللغة العربية الدكتور أبو العيد دودو... أما ما تقوله الحقائق التاريخية المؤكَّدة فشيء آخر تماما...بل لا يوجد أيُّ ذِكر لهذا التحايل المزعوم في الوثائق والسجلات الخاصة ببناء الجامع الجديد المتوفرة في الأرشيف الجزائري الذي يعود إلى العهد العثماني، رغم كثرة تفاصيلها التي تتضمَن حتى الأجور التي كان يتقضاها كلٌّ من فريق البنَّائين المسلمين ونظيره من المسيحيين الذين كانوا أسرى في الوقت ذاته، وعلى رأسهم مديرهم المهندس الأسير الذي تُنسَب له عملية التحايل المزعومة رمضان العلج.

كذلك ما تغفله الرواية الشعبية ويقوله الأرشيف هو أن رمضان العلج لم يكن المسؤول الوحيد عن إنجاز مشروع الجامع الجديد، بل تقاسم مختلف وظائفه ومراحل تجسيده مع كبار المهندسين المعماريين الجزائريين في المدينة، وعلى رأسهم المْعَلَّمْ موسى الثغري الأندلسي الحِمْيَري وابنه الحاج إبراهيم، ولا يُعقل أن لا يتفطن هؤلاء جميعهم ورغم كفاءتهم العالية بالمقاييس الدولية آنذاك إلى الخدعة المزعومة. لذلك، تبقى هذه الرواية الشعبية عن الخدعة المفترَضة للمهندس النصراني الأسير، في حدود ما يتوفر من

معلومات موَثَّقة حتى الآن، مجرَّد أسطورة قد تكون ثمرة إشاعات آنذاك في أوساط مَن لم يتقبَّلوا شكل الصليب في الجامع، كما قد تكون "خدعة" روائية حَبَك بها القَصَّاصون الشعبيون والقوَّالون رواياتهم لتشويق جماهيرهم في الأسواق والفضاءات الشعبية، وربما يكون المعارِضون السياسيون هم مَن يقف وراء هذه النسخة المؤامراتية لقصة بناء الجامع الجديد وأضافوا لها بعض توابلهم لتحريض وتأليب الرأي العام ضد السلطة...

في سنة 1660م، إذن، وبتمويل مختلفٍ عن المألوف، تم إنجاز الجامع الجديد حيث شهد المشروع النور بأموال "سُبُل الخَيْرات"، المؤسسة الوَقْفِيَة الحنفية المذهب التي كانت تجمع وتُسيِّر التبرعات والأموال الخيرية وتنفقها على مختلف النشاطات الخاصة بالأحناف، مع العلم بأن مذهب أبي حنيفة كان المذهب الرسمي لـ: "الأتراك" في الجزائر. كما كانت هذه الهيئة الوقفية تُمَوِّل بناء المؤسسات الدينية بما فيها تأسيس الأحباس الجديدة. ففي الوقت الذي كانت فيه المساجد تُنْجَز عادةً من طرف الأعيان والأثرياء الذين كانوا حريصين على ترك صدقة جارية قبل وفاتهم، وكانت تحمل أسماء أصحابها في أغلب الأحيان مثل جامع صَفَر، أو سفير، وجامع علي بتشين، جاء الجامع الجديد إلى الوجود بتبرعات جماعية، شاركت فيها قوات الجيش المعروفة بـ: الإنكشارية وكذلك العامة من الناس، لذلك فهو ينتمي إلى ذلك العدد القليل جدا من بيوت الله التي أقيمت في الجزائر بمبادرة جماعية.

أمَّا عن تفاصيل إنجاز المشروع، فَقَد تم العثور على نقش عتيق بهذا "الجامع الجديد"، الذي كان حديثًا فعليًا في عهده مقارنة بغيره من الجوامع والمساجد في المدينة، يَذكُرُ بأن مدير أشغال إنجازه ليس سوى الحاج حَبِيبْ الذي يُحتمل أن يكون مسلما تركيًا/عثمانيَ الأصل كما قد يكون أندلسيا كما جرت العادة في أوساط حرفة العمارة و البناء. غير أن وثائق الأرشيف الجزائري الذي يعود إلى فترة ما قبل الاحتلال تُشير إلى قرائن تبدو حاسمة تؤكد أصله العثماني.

البداية كانت زاوية

كانت البقعة التي أُنْجِزَ فوقها الجامع الجديد مقرا لزاوية مولاي بوعنان التي تضمنت مدرستين: "المدرسة العنَّانية" و"مدرسة بوعَنَّان" قبل سنة 1660م، أما محيطها فكان أرقى الأحياء على الإطلاق بمدينة الجزائر وقلب المدينة النابض، حيث يلتقي المثقفون وتكثر المكتبات والوراقات والنسّاخون وحيث كان يوجد حي القيسرية بزاويته الشهيرة وهو حي العلماء والطلبة والفقهاء والشعراء والأدباء. وكانت هذه الحَوْمَة أيضا مركزا لعدد من الحِرف الهامَّة وعالية القيمة الاقتصادية والاجتماعية في النسيج الصناعي الذي كانت تتوفر عليه المدينة مثل الصياغة وصناعات الحرير. كما كان محيط زاوية مولاي بوعنان حيًّا تكثر فيه المقاهي الشعبية الممتدة حتى حي البحرية، مثل "القهوة الكبيرة" و"القهوة الصغيرة" وكذلك الفنادق مثل "فندق القهوة الكبيرة"، الذي حوّله الاستعمار في سنواته الأولى إلى "فندق البورْصة". ولم تكن زاوية مولاي بوعنان بعيدة عن عدد من الجوامع، مثل الجامع الكبير وجامع السيدة الفخم الذي كان موضعه

حيث محطة حافلات النقل الحضري حاليا، والمساجد الصغيرة، مثل جامع الرّبْطَة، أومسجد الحَوَّاتين، الذي كان يقع أسفل الجامع الجديد بمحاذات سوق السمك وباب السَّرْدين، أو باب الديوانة، التي تعتبر إحدى أهم أبواب مدينة الجزائر في العهد العثماني.
في هذه البقعة الحيوية، التي كانت بمثابة قلب المدينة بل قلب الدولة الجزائرية النابض، تَمّتْ إقامة الجامع الجديد في شكل هندسي معماري رائع أخذ الكثير من معالمه من الفن المعماري البيزنطي المجسَّد في كنيسة أيا صوفيا بتركيا التي حوَّلها العثمانيون إلى جامع من أجمل ما أُنجِز من جوامع ومساجد العالم. كما تَزَوَّدَ الجامع الجديد بِبَعْضِ خصوصيات الفن المعماري العثماني الشائع في ذلك الوقت، وتتمثل أهم نقاط قُوَّتِهِ المعمارية في قبته الجميلة الضخمة التي ترتفع على مدى 24 مترا، والمنبر المرمري الذي صُنع في إيطاليا بأمر من الداي والذي حُوّل إليه من جامع السيدة من طرف المحتلين الفرنسيين سنة 1832م بعد الشروع في تهديمهم هذا الأخير... وهذا المنبر اليوم يُستَخدَم كمَصْعد إلى سدة القراءة بوسط الجامع. كما ورث الجامع الجديد عن جامع السيدة السقف المزخرف الموجود حاليا فوق بابه الرئيسي والساعة الجدارية الضخمة التي وُضعت على مئذنته من 1852م حتى بداية سنوات 1980م. وعن جامع كتشاوة، ورث أيضًا مصحفا تاريخيا فاخرا جاء كهدية من السلطان العثماني في القرن 18م لداي الجزائر، وهو اليوم ملك لإدارة المتاحف والآثار منذ سنة 1962م.

عهد التهديدات الاستعمارية

بسبب قُرْبِهِ من سوقِ السَّمَكِ، اشْتَهَرَ الجامعُ الجَديد بتسمية: "جامع السَّمَّاكَة" (Mosqué de la Pêcherie) طيلة العهد الاستعماري. وبسبب محاذاته لحي البحرية وأنفاق مالاكوف، التي تمتد تحت أرضية ساحة الشهداء من الميناء حتى نواحي "الزُّوجْ عْيُونْ" في منطقة مركزية وحيوية إلى غاية اليوم، سوف تهدده عدة برامج عمرانية استعمارية ارتأت تهديم الجامع الجديد والأحياء المحيطة به لبناء مدينة حديثة تطغى عليها ناطحات السحاب كانت ستحجب النظر، وحتى الشمس نسبيًا، عن غالبية السكان الذين يسكنون خلفها، وهنا يكمن الفرق مع فن العمارة الإسلامي الذي يقوم على مبدأ "لا تحجب الشمس عن جارك". وقليل هم المهندسون الذين وقفوا ضد هذا المشروع/الجريمة العمرانية وحرصوا على حماية الجامع الجديد وإدماجه في النسيج العمراني الجديد مثل المهندس الفرنسي الكبير سوكار(Socard)... وهكذا، فإن القضاء والقدر سمحا للجامع الجديد بأن يصمد في وجه كل المؤامرات والطوارئ التي هبت عليه عواصفُها منذ أن شهد النور في منتصف القرن 17م، بما فيها الكوارث الصحية والطبيعية التي تعرضت لها مدينة الجزائر على غرار مرض الطاعون وزلزال 1817م والحملتين العسكريتين الإنجليزيتين الأولى في 1816م بقيادة اللورد إيكْسْموثْ (Lord Exmouth) والثانية في 1824م. كما سَلِمَ الجامع الجميل، الذي شهد النور بفضل تكاثف جهود وكفاءات البنَّائين المسلمين، وعلى رأسهم الأندلسيون، والأسرى النصارى وحتى أحد خيرة النجارين اليهود في المدينة، بأعجوبة من مخططات المهندس شاصيرْيُو(Chasseriau) في منتصف

القرن 19م الذي نقل الشكل المعماري لشارع ريفولي (Rue Rivoli) الباريسي إلى مدينة الجزائر مُنْشِأً بذلك شارع تشي غيفارا الذي سيليه وفق نفس النمط المعماري لاحقا شارع وزيروت يوسف الحالي. وسَلِمَ الجامع حتى من ضعف الحس المدني بعد 1962م. بل حدث أن تذكَّره بأعجوبة مسؤولو المدينة منذ ثمان سنوات وأكرموه بترميمات واسعة جددت قواه وقدرته على الصمود أكثر ومددت عمره إلى إشعار آخر فهنيئا له بشبابه الجديد...

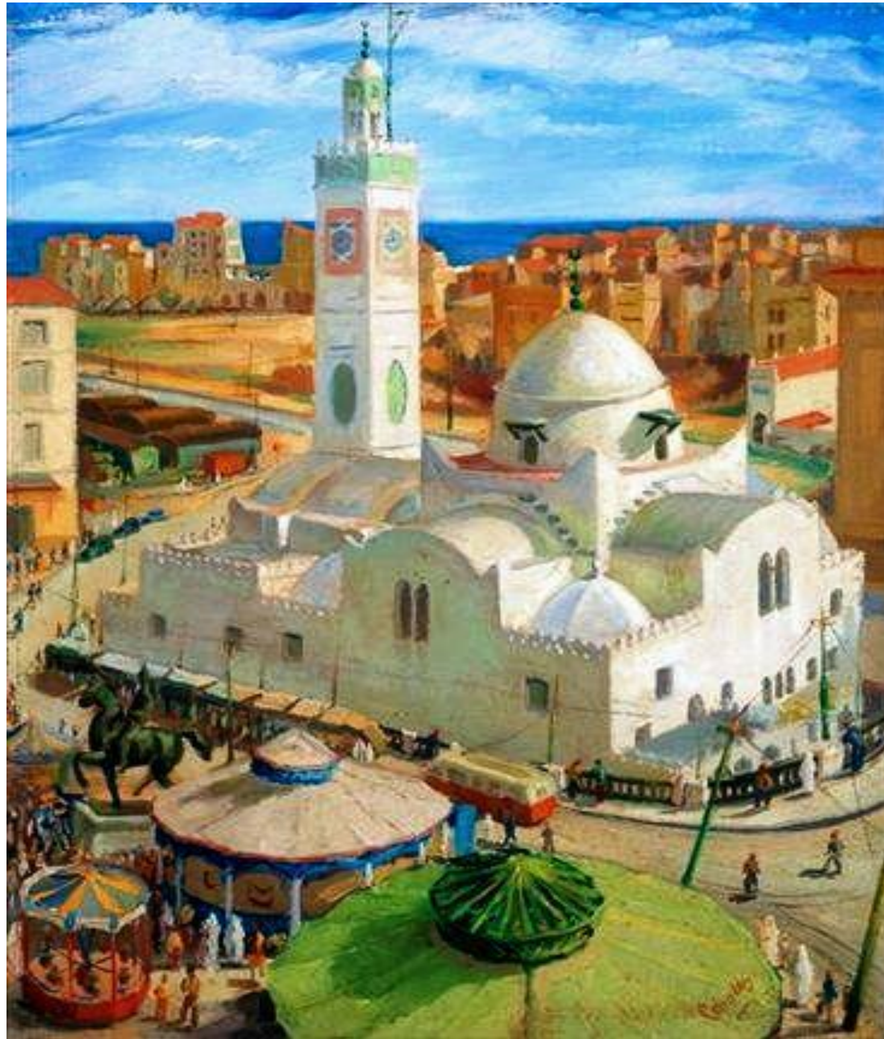
الجامع الجديد في نهاية القرن 19م حين كانت أسسه تلامس مياه البحر على الشاطئ وقبل أن يصبح جزءا من ساحة الشهداء. تظهر الساحة على اليسار حيث تمثال دوق أورليانز وكانت حينها أصغر مساحة مما أصبحت عليه لاحقا.



الجامع الجديد بمئذنته المغاربية/الأندلسية متوسطا ساحة الشهداء قلب مدينة الجزائر النابض خلال العهد العثماني. الصورة تعود إلى نهايات العهد الاستعماري.



الجامع الجديد في لوحة فنية تعود إلى أربعينيات القرن 20م عند تهديم العمران القديم لبناء شارع أوّل نوفمبر



الجامع الجديد حاليا وقبته التي تُذكِّر بالأساليب المعمارية البيزنطية كما في جامع آيا صوفيا في إسطنبول بتركيا



الجامع الجديد...منظر جوي يظهر فيه بوضوح شكل الصليب



الجامع الجديد حاليا



جامع "سفير" : مِن صَفَرْ بن عبد الله إلى...أَحْمَد مَرَّانِي

بين "بِيرْ الجَبَّاحْ" وقهوة العْريشْ يختفي بعيدا عن أنظار السواح أحد أقدم وأجمل مساجد قصبة الجزائر: جامع "سفير" الذي ساهم في صنع تاريخها وتنشيط وتيرة الحياة بها دون ضجيج، لذلك بقي شبه مجهول حتى عند أبناء المدينة.

أسلم أحد الأسرى المسيحيين في يوم من الأيام على يد خير الدين بن يعقوب، الشهير بـ: بربروس، أثناء السنوات الأولى للوجود العثماني بالجزائر، واتخذ لنفسه اسم: سافر بن عبد الله الذي يُحتمل جدا أن يكون تحريفا لـ: َصَفَرْ، وهو اسم كان شائعا بكثرة في الأوساط التركية/العثمانية بالجزائر. ثم أصبح هذا الوافد الجديد إلى رحاب الإسلام أحد رفقاء سلاح القائد العثماني، صاحب الذقن الكثيف الأشقر، الذي اشتق منه الأوربيون لقب Barbe rousse، بحيث ساهم في العديد من معاركه ضد الإسبان دفاعا عن الجزائر.

البدايات الروحية

لتتويج انتمائه الروحي الجديد وتقربا من الله سبحانه وتعالى بنى في سنة 1534م مسجدا جامعا بقي يحمل اسمه حتى يومنا هذا. وبطبيعة الحال، لاشك أنه قام، كما جرت العادة في ذلك الوقت، بطقوس الإعلان الرسمي عن اعتناق الإسلام من خلال ركوب حصان جميل، مُزَيَّن ومُسَرَّج، على نفقة السلطة، يجوب على ظهره السوق الكبير من باب عزون إلى باب الوادي رافعا إصبعه إلى السماء ومرددا بصوت عالٍ: "لا إله إلا الله، محمد رسول الله".. متبوعا في الخلف بمجموعة من الفرسان الأتراك/العثمانيين والرايات الإسلامية، والناس يتفرجون على المنظر البهيج ويُحَيُّونَه بامتنان. وكان هذا الطقس الرسمي لإعلان الدخول في الإسلام، على بساطته، بداية لعهد جديد لامع في حياة المسيحيين المُتأسْلِمين.. كان بدايةً للحلم الجزائري عندما لم يكن الحلم الأمريكي قد وُلِدَ بعد.. ورُبَّما كان أكثر عذوبةً وأسْهلَ منالاً لأن مدينة الجزائر في ذلك العهد كانت حاضرة كل الأحلام وورشة لترميم حظوظ الذين لا حظَّ لهم.. فكان لِمُجرَّدِ ذِكْرِ اسمها مفعولاً ساحراً فتَّاناً في مخيال جميع الأمم المتوسطية والعالم. وباختصار لقد كانت جنةً تتبنى كل الأماني بما فيها المجنونة، وبدون "فِيزَا"...

أما بالنسبة لصفر بن عبدالله شخصيا، فحتى وإن لم يَرْقَ إلى رأس السلطة كما حدث مع العلج علي وحسان فينيزيانو أو مَامِي الغَرْنَاوَطْ، أوالأرْناؤوطْ في مصادر أخرى، أي الألْباني الأصل، فقد جعله خير الدين بن يعقوب "قايدْ" مرةً واحدة وأَحْبَسَ على الجامع الذي بناه في 1534م عددا من الممتلكات العقارية.

بعض المصادر تشير إلى أنه كان يهوديا قبل إسلامه وعتقه خاصة وأن اسم "السافر" (Safar) كان شائعا بكثرة في أوساط يهود الجزائر منذ القديم وما يزال نسل المنحدرين من هذا الاسم مستمرا إلى اليوم بفرنسا وإسرائيل، أيْ فلسطين المحتلة حتى لا ننسى، بعد رحيلهم من البلاد في صائفة 1962م. لكن هذه الفرضية جد ضعيفة قد تثير الضحك حتى في نفس هذا العلج في قبره، وأغلب الظن أن صَفرْ بن عبد الله كان مسيحيا لأن أغلب المؤرخين الذين أشاروا إليه يجمعون على أصله المسيحي بِمَنْ في ذلك الشيخ عبد الرحمن الجيلالي.

جامع "سفير" كما يسمى حاليا بعد تحريف جزئي لاسمه الأصلي، يعتبر من بين أهم وأبرز مساجد "القصبة" خصوصا في بدايات العهد العثماني حيث كان لايفوقه شهرة وشساعة وجمالا في القرن 16م سوى الجامع الكبير وجامع السيدة ولاحقا جامع كتشاوة والجامع الجديد. مكانته بقيتْ على الدَّوام عالية في قلوب أهل "المحروسة" ضِمن الـ: 161 مسجدا الذين كانوا منتشرين في مختلف أحياء وأزقة المدينة داخل وخارج أسوارها في العهد العثماني.

في سنة 1791م أعاد الداي حسان باشا بناءه وفق التصور المعماري الذي طُبِّق في بناء جامع كتشاوة، وزينه حسب تقاليد البناءات الفخمة آنذاك بالرخام الأبيض والسواري المرمرية و"الزليج البهيج" المحلي والمستورد من تونس والبندقية وهولندة.

ويقال إن بناءه لم يستغرق في عهد صاحبه "القايَدْ" صفر بن عبد الله، كما كان يُلقب، سوى تسعة أشهر. في ذلك الوقت، كانت "القصبة" لا تزال صغيرة تنتهي من جهتها العليا عند شارع بوزرينة (Rue de la Lyre) الحالي تقريبا. فكان الجامع يقع بالتالي خارج أسوار المدينة التي كانت في طور البناء والتوسيع، ولذلك يمكن اعتباره مسجدا "فَحْصِيا" في الأصل ، أي من مساجد الضاحية.

لم يُدمج جامع سفير في المدينة العتيقة ولم يصبح "ابن بلد" إلا بعد أن اتسعت هذه الأخيرة وامتدت حتى "الباب الجديد" قرب القلعة التي حوّلها الداي علي خوجة في 1817 إلى قصر الداي الجديد، وأصبح السور الجنوبي للمدينة العتيقة بذلك يمر من هذا الحي الذي كان مجرد هضبة صغيرة تعلوها طاحونة هوائية أو اثنتيْن.

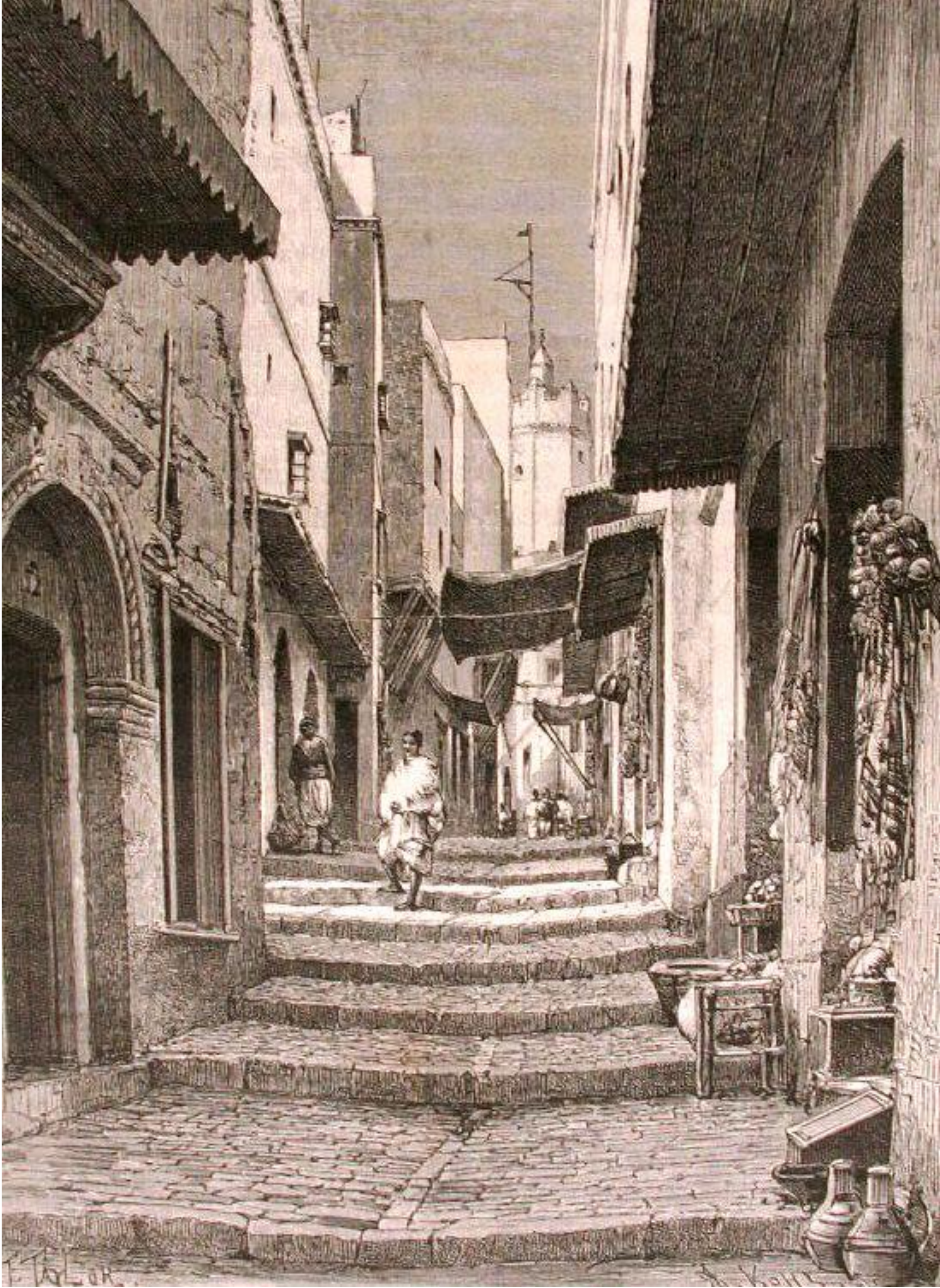
في سنة 1827م، استفاد هذا المَعْلَم الديني الذي كان يتبع المذهب الحنفي، حسب عادة الأتراك، من التفاتة كريمة من آخر حكام الجزائر العثمانيين الداي حسين، بحيث رممه وجَدَّده وأعاد له شبابه ونضارته. وهناك من يقول أنه "أعاد بناءه" بصفة جذرية بالشكل الذي نعرفه حاليا، بمعنى أن جامع القايد صفر الأصلي والحالي شيئان مختلفان تماما.

التحول في السياسة

صفر بن عبد الله الذي بناه للعبادة وممارسة الطقوس والشعائر الدينية، لم يتوقع له المستقبل السياسي الذي سوف يشهده بعد أربعة قرون ونصف من بنائه. ففي عهد الجزائر المستقلة تحول جامع سفير إلى فضاء للتعبير والاحتجاج السياسيين في قالب ديني إسلامي، وقد مَيَّزَتْهُ هذه الوظيفة الحيوية عن غيره من مساجد المدينة العتيقة التي بقيت هادئة لا تمارس السياسة إلا باقتضاب واحتشام.

للذين يجهلون دوره السياسي، نذكر بأنه احتضن اجتماعات بعض عناصر التيار الإسلامي المعارضة للسلطة، والقريبة آنذاك من حزب أحمد بن بلة "الحركة من أجل الديمقراطية في الجزائر"، لاحتواء غضب سكان المدينة التاريخية وتوجيه ما عُرِفَ بأحداث "القصبة" سنة 1985م وقضية سَكَنَات "عين الله" بدالي إبراهيم التي أنْجِزت للمنكوبين في المدينة العتيقة بسبب انهيار مبانيهم واستفاد منها غيرهم.
ومنذ تلك السنة، بدأت درجة الحرارة السياسية ترتفع داخل جامع صَفَرْ بعد انخفاضها طيلة السبعينات حيث كان دورُه محدودا وقتذاك في إطار "الدعوة والتبليغ" تحت "إمارة" الشيخ الوَنَّاسْ وإدارة المسجد الرسمية من طرف الشيخ الدُّوَّخْ.
لقد حَوَّلَهُ التدهور الشامل الذي كانت تعيشه البلاد منذ أواخر الثمانينات نحو تصعيد لهجته السياسية، مما تسبب في صراعات بلغت حد استعمال السلاح الأبيض بين بعض المترددين عليه المختلفين في الأساليب وفي الدور الذي يجب أن يقوم به هذا الجامع وهم متعددو المذاهب والولاءات...
ومنذ النصف الثاني من الثمانينيات، بدأ يتردد عليه كل من عباسي مدني وعلي بن حاج، وبرز فيه في نفس الفترة الشيخ أحمد مَرَّاني بدروسه ومواعظه التي كانت تسير في نفس الاتجاه السياسي الديني والتي سوف توصله بعد سنوات إلى أعلى منصب في وزارة الشؤون الدينية ثم إلى الدبلوماسية كسفير وبعدها إلى مجلس الأمّة، وهذا أيضا أمر، دون شك، لم يتوقعه القايد صفر بن عبد الله في سنة 1534م...
لكن أصعب فترة عاشها جامع سفير هي تلك التي تمتد من بداية "الانزلاق الأمني" في 1992م حتى بداية 1996م، حيث وجد نفسه رهينة لصراع رهيب بين الجزائريين بحكم موقعه الجغرافي وثقله التاريخي، ولم يهدأ إلا بعد خسائر كبيرة وصدمات نفسية مأساوية تلقاها سكان مدينة رياس البحر المجاهدين والأولياء الصالحين لن تزول آثارها وجراحها بسهولة.
بعد عودة الهدوء والاستقرار للمدينة العتيقة، تذَكَّر القَدَر جامع صفر فاستفاد، بعد نسيان دام 172 عاما، من التفاتة رحيمة من طرف الوزير المحافظ لمدينة الجزائر الكبرى الشريف رحماني حيث أعاد هذا الأخير تهيئته وجدده كي يستقبل القرن 21م في حلة تليق به وبماضيه وبرصيد القايَد صَفر بن عبد الله.

مئذنة جامع صفر، في عمق اللوحة على اليمين، خلال النصف الثاني من القرن 19م



جامع صفر بن عبد الله المعروف حاليا بـ: حامع سفير



"المحروسة بالله" من خارج السور المنحدر من الباب الجديد إلى البحر عَبْرَ حومة قهوة العريش وسوسْطارة فباب عزون. مئذنة الجامع على اليمين في وسط اللوحة هي، على الأرجح، مئذنة جامع صفر أو "سفير" بتعبير اليوم. اللوحة بريشة الفنان الأمريكي فريديريك آرثور بريجمان، وهي موقَّعة في الأسفل على اليمين ومؤرخة بسنة 1886م..



جامع صفر شاهد منذ 1534م على تاريخ المدينة ورجالها ونسائها وعمرانها الذي ينهار في صمت ولا من مغيث



سيدي عبد الرحمن الثعالبي..."اللهْ يْـزِيـدْ لُه في الشَّـانْ"

بحـــر العلـــوم والبرهــــان...
سِيدِي الثْعَالْبِي بَابَانَا الله يْزِيدْ لُه في الشَّانْ

عبد المجيد مسكود

اسمه "بُوزِيدْ".. عاش 84 سنة في الحياة الدنيا ويعيش كطيف وكمثل أعلى في المخيال الشعبي منذ أكثر من خمسة قرون..
عنوانه: آخر بناية بمحاذاة المدرسة الثعالبية بشارع بن شنب في العاصمة.
مات منذ أكثر من خمسة قرون في قرية بني مزغنة، وعندما كان يحتضر لم يخطر أبدا على باله أنه سيعيش في قلوب سكان "البهجة" وفي ذاكرتهم الجماعية بعد وفاته كل هذه القرون التي يعيشها ولم يكن يتوقع أن الحياة في هذه المدينة العتيقة لن تخفق إلا بإلهامه وبذكره بمجرد ما تسلم روحه إلى بارئها. "بوزيد" هو الوحيد الذي بقي حتى اليوم يحكم فعليا من عالم الأموات الكثير من السلوكات الروحية - الصوفية والطقوس الخرافية الشعبية يوميا لملايين البشر من بين أكثر من 30 شخصية من أمثاله عرفتهم "البهجة" في القرون الماضية. وهو كذلك من أبرز المعالم التاريخية النادرة الشاهدة على بني مزغنة التي بناها بولوغين بن زيري بن مناد الصنهاجي في القرن 10م.
إنه العالم الصوفي الجليل سيدي أبوزيد عبد الرحمن الثعالبي الهلالي، أما تسمية "بوزيد" ليست سوى صيغة مختصرة عاصمية النكهة لأبي زيد مثلها مثل صيغة "دحمان" لعبد الرحمان.
الذين لايعرفون سيدي الثعالبي كما يسميه الحميميون بإمكانهم زيارة مقامه العتيق في القصبة الذي يتكون من ضريح، قبة، مسجد صغير، دالية تتدلى منها عناقيد عنب غير ناضج ومقبرة صغيرة تضم في سكون مهيب قبور عتيقة وجميلة تخفي في جوفها شخصيات، علماء، شعراء، مؤرخين، فنانين وأبطال أسطوريين، وتاريخ مدفون...
وحول الجميع يلتف سور طويل مزين بنقوش عتيقة يستقطب الفقراء وعابري السبيل ومحترفي الشحاذة وحتى بعض "الحيطيسْتْ" و"الزَّرَّامينْ" الذين يتربصون بِحُلَيِّ النساء من الصباح إلى المساء.

"سَلاَّكْ الحاصْلين"

كاريسماتية سيدي الثعالبي، "الله يْزِيدْ لُه في الشَّانْ"، التي فاقت الآفاق الجزائرية استقطبت احترامَ الوجهاءِ والملوكِ والدايات وريَّاس البحر الجزائريين، وأنقذت من الموت العديد من الشخصيات الوطنية والأجنبية، وحلت الأزمات السياسية، وأغاثت الفقراء والضعفاء، كما استقطبت فضول السواح وإعجاب الأرستقراطيات الملكية

الأوربية، وهو يكتفي اليوم بمساعدة التلاميذ والطلبة على نيل الشهات الدراسية الجامعية، وبفتح آفاق الزواج على مصراعيها في وجه ضحايا العنوسة. فَسِيدِي الثعالبي أعظم بكثير من الضريح الذي يضم رفاته..، والذي لا يعرف نفوذه وتأثيره على حياة سكان "البهجة" لا يكاد يعرف شيئا عن هذه المدينة العتيقة ولم يفهم شيئا فيها حتى الآن .

تحول هذا الولي الصالح عبر القرون الخمسة الماضية إلى عصا سحرة عجيبة لحل الضائقات السياسية، والاقتصادية - الاجتماعية، والروحية الجزائرية، ولعله يملك حلولا حتى للأزمة الجزائرية الحالية لو استشاره مختلف المتسابقون على حكم البلاد.

الشموع، الجاوي والكسكس

ولد أبو زيد عبد الرحمن الثعالبي سنة 1387م بسهل المتيجة، درس وتتلمذ في علوم اللغة والدين على مشايخ وأئمة المنطقة، وذاع صيته في شمال إفريقيا والمشرق حتى أصبح عالما جليلا استقر في مدينة الجزائر الفتية التي كانت في زمانه لاتزال تسمى مدينة أو جزائر بني مزغنة.

اشتهر في الحاضرة بعلمه الغزير وبأعماله الثقافية ونشاطاته الخيرية التي أكسبته احتراما وقداسة لم ينافسه عليهما أحد إلى يومنا هذا مهما كانت قيمته الثقافية والاجتماعية والدينية. لا هواري بومدين و لا عبد الحميد بن باديس ولا الحاج أحمد باي المدفون بجواره، ولاحتى الولي داده أحد أهم زملائه في الضريح منذ أكثر من أربعة قرون، تجرأوا على منازعته على مكانته في قلوب سكان مدينة الجزائر بصفة عامة والقصبة بصفة خاصة. ولسنا ندري إلى حد هذه اللحظات إن كان لعبد العزيز بوتفليقة حظوظ في تحقيق ذلك...

جعل إيمان وورع وتقى سيدي الثعالبي "بابانا"، كما يلقبه سكان "البهجة" القدماء، ثقة الناس فيه لاحدود لها، بحيث لايزال أولياء تلاميذ المدارس والثانويات المحيطة بضريحه كثانويتي عقبة بن نافع والأمير عبد القادر يتقربون إليه بالهدايا والشموع كي يتوسط لهم ببركاته وكراماته لإنجاح أبنائهم في امتحان شهادة البكالوريا، وتشهد العديد من العجائز أن العديد من العوانس تمكنَّ من الزواج بعد زيارته وطلب تدخله لحل مشاكلهن.

وكل ماهو مطلوب من المستفيدين من كراماته هو إقامة "الوَعْدَة" وأقل ما يقدم له كعرفان هو إرسال جفنة أو"قَصْعَة" من الكسكس مزينة بقطع كبيرة من اللحم السّكْباج وبالحُمُّص صدقةً على الفقراء والمحتاجين الذين يتجمعون عادة عند باب الضريح لهذا الغرض، لأنهم يعلمون أنه عندما توصد في وجوههم جميع الأبواب تبقى باب سيدي عبد الرحمن مفتوحة للجميع، بما فيهم المتطفلين و"الكْسَاكْسِيَة" المصابون بِفِيروس "أَشْعَب" ..

الجذور العربية

في القرن الحادي عشر الميلادي ضاق الفاطميون ذرعا بالقبائل العربية البدوية التي كانت دائمة العصيان والتمرد على النظام على طول الجنوب المصري، فعملوا على تشجيعها على الهجرة إلى شمال إفريقيا من أجل التخلص من الفوضى والاضطرابات التي كانت تثيرهما. ونجحت الخطة وتحركت إثر ذلك موجة ديمغرافية هائلة من صعيد مصر والمناطق المحاذية له نحو تونس والجزائر والمغرب الأقصى وقدر أحد الباحثين الفرنسيين عدد المهاجرين بمليون شخصا استقر من بينهم 200 ألف في الجزائر على طول الهضاب والسهوب والصحراء قبل أن يتحركوا في مرحلة متأخرة نحو الشمال والمدن الساحلية. وتتكوَّنُ هذه الحركة الديمغرافية التاريخية من ثلاث قبائل عربية مشهورة هي: بنو هلال، سُلَيْم ومَعْقَل، أما الذين اختاروا الاستقرار في الجزائر فَهُم الهلاليون ومعقل.
بعد فترة وجيزة انتقل فرع من بني هلال إلى سهل المتيجة، والمقصود هنا بالفرع ما يصطلح عليه علم الأنساب عند العرب بـ: البطن، ومن هذا الفرع المعروف بـ: "الثعالبة" ينحدر حكام مدينة بني مزغنة في القرنين 14م و15م وعلى رأسهم آخرهم وهو الأمير الشيخ سالم التُّومي الذي خنقه عروج في 1516م، وشخصية ثقافية لامعة تتمثل في صاحب "تاريخ الجزائر العام" الشيح عبد الرحمن الجيلالي..، لكن أهم وأشهر المنحدرين من الثعالبة الذي بقي تأثيره ساريا إلى اليوم في أعماق سكان العاصمة الجزائرية هو سيدي أبو زيد عبد الرحمن الثعالبي.
شعبيته الكبيرة وإجلال الناس له، جعلت الثعالبة يبنون على ضريحه بعد وفاته في 1471م مسجدا صغيرا وقبة أصبح يأتيها الزوار "والحجيج" من كل جهات الوطن محملين "بالطَّمِّينَة" والشموع البجائية (بجاية) و"الجاوي" والدجاج "الحَرْطَاني" ومختلف الهدايا العينية والنقدية طلبا لبركاته وكراماته وتوسطه لتحقيق آمالهم وأحلامهم في الشفاء من الأمراض وفي النجاح أو في الزواج أو بحثا عن الطمأنينة والسعادة والرِّزْق وراحة النفس.
أعطاه سكان مدينة الجزائر مصير حاضرتهم الناشئة ومسؤولية السهر على أمنها واستقرارها، بحيث اعتبروه دَوْمًا مَوْلَى "البهجة" وحارس البلاد من الحساد والاعتداءات الأجنبية المسيحية، ولقد كان جهاد أهل "المحروسة" وركوبهم البحر تسبقه دائما زيارة الولي الصالح في ضريحه خارج أسوار المدينة من جهة باب الوادي والصلاة بمسجده والدعاء والابتهال فوق قبره كي يرد كيد الأعداء... هل هذا كفر أم شرك بالله؟ هذه مسألة أخرى... لكنها لا تنفي الواقع والعادات التي لازالت سارية حتى اليوم.
قبل الاحتلال كان محيط ضريح سيدي الثعالبي، "لاَ شَيْء إلاَّ بِهْ" (شَايَلاَّ بِيهْ)، المنزوي في "الفحْص"، أي خارج أسوار المدينة، أكثر أحياء البهجة قداسة وروحانية خصوصا وأنه كان يطل على مقابر الطوائف الدينية الثلاثة للمدينة؛ الإسلامية، المسيحية واليهودية بحي باب الوادي الحالي. وتدعمت هذه القداسة أيضا منذ أن اختار عدد من الأولياء والصالحين أن يُدفنوا قرب ضريح سيدي الثعالبي أثناء العهد العثماني، ومن

أشهر هذه الهياكل الدينية مسجد سيدي السَّعْدي الذي كان يقع قرب ثانوية عقبة بن نافع، زاوية سيدي عمَّار التنسي الواقعة أسفل الضريح، المصلى الذي كانت تتوقف عنده الجنائز قبل الذهاب إلى المقبرة بباب الوادي، وملجأ الغرباء والعجزة المعروف ب: "بو الطُّويل" والتي هَدَّمها الاستعمار جميعا بين سنتي 1860م و1862م من أجل بناء ثانوية الأمير عبدالقادر. في سنة 1696م بنى الداي الحاج أحمد جامع سيدي عبد الرحمن بالشكل الذي نراه حاليا بعد أن وَسَّع ما أنجزه الثعالبة قبل أكثر من قرنين. ولم يبق وحيدا في هذا المكان، بحيث جاوره المعجبون من خيرة أهله وصُلاَّح المدينة الذين أوصوا بدفنهم في مقبرته الصغيرة المحاذية للمسجد والضريح عبر العصور. وأبرز هؤلاء ابنته "لالّـة عَايْشَة"، أستاذُهُ العالم الكبير سيدي بوجمعة، سيدي الوالي داده الذي توفي في 1554م ثم نقلت السلطات الاستعمارية رفاته من شارع الديوان بالقصبة السفلى خَلْفَ جامع كتشاوة إلى مقبرة سيدي عبدالرحمن في سنة 1864م، سيدي منصور الذي كان مدفونا عند مدخل باب عزون منذ 1645م وحُولت رفاته هو الآخر إلى نفس المقبرة سنة 1846م، خيدر باشا، الحاج أحمد باي قسنطينة منذ وفاته في 1848م، سيدي عبدالله، يوسف باشا، سيدي واضح آخر مهندسي المسجد ووكيل الضريح والزاوية في نفس الوقت. أما الداي حسن (1792م-1798م) وابن أخته الداي مصطفى باشا(1898م-1805م) وكذلك الداي أحمد فقد دُفنوا مباشرة بمحاذاة قبره. وقرب المحراب يوجد كذلك قبر الأميرة "روزة" بنت الداي حسان... أما أبرز المعاصرين الذين اختاروا مجاورة سيدي عبد الرحمن بعد موتهم هو المؤرخ ووزير الأوقاف بعد الاستقلال الأستاذ أحمد توفيق المدني.

رجل المطافــئ

عايش سيدي عبد الرحمن من قبره كل مصائب وأهوال هذه البلاد...وكلما تعفنت الأوضاع بسبب أخطاء وتجاوزات العسكر أثناء العهد العثماني، كان سيدي الثعالبي آخر ملجأ للمتناحرين والحيارى في حل الأزمات السياسية، الاقتصادية والاجتماعية وللمُطارَدين واللاجئين السياسيين من النظام بفضل الحصانة المقدسة التي يتمتع بها. لقد طلب أهل المحروسة خدماته الغيبية كلما ضاقت بهم الدنيا؛ في المجاعات والأوبئة، أثناء الانقلابات العسكرية وتعفن الأوضاع الأمنية، وحتى عند انسداد قنوات الحوار والتفاهم بين الأجنحة المتنافسة داخل السلطة على النفوذ والريوع. انقلابيو عام 1992م لم يُحافظوا على هذا التقليد وتَكَبَّروا على سيدي الثعالبي...

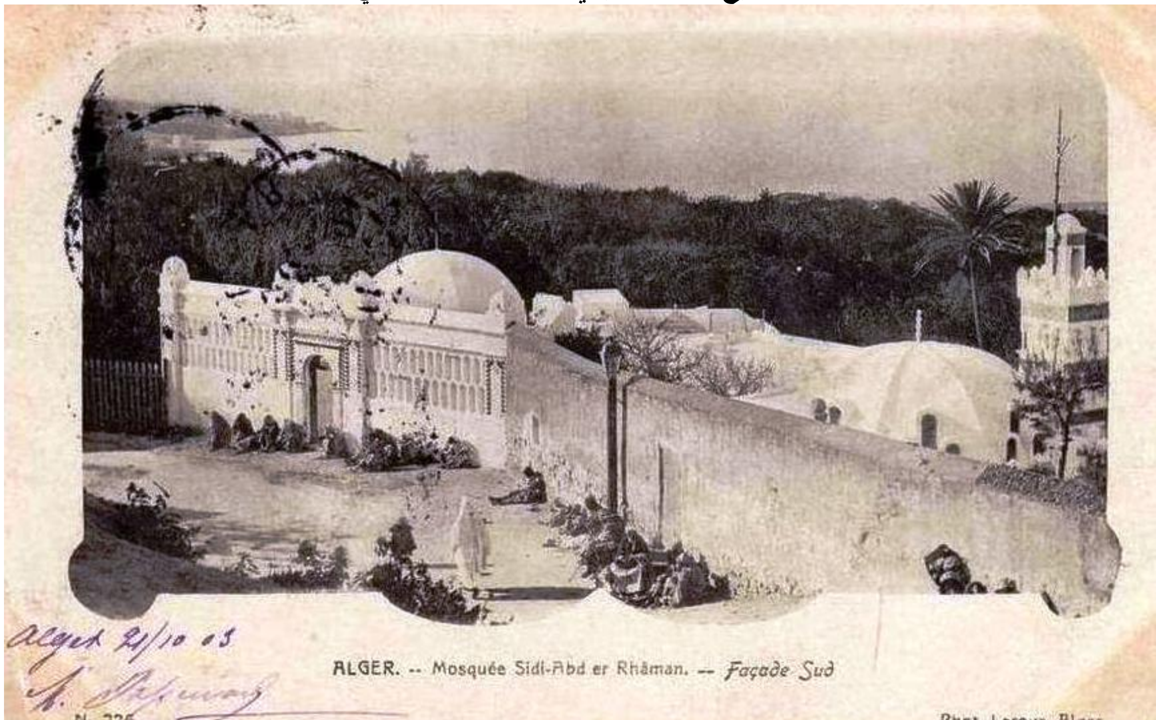
اختلف الأميرال بتشين، المعروف بلقب الرايس علي بتشين، مع الداي في بدايات القرن 17م حول قضايا سياسية، اضطرت السلطان العثماني في الباب العالي إلى التدخل للفصل فيها بإرسال عونين له ليأتياه برأس الرايس المتمرد الذي فاق نفوذه سلطة الداي نفسه. أساء السلطان تقدير قوة بتشين، وبالتالي بمجرد حلول مبعوثيه بالمرسى كان الأميرال على وشك الشروع في تنفيذ خطته لإفشال المؤامرة السلطانية... ولما شعر مبعوثا الباب العالي بالخطر من الفخ المهيأ لهما، لجآ إلى ضريح سيدي عبد الرحمن

للاحتماء من بطش الأميرال والاستفادة من حصانة المقام، وبقيا بداخله طوال عدة أيام حتى هدأ غضب علي بتشين وأعطاهما "الأمان" "في خاطرْ سيدي عبد الرحمن" فقط و دون اعتبار لا للسلطان و لا للداي...
وفي 1805م تمرد العسكر على الداي مصطفى الوزناجي، ابن أخت الداي حسان وخليفته على العرش، وقاموا بانقلاب للإطاحة به، ففر لينجو بنفسه إلى ضريح سيدي الثعالبي بعد أن أُغلقت في وجهه جميع الأبواب، غير أن حظه السيء شاء أن تكون أبوابه قد أُغلقت هي الأخرى، على غير عادتها، من طرف الحراس الذين أوصدوها وانصرفوا عندما بلغهم خبر الإطاحة به. فلحق به العسكر وقتلوه ذبحا، ثم تخلصوا من الخزناجي (الوزير الأول) بنفس الأسلوب عند باب جامع كتشاوة ونَصَّبوا أحمد خوجة دايا على الجزائر...
أما سيدي الثعالبي فلم يفهم شيئا في ما كان يقع..."الله يزيد له في الشان".. و من دون شك تألم كثيرا لما كان يجري في بلدته الجميلة التي أتعبها تناحر العسكر و رجال السياسة، وعانى بحسرة من لاستقرار سكان هذه البلاد وبحثهم العنيف المتواصل عن السلم و الأمان وعن غد أفضل لم ينجحوا في تحديد شكله، ومن صعوبات بناء مؤسساته... ولولا تخفيف الفنانين عليه بالتغني و المدح مثل المطربة نـورة في السبعينات ("بلاد سيدي عبد الرحمن") ودحمان الحراشي("يا دزاير يا زينة البلدان..يا بلاد سيدي عبد الرحمن..اللي يشوفك يبقى عقلُه ديماً حيران") واعمر الزاهي الذي يكن له تبجيلا كبيرا ويهوى القعود قرب مدخل ضريحه... لولا كل هؤلاء ولولا محبة المحبين لَخرج من قبره وعاد من حيث أتى إلى قفار سهل المتيجة التي تركها منذ 6 قرون أو لَهاجر كما هاجر المقَرّي وسيدي ابن عمار وغيره إلى "البلاد التي لايُظلم فيها أحد".
نحن لا نتمنى ذلك، لأن الجزائر لا تزال في حاجة إليه... على الأقل كمصدر رزق يُستثمَر في المجال السياحي. ولا عيب في ذلك مادام هو نفسه قد قام بهذا الدور في السابق عندما كانت تتوالى عليه الزيارات من الخارج من طرف أغلب من حطت قدماه بأرض بني مزغنة. وكان من بينها زيارات ليست ككل الزيارات، نذكر منها قدوم الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث بنفسه برفقة زوجته لتفقده في ستينات القرن 19م، وكذلك أحد أحفاد الإمبراطور النمساوي فرانسوا جوزيف، المعروف بـ: "الدوق الأكبر جوزيف-فرانسوا"، وزوجته آنْ (Anne) النمساوية، حفيدة دوق توسكانيا الأكبر، وابنتهما بِيَاتْرِيسْ (Béatrice) في نوفمبر 1953م.
رغم الأزمات والصعوبات، بقي سيدي الثعالبي "بابانا" وطنيا لا تشوب وطنيته أية شائبة، يُساهم قدر الإمكان في تخفيف وطأة المصائب عن أهل البهجة من داخل البلاد، وليس من وراء البحر كما شاعت الأمور في السنوات الأخيرة، و...بأنظار موجهة نحو مشرق الشمس رمز الأمل والتفاؤل و رمز جذورنا الروحية، وبوسائل ميتافيزقية-غيبية عندما فشلت ريوع النفط ومسيروها في قيادة البلاد إلى بر الأمان... "فاللّـه يزيد له في الشَّــانْ".

مدخل ضريح ومقبرة سيدي عبد الرحمن الثعالبي خارج سور مدينة الجزائر العتيقة في نهاية القر 19م. لاحظ بقايا السور على اليمين. الناس الجالسون عند مدخله فقراء ينتظرون صدقات المحسنين الزائرين للضريح.



مدخل ضريح ومقبرة سيدي عبد الرحمن الثعالبي



صورة فوتوغرافية نادرة لضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي في نهاية القرن 19م وبقايا سُور مدينة الجزائر، على اليسار، منحدرا من حومة سيدي رمضان، وبينهما وسطَ الخندق الدفاعي ضريح سيدي عَمَّار التّنسِي.



نهاية القرن19م. عائدون من زيارة ضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي...؟ بابه في عمق الصورة. على اليمين، بقايا السور



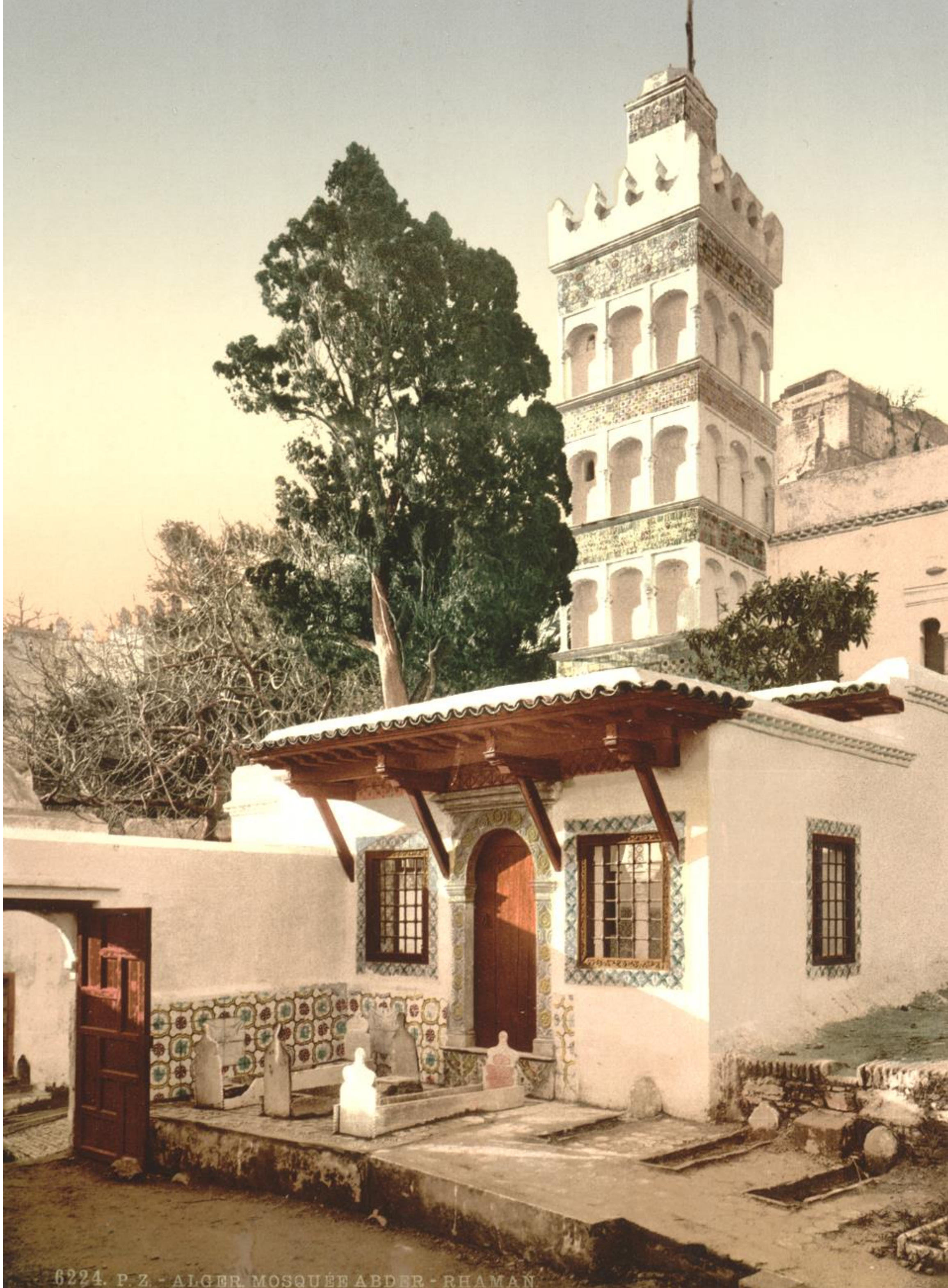
صورة فوتوغرافية أخرى من زاوية مختلفة لضريح سيدي عبد الرحمن في نهاية القرن 19م، ويظهر فيها السور الشمالي بشكل أكثر وضوحا و القلعة القديمة المعروفة خلال العهد العثماني بـ: "القَصْبَة القْدِيمة"، أو ما أسمته إدارة الاحتلال "القصبة البربرية"، في حومة سيدي رمضان. القلعة الجديدة هي "دار السلطان"، أو قصر الداي، التي بُنِيَتْ على مراحل ابتداء من نهاية القرن 16م.



المدرسة الثعالبية التي بُنيتْ سنة 1904م، وهي محاذية لضريح سيدي عبد الرحمن الذي يظهر سور مدخله على اليسار بعد المدرسة.



في ضريح ومقبرة سيدي عبد الرحمن الثعالبي. بالإضافة إلى قبر سيدي عبد الرحمن، توجد في الضريح قبور عدد من الأولياء الصالحين، كالولي دادَه وسيدي منصور، والدايات والقادة والعلماء والأعيان. الصورة تعود إلى نهاية القرن 19م.



عندما تنتهي مدينة الجزائر "المحروسة بالله" عند سور باب الوادي في جهتها الشمالية، نصل بعد بضع خطوات خارج السور إلى ضريح سيدي عبد الرخمن الثعالبي.



صورة لقبر سيدي عبد الرحمن الثعالبي تعود لنهاية القرن 19م وبداية القرن 20م



ملكة إنجلترا وزوجها عند مدخل ضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي في مدينة الجزائر (القصبة) في بداية القرن 20م.



ملكة إنجلترا وزوجها في زيارة إلى ضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي في بداية القرن 20م, الملك يتأمل في قبر الداي عمر باشا.



ضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي ونخلته الباسقة الشهيرة التي كانت رمزا للمدينة مثلما اليوم رياض الفتح ومقام الشهيد. الصورة تعود إلى نهاية القرن 19م.



داخل ضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي



الجامع الكبير: مسجد قرطبة الجزائري

عندما رأى الجامع الكبير النور لأول مرة، كانت مدينة الجزائر لا تزال مجرد قرية صغيرة تعيش من تجارة العسل والسمن والماشية مع الأندلسيين وعدد من المدن المتوسطية.

ثم كبرت هذه القرية ويفعت وأصبحت مدينة ثم عاصمة كبيرة هرمت واختنقت بالبشر والإسمنت المسلح، لكن دون أن تتجرأ على الاعتداء على عظمة هذا الجامع التحفة الذي بقي شامخا بحي البحرية يطل عليها من القرن 11م الذي شهد تأسيسه على أنقاض كنيسة عتيقة.

عصب بني مزغنة

في سنة 1018م كان موجودا في نفس المكان الذي يوجد فيه حاليا، وإذا كان الرحالة المسلم المَقْدِسي لم يذكره في كتابه "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" إثر زيارته سنة 985م لِمَا أسماه مدينة "بني زغناية"، وهو يقصد بني مزغنة، فإن ذلك يعني أن الجامع لم يكن قد وُلِدَ بَعْد. ولم تظهر آثاره في كتب السلف إلا في وقت لاحق، بحيث كتب عنه البَكْري في "المسَالك والممالك" في النصف الثاني من القرن 11م في سياق وصفه لمدينة الجزائر: "جزائر بني مزغنة مدينة جميلة قديمة البنيان فيها أثار للأول(..) تدل على أنها كانت دار مملكة لسالف الأمم(..) ولها أسواق ومسجد جامع، وكانت (بها) (..) كنيسة عظيمة بقي منها جدار(..) وهي قبلة الشريعة للعيدين".

أبو تاشفين ملك تلمسان دعَّم هذه المؤسسة الدينية العريقة التي كانت تُدعى "الجامع العظيم" بمئذنة جميلة في حوالي سنة 1322/1320م (722هـ) لم يكتمل جمال الجامع إلا بتشييدها.

أثناء مروره بمدينة جزائر بني مزغنة في 1515م في مهمة دبلوماسية، لم يُخْفِ أبو الحسن بن محمد الوَزَّاني، المعروف بـ: Léon l`Africain إعجابه بهذا الصَّرْح الديني، إذ كتب عنه بعد سنوات عندما أصبح "مسيحيا" وصديقا للبابا بالفاتيكان بأن "من بين المنشآت الأخرى (في المدينة إلى جانب الفنادق والحمامات...) نجد معبدا أنيقا وعظيما بالقرب من البحر، وأمام هذا المعبد ساحة جميلة بُنِيَتْ فوق جدار المدينة الذي ترتطم به الأمواج".

وكل ما تَغيَّر حاليا لا يتعدى بعض التعديلات المعمارية الطفيفة الناتجة عن عمليات الترميم المتعاقبة وتراجع أمواج البحر بعيدا عن الجامع خلف شارع جيش التحرير منذ أكثر من قرن.

من ملحقات الجامع الكبير التي لم يبق لها أثر اليوم الحديقة الصغيرة التي كانت تُعرف بالجُنَيْنَة في العهد العثماني، المُصَلَّى الخاص بصلاة الجنازة الذي أَلْغَتْهُ الجرافات الاستعمارية من الوجود، والفِنَاء الكبير الذي تم تزيينه منذ سنة 1816م بأربعة مدافع عسكرية.

ويشبه هذا الجامع مسجد قرطبة بالأندلس من حيث تصميمه، كما من حيث تَسْمِيَتِه بـ: "الجامع الأعظم" التي وردت في الوثائق ولا تزال تتردد على بعض الألسنة وفي بعض المؤلفات في مدينة الجزائر كأعمال الشيخ عبد الرحمن الجيلالي.. خصوصا في تعدد سواريه التي بلغت 72 سارية وكذلك في سقوفه الـ:11. غير أنه يتميز عن بقية المساجد في العالم بتوفره على أقدم منبر يعود تاريخه إلى سنة 407 هجرية، أي أن عمره يقدر بحوالي 1000 سنة.

جهاد وثقافة

في العهد العثماني أحاط بالجامع الكبير، على امتداد حي البحرية، نسيج عمراني جديد وجميل نابع من الفن المعماري المحلي المغاربي الأندلسي جعل من كل هذه البقعة من مدينة سيدي عبد الرحمن حيا فخما للقصور والفنادق والمقاهي الستة الرئيسية بالمدينة كـ"القهوة الكبيرة" و"فندق القهوة الكبيرة"، بالإضافة إلى ميلاد حي جديد وحيوي بالقرب منه يتمثل في حي القيسرية الخاص بالمثقفين والنخبة، حيث كثر الوراقون والمكتبات التقليدية والنسَّاخون وطلاب العلم. كما لايجب أن يفوتنا بأن هذا الجامع كان في ذات الوقت مقرا للقضاء والإفتاء المالكيين، مثلما كان "الجامع الجديد" بالنسبة للحنفية، واحتضن "المجلس العِلْمي" المكوّن من قاضييْن ومفتييْن من المذهبيْن وضابط من الإنكشارية للبت في مشاغل ونزاعات الرَّعِية. أما أحكامه فكانت استشارية يطلبها الطاعنون في أحكام القاضي. كما قام بالوظائف التربوية التعليمية بواسطة مُدَرِّسِيه التسعة عشرة، وهذا دون ذِكْر الدور الذي لعبته مدرسة "زاوية الجامع الأعظم"...

اليوم، ذهب كل شيء..، ومنذ الغزو الاستعماري. وزال "البْريسْتيجْ" الثقافي الذي عَمَّرَ هناك طويلا و الهالة العلمية التي كانت تحيط به..، بل أصبح من أهم جيران هذا المسجد الحضيرة الجديدة للسيارات...

لو تحدث الجامع الكبير عن أسوأ ذكرياته بقصبة الجزائر، التي كانت تنحدر وتمتد حتى ساحل البحر قبل تهديم ثلثيها من طرف الاستعمار، لما تمكن من تفادي الحديث عن القائد الفرنسي فرانسوا دوكان. فَقَدْ حاصر هذا الأخير المدينة بحريًا في سنة 1683م ثم قصفها قصفا عنيفا طيلة أيام تأثرت له كثيرا، ولم تسلم صومعة الجامع الكبير وبعض جدرانه من القذائف التي كانت تتهاطل من سفنه، خصوصا "الجهة القريبة من المحراب". لكن بعد فشل هذه الحملة العدوانية الفرنسية أمام مقاومة سكان "المحروسة"، كلف الداي الحاج حسين ميزومورتو الأسرى والعبيد المسيحيين بترميم ما تم تهديمه بالقذائف الفرنسية وإعادة الجامع العظيم إلى ما كان عليه من شموخ ونضارة، بالضبط كما فعل قَبْله خير الدين بربروس مع الإسبان الذين أضروا بالجامع أثناء قصفهم للمدينة في سنة 1529م من حصن البنيون في البحر. فأعاد الداي ميزومورتو بالتالي لهذا الصرح الديني كرامته بعد أن قذف أثناء المعركة بالقنصل الفرنسي الأب لوفاشي (Levacher) من فوهة المدفع الجزائري العملاق "بابا مرزوق".

أثارت الأضرار البليغة التي لحقت بالجامع الكبير أثناء القصف الفرنسي قلق مثقفي المدينة على محتويات مكتبته القيّمة من كتبٍ ومخطوطات ثمينة وعريقة، لذلك أمر

الداي بترحيلها فورا إلى برج مولاي حسن، أوبرج بوليلة، (Fort L`empreur) بـ"التاغاران" (الثغرة) لإنقاذها من نيران الحرب، وتم ذلك بواسطة قافلة من الجِمال طيلة ثلاثة أيام كاملة. كما تم إخفاء بعضها لدى بعض الأعيان ونُقِل البعض الآخر منها إلى تونس... لكن لاهذه ولا تلك عادت إلى الجامع الكبير بعد انتهاء المعركة الجزائرية-الفرنسية وعودة الأمن والاستقرار، فهل ستتفضل الحكومة الجزائرية ذات يوم باسترجاعها إلى البلاد إن كانت لا تزال حية تُرزق...؟

جامع "اللْويزْ"؟

بعد دخول قوات الاحتلال إلى الجزائر في 1830، قررت الإدارة الاستعمارية بالعاصمة ذات يوم من 1837م أن تضيف رواقا جديدا للجامع الكبير من جهة شارع البحرية تكفل ببنائه "مساجين الكولونيل مارانغو" الذين شيدوا كذلك ما يُعرف إلى اليوم بـ: "حديقة مارانغو". بهذه المناسبة، تم وضع "الحجر الأساسي"، لهذا المشروع بطريقة جدّ خاصة، سوف تتحول إلى مصدر للخرافات والأساطير والإشاعات حتى السنوات الأخيرة من تسعينيات القرن 20م.

ويتمثل سرُّ ذلك في كَوْنِ هذا "الحجر الأساسي" كان عبارة عن صندوق صغير يضم في داخله محضر الحفل التأسيسي باللغتين العربية والفرنسية بالإضافة إلى مجموعة من القطع النقدية الذهبية، الفضية والبرونزية، التي تحمل صُوَر الملك لويس فيليب (1830-1845م) ورقم 1836 الذي يشير إلى سنة إصدارها. ثم تمَّ وَضْع هذا الصندوق تحت إحدى السواري الرخامية الجميلة التي لاتزال تسند مدخل الجامع الكبير حتى اليوم.

ونشير إلى أن هذه السَّواري نفسها ليست أصلية في هذا المعلم الديني- التاريخي، لأنها كانت تنتمي لجامع السَّيِّدة الشهير، الذي كان أكبر وأجمل مسجد في قصبة الجزائر وأَوّلَ ما هدَّمه الاستعمار بها في سنة 1832م ليبني في موقعه "فندق لا ريجونْصْ" (Hotel la Régence) بساحة الشهداء. الفندق الذي زال حاليا من الوجود وأصبحت أرضيته محطة لحافلات النقل الحضري. جامع السيدة، بمناسبة الحديث عنه، وَرَدَ أوّل ذِكْرٍ له في عام 1564م وكان حنفياً، وهو الجامع الرسمي الذي كان يُصَلِّي فيه دايات وسلاطين الجزائر العثمانية، سواء أيام الجمعة أو في غيرها من المناسبات، بِحُكْمِ انتمائهم إلى المذهب الحنفي... وقد شهد لهم الأسير الإسباني دييغو دي هييدو بالمداومة عليها و على الجامع.

قصة هذا الصندوق "التأسيسي" هي، إذن، التي كانت وراء الشائعات التي ترددت حول ما أسماه "راديو الطّروطْوارْ"، أو ما يُعرف عند الفرنسيين بـ: "التليفون العربي"، اكتشاف كنوز من "اللّويِزْ" تحت سواري الجامع الكبير أحيانا وجامع كتشاوة أحيانا أخرى، قبل أن تمس هذه الخرافة حتى جامع علي بتشين.

على كلٍّ، مساجد الجزائر كثيرة ومتعددة بلغت 161 مسجدا في أوقات معينة من العهد العثماني. وحتى لا يشعر أحدٌ منها بالظلم و الإجحاف في حقها، سوف نذكر على الأقل أسماء البعض منها وخاصة تلك التي زالت من الوجود، لعل الذاكرة تعيد تسجيلها من

جديد في أغوارها حتى لا تندثر نهائيا. وأهمها بعد التي سبق ذكرها: جامع القَشّاشْ (أيْ بَائِع القَشّ)، جامع خيدَرْ(خُضْر) باشا الذي بُني في سنة 1596م-1597م على أنقاض جامع الوليّ أبو داوود سليمان القبائلي الذي كان موجودا على الأقل منذ 1567م، جامع شعبان خوجة أو جامع باب الجزيرة الذي بُني في 1693م-1694م، جامع عَبْدي باشا، جامع القصبة في "دار السلطان" أي القلعة، وجامع علي باشا الذي بُني على زاوية سيدي لَكْحَلْ في منتصف القرن 17م، وغيرها... أما أبرز ما بُني في القصبة العليا، أي في "الجبل"، بعد جامع القايَدْ صَفَرْ، اشتهر جامع سيدي مْحَمَّد الشريف الذي انتهت أشغاله في 1543م، وجامع سيدي رمضان في الحي الذي يحمل اسمه والذي شُيِّد، أو على الأرجح رُمِّم وجُدِّد، في 1551م، وجامع البلاط في 1590م، ومسجد رمضان بن شقْرون في 1647م، ومسجد ابن فارس في 1678م، وجامع ميزومورتو في 1685م-1686م الذي يقع في الحقيقة على الحدود بين "الجبل" و"الوطأ" على يسار الداخل إلى باب عزون، على بعد بضعة خطوات من دكان الإسكافي سيدي منصور وشجرته العجيبة، والذي خُلِّدتْ صورته في العديد من اللّوحات التي أنجزها الرَّسَّامون الأوربيون حول هذا الباب...

لكن لِنَعُدْ إلى "أعظم" بيوت الله هذه في "قصبة" الجزائر...

على كلٍّ، الجامع الكبير أعظمُها، إذن، بتاريخه وجماله وشساعته، وبإشعاعه الثقافي-الروحي، وبدوره في مدينة الجزائر التي قاسمها حلو الحياة ومرّها طيلة العشرة قرون الأخيرة. حيث شاهدها وهي تكبر متنقلة من عفوية القرى وبساطتها ونقاوتها إلى مأساة عاصمة اختلطت عليها الأمور، وغرقت في زحمة الضجيج والفوضى والإسمنت المسلح، واختنقت وسط زحام بشر يقبع في أعماقهم الكثير من التلوث... ومع ذلك استفاد مؤخرا من التفاتة كريمة رممت أجزاءه البالية وجددته ليفتتح قرنا جديدا في مسيرته. فهنيئا له وأطال الله في عمره.

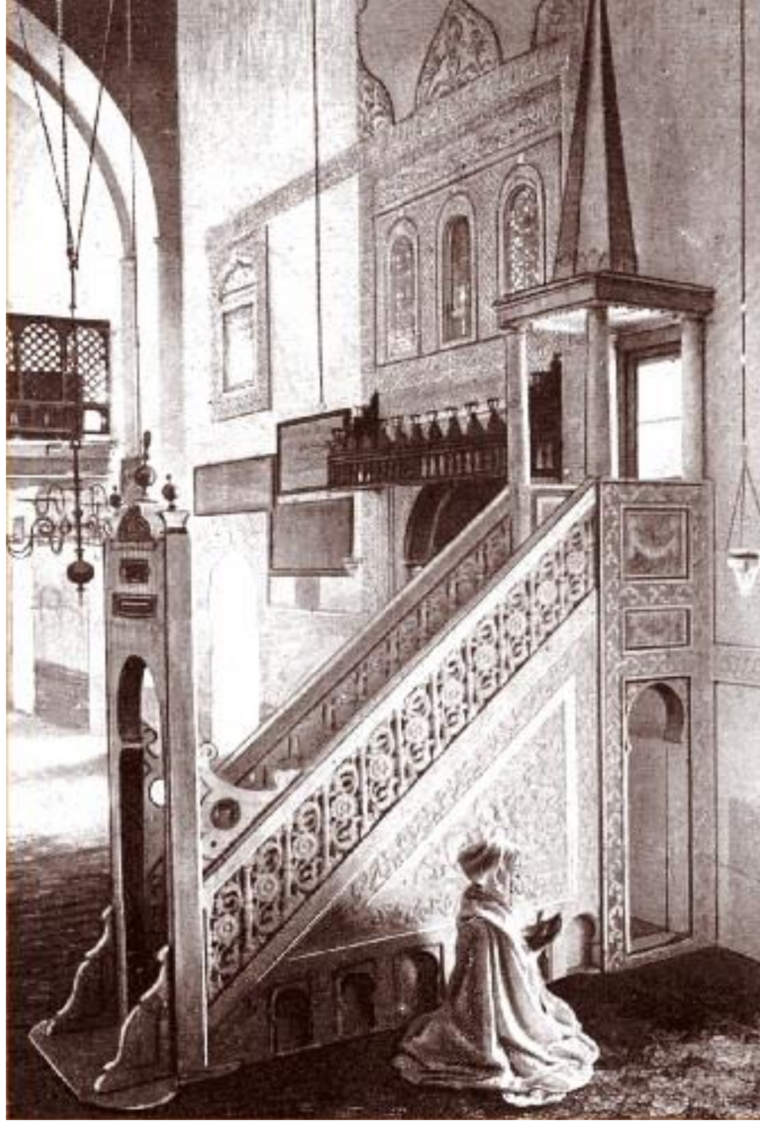
الجامع الكبير في صورة تعود إلى بدايات عهد الاحتلال الفرنسي للجزائر. كان الجامع حينها وسور المدينة الشرقي هو الحد الفاصل بين العمران والبحر حيث الأمواج تلامس أُسُسَ السور.



قاعة الصلاة داخل الجامع الكبير. الصورة تعود إلى بدايات القرن 20م



منبر الجامع الكبير في صورة تعود إلى بدايات القرن 20م



شارع البحرية في نهاية القرن 19م والجامع الكبير وسواريه الرخامية والواجهة التي أضيفت له خلال السنوات الأولى للاحتلال الفرنسي للبلاد. لاحظ المدافع المغروسة في الأرض على طول مدخل الجامع: هي مدافع جزائرية تعود إلى العهد العثماني ردت الاعتداءات على مدى قرون، وقرر المحتلون وضع عدد منها بهذا الشكل الرمزي جدًّا هنا أمام الجامع الكبير وأسفله في المرسى وكذلك عند باب دار السلطان في حومة الباب الجديد.



مدخل الجامع الكبير في نهاية القرن 19م



شارع البحرية في نهاية القرن 19م والجامع الكبير في منظر خارجي وآخر داخلي



الجامع الكبير بمئذنته المغاربية/الأندلسية مطلا على البحر، وفي الخلف على اليمين الجامع الجديد



منظر داخلي للجامع الكبير في لوحة فنية مائية



من يذكـر سيـدي ابـراهيـم...؟

Encore tout jeune, je la vois je me le rappelle,
Le mausolé de Sidi Brahim à la darse de l'amirauté,
Ouvrant les pans de son burnous pour bénir
Toutes les vièrges de la cité.

Brahimi Himoud (Momo)

الذين يعرفونه ويعرفون ماضيه قلة قليلة تُعَدُّ على الأصابع من عيار الشيخ عبد الرحمن الجيلالي وإمام الجامع الكبير الشيخ بن يوسف أوالشيخ بكير مسَّكْجي. أما الذين يجهلون كل شيء عنه فإنهم يُقدَّرون بالملايين من الجزائريين.

عجائز القصبة العريقات، "بنات القاعْ والباعْ" كما يُقال، لا يكدن يعرفن عنه سوى اسمه: "سيدي ابراهيم البَحْري" وضريحه المُحاط بنخلتين عتيقتين تسهران على راحته منذ قرون، وبركاته التي تَعَوَّدْن على طلبها عند الزيارات الموسمية والطارئة مُحمَّلةً بالصدقات والقَرابين وملحقاتها...
اليوم، سيدي ابراهيم الذي كان رياس البحر الجزائريون لا يتحركون من المرسى إلا بعد "استأذانه" وتَحيَّته في ضريحه بعد الدعاء بالنصر للبحرية الجزائرية في غزواتها، أصبح نكرة في ذاكرة سكان جزائر بني مزغنة. خطأُ مَنْ...؟ رُبّما "المَكْتوبْ" كما تَعَوَّدْنَا القَوْل...!

بدايــة المغـامـرة

كان سيدي ابرهيم الغبريني البَحْري السَّلامي كثير الرحلات والأسفار، تستهويه المغامرة و الاكتشافات و طلب العلم. لذلك قادته هذه الهواية، و ربما قضاؤه و قدره، من بغداد دار السلام، التي أعطته لقبه "السَّلامي" والتي يُقال أنه كان حاكماً بها، إلى إزمير بتركيا.. ثم إلى أرض جزائر الغرب التي كانت تعيش ثورة عميقة و مخاضا عسيرا في هذه العقود الأولى من القرن 16م. لم يكن وحيدا في هذه الرحلة التي كانت بلدة بني مزغنة أولى محطاتها، بحيث تقاسم معه مَشاقّها صديقان عزيزان، تُرْكِيَا الأصل مثله، هما من سيشتهران مُسْتقبلاً بـ: سيدي الوليّ داده، صاحب الضريح المجاور لسيدي عبد الرحمن الثعالبي، وسيدي محمد بوفالة، دفين مدينة المسيلة.
أسفاره الكثيرة وتنقلاته في أرض الله لم تُشْفِ غليله و فضوله، و لم تنجح أيّ مدينة أو قرية أو واحة في دار الإسلام في ترسيخ قدميه على تربتها و تحقيق مبتغاه الذي قد لم

يكن هو نفسه يدرك ماهِيَتَه، كما قد يكون صِغْرُ سِنّه مقارنةً بالولي داده وسيدي محمد بوفالة سِرّ هذه الطاقة المتفجرة في أعماقه. فواصل ترحاله، بعد استراحةٍ في فنادق ودِيار بني مزغنة، باتجاه الصحراء..، لكن في هذه المرة كان وحيدا.. دون صديقيْه اللذين جاءا لتوديعه عند باب عزون..، أين التحق بالقافلة التجارية الكبيرة التي كانت تتأهب للرحيل نحو عمق البلاد، بل وحتى إلى بلاد السودان حيث مملكة مالي والنيجر... لَقِيَتْ الصحراءُ التى جابها طولا وعرضا هوًى في نفسه قبل أن يطيب له المقام في مدينة تْواتْ التي كانت مركزا تجاريا وثقافيا لامعا آنذاك في نهاية القرن 15م. غير أن واحة توات بِعَرَبِها وبَرْبَرها وزُنوجها ويهودها ومسيحييها الأوربيين، مثل الجنْوي أنطونيو مالْفانْتي، وعلمائها وتجارها القادمين من مختلف النحل والملل، ومن مختلف أصقاع العالم، فتحت شهيته بتنوعها وثرائها الثقافي لاكتشاف عالم الأفارقة السود والقيام بالدعوة لدين الله هناك كما فعل قبله الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي. لهذا سرعان ما تركها متوجها إلى تومْبوكْتو ضمن قوافل الملح والذهب والتوابل وخردوات أوربا التي لم تهدأ حركتها بين ذهاب وإياب في الصحراء الكبرى إلا في نهاية القرن 19م وبداية القرن 20م. فجأة تنقطع أخبار سيدي ابراهيم في كتب التاريخ التي بقيت حتى اليوم عاجزة على اقتفاء آثاره، لذلك بقيت مغامرته الإفريقية مجهولة قد نعثر في يوم من الإيام على بعض حلقاتها في مخطوطات الزوايا التواتية بتقرت وغيرها من الواحات بما فيها واحات إفريقيا جنوب الصحراء... لكن بعد عودته من بلاد السودان، سوف نصادفه مقيماً في مدينة بوسعادة إقامة دائمة في هذه المرة.. إقامة سعيدة... بوسعادة التي غيّرت مجرى حياته ألى الأبد...
غير أنه لا يُعقل أن تكون هذه الواحة قد استطاعت بمفردها أن تُحْدِثَ كلّ هذا المفعول في نفسه رغم ما اشتهرت به من جمال سوف يقع في أسره حتى الفنان التشكيلي الفرنسي إِيتْيَان دِينِيه (Etienne Dinet) هو الآخر بعد 4 قرون قبل أن يُصبح نصرالدين دينيه بعد إسلامه. في الحقيقة هناك ما هو أجمل من بوسعادة في بوسعادةِ ذلك الوقت...: إحدى بنات سيدي سليمان بن ربيعة، أحد "شُرْفَة" علي سعادة (أو بوسعادة)، الذي ستحمل الواحة اسمه إلى اليوم، وقد تَزَوَّجَها سيدي ابراهيم وسعد بعيشه معها وطلّق من أجلها حياة التّرحال.
في يوم من الأيام، بعد أن طاب له في هذه الواحة المقام، قرّر أن يحج إلى مكة المكرمة وكانت زوجته حاملا.. فأوصاها إن جاءها المخاض ولم يرجع بعد عام أوحدث له مكروه وكان المولود صبيا أن تُسَمِّيه ابراهيم مثله... لكن لمُيكتب للأب أن يرى صبيه أبدا وإن كان قد حمل اسمه نزولا عند رغبته... الصبي الذي سوف يصبح يتيم الأم بعد فترة قصيرة من ميلاده، ليكبر ويشبّ في كنف أخواله، وخاصة في كنف والدة سيدي عيسى بن مْحَمَّدْ، ويشتهر في المستقبل بـ: سيدي ابراهيم الغول المدفون حاليا في بوسعادة بمنطقة أولاد سيدي ابراهيم. لكن لماذا "الغول"..؟ لأن حياته أحيطت بالعجائبية والكرامات حسبما كان يقوله أتباعُه في المنطقة آنذاك. وقد أنجب ثلاثة أطفال أصبحوا هم الآخرين أولياء صالحين، وهُم: سيدي مْحَمَّدْ، سيدي التُّواتي وسيدي رابح الذين

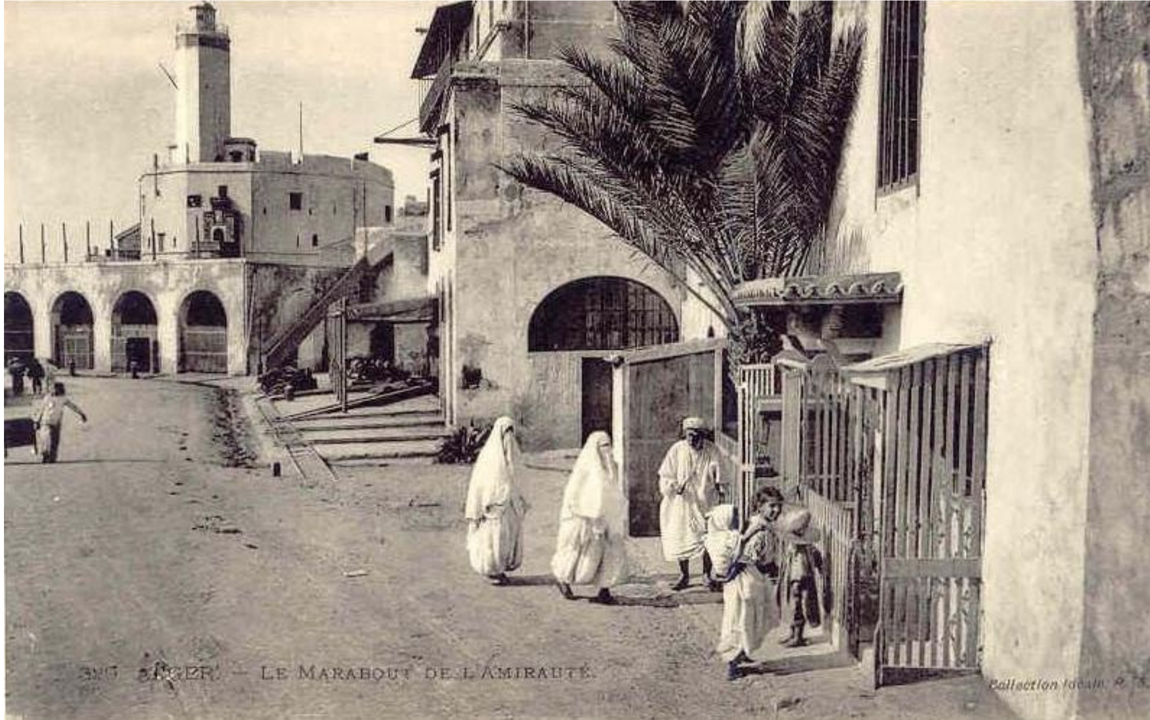
سيتشكل من نسلهم مَنْ سيُعرفون بـ: قبيلة سيدي عيسى المعروفة إلى اليوم في منطقة بوسعادة. أما الشريف الزهار فقد كتب في عام 1956م بأن أشهر ذريته هو "العالم الكبير الشيخ أبو القاسم الحفناوي المفتي المالكي بمدينة الجزائر(1850م-1942م)" ويضيف له الشيخ عبد الرحمن الجيلالي شخصية أخرى لامعة تتمثل في الشيخ محمد بن عبد الرحمن الديسي الفقيه ومُجَوِّد القرآن الكفيف (1854م-1921م). و نحن من جهتنا قد نغامر بإضافة اسم لامع في الوسط الثقافي السياسي – المعاصر افتقدته الجزائر قبل أشهر؛ و هو مصطفى الأشرف، المولود في سيدي عيسى من أمّ ذات أصول أندلسية من قصبة الجزائر.

سيدي ابراهيم البَحْري و... ذاكرة النسيان

ترك سيدي ابراهيم الغبريني السلامي إذن واحة بوسعادة، التي تَجَمَّع أهلُها حول بئر ومسجد عتيق يُدعى الجامع القديم أو جامع النّخلة، وتَوَجّه إلى مدينة جزائر بني مزغنة التي لم يراها منذ سنوات طويلة، منذ عبوره بها برفقة صديقيه الولي داده وسيدي مْحَمَّدْ بوفالة، لركوب البحر منها نحو البقاع المقدسة. غير أن قرية بني مزغنة سالم التومي والثعالبة لم تَعُد كما كانت عندما تركها، إذ كانت "تَتَعَثْمَن" شيئا فشيئا على يد الأخوين بربروس و عروج وتتأهب للتخلص من التهديدات الإسبانية. فقد تصادفت رحلته مع غليان عسكري – سياسي واضطرابات عنيفة في المدينة تسببت فيها النزاعات الداخلية على النفوذ، وعملية تحرير حصن البنيون من الإسبان. هنا أيضا تتلعثم المصادر التاريخية ولا تقل شيئا ذا أهمية حول سيدي الغبريني. غير أنه يبدو من المحتمل جدا، استنادا إلى رواياتٍ من بينها رواية سيدي محمد بن علي الخروبي الطرابلسي أحد علماء "المحروسة" في القرن العاشر الهجري المُتَوَفِّي سنة 963هـ، أنه حمل سيفه ليجاهد إلى جانب خير الدين، الصَّديق الذي يكون قد التقاه في يوم ما في بغداد عندما كان حاكماً عليها... وشاءت الأقدار أن يموت دون أن يتحقق حلمه في زيارة الحرمين الشريفين، إذ توفي شهيدا في سبيل الله بالقرب من المرسى في عملية هجوم خير الدين على حصن "البنيون"، فَتَمَّ دفنه في نفس المكان الذي لفظ فيه آخر أنفاسه قبل أن يقيم له البيلرباي، الذي يبدو أنه كان يعرفه ويُقَدِّر عِلمَه وصلاحه، ضريحا وقبة ومسجدا. الضريح الذي كان من أبرزأئمته سيدي الشيخ الحاج علي بونا دالي، التركي الأصول، حزَّاب وإمام الجامع الجديد في وقتٍ ماَ قبل أن يذهب للحج بالبقاع المقدسة على متن زورق شراعي ويعود ليتولى الإمامة بضريح سيدي ابراهيم البحري، وقد مات عن عمر يناهز المائة سنة. فاقت شهرة سيدي الغبريني منذئذ كل الحدود في جزائر بني مزغنة وسَهْلِ المتيجة بعد وفاته، وأصبح وليا من الأولياء الصالحين يقصده الزوار من كل حدب وصوب بالهدايا والقرابين... ونال عند أهل جزائر بني مزغنة لقب "مولى البحر" أي سيّد البحار حسب تعابير ذلك العهد. ونَسَبت إليه الأساطير الشعبية كرامات وقدرات غيبية غير عادية، بل عجيبة، في مجال البحار والمحيطات، لم تُنسب لغيره من الأولياء والصالحين، جعلته في هذا "التخصص" أكثر فعالية من سيدي عبد الرحمن الثعالبي نفسه.. و ما أدراك ما سيدي عبد الرحمن...

لهذا السبب كان الحجاج إلى وقت قريب لا يجرأون على الإبحار نحو البقاع المقدسة دون زيارته. أما البَحَّارة الجزائريون فلم يكونوا يبادرون إلى أي مشروع بحري أو غزوة ضد جنوب أوربا إلا بعد التزود ببركته والصلاة في قبته.
أجرى الاستعمار الفرنسي بعض التعديلات على هذه الأخيرة شوَّهتْ شكلها الأصلي، لكن النخلتين المحيطتين به لم يمسسها بسوء. كما لم تتعرض "عين سيدي ابراهيم" الجميلة لمكروه، لحسن حظها، وهي موجودة إلى اليوم بالمرسى العتيق قرب الضريح وقد ذكرها بافتتان الأسير الأمريكي جيمس كاثكارت في نهاية القرن 18م في مذكراته واصفا ماءها بأنه كان من أعذب ما شرب من ماء في حياته، الماء الزّلال الذي كان أول ما ذاقه في جزائر الغرب عندما رستْ به السفينة الأمريكية التي أُسِرَ على متنها.
سيدي ابراهيم الغبريني الذي نسيه أهله ويجهله اليوم معظم سكان مدينته، بل معظم الجزائريين، مازال موجودا إلى اليوم بالمرسى بالقرب من القاعدة العسكرية كما كان بالأمس في عهد رياس البحر. لم يتخلَّ عن "المحروسة" حتى عندما تركته هي وحيدا مهمشا لا أنيس له سوى هدير أمواج البحر، وصخب الصيادين ومحركات القوارب عند عودتها من البحر مع طلوع الفجر. وربما ذكريات مجدٍ بعيدٍ نائم في أعماق التاريخ، وذرية صالحة من الأولياء المنتشرين في منطقة بوسعادة وغيرها، المجد الذي لم يبق منه سوى الأصداء التي سجلها المستشرقون والرحالة الأجانب والديبلوماسيون وأسرى الدايات والباشوات من لوجيي دو تاسي وهنري كلاين إلى جيمس كاثكارت و القنصل ويليام شيلر. غير أنه ترك غَصَّة في حَلْقِ كلّ الذين اطَّلعوا على حكايته ولغزاً مايزال يشغل بعض الأذهان..؛ مَنْ هو سيدي ابراهيم أو"بْرَاهَمْ" الغبريني دفين أحد أضرحة مدينة شرشال والذي لايزال نسله، أي آل الغبريني، بالمنطقة يُطلق عليهم: "أولاد المْرابطْ" أو"دار المْرابط"...؟ هذا ما سنترك الجواب عليه للذين يملكون سِرَّه، مع تنبيههم إلى أن قائمة أخرى من الغُبرينيين الأولياء الصالحين تنتشر في عدة مناطق من البلاد... وأَجْرُهم على الله...

عند باب ضريح سيدي إبراهيم السَّلامي حيث استشهد في معركة 1541م ضد الاعتداء الصليبي بقيادة إمبراطور إسبانيا شارل الخامس (شارلكان). القبة بناها فوق قبره صديقه خير الدين بربروس إكراما لذِكراه.



عند باب ضريح سيدي إبراهيم البحري.



قبالة باب الضريح، النساء في زيارة جماعية لسيدي إبراهيم يتنزّهن على رصيف المرسى بعد طقوس الزيارة داخل القبة.



باب ضريح سيدي إبراهيم السلامي البغدادي في الأسفل على اليمين حيث الشجرة ومدافعنا المغروسة في الأرض



في المرسى القديم الذي يعود إلى العهد العثماني: العين التاريخية على اليسار، وضريح سيدي إبراهيم البحري على اليمين حيث النخلة.



مرسى مدينة الجزائر العتيق ورصيف خير الدين محتضنا العديد من البنايات، من بينها ضريح سيدي إبراهيم، على اليمين، على يسار الباب العالية المقوسة. هذا المرسى التاريخي أصبح منذ عقود قاعدة عسكرية بحرية تابعة للجيش الجزائري.



أَدْعِيَة الوَلِيّ دَادَه و..انهيار تَرْسَانَة "شَارْلُكَــانْ"

يَسْتْهَلْ مَنْ يَبْنِي سُورُه بْغِيرْ تَلْسَاسْ
ويَسْتْهَلْ مَنْ يَدْخُلْ البْحُورْ بْغِيرْ رِيَّاسْ

يَسْتْهَلْ مَنْ يَدْخُلْ الحْرُوبْ دُونْ صَارَمْ
ويسْتْهَلْ مَنْ يَطْلَبْ العْلُوْ بْلاَ سْلاَلَـمْ

قَدُّورْ العَلَمِي (شاعر)

عندما قرر الرحيل عن بغداد مدينة السلام، لم يكن يتصور أن القضاء والقدر سيقوده إلى قصبة الجزائر أين سيقضي بقية حياته ويصنع المعجزات والأساطير...

في الأسبوع الأخير من شهر أكتوبر 1541م، حاصر الإمبراطور شارل الخامس مدينة الجزائر طمعا في الاستيلاء عليها بعدما جهز لها أسطولا ضخما شاركت فيه أغلب الأمم الأوربية.

لعنة الولي داده

شَرَعَ في قصف "البهجة" من ساحل الحراش والحامّة، وفَتَحَ البطّاريات التي أقامها بفسطاطه على ربوة "الثغرة"(Tagarins) بمرتفعات القصبة وهو يحلم باستسلام المدينة... في هذه اللحظات الصعبة، خرج أحد شيوخ مدينة الأولياء والصالحين من باب عزون بإتِّجاه شاطئ "تافورة" يَجُرُّ نفسه جَرًّا وهو يكاد ينفجر من الغضب والغيظ من الاعتداء الصليبي على بلاده. لقد كان من أكثر أهل المدينة تُقًى ووَرَعًا، يتمتع باحترام وإجلال كل الناس الذين يلقبونه بـ: الولي داده، وإن كان آنذاك لايزال من بين أهل "المحروسة بالله"، من يُلَقِّبُه يوسف أو سيدي يوسف..، وبمجرد أن غاصت قدماه النحيفتان في مياه الشاطئ ضرب بعصاه البحر الساكن بغضب شديد عدة مرات، ثم رفع رأسه ويديه إلى السماء مبتهلا وطالبا الرحمة بالمسلمين وبمدينتهم الجميلة المجاهدة.. ثم رجع مدبرا نحو القصبة عَبْرَ باب عزون حيث كان الناس في انتظاره في إكبار وإعجاب، خصوصا وأن الابتعاد عن أسوار المدينة وهي تحت الحصار أمر ذو مخاطر كبيرة ويتطلب الشجاعة والإقدام اللذين قد لا يتوفران بسهولة في مثل سِنِّهِ...

تقول الأساطير بأنه ما إن خطا الولي داده خطواته الأولى داخل المدينة، حتى اكفهر الجو وتلبدت السماء بسحب كثيفة داكنة وسالت أمطار غزيرة كالسيول لم تشهد "البهجة" مثلها... فقامت عاصفة هوجاء من أَغْرَبِ العواصف التي عرفتها الجزائر، هبت كالصاعقة وحَرَّكَتْ أمواج البحر العاتية..، فكانت ضربة قاضية ضد الأسطول الصليبي وقواته المرابطة على مشارف القصبة، فتحولت الحملة المسيحية الرهيبة إلى برد وسلام على البلاد، بحيث تحطمت في يوم واحد 140 قطعة بحرية بِمُؤَنِها وعُدَّتِها وجنودها على صخور ورمال شاطئ وادي الحراش والحامة..، ثم استغل السكان

والجيش الجزائري هذه الفوضى والارتباك في صفوف العدو لتكثيف الهجمات الحاسمة.

انهزام شارلكان

هل هي كرامات الولي داده؟.. الحكايات الشعبية لا تَتَرَدَّدُ في الجزم بذلك، وسكان المدينة أصبحوا بعد هذه الحادثة العجيبة لا يقسمون إلاّ برأس الولي داده.. أوهذا على الأقل ما حفظه الفلكلور الشعبي عبر التاريخ من دور هذا الشيخ الجليل في الانتصار على حملة شارل الخامس سنة 1541م..، وهو انتصار تاريخي زاد في هيبة الجزائر تحت سلطة العثمانيين ودَعَّم قوتها البحرية بـ: 200 مدفع و1300 أسير واحتياطات هائلة من المؤن والذخيرة، كلها من غنائم المعركة، بالإضافة إلى اكتشاف نقاط الضعف الدفاعية التي تم استدراكها مستقبلا مثل عملية بناء "حصن الإمبراطور" أو"حصن بُوليلة"، نسبة إلى الإمبراطور شارلكان الذي بات فيه ليلة وحيدة، بـ: "التَّاغَارَان"، والذي لازال حتى اليوم ثكنة عسكرية.

عندما توفي الولي داده في سنة 1554م، حزنت عليه كثيرا مدينة الجزائر وتم دفنه بزاويته قرب جامع كتشاوة بشارع الديوان وأصبح ضريحُه مَحلّ تقديس كبير يزوره السكان بانتظام وتُهدى له القرابين وتُقام فيه مختلف الطقوس الروحية الصوفية التي ورثتها المدينة من تاريخها الثري والعريق.

المغامرون الثلاثة و"بساط الريح"

في يوم من أيام السنوات الأخيرة من القرن 15م، قام ثلاثة أصدقاء برحلة من بغداد دار السلام إلى مدينة إزمير بتركيا، أحدهما سبق له أن كان واليا على المدينة العراقية بغداد، اشتهر باسم سيدي ابراهيم الغبريني البحري البغدادي السَّلامي.

الثاني هو سيدي محمد بوفالة الذي ساقته الأقدار إلى مدينة المسيلة حيث استقر ومات ودفن هناك، وحيث لازال ضريحه موجودا حتى اليوم.

أما الثالث، فهو سيدي الولي داده الذي رافقهما في رحلتهما إلى إزمير ثم إلى مدينة الجزائر أين سيختار كل واحد وِجْهَتَه الخاصة.

تقول المعلومات الضئيلة المتوفرة عن هذا المثقف المتديّن أنه من أصل تركي. وهي مقولة يدعمها الشيخ عبد الرحمن الجيلالي الذي كتب عنه بأنه "رجل صالح من أهل مدينة إزمير قدم إلى الجزائر مرابطا بثغرها". كما يسندها الجزء الأخير من اسمه "دَادَه" الذي يعني في اللغة التركية-العثمانية الجَدَّة، أوالخادمة السَّوداء التي كانت تقوم بتربية ورعاية الأطفال، وهي كلمة ينطقها الأتراك "دادي". غير أن العلاقة بين الاسم والمُسَمَّى فَلاَ يعلمها إلا الله إلى حدِّ السَّاعة... أمّا مُحِبِّي الولي داده إلى درجة التقديس فقد أضافوا إلى المعلومات الشحيحة المتوفرة عنه أن له قدرات غيبية عجيبة لا نظير لها إلا في عالم "ألف ليلة وليلة" ، بحيث أكدوا أنه قَدِم إلى بلادنا من المشرق عن طريق البحر فوق بساط الرّيح... وهذه معلومات لا أعتقد أنه هو نفسه يُصَدِّقها...

العاصمة تتذكر شيخها

في سنة 1864م أثناء التوسع العمراني الذي كانت تعيشه المدينة تحت الاحتلال، قررت الإدارة الاستعمارية تهديم زاوية الولي داده وأقامت مكانها ديرا للرهبان، بعد أن سَلِمَتْ طيلة قرون من قصف الأساطيل المسيحية للمدينة، مثل القصف الإسباني في يوم الجمعة 8 أوت 1783م الذي حطم جزءا من هذه الزاوية العتيقة.
لكن إدارة الاحتلال حرصت على احترام حد أدنى من "قداسة" الولي داده ومشاعر سكان المدينة، و لو أن ذلك لم يكن حُبًّا فيهم بقدر ما هدف إلى تكريس تخديرهم بمعتقداتهم الوهمية. فقامت بتحويل رفاته، وسط موكب تقليدي وطقوس كبيرة شارك فيها حتى بعض الجنود الاستعماريين، إلى ضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي خارج أسوار القصبة. هناك جاور حتى اليوم أشهر الأولياء والصالحين ووجهاء مدينة الجزائر أمثال سيدي منصور، خيدر باشا، سيدي واضح، لالا عيشة بنت سيدي عبد الرحمن الثعالبي وأستاذ هذا الأخير سيدي بوجمعة، الذين سوف يلتحق بهم بعد قرون الدايات حسان ومصطفى باشا ثم الداي أحمد و لالَّة رُوزَة بنت مصطفى باشا، ثم الحاج أحمد، باي قسنطينة وزعيم المقاومة الشعبية ضد الاستعمار بالشرق الجزائري.
في سنة 1998م تذكرت العاصمة شيخها الجليل الولي داده بمناسبة ذكراها الألفية، فقامت محافظة الجزائر الكبرى بترميم قبره العتيق الذي سخرت له حوالي 60 مليون سنتيم...
فهنيئا للشيخ على حُلَّتِه الجديدة، و"الله يَخْلَفْ" على المُحسنين... !

الولي داده في إحدى الصُّوَر المتخيَّلة التي شاعت في مدينة الجزائر خلال الحقبة الاستعمارية في منتصف القرن 20م.



ضريح الولي داده، وكذلك سيدي منصور، موجودان على يسار الداخل إلى ضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي عند النزول بضع درجات من باب الضريح في أعلى الصورة على اليسار. رفاة الولي داده نقلها المحتلون إلى هذا المكان بعد أن كانت قبته قريبة من جامع كتشاوة في شارع بوتان تقريبا.



ضريح الولي داده مغطى بأقمشة خضراء مثلما هي العادة في جميع الأضرحة بشكل عام.



عند باب ضريح الولي داده، وهو موجود على يسار الداخل إلى ضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي. رفاة الولي داده نقلها المحتلون إلى هذا المكان بعد أن كانت قبته قريبة من جامع كتشاوة في شارع بوتان تقريبا.



سيدي منصور ... الوليّ المَحْقور

مَا بْقَى فُوقْ السُّورْ غِيرْ سِيدِي مَنْصُورْ

ما يزال تاريخ الجزائر العاصمة، مثلها مثل العديد من المدن الجزائرية، حافلا بالألغاز والأسرار التي أُلِّفت حولها حكايات و أساطير تملأ أغوار الذاكرة الشعبية حتى وإن بدأ يهددها النسيان. ولعل أحد أجملها تلك الأسطورة المستوحاة من الواقع لتي نُسجت حول شخصية طيِّبة في غاية الوداعة هي شخصية سيدي منصور...

يقول البعض أن سنة 1645م كانت سنة ميلاده، في الوقت الذي يرى فيها آخرون سنة وفاته شنقا من طرف السلطة العثمانية. لقد بقي شخصية عجيبة في حياته ومماته لكثرة ما أحيط به من اهتمام شعبي فيه الكثير من الغرابة والعجائبية والإجلال حتى إن ميلاده و وفاته بقيا إلى اليوم طلسما يحتاج لخبرات تفوق خبرات المنجمين والعرافين.

تقول الرواية الشعبية أن سيدي منصور، الولي الصالح صاحب البركات و"المعجزات"، تمتع بقدرات غيبية سمحت له حتى بالحديث مع الأشجار. فأحاجي عجائز قصبة الجزائر تؤكد، والعهدة على الراوي، أن أفضل صديق ورفيق له طوال حياته هو شجرة دلْب (Platane) عتيقة قُدِّر عمرها بمئات السنين... لذلك كانت من الضخامة والارتفاع الشامخ في السماء أن أغصانها وأوراقها الشديدة الخضرة والكثافة كانت تتدلى من فوق سور باب عزون، وتطل منه إلى خارج المدينة، حيث يقع اليوم مدخل هذا الشارع من جهة ساحة بور سعيد...

ظللت شجرة الدلب صديقها الحميم منصور الإسكافي البائس، الذي كان قابعا طيلة سنين طويلة في محله الصغير عند الباب الجنوبي لمدينة سيدي عبد الرحمن من الجهة الداخلية... كان منصور مطلعا على كل كواليس "البهجة" و دقائق شؤونها بفضل هذه الشجرة العجيبة التي كانت تَحكي له بعناية في خلوة الليل و قيلولة النهار تحت ظلالها الوافرة تاريخ "المحروسة" و أسرارها منذ بلكين بن زيري و الثعالبة حتى خير الدين و عروج و من أتوا بعدهما... لكن صفو الحياة و متعة صداقته مع شجرة الدلب لن يطول بهما الزمن بسبب حقد الحاقدين وحسد الحاسدين. فَقَدْ تَعرَّض منصور إلى وشاية، حسب ما كان يُشاع، من طرف بعض الأعيان لدى السلطان في قصر الجنينة (ساحة الشهداء) و أتت الوشاية ثمارها الخبيثة، بحيث أرسل السلطان رجاله ليأتونه بالشيخ الهرم. ولسوء حظ هذا الأخير فإنه تَلَعْثَمَ من الخوف أمام غضب الباشا المتطاير شررا و لم يحسن الدفاع عن نفسه و لا الإقناع ببراءته من التهم الملفقة له. النتيجة..؟ كان مصيره الحكم بالإعدام دون أن يشفع له سِنَّه المتقدم ولا تعاطف الناس و شفقتهم عليه..، لكن ليس في يوم عيد الأضحى... فمات شنقا، حسب هُنْرِي كْلاَيْنْ(Henri Klein)،

في الساحة العمومية بـ: "السوق الكبير" قرب "دار عزيزة بنت الباي" التي ماتزال ببياضها وفخامتها تقابل إلى اليوم بخيلاء جامع كتشاوة...
في أجواء من الحزن العميق، عُلقت جثة منصور من طرف الجلاد على الأنياب الحديدية المغروسة في صدر باب عزون خصيصا لمثل هذه الإعدامات ذات الطابع السياسي أو الجنائي العام. لكن حادثة عجيبة، تقول العجائز، سوف تحدث في تلك الليلة لتسمو بمنصور إلى الأبد إلى مصاف الأولياء والصالحين.
"ما بْقَى فوق السُّورْ...غيرْ سيدي مَنْصُور" !
تعوَّد سكان المحروسة عند غروب الشمس على نداء البراح للإعلان عن موعد إغلاق أبواب المدينة الخمسة: باب عزون، الباب الجديد، باب الوادي باب الجزيرة، وباب السَّرْدين... مفاتيحها كان ينقلها "قايَدْ" الباب إلى الداي شخصيا لتبقى عنده حتى طلوع الفجر. وعندما تنام مدينة سيدي عبد الرحمن لا يبقى سوى "النُّوباجِية" الأغواطيين عند الأبواب والعسكر فوق القلاع والحصون يحرسون ويسهرون على أمن سكانها.
في ظلام الليل الدامس، سمع سكان المدينة صوت منصور يردد في تأوّه حزين: "مايبقى فوق السور غير المسكين.. منصور"... وكانت هذه "المعجزة"، التي أنَّبَتْ ضمائر الجميع، كافية لِتُحَوِّلَ هذا الإسكافي المظلوم إلى حديث العام والخاص في السوق الكبير وحي القيسرية (ملتقى المثقفين) بساحة الشهداء، وفي الحمامات، والأزقة والمقاهي، وحتى في البيوت. ومنذ هذه الحادثة سوف يدخل منصور من الباب الواسع في الفلكلور العاصمي، و"يُبايَع" وليًّا صالحا ذا كرامات وبركات وقدرات خارقة للطبيعة، ويحوز عن جدارة لقب: **سيدي** منصور ذي الدلالة الشديدة الروحية.
بعد كل الذي حدث ، دفن الشيخ في دكانه تحت شجرة الدلب، رفيقة العمر، التي بقيت وفية له تُظلّله بوفاء وتُظلّل زوار الضريح والأتباع الذين دُفنوا في أوقات لاحقة إلى جانبه.
شيئا فشيئا، تَحَوَّل هذا الضريح إلى مُصَلَّى وقبة تستقطب الناس في الأعياد والمواسم الدينية أين يغتنم الزوار عادة الفرصة لتقديم طلباتهم للولي، رغم إرادته، بتحريك السَّعْد الخامل أو حتى النائم، والشفاء من الأمراض، وتزويج من استعصى عليه الزواج، وحتى على تجاوز الصعوبات الاقتصادية. وفي يوم من الأيام، حتى استئناس شجرة الدلب الضخمة بصديقها سيدي منصور وضعت له السلطات الاستعمارية حدا بعد صداقة دامت أكثر من مائتي سنة.
نهايــة صداقــة
في 1846م، قررت هذه الأخيرة نقل رفات الولي الصالح، لأسباب عمرانية تقتضي تهديم سور باب عزون و ما يحيط به من بنايات، إلى مقبرة ضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي في مرتفعات المدينة قرب باب الوادي. تمت إعادة دفن الرفاة بمرافقة فرقة عسكرية رسمية للموكب الجنائزي بالموسيقى الحربية متبوعةً بسكان المدينة الذين بقوا يُكِنّون له احتراما بليغا و تقديسا كبيرا. أما شجرة الدلب التي شهدت بحزن عميق دخول الكتائب الاستعمارية الأولى في 1830م فإنها لم تصمد في هذه المرة لفراق سيدي

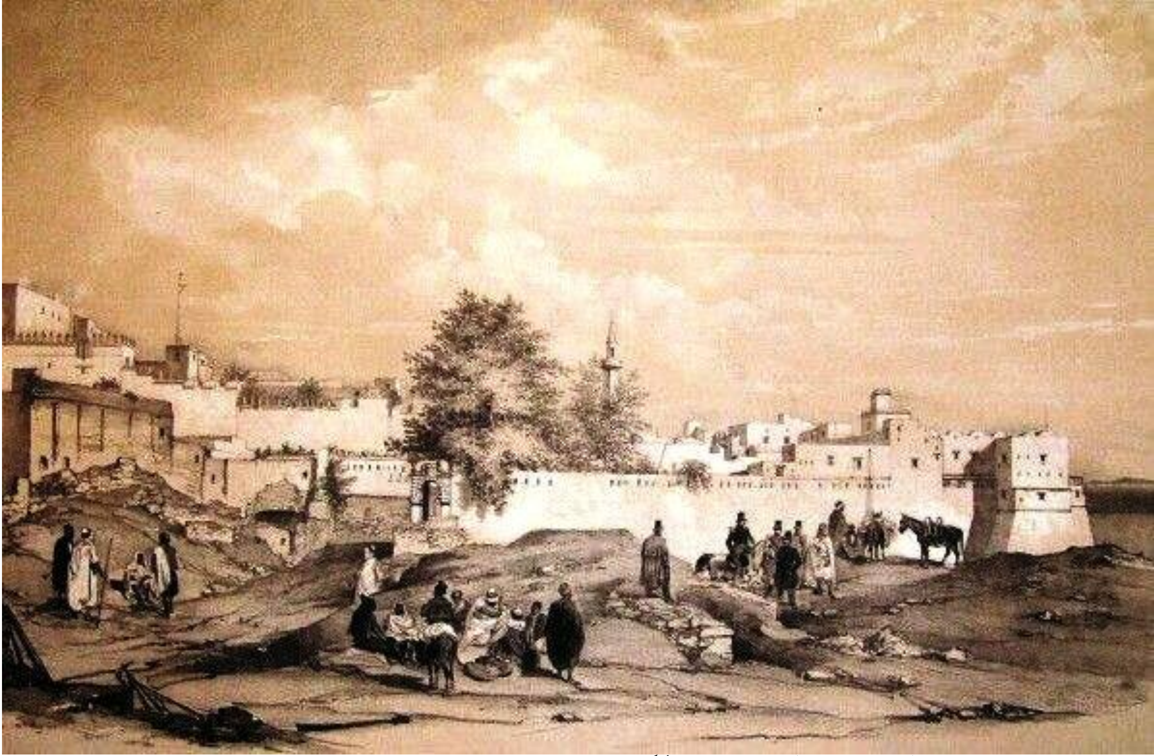
منصور، إذ بعد أن ظَلَّلَتْ بائعي الصابون الأسْوَد التقليدي، الآتين من جبال عمَّال (البويرة) الذين اتخذوا من محيطها سوقا لهم، و مقرَّ البريد العثماني و حتى الفرنسي في بدايات الاحتلال، انهارت قواها من الكمد، فذبلت و تَعَرَّتْ تدريجيا من أوراقها التي اشتهرت بكثافتها في عهد الإسكافي منصور حتى علَّق الناس على ذلك "العجب" بأن "من الحبّ ما قتل". وبالفعل ماتت الشجرة في 1853م بعد سبع سنوات فقط من رحيل رفاته عنها، فاقتلعتها سلطات المدينة نهائيا لتُوقِّع نهاية أسطورة جميلة بقيت حية طوال أكثر من قرنين و ذلك في يوم 11 أكتوبر من نفس السنة.

إثر هذه النهاية الحزينة ازداد سكان "البهجة" اقتناعا بفعالية ولِيِّهم منصور و داوموا على الحج إلى ضريحه حتى بدايات القرن العشرين. لكن الاستعمار في يوم من الأيام فضَّل الواقعية والفعالية الاقتصادية على الغيبية والعجائبية فحوَّل جذع وأغصان هذه الشجرة العملاقة التي كتبت عنها جريدة Lakhbar (لَخْبَارْ) الفرنسية في 1853م "أنها شهدت تداول 95 باشا وأكثر من 25 حاكما عَامًّا (فرنسيا)" على حُكم البهجة..، منذ حملة شارلكان في 1541م ، إلى "105 قنطار من الحطب بيعت ب: 120 فرنكا".

بعض ما تبقى من حطب هذه الشجرة الأسطورية، هو اليوم عبارة عن سلالم (Escaliers) العمارة رقم 3 ساحة بور سعيد، بمدينة الجزائر طبعاً. وأجمل ما بقي للخَلَف من صُوَرِهاَ وهي تنثر أوراقها بسخاء على أرضية باب المدينة وتظلل ضريح سيدي منصور، قبل سنة 1846م، وباعة الصابون القبائل، ومؤسسة البريد، هي اللوحة المائية الرائعة التي رسمتها الفنانة التشكيلية السيدة السويدية شولتز(Madame Schultz) في 1832م.

أما الذين لم يسمعوا من قبل بسيدي منصور، فما تزال أمامهم فرصة لزيارته وتحيته وذلك بمقبرة وضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي بالقصبة مع تبليغه سلام كاتب هذه السطور.. والرجاء عدم نسيان الهدايا: العنبر والجاوي وبضعة شموع وقليلا من البخور... وشكرا.

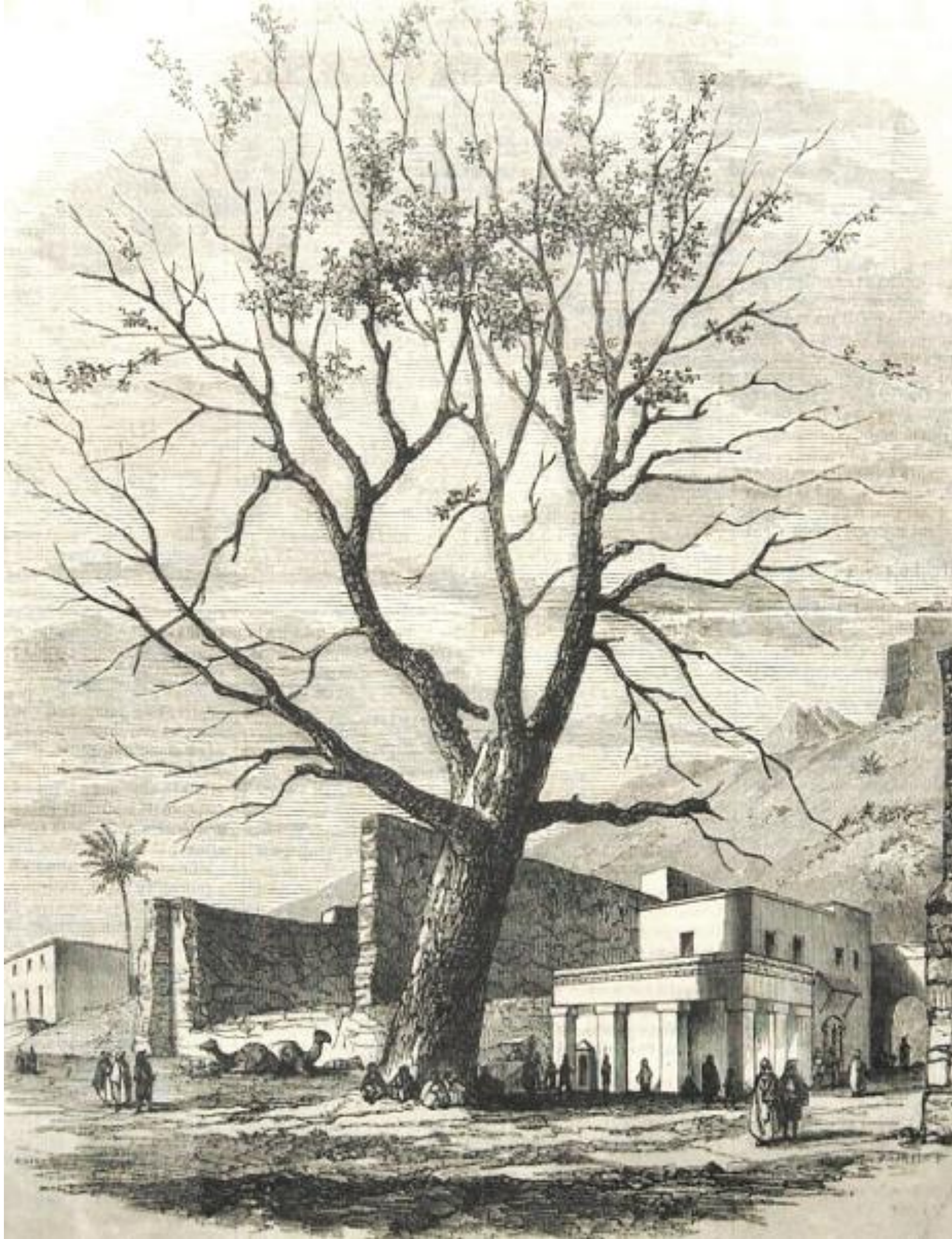
شجرة الدلب التي كانت تظلل دكان سيدي منصور في حياته مثلما ظللته حينما أصبح ضريحه في مماته. إدارة الاحتلال الفرنسي نقلت رفاته إلى ضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي على غرار ما حدث لرفاة الولي داده. تحت أوراق الشجرة، نشاهد باب عزون وخلفها على اليمين مئذنة جامع الداي الحاج حسين ميزو مورتو.



شجرة الدلب ممتدلية الأغصان والأوراق فوق دُكَّان/ضريح سيدي منصور وباب عزون وسور المدينة الجنوبي.



نهاية شجرة شاهدة على قرون من تاريخ "المحروسة بالله". هذه اللوحة لشجرة الدلب التي كانت تظلل دكان/ضريح سيدي منصور بعد تهديم إدارة الاحتلال سور باب عزون وبابه التاريخي، ولم يبق من السور في هذه اللوحة إلى جزء صغير في انتظار التخلص منه نهائيا لاحقا. إذا كانت رفاة سيدي منصور قد انتهى بها المطاف في ضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي، فإن شجرة الدلب هذه ما زالت تُعمِّر إلى اليوم، لكن في شكل سلالم خشبية جميلة، "دْرُوجْ"، صُنِعت من جذعها وأغصانها، لإحدى عمارات ساحة بورسعيد.



كان يا ما كان، عجائب قصبة الزمان...

قبل حوالي مائتي عام، كانت توجد بقصبة الجزائر من الكنوز ومن الطرائف و من العجائب والغرائب ما لم يتوفر حتى ببلاد شهرزاد و شهريار في أعماق ألف ليلة وليلة. كان أغلب الجزائريين حينها لايزالوا يؤمنون بالغول وبوجود الأرواح الشريرة التي تعتدي من حين لآخر، في أوقات فراغها، على مَنْ لا يستهويها من البشر... في المقابل، كانوا في أمسّ الحاجة للاعتقاد أيضا بالقدرات الغيبية للأولياء والصالحين وحتى لعدد من النباتات ومظاهر الطبيعة لمواجهة هذا الخوف الدائم من الغيب ومن المجهول...

رُبَّما أصبحت اليوم أطلال القصور والبنايات البالية وأحجارها، المبعثرة بين سيدي رمضان وسيدي هْلال أو بين قهوة العريش وشارع "ميدي"، خرساء لا تنبس بشيء عن ذلك. إلا أن بعض أغوار الذاكرة الشعبية لا زالت تحتفظ بنكهة تلك الأجواء التي تمتزج فيها الحقيقة بالخيال والخرافة بالإيمان، ويتعايش فيها الذكاء مع السذاجة بشكل منسجم الجمال ومثير للأذهان.

كنـوز القصبـة

كان الكثير من أطفال أوربا قبل سقوط مدينة الجزائر لا ينامون إلا على أعاجيب حكايات رياس البحر الجزائريين وحفظوا الكثير من الأساطير عن عروج وخير الدين بربروس وعن مراد رايس والعلج علي "الفَرْطَاسْ"، الذي اشتهر عندهم بـ: Occiali، وعَنْ الرايس حَمِّيدُو بن علي..،لأن البحرية الجزائرية كانت في حد ذاتها آنذاك إحدى أكبر "عجائب" ما كان يُسميه المسيحيون "بارْبارْيَا" (Barbarie) أو في أحسن الأحوال "إيالة الجزائر".

غير أن ما أثار خيال ولُعَابَ الملوك الأوربيين وأحاجي العجائز بأوربا وأمريكا حول المواقد في ليالي الشتاء الطويلة والقارسة البرودة هو "خَزْنَة" الداي التي كان مجرد ذكرها يُغْرِق الناس في بحر من الأحلام لا خروج منه. ولم تَأْتِ هذه الأحلام من العدم لأن الخَزْنَة ضَمَّتْ في أَغْوَارِهَا كنوزا قُدِّرَتْ قيمتها بأرقامٍ خياليةٍ تراكمتْ عَبْرَ القرون من غنائم البحر والهبات والهدايا وأملاك الأثرياء الجزائريين الذين لم يُخلِّفوا لها ورثة... وأصبحت كنزا قلّ أن يوجد نظيره في العالم. بل أسطورة أشهر من حكايات "سَنْدْرِلاَّ" و"جزيرة الكنوز"..، حتى أن الملك الفرنسي شارل العاشر لم يُنظم حملته

الاستعمارية على الجزائر إلا من أجل الاستيلاء عليها بالدرجة الأولى حسب بعض مؤرخي هذه الفترة.
كانت كنوز القصبة مُودَعة في خزنة الباشا بقصر الجنينة بساحة الشهداء الحالية إلى غاية 1817م حيث نقلها الداي علي خوجة سراً إلى "القلعة" التي أصبحت مقر الحُكْم الجديد الذي اشتهر بـ: "دارْ السُّلطانْ"، الواقعة بحي الباب الجديد. وقام بنقلها من القصبة السفلى إلى أعاليها، أي من "الوْطَا"، حسب المصطلحات المتداولة آنذاك، إلى "الجْبَلْ"، ودامت العملية أكثر من 36 يوما حسب الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف مدينة الجزائر الذي عايش أحداث تلك الفترة. نُقَلت هذه الكنوز على ظهور البغال والحمير ليلا بعد إقرار الباشا حظر التجول من غروب الشمس حتى شروقها. أما محتوياتها التي لم يكن مسموحا بالدخول إلى خَزْنَتِها إلا للداي نفسه ومساعده الخزناجي فتراوحت بين المجوهرات والألماس واللؤلؤ والذهب والفضة سواء في شكل تبر أو قطع نقدية أو حُلَي ومصوغات فاخرة ونادرة، بالإضافة إلى الملابس الثمينة المطرزة بالذهب والمرصعة بالجواهر والأسلحة الرفيعة الصنع التي كان سعر بعضها يفوق سعر قصور كاملة. وقد أجمع الباحثون على أن قيمة كنوز القصبة التي سرقها الجنرال دوبورمونت في 5 جويلية 1830م وحَوَّل جزء منها إلى ملك فرنسا تُقدَّر بـ: 200 إلى 800 مليون فرنكا ذهبيا بِقِيَمِ ذلك الزمان أين كان الفرنك الواحد يُشكل ثروة في حد ذاته.
هذا هو العجب الأول الذي لم يكن عجبا وإنما حقيقة مُقَيَّدَة في الدفاتر والوثائق والسّجلات و الشهادات.

النفق العجيب و"عيْن الجنون"

ما نَسِيه الناس والمؤرخون أيضا بعد حوالي قرنين من سقوط مدينة الجزائر بيد الاحتلال الفرنسي وانهيار نظام "الإيالة" هو ذلك النفق "العجيب" الذي أثار فضول كل من سمع به. نفقٌ لم يسعف الحظ الملك شهريار في امتلاك مثله، و يمتد من دار السلطان إلى المرسى، بحيث يمر تحت القصبة ويربط مباشرة بين القصر والبحر كممر أمني للطوارئ. وقد استعمله عدد من الحكام للفرار سرا من القصر وركوب البحر هروبا من المؤامرات والانقلابات العسكرية. لكن المسؤولين المعاصرين عن تسيير المدينة أفسدوه منذ سنوات ببناء حظيرة للسيارات في ساحة الشهداء، أي فوقه، بالرغم من الاحتجاجات. في حين كان بالإمكان الاحتفاظ به كتراث تاريخي أواستغلاله سياحيا على الأقل كما هو الشأن مع أنفاق حدائق "وولت ديزني" في أوربا وأمريكا... وهذا أيضا واقعٌ تَمَّ "تَعْجِيبُهُ".
كما كانت مدينة الجزائر عاصمة الأساطير الممتعة والخرافات الجميلة التي ضاع أغلبها في الوقت الحالي. إذ كان لِسُكَّانها عفاريتهم وأشباحهم وطقوسهم ومعبوداتهم الإضافية رغم إيمانهم العميق بالله وباليوم الآخر الذي لا تشوبه شائبة. ففي حي "لاكونصولاصيون" (La Consolation)، بمحاذاة قبة وضريح سيدي يعقوب بين باب الوادي وبولوغين، وُجدت عَيْنٌ شعبيةٌ اشتهرتْ بـ: "السَّبْع عْيُونْ" أو"عِينْ الجْنُونْ"

وذلك لتضمنها لأعين سبعة تتمثل في: العين الكحلة، العين البيضاء، العين الخضراء، العين الصفراء، العين الحمراء، عين لون الفول وعين "أولاد سَرْغُو" أي المسيحيين في اللهجة الجْنَوْيَّة (Gu'naoui) المتداولة أنذاك بين زنوج مدينة الجزائر حسب البريطاني جون موريل(J.R. Morell) الذي زارها في بداية خمسينات القرن 19م. ويبدو أن عين أولاد سرغو قد خُصِّصَتْ للمسيحيين... كانت "عين الجنون" أو "السبع عيون"، حسب معتقدات ذلك العهد، مرتعا أو حتى مَقَرًّا للجن الكبير، الشهير جدا حتى اليوم بالبلدان الإفريقية المجاورة لحدودنا الجنوبية، المعروف بـ: "بابا موسى"، أو"سيدنا الباهان"..، "الله يَحْفَظْنَا" ويحفظكم من تجاوزاته على كل حال... يُقال أن أصله من مالي، وإن رُجِّحَ نسبه إلى النيجر، واستقر "بِفَحْصِ" مدينة الجزائر وأصبح محل تقديس العبيد وحتى الأحرار السود الأفارقة المقيمين بالإيالة بصفة خاصة، فكانوا يغتسلون ويشربون من ماء العين تَبَرُّكًا وتزلفا للباهان راجين الفوز بِرِضَاه. فَلِهَذا الغرض كانت تُهدَى له القرابين ويُنحر الدجاج والديوك يوميا قرب العين وتُسلم لوكيلها مختلف الهدايا والترضيات. لكن في الحقيقة لم تكن هذه الطقوس الخاصة بسيدنا الباهان سوى عادة أتى بها الزنوج "الجْنَوَة" (Les Gu'naoua) من بلاد السودان، أي مالي والنيجر، وانتشرت في مدينة الجزائر حيث كانت تُمارَس في الأصل كل يوم أربعاء وفي النهار فقط، لأن الليل للجنون الذين يأتون للارتواء من دم الذبائح، أي دم "النشرة". والويل لمن خالف رغبات الجنون أوهكذا كانوا يقولون. أما الباهان في لغة هؤلاء "الجْنَوِيِّين" فما هو إلا "إله الماء"، وهذا ما يفسر اقتران هذا الجن "العملاق" بمياه "السبع عيون". ويقول هنري كلاين بأن حوالي مليون دجاجة كانت تذهب ضحية لسيدي الباهان سنويا في مدينة الجزائر، حيث تُذبح وأجنحتها ممدودة فوق "نافخْ" يتصاعد منه بخار "الجَاوِي" بعد أن تُحرك دائريا سبع مرات فوق رأس صاحب القربان ثم فوق صدره ثم على ظهره...

لقد زالت هذه العيون وطقوسها منذ أواخر القرن الماضي من الوجود لأن إدارة الاحتلال هدمتها أثناء أشغال التَوسّع العمراني كما هدمت بطبيعة الحال الضريح الذي يحتضنها، أي ضريح سيدي يعقوب الذي قال عنه دييغو دي هاييدو الأسير الإسباني أنه أندلسي من اللاجئين من محاكم التفتيش المسيحية وأنه "مات مختل العقل" في أواخر حياته..، وهذا مانشك فيه لمعرفتنا بكراهيته الشديدة للجزائريين والمسلمين بشكل عام .

لكن هذه العيون ليست العجب الأخير في المدينة ولا أكثرها غرائبية... فلنترك سيدي يعقوب وفحص باب الوادي في الشمال ولنتوجه إلى جنوب المدينة...

شجرة سيدي علي الزواوي

إلى غاية السنوات الأولى من الاستقلال، كانت توجد في مفترق طرق شوارع علي بومنجل و العربي بن المهيدي وباتْريسْ لومومْبا، على يمين المتوجِه نحو شارع ذبيح الشريف، شجرة عادية كغيرها من أشجار الرصيف، لكنها متميزة عن نظيراتها بالاحترام والإجلال الكبيرين اللذين تُكنّهما لها النساء والعجائز بصفة خاصة وحتى بعض الرجال.

كان جذعها مطليا بالحناء في قاعدته، أما أغصانها فقد امتلأت بقطعٍ صغيرةٍ مِن عُقَدِ القماش بمختلف الألوان مثيرة حيرة السياح والجاهلين بوظيفتها الغيبية في المعتقدات الخرافية الوثنية العاصمية. وكانت النساء لا يكففن عن زيارة هذه الشجرة والطواف بها وتقبيل جذعها مباشرة أو مُلامَستها وتقبيل اليد التي لمستها ثم مدّها نحو الجبين على طريقة الكهنة ورجال الدين المسيحيين، وذلك كل يوم خميس. وقبل الانتهاء من أداء هذه الطقوس، تربط النساء "تَشَلِّيقاً" في أحد الأغصان بعد أن يَتْلَوْنَ عليه التَّعَازِيمَ، ويَبْتَهِلْنَ للشجرة لكي تفرج كروبهن وتحقق أحلامهن و تُزَوِّج أبناءهن وبناتهن و، لِمَ لا، تكافح بطالة أزواجهن...

تعود قداسة هذه الشجرة، التي اقتلعتها السلطات المحلية كي تقتلع بذلك هذه العادات الخرافية والطقوس الوثنية الأصل، إلى كون هذه البقعة في العهد العثماني وقبل توسيع المدينة وبناء شارع العربي بن مهيدي (Rue d'Isly) فضاءً روحياً احتضن مقبرة إسلامية صغيرة وينبوع ماء طبيعي مجاورين لقبة وضريح ولي صالح اشتهر آنذاك بـ: سيدي علي الزواوي.

وإذا كان الاستعمار قد حرث المقبرة والضريح، فإنه حافظ على الينبوع وأدمجه عمرانيا في إحدى بنايات مدخل شارع العربي بن مهيدي، وهو الآن موجود بداخل محل للآلات الكهرومنزلية، ومازال الناس ينعمون بشرب ماءه العذب على الرصيف، دون أن يُدركوا سِرَّهُ...

الزيتونة "مامّا زينب" وشجرة سيدي بوشاشية

قليلة هي الأشجار التي تملك كل القداسة التي تمتعت بها شجرة سيدي علي الزواوي، لكن لا واحدة منها نافست وليّها في استقطاب الحجاج والزوار سوى "يمَّا زينب" أو"مامَّا زينب" وهي عبارة عن شجرة زيتون عجوز متشابكة الأغصان ظلت طيلة حقبة طويلة تتوسط فناء الولي الصالح سيدي مجبر ببوزريعة. كانت "ماما زينب " محل طواف الناس الذين يزورون الضريح وكانت قاعدة جذعها حتى وقت قريب مساحة لحرق الجاوي ونشر البخور في الفناء، كما نذرت أغصانها العتيقة لِقِطَعِ القماش الصغيرة التي كانت تُربط على فروعها كما كان يحدث مع شجرة سيدي علي الزواوي. أما النساء العاقرات فقد فضلن زيارة شجرة سيدي بوشاشية الضخمة المطلية بـ: "الجِيرْ"، الواقعة عند مدخل ثانوية المقراني بابن عكنون. ويُحكى إنها لا تُخيِّب من يطلب بركتها في مجال الخصوبة وإنها كثيرا ما ملأت البيوت الكئيبة بالبهجة المتدفقة من كتائب كاملة من الأطفال المدويّين. حدث ذلك قبل ظهور تقنيات إنجاب أطفال الأنابيب والاستنساخ.. وبتكاليف بسيطة...

وتخصصت أشجار أخرى في معالجة عددا من الأمراض تتراوح بين السعال الديكي والحمى وغيرها، على غرار نظيراتها في المدن والقرى الداخلية من البلاد والتي لعبت دور العيادات والمستوصفات إلى غاية الستينيات الماضية. مثل "الالَّة بَطْمَـة"، وهي شجرة تنتشر في المناطق الصحراوية وتكثر في الأغواط، و لا ندري أي ريح أتت بها إلى الشمال..، "لالَّـة زَعْرورَة"، نخلة سيدي بوجمعة المعروف بـ: مولى النخلة، وهي

مختصة في مختلف أنواع السّعال، وكذلك "زَبُّوجَة" سيدي بهلول بـ: عْزَازْقَة... أما نخلة سيدي عبد الرحمن الثعالبي الشهيرة التي كانت مَعْلَماً بارزا من معالم مدينة الجزائر إلى غاية نهايات القرن 19م، مثل برج "إيْفَلْ" في باريس، فَلَمْ يسعفها الحظ في تَبَوُّأ مثل هذه المسؤوليات الخطيرة التي أصبح القانون يعاقب عليها ويحتكرها للأطباء المرخص لهم مزاولتها في الوقت الحالي..، ربما لأن سيدي عبد الرحمن لم يترك لها المجال لتفعل ما فعلته الأخريات بما فيهن نخلة سيدي الأخضر بن خلوف بمستغانم. لذلك طورت وظائفها لتصبح عند سي قدّور بن مراد التركي، المدعو: الرودوسي، "لوغو" لمطبعته الشهيرة باسم: "مطبعة رُودُوسِي" التي تَأَسَّسَتْ في مطلع ستينيات القرن 19م بمدينة الجزائر.

عْوِينَــةْ سيــدي مَجْبَـرْ

الذين كانوا لا يزالون يؤمنون بوجود الغول والعفاريت لم تَكْفِهم الاستعانة بالله فقط وبالأولياء الصالحين والأشجار بل قدَّموا شكاويهم و تظلماتهم من نوائب الدهر حتى إلى الينابيع والنافورات والسواقي التي رأوا في تدفقها الدائم تلقائيا شيئا ما ساحرا يشبه الخلود، وقوة خفية غيبية قادرة على إحداث المعجزات التي كانوا في أمسّ الحاجة إليها. فأقاموا لها الطقوس والقرابين وذبحوا لها الدجاج والديوك البريئة ريثما تستقل البلاد وتصبح لها مصالح إدارية وكذلك مؤسسات كبيرة للتكفل بمشاكل المواطنين كالمستشفيات وحتى ما يُعرف منذ سنوات بـ: وساطة الجمهورية..، لتنتزع من هذه الأشجار والينابيع شرف إدارة شؤون المواطنين الاجتماعية والنفسية.

وتجدر الإشارة إلى أن المختصين في الأنثربولوجيا يُجمعون على أن مثل هذه المعتقدات الخرافية هي عادات وثنية تعود إلى ماقبل الإسلام تم تكييفها مع هذه الديانة الجديدة.

أبرز الينابيع المقدسة في الجزائر هي ينبوع سيدي علي الزواوي المذكور من قبل، "العوينة" المحاذية لـ: سيدي مجبر ببوزريعة، عين سيدي عمَّار بالقرب منه. "الشَّرْشَارْ" أين كانت تُقام طقوس غنائية تتراوح مابين"التَّقْدامْ" و"التَّحْوافْ" مع غسْل الملابس في نفس الوقت، و"السَّبْعْ عْيُونْ" أو"عَيْنْ الجْنُونْ" في بولوغين التي هدمها الاستعمار أثناء توسيع المدينة، وقَدْ راح ملايين الدجاج ضحية قداستها كقرابين لطقوس "النَّشْرَة" و"الوَعْدَة"...

كما اشتهرت أيضا مياه عيون ضريح سيدي يحي الكائن بين حيدرة وبئر مراد رايس، سيدي عبد الرحمن، وسيدي امحمد بن محجوبة، ببوزريعة.. وقد كانت هذه المياه لا تَقِلُّ شأنا في قلوب الزوار والحجاج عن ماء بئر زمزم بمكة المكرمة. لكن منذ بضعة سنوات أصبحت كل هذه "الآلهة" الصغيرة في شبه عطلة بعد ظهور منافس قوي وحيوي اختار استراتيجية جديدة تتمثل في تنقله بنفسه إلى المواطنين والاستماع إلى همومهم وكروبهم حيثما كانوا... إنه سيدي "عبد القادر"، ، بحي المرادية المعروف رسميا باسم: عبد العزيز بوتفليقة، وهوالقادر حتى على إطفاء نار الفتن الكبرى التي

تقشعر لها الأبدان والتي عجز عن إخمادها حتى سيدي عبد الرحمن..."فالله يزيد له في الشان"!

سيدي عطـاء اللــه ومعزوزة بنت الباي شعبـان

أما إحدى أشهر الطرائف التي لم يبق لها أثر اليوم لا في الفلكلور ولا في الذاكرة الشعبية باستثناء بعض الأصداء في بعض المصادر التاريخية فهي قصة "الوليّ سيدي عطـاء الله"، الذي كان يُقيم في نهايات القرن 16م في مدينة الأغواط، والأميرة معزوزة بنت الباي شعبان حاكم الجزائر. كانت معزوزة قُرّة عين هذا السلطان وعلى قدر هائل من الرقة والجمال. اختطفها فرسان مَالْطَا الصليبيون عندما كانت صبية في عمر الزهور، أثناء عملية قرصنة خاطفة على أحد شواطئ مدينة الجزائر، حيث كانت تلهو وتَمْرَح. فَحَزِنَ عليها الباي شعبان كثيرا وفَاوَضَ الأممَ المتوسطية المسيحية من أجل استرجاعها إلى القصر وعَرَضَ على فُرْسَان مالطا الهدايا والأموال دون جدوى...

في يوم من الأيام جمع رجال الدولة والحُكماء والصُّلاَّح ليستشيرهم في أمر الأميرة، فصارحوه جميعا، وهُم في حَرَج، بعجزهم عن إيجاد مخرج لهذه الأزمة.

من بين الحضور كان يوجد أحد أشهر مشايخ وحُكماء الجنوب الجزائري وهو الأغواطي سيدي عطاء الله الذي التزم الصمت أثناء هذا اللقاء. لكن عندما حط الليل رحاله على المدينة، يُقال أن هذا الولي الصالح، الذي لايزال ضريحه موجودا حتى اليوم بالأغواط، ذهب إلى مالطا على متن حصان طائر وتَبَارَزَ مع حراس القصر الذي كانت توجد فيه الأميرة معزوزة أسيرةً وأرجعها بسلام إلى غرفتها بقصر الجنينة بمدينة الجزائر خِلْسَةً، ثم عاد إلى الأغواط في نفس الليلة بسرعة البرق.

في الصباح فرح الباي شعبان كثيرا لعودة الأميرة عندما اكتشفها فجأة في غرفتها، وسرَّت المدينة كلها للخبر. غير أنه لم يتوقف عند هذا الحد بل أصر على معرفة هوية البطل الذي أنقذها، وراح يستعرض أمامها الفرسان والصُّلاح دون جدوى، حتى جاء اليوم الذي كان عطاء الله، صُدفة، في ضيافة السلطان ورأته معزوزة وأخبرت أبيها بالسر، فاتضح اللغز، وفرح الباي شعبان بالاكتشاف وأكرم الشيخ خير إكرام وأغدق عليه الهدايا، وجعله من حظوته ومقربيه رغم أن هذا الولي الصالح فضل البقاء ببلدته الأغواط. كما أعفاه هو وذريته من الضرائب، فأصبح آل عطاء الله من وجهاء هذه المدينة وأثريائها حتى اليوم، وهم منتشرون حتى في مدينة الجزائر.

هذه مقتطفات فقط، وهناك أخريات متنوعة لاتعد ولا تحصى. ففيها ما يتعلق بطرائف الألعاب والمبارزة في الأسواق، "ومن ذلك الألعاب البهلوانية التي تشبه المصارعة والتي كانت تجري يوم الجمعة"، بحيث كان يحضرها يوم عيد الأضحى، على حد تعبير أبي القاسم سعدالله، "الباشا وكبار رجال الدولة (..) خارج باب الوادي (وهُم يجلسون) على زرابي حول الحلبة". وفيها قصص الملاحم والبطولات البحرية وشهامة الرجال وفيها أسرار القصور والحكايات الوجدانية الجميلة، وفيها غضب الحكام وتمردات السكان وحتى ثورات الطبيعة وكوارثها...، التي قد تتطلب أكثر من ألف ليلة وليلة لحكايتها...، فلنترك شيئا منها لمناسبات أخرى.

ضريح وزاوية سيدي الكتاني على شاطئ باب الوادي في أسفل الصورة على اليسار. خلف النخلة الباسقة، يوجد السور الشمالي لمدينة الجزائر منحدرا نحو البحر ليأتي خارجه فحص باب الوادي.



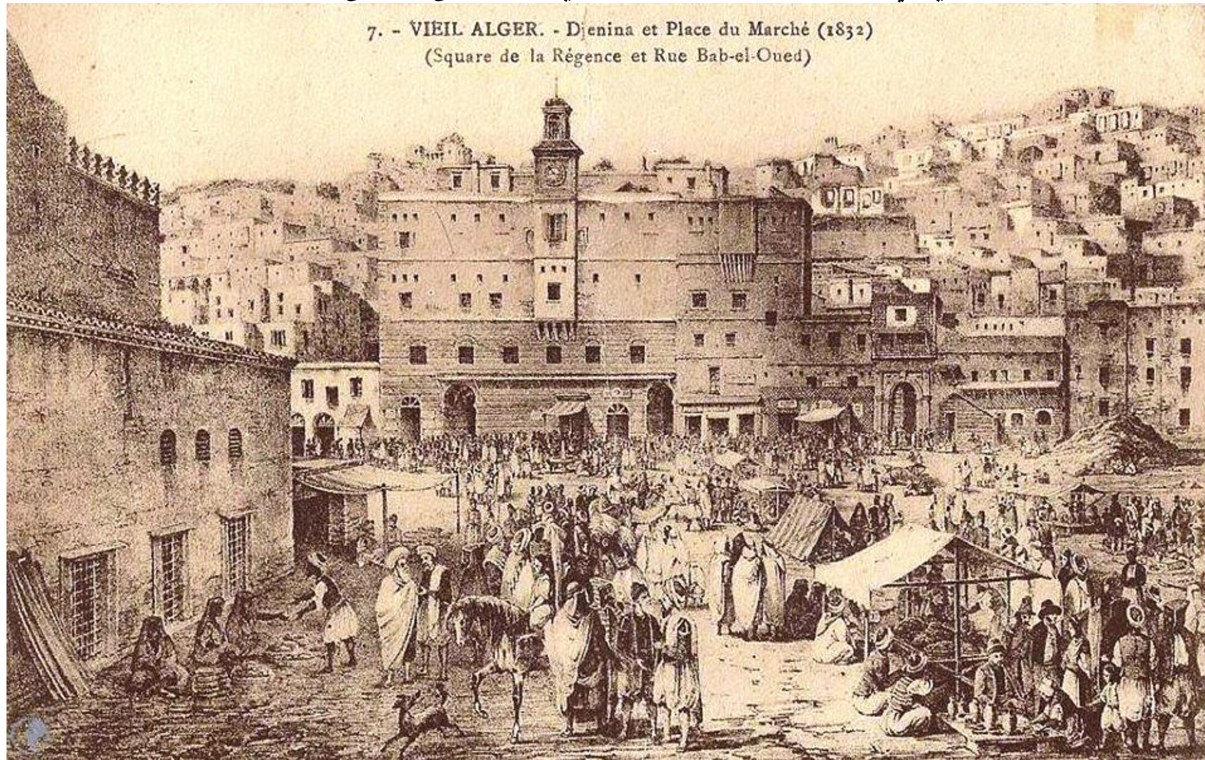
ضريح سيدي يعقوب مطلا على شاطئ البحر بين ضاحيتي باب الوادي وبولوغين، وبمحاذاته مقبرة صغيرة.



ضريح سيدي يعقوب المحاذي لمكتب التجنيد الحالي في ضاحية باب الوادي. وفي الأعلى سور مدينة الجزائر الشمالي منحدرا من ناحية سجن سركاجي نحو البحر مرورا بحومة سيدي رمضان.



قصر الجُنينة أو دار الإمارة مقر حُكّام الجزائر خلال العهد العثماني إلى غاية عهد الداي علي خوجة سنة 1817م. تحت القصر وُجد ممر سري في خدمة الباشا والقادة الكبار يؤدي مباشرة إلى المرسى.



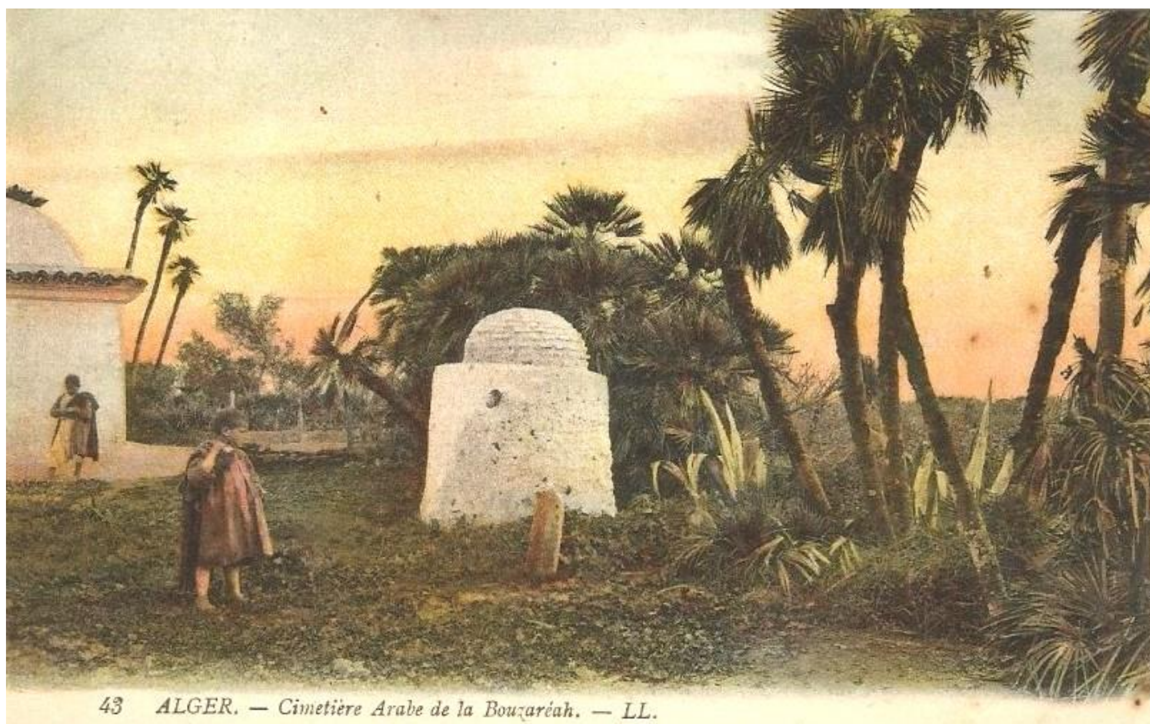
صورة فوتوغرافية نادرة لقصر الجنينة في خمسينيات القرن 19م. كان ملاصقا لدار عزيزة بساحة الشهداء الحالية. لاحظ صليب جامع كتشاوة خلفه حينما كان كنيسة في العهد الاستعماري، وبينهما دار عزيزة.



ضريح سيدي ابن النور (شعبيًا، يُنطق: سيدي بَنُّور) في ضاحية بوزريعة، وبمحاذاته مقبرة خاصة بالميزابيين.



ضريح ومقبرة وبئر سيدي مجبر في بوزريعة بمرتفعات مدينة الجزائر



43 ALGER. — Cimetière Arabe de la Bouzaréah. — LL.

ضريح ومقبرة سيدي مجبر في بوزريعة في مرتفعات مدينة الجزائر



243 Marabout à la Bouzaréah

ضريح سيدي مجبر في بوزريعة في نهاية القرن 19م



ضريح سيدي مجبر في بوزريعة في نهاية القرن 19م في لوحة فنية



كان ضريح وزاوية سيدي علي الزواوي يقع عند مفترق طرق شارعيْ باتْريس لومومبا والعربي بن مهيدي، أي على يسار النخلة ونبات الصَّبار في أسفل الصورة على اليسار، وقد أُدمِج جزء منه في عمارة سكنية ما زال أحد حلاتها يتوفر على عين طبيعية كانت تابعة ملقام الولي الصالح. في عمق الصورة سور المدينة وباب عزون. أما الشارع الذي يبدأ من الباب في أسفل الصورة على اليسار فشطره الأول هو اليوم ساحة بور سعيد وشطره الثاني المتصاعد قليل فهو شارع علي بومنجل المؤدي إلى شارع العربي بن مهيدي.



هنا، عند تقاطع شارع علي بومنجل، على اليمين، وشارع باتريس لومومبا، على اليسار، وشارع العربي بن مهيدي الذي يُقابلهما، كان يوجد ضريح سيدي علي الزواوي وينبوع الماء الطبيعي الذي تم دَمجُه في محل تجاري لبناية على اليسار.



الفصل الثاني:

العيشُ والموتُ في المدينة...

"البَارَحْ و اليَوْمْ"

عذراء باهْيـة مكمولَـة   العز البْهـاء والصّولَـة

"نَاسْ البَهْجَة"...مَنْ أَنْتُمْ...؟

كان قَلْبُ "بَهْجَةِ" بني مزغنة على قَدَرٍ من الشَّسَاعَةِ ورَحَابَةِ الصَّدْرِ ما جعلها تَتَّسِعُ لِكُلِّ خَلْقِ اللهِ مِن مُختلف الأعْراقِ والأَدْيَانِ...

في الأصل لم يكن يسكن في قرية بني مزغنة سوى بني مزغنة أنفسهم. ويُقال بأنهم قبيلة بربرية ربما اخترقتها أعراقٌ أخرى قديمة من الأمَمِ التي تعاقبتْ قديمًا على المنطقة. وعندما قَرَّرَتْ هذه النواةُ العمرانية التاريخيةُ للعاصمة الجزائرية التَّوَسُّعَ وحيَازَة دوْر أهمّ في حوض المتوسط، كان عليها أن تُشَرِّعَ أحضانَها لاستقبال من سيصْبُحون أبناءَها الجُدد ويساهمون في بناء قَدَرِهَا الجديد. فجاءها العربُ المسلمون الفاتحون دون تأثيرٍ على هويتِها البربريةِ في البداية بِسببِ عددِهم المحدودِ جدًّا في ذلك الوقت. ثم جاءت لاحقًا الهجرةُ الجماهيريةُ الهِلاليةُ التي استقرَّ أحدُ فروعِها في سهلِ المَتِّيجَة لِيَتَوَسَّعَ شيئًا فشيئًا إلى أرض بني مَزْغَنَّة التي لن تكونَ مُنْذُئِذٍ سوى عربيةٍ بربريةٍ. والفرعُ العربي الهلالي المقصود هو فرع الثعالبة الذي ينحدرُ منه سيدي عبد الرحمن الثعالبي زعيمُها ورمزُها الرُّوحِي، وكذلك الشيخ سالم التُّومِي آخر حُكامِها الثعالبة الهِلاليّين الذي أطاح به الأَخَوَان خيْر الدِّين بَرْبَرُوسْ وعرُّوج في بدايةِ القرنِ 16م.و عندما كَبرتْ أكثر طموحاتُ جَزَايَرْ بَنِي مَزْغَنَّة، تَدَعَّمَتْ من الناحية الديمغرافية بالمهاجرين الأندلسيين ثم المُورِيسْكِيّين، وبِعَدَدٍ من الأتراك، واليونانيين، والبوسنيين، والألبانيين، والبلغاريين، والمالطيين، والكْرِيتِيِّين (جزيرة كْرِيتْ)، والصّقليين، والبُندقيِّين، والإيطاليِّين بِشكلٍ عامٍّ، والكورسيِّين، وحتى بِبَعْضِ الفرنسيِّين والإنجليز والإيرلنديين...وذلك في العهد العثماني. فجاؤوها كمهاجرين وكَلاَجِئِين ومغامرين بحثا عن الأمن والرفاهية والاستقرار أو كأسرى حروبٍ أو معارك قادتْهُم الظروفُ في الكثير من الأحيان إلى البقاءِ بها إلى الأبد بعد إسْلاَمِهِم.

كما جاء إلى جزائر بني مزغنة، التي كانت قد بدأتْ تتخلَّى حِينها عن الجُزْءِ البربريِّ من اسمِها التاريخي الذي يتمثلُ في "بني مزغنة" لِتَسْتَبْدِلَهُ باللقبِ الجهاديّ "المَحْرُوسَة بِاللهِ" أو "دَار الجِهَادِ"، عددٌ من المَغَارِبَة والتونسيين كما تَدُلُّ على ذلك تَسْمِيَةُ بَعْضِ أحياءِ المدينة في العهد العثماني بأسماءٍ مِثل: "حَوْمَةُ الجْرَابَة"، أيْ أهل جزيرة جَرْبَة التونسية، و"حَوْمَةُ السْلاَوِي"، أي القادم من مدينة سَلاَ (Salé) المَغْرِبِيَة...

وتُشير بعض الأسماء العائلية في الحقبة العثمانية إلى وجود عائلات مشرقية كـ: البَغْدَادِي، أو بصيغةٍ لُغويةٍ ترْكِيةٍ: البَغْدَادَلِّي،أو الشَّامِي و أبو الشَّامِي بمختلف أحياء هذه المدينة التي أصبحتْ عاصمةً للجزائر كلِّها تُعْرَفُ في أُورُبَّا بـ: إيَالَةِ الجزَائر.
مِثلُ هذه التطوُّرات الديمغرافية التاريخية هي التي تُفَسِّرُ وُجُودَ أسماءٍ عائليةٍ إلى اليوم، ليْسَ في مدينة الجزائر فحسب بل في كل الجزائر، على غرارِ: ازْمِيرْلِي (أيْ من مدينة إزْمِيرْ التركية)، اسْطَمْبُولِي (من اسْطَمْبُولْ في تركيا)، بُورْصَالِي (من مدينة بُورْصَة بِتُرْكْيَا)، رُومِيلِي (رُومِيلْيَا في تركيا / بلغاريا) ، بَسْطَانْجِي (أيْ بُسْتَانْجِي)، دَامَرْجِي، دَاوَاجِي...وغيرها من الأسماء التي تعكس الأصول العرقية – الجغرافية والأصول الحِرَفِيَة – المِهَنِيَة في نفس الوقت. لكن لم تكن كلُّ الأسماءِ تركيةً، إذْ وُجِدَتْ أخرى ولاتزال توجدُ إلى اليوم مثل: كْرِيتْلِي أو بَنْ كْرِيتْلِي (من جزيرة كْرِيتْ)، رُودُوسِي (من جزيرة رُودُسْ)، مَالْطِي (من جزيرة مَالْطَا)، الصَّقَّلِّي (من جزيرة صِقِلِّيَة الإيطالية)، بُوشْنَاقْ أوالبُوشْنَاقِي (أي البُوسْنِي (Bosniac)؛ من البُوسْنَة والهِرْسَكْ)، فِينِيزْيَانُو (البُنْدُقِي (vénéziano) من إيطاليا)، قُورْصُو أو القُورْصُو (الكُورْسِي (Corso) من جزيرة كورسيكا الفرنسية)، الغَرْنَاوَطْ أو الأَرْنَاؤُوطْ (من أَلْبَانْيَا)...، بالإضافة إلى الوَجْدِي أو وَجْدِي (مدينة وَجْدَة المغربية)، الفَاسِي على غرار "زاوية سيدي علي الفاسي" (من فَاسْ المغربية) التي كانت تقع قرب "الدَّار الحَمْرَاء" في حَوْمَة "الزّوج عيُون"، الطَّرَابَلْسِي (من طْرَابْلَسْ اللِّيبيَة أو اللُّبْنَانِيَة) وغيرها من الأسماء المتعددة الأصول والأعراق.
أما الذين قصدوا مدينةَ سيدي عبد الرحمن قادمين إليها من داخِلِ التُّرابِ الجزائريِّ أو من دُوَلِ الجوارِ الإفريقيةِ فعددُهم أهمّ و ثقلهُم أكْبَر، في هذه الحقبة العثمانية، من الناحية الاجتماعية والثقافية حتى وإن كان وزنُهم أقل من حيث الثروة. و قد وَرَدُوا عليها من قبائل زْوَاوَة الأمازيغية بِجبال جَرْجْرَة، ومن خليط بقايا قبيلة كِتَامَة في جيجل ، البربرية هي الأخرى، وضيوفها الجدد الأندلسيين والمَغْرِبِيّين والأتراك، ومن قبيلة الشعامْبَة، ومن وادي سُوفْ، ومن وادي المِيزَابِ، وورقلة، وبسكرة، والأغواط..، وحتى من مالي والنيجر والسينغال...
الاتجاهات الديمغرافية الكبرى
لكن إذا نظرنا إلى سكان مدينة الجزائر من زاوية العناصر العِرْقِيَة الكبرى المستقرة بشكل دائم ومتواصل والأهم من الناحية الدِّيمغرافية العددية، لأَمْكَنَ تَصْنِيفَهُم بشكلٍ عامٍّ إلى "الحَضَر"، وهو ما يُقابِلُ في الوقتِ الحالي مُصْطَلَحَ "أولادْ البْلادْ" أيْ أبناء البَلَدْ المتمدّنين من جهة، ومن جهة أخرى ما كان يُسمَّى بـ: "البَرَّانِيَة" وهم الذين بقوا، أو أبقوا أنفسهم، مُصَنَّفِين في عِداد الغُرباء عن مدينة الجزائر رغم استمرار وجودهم بها دون انقطاع طيلة قرون. والسبب في ذلك يعود إلى كَوْنِ أغْلَبِيَّتِهم كانتْ نِصف مُستقرة في المدينة، إذ كانت لهم قَدَمٌ في قصبةِ الجزائر وقَدَمٌ آخرى في قُرَاهم وجِبالهم وصَحَارِيهُم التي جاؤوا منها أو جاء منها أجدادهم من أجل العمل أو من أجل التجارة وحتى من أجل المشاركة في الدفاع عن المدينة أثناء الاعتداءات الأوربية عليها. كما كانت هَويتُهم نِصْفَ قَصَبَجِيَة ونِصْفَ رِيفِيَّة لأنهم لم يقطعوا أبدا صِلاتَهُم بأُصُولِهم

الجغرافية، بل في أغلب الحالات كانوا يعيشون في القصبة بدون أُسَرِهِم التي تبقى عادة في القرى الأصلية.
ويتمثل هؤلاء "البَرَّانِيَة" في: زْوَاوَة، الجِيجليُّون، المِيزَابِيُّون، الأَغْوَاطِيُّون، البَسْكرِيُّون، والزُّنُوج الذين كانوا يُسَمَّوْنَ : "الوَصْفَانْ". أما "الحضر" فهم يتشكلون من "البَلْدِيِّين"؛ أهل المدينة القدماء الذين قد يكونوا عربًا أو بربرًا مُتعرّبين اندمجوا بشكلٍ كُلّي في النسيج والثقافة الحضريِّيْن المحليين أو مُهَجَّنين من الاثنيْن من جهة، ومن جهة أخرى من الأندلسيين و الموريسكيين الذين كان يُطلق عليهم الأوربيون عادة تسمية: Les Maures. ووُجد ضمن الأندلسيين و"البلديين" عددٌ من اللاجئين اليهود، الأندلسيين هم الآخرين، المُلَقَّبِين بـ: المِيغُورَشِيمْ ومن اليهود الأهالي؛ الأقدم وجودًا بِجزائر بني مزغنة المعروفين بـ: التُّوشَابِيمْ.
وإذا دقَّقْنَا في بُنْيَةِ "البَرَّانِيَة" فَنَجِدهم مُهيكلين ضِمْن مجموعات عِرقية لكل واحدة نقيبها أو "أمين الجماعة" الذي يمثلها رسميًا وإداريًا أمام السلطات المحلية والوطنية.

زْوَاوَة والجِيجْلِيُّون

ربما أمكن المغامرة بالقول إن أقدم البَرَّانِيَة في "بهجة" بني مزغنة هم الجواجلة وزواوة جرجرة وبجاية. والأسباب تاريخية مرتبطة مباشرة بدخول الأخوين عروج وخير الدين إلى البلاد من مدينة جيجل بدعوة من أهل البلد الذين كانوا في حاجة إلى دعم عسكري للتخلص من الاحتلال الجنْوِي. وقد نجح رهانُ الجواجلة على الأخويْن العثمانييْن كما نجح رهانُ خير الدين وعروج عليهم، وقد أقام الأول بينهم لمدة خمس سنوات بعد أن تزوج من إحدى بناتهم.
وبعد استرجاع جيجل، أثمر التحالف الجيجلي العثماني بتحريرِ مدينة بجاية بمشاركة المقاومة المحلية ثم توجهوا جميعا إلى مدينة جزائر بني مزغنة لطرد الإسبان منها.
ويُحْكَى بأن جيشَ خير الدين وأخيه كان يتشكلُ من أهل جيجل في جوهره، لذلك بمجرد تحرير البلدة التي ستتحول من الآن فصاعدا إلى العاصمة الجزائرية، استقر عدد هام من هؤلاء المقاتلين بها وأعطاهم النظام العثماني الجديد احتكار صناعة الخبز العمومي المُوجَّه للمؤسسة العسكرية ولمختلف هيئات دار السُّلطان وللعبيد. وهذا سر العلاقة الحميمية والقديمة بين هؤلاء الناس و الكوشات والمخابز بشكل عام ومع مخابز قصبة الجزائر بشكل خاص التي كان العديد منها يسمى "كوشة الجِيجْلِيَة"... ومن أشهر كُوشَات الجِيجْلِيَة، كما كان يُقال، في بدايات القرن 19م تلك التي كانت تقع في سُوق الشَّمَّاعِينْ وأخرى قرب حَمَّام المَالِح في "الوْطَأ" و أخرى في حَوْمَة سيدي مْحَمَّد الشّريف و رابعة في سْوِيقَة عَمُّورْ. وقد كانت القصبة تحتوي على مابين 71 إلى 100 كوشة في عام 1805م. وحدث أن انتظم الجيجلية في نقابة كوَّاشِين خاصة بهم لها أمينها الخاص الذي كان يُسمَّى في اواخر القرن 18م "أمين الجِيجْلِيَة الكوَّاشين"...
كان الزّْوَاوِيُّون أقلَّ استقررا من الجواجلة بمدينة الجزائر، إذ كثيرا ما كانوا يقضون وقتا أكبر في قراهم منه في قصبة الجزائر، رُبَّمَا لأن قُرْب جبال زْوَاوَة من العاصمة الجزائرية كان وراء ذلك بحيث يسمح بالعودة السريعة إلى القرية بمجرد إتمام الصفقات

التجارية أو انتهاء الشُّغل. وقد كانوا تجارا للزيت والتين والصابون، كما اشتغلوا مزارعين أُجَرَاءَ أوخَدَماً، وكان لهم فندق ومسجد كانوا كثيري التردد عليهما وهما "فندق الزّيت" و "جَامع القْبَايَلْ" في حيّ "باب عَزُّونْ".
لكن لهذين الفئتيْن الاجتماعيتيْن حضور من نوع آخر في المدينة يتجاوز الدور الاقتصادي و العسكري ويعكس ثقلا أعمق مما قد نتصور. ثقلٌ روحيٌّ عِلميٌّ يجد أحسن تعبير عنه في ذلك العدد الهام من أضرحة الأولياء والصالحين الزوَاوِيِّين والجِيجْلِيِّين المُنتشِرين في قصبة الجزائر على غِرار ضريح سيدي أحمد بن عبد الله الزواوي (متحف الفنون الشعبية القريب من جامع كتشاوة)، ضريح سيدي علي الزواوي (بين شارعي العربي بن مهيدي و بَاتْرِيسْ لُومُومْبَا) وضريح سيدي عبدالله، الجِيجْلِي، الذي لا زال موجودا إلى اليوم في القصبة العُليَا في الحَوْمَة التي تَحْمِلُ اسمَه وهي حَوْمَة حْوَانِيتْ سِيدِي عَبْدَ الله...
أهل الصحراء
أما البَسْكرِيُون فكانوا أقلَّ عددًا من القْبَايَلْ والجْوَاجْلَة وأقلَّ جاهًا وثروةً رُبَّمَا لأنهم اتَّسَمُوا بالقناعة، إذا صدق كلام لُوجْيِي دُوتَاسِي الذي قال عنهم: "بِمُجَرَّد أن تَتَرَاكَمَ لديْهم بضعة أَوْقِيَة (مِن عَمَلِهِم) يُسارعون إلى العودة إلى أهلهم حيث يُنظَرُ إليهم كَأُنَاسٍ أغنياء جدًّا". واشتهر البسكريون كَحَمَّالِين في الأسواق، غَيْر أن المِهنة التي بقيت مُلْتَصِقَة بهم إلى غاية القرن العشرين في قصبة الجزائر فهي مهنة السّقاية وما يتعلق بها من مهام تكميلية كَتَطْهِيرِ الأبْيَار وتَجْبِيرِهَا، إذْ كان البسكري مُرَادفاً لـ: "السَّقَّايْ" الذي يَتَجَوَّلُ في الأسواق والشوارع عارضًا على المارَّةِ الماء الصالح للشرب ومُنَادِيًا: "بَرَّدْ يَا عَطْشَانْ!"، أو عابرا أزقة القصبة من أسفلها إلى أعلاها حاملا قِرَب الماء النُّحَّاسِيَة أو الطِّينِيَة إلى البيوت التي تفتقد للآبار والمياه الجوفية. ولا شك أن الأغنية الاستفزازية السَّاخِرَة "البَسْكْرِي الأعْمَى طَاحْ فِي بِيتْ المَاء..." لم تَأْتِ من العَدَمِ...
أما جيرانهم الأغواطيون الذين اشتهروا بالأمانة والنزاهة فقد مارسوا مهنة الحراسة وكانوا "نُوبَاجِيَة"، بمصطلحات ذلك العهد، يسهرون على مداخل وأبواب القصور والمدينة وغيرها من الهيئات العمومية.
الميزابيون كانوا مُلاَّكا لِمَطَاحِن الحُبوب وللمخابز الصّغيرة الخاصة التي كانت في جوهرها كُوشَات تكتفي بِطَهْيِ الخبز العائلي الذي يُحضَّر في البيوت وتأتي به إليهم النساء أو الوصيفات أو الأطفال، وهو الأمر الذي لم يعد يحدث إلا في المناسبات في زمننا الحاضر. كما امتلك أهل الميزاب الحمامات حتى قيل إنها كانت احتكارًا لهم دون غيرهم في حقب مُعَيَّنَة، وقد قال عنهم فُونْتُورْ دُو بَارَادِي في القرن 19م بأنهم من الطبقات المحظوظة في المدينة...
الأفارقة الزُّنُوج
أما أسْفل السُّلَّم الاجتماعي لمدينة الجزائر فهو من نصيب الزنوج أو الجالية السوداء التي لم تكن مُجَرَّدَ "بهائم بشرية" كما قال أحد الرحالة الأوربيين الجاهلين بالحياة العامة في قصبة الجزائر وذوي الاطِّلاع السطحي عليها. إنَّهم أناس وَجَدُوا أنفسَهم في هذه المدينة

إما في سياق هجرة اختيارية أو كعبيد، لكن كعبيدٍ مُحَاطين برعاية ومعاملة إنسانية لا تختلف عن معاملة بقية أفراد العائلة في البيوت التي اشتغلوا فيها كخدم أو كوصيفات. الوصيفات اللواتي لم تكن البيوت البورجوازية تخلو منهن إلى درجة أن عدد النساء الزنجيات كان يفوق عدد الرجال الزنوج في إيالة الجزائر حسب الانطباعات المُسَجَّلَة في كُتُبِ ومُؤَلَّفَات الرَّحَّالة الأوربيين.

يُضاف إلى هؤلاء العبيد السود فئة من الذين تم عتقهم أو الذين ينحدرون من "المعتوقين" ليُشَكِّلَ الجميعُ ما كان يُعرف بـ: "جماعة الوَصْفَانْ".

وإذا كان العبيد يشتغلون كخدم في البيوت والقصور ويتمتعون بالحماية وحسن المعاملة من طرف مستخدميهم، فإن الأحرار كانوا حِرَفِيِّين و جِيَّارِين و حَصَّارِين، وكانوا أيضا موسيقيين وموسيقيات، و"كِيَّاسِين"، و "كيَّاسَات"، أو "طَيَّابَات الحَمَّام" كما يقال في الأوساط الشعبية، في حمَّامات المدينة..، غير أنهم بقوا في أغلب الأحيان في أسفل المجتمع من حيث أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية، دون أن يعني ذلك انعداما تاما لوجود زنوج من ذوي الثراء والجاه...

في غالب الأحيان لم تَحُل العبودية دون ممارسة البعض منهم لِحِرَفٍ ومِهَن مأجورةٍ كما يؤكد ذلك الأرشيف والشهادات التاريخية العديدة. ففي سياق تناوله للنشاط الاقتصادي لنساء مدينة الجزائر، ذكر الباحث الإسرائيلي تُولْ شُوفَالْ أَمَة سوداءَ كانت تشتغل "مُعَلِّمَة حَمَّام الجنينة"، على حدِّ تعبيرِه، توفِّيَتْ في شهر أكتوبر من سنة 1802م وتَرَكَتْ بَعْدَ وَفَاتِهَا مِيرَاثًا قُدِّرتْ قيمته بمبلغ 1762 رِيَّال الذي يُعتبر ثروة كبيرة في ذلك الوقت أكْبَرَ بِأربعةِ مرَّات من الثروة المتوسطة لنساء قصبة الجزائر في الفترة الممتدة من 1786م إلى 1803م. وحتى تتضح الصورة أكثر فإن هذه الأَمَة كانت أكثرَ ثراءً، على سبيل المثال، من "نَفِيسَة المَدَّاحَة" التي وإن كانت حُرَّةً لم تتركْ بعدَ وفاتِها أكثرَ من 22 ريالاً، أو "فاطمة الكمنجة" التي لم تتجاوز تَرِكتُها 400 ريال. كما أكد شُوفَالْ على أن الميزابيِّين كانوا يُوَظِّفُون في حَمَّامَاتِهم "الوصيفات"، أي الأَمَات الزِّنجيات، خلال ساعات اليوم المخصصة لاستحمام النساء. ثم يضيف: "لكن (..) يبدو أنه كانت للبعض (منهن) من المسؤوليات ما يجعلهن أكثر من مجرد موظفات عاديات". ولنترك وِيلْيَامْ شِيْلَرْ، القنصل الأمريكي عشية سقوط مدينة الجزائر بيد الاحتلال في 1830م، يضيف شيئا ما حول هذه الفئة من مجتمع "بهجة " بني مزغنة:

"الزنوج يشكلون جزءا آخر من السكان، ولوأنه صغير، فهؤلاء في الأصل، من العبيد الذين اشتراهم أسيادهم من داخل القارة أو من طرابلس، ولكنهم سرعان ما يحصلون على حريتهم باعتناقهم الإسلام، و هو ما قَلَّمَا يتأخَّر أحدُهم عنه، والمعروف أن الرقيق كان دائما هنا من النوع الخفيف وهو أقرب إلى أن يكون نوعًا من العمل في مقابل العناية والحماية منه إلى العبودية (...)". ثم يُضيفُ شيلر: أمَّا "فظائع أسواق النخاسة التي تُحْدِثُ ضجةً كبيرةً في العالم والتي قيل عنها الشيءُ الكثيرُ، كلّها اتِّهامات لا أساس لها من الصحة (...)".

لم تكن حياةُ هؤلاء السُّود الجزائريين حياةً سلبية تنحصر في العمل والخدمة عند "الأسياد" ثم الأكل والنوم حتى تحين ساعة الموت، بل بالعكس كان دورهم الاجتماعي والثقافي من الأكثر تأثيرا في الثقافة الشعبية. والعديد من موسيقانا وإيقاعاتنا وعاداتنا ومعتقداتنا الفلكلورية في الوقت الحالي أخذناها من هذه الفئة التي لم تَحْظَ بِعناية الحَظِّ ورعاية القَدَر في وقتٍ مُعَيَّنٍ من تاريخِها.

في شهر أفريل / نيسان من كل عام، كان زنوج "البهجة" يحيوْن مراسم الاحتفال بعيد خاص بهم سرعان ماستقطب بقية سكان المدينة ونساءها بشكل خاص وهو ما كان يُعرف بـ: "عيد الفُول" ويتوافق مع موسم جَنْيِ محاصيل الفول. فَيَتَجَمَّعُ زُنُوجُ المدينة على مَقْرُبَة من ساحل باب الوادي خارج السور وبالتحديد بين قَاعْ السُّورْ وثانوية الأمير عبد القادر لممارسة طقوس الاحتفال، وإن كانوا أحيانا يقومون بهذا الحفل الذي تلتقي فيه العادات الوثنية بالروحانيات الإسلامية في شكل غريب على ساحلٍ يقع بين ساحة أول ماي و حسين داي. ثم يتقدم أمين زنوج المدينة ليذبح ثورا للمناسبة بعد التجوّل به في شوارع المدينة وهو مُزيَّن بالأغطية الزاهية الألوان وبالورود المنثورة على ظهره تحت إيقاعات الطُّبُول و"الصَّنُوجْ". لكن عندما أصبح ثمنُ الثورِ ليْس في المُتناول اكتفى المُحتفِلُون بالدَّجَاجِ فقط...

وتكتمل طقوسُ عيد الفُول بِزيارة عين سيدي يَعْقُوب التي كانت تقع قرب ساحل البحر أسْفَلَ مُستشفى مَايُو (Maillot) الحالي. وهي عَيْنٌ شعبيةٌ اشتهرتْ بـ: "السَّبْع عْيُونْ" أو"عِينْ الجْنُونْ" وذلك لتضمّنها لِسَبْعَةِ عُيون، حسب الروايات الشعبية، تتمثل في: العين الكَحْلَة، العين البيْضاء، العين الخضراء، العين الصفراء، العين الحمراء، عين لوْن الفُول وعين "أوْلاَدْ سَرْغُو"، أيْ المسيحيين في اللهجة الجْنَوْيَّة (Gu’naoui) المتداولة أنذاك بين زنوج مدينة الجزائر. هذا ما أكَّده أيضا المواطنُ البريطانيُ جُونْ مُورِيلْ (J.R. Morell) الذي زارها في بداية خمسينيات القرن 19م. ويبدو أن عين أولاد سرغو قد خُصِّصَتْ للمسيحيين...

كانت "عين الجنون" أو "السبع عيون"، حسب معتقدات ذلك العهد، مرتعا أو حتى مَقَرًّا للجن الكبير، الشهير جدا حتى اليوم بالبلدان الإفريقية المجاورة لحدودنا الجنوبية، المعروف بـ: "بابا موسى"، أو"سيدنا الباهان"..، الذي يُقال إن أصلَه من مالي، وإن رُجِّحَ نسبه إلى النيجر، واستقر "بِفَحْصِ" مدينة الجزائر وأصبح مَحَلَّ تقديسِ العبيد وحتى الأحرار السود الأفارقة المقيمين بالإيالة بصفة خاصة، فكانوا يغتسلون ويشربون من ماء العين تَبَرُّكًا وتزلفا للباهان راجين الفوز بِرِضَاه. لكن في الحقيقة لم تكن هذه الطقوس الخاصة بسيدنا الباهان سوى عادة أتى بها الزنوج من بلاد السودان، أي مالي والنيجر، وانتشرت في مدينة الجزائر رغم تحفظ رجال الدين منها.

بعد الانتهاء من طقوس الذبح يتوجه الجميع إلى العين سابقة الذكر لملأ مائها في القِرَب و مختلف الأواني للتبرُّك به لشيوعِ الاعتقاد بقداسته في مثل هذه المناسبة، خاصةً في أعقاب تقديم القربان. وتُضْرَبُ الخِيَمُ بألوانٍ متنوعة وزاهية، يغلبُ عليها اللونُ الأحمر، على طول محيط موقع الاحتفال الذي يتخذ أشكالا مهرجانية جماهيرية مثيرة نالت

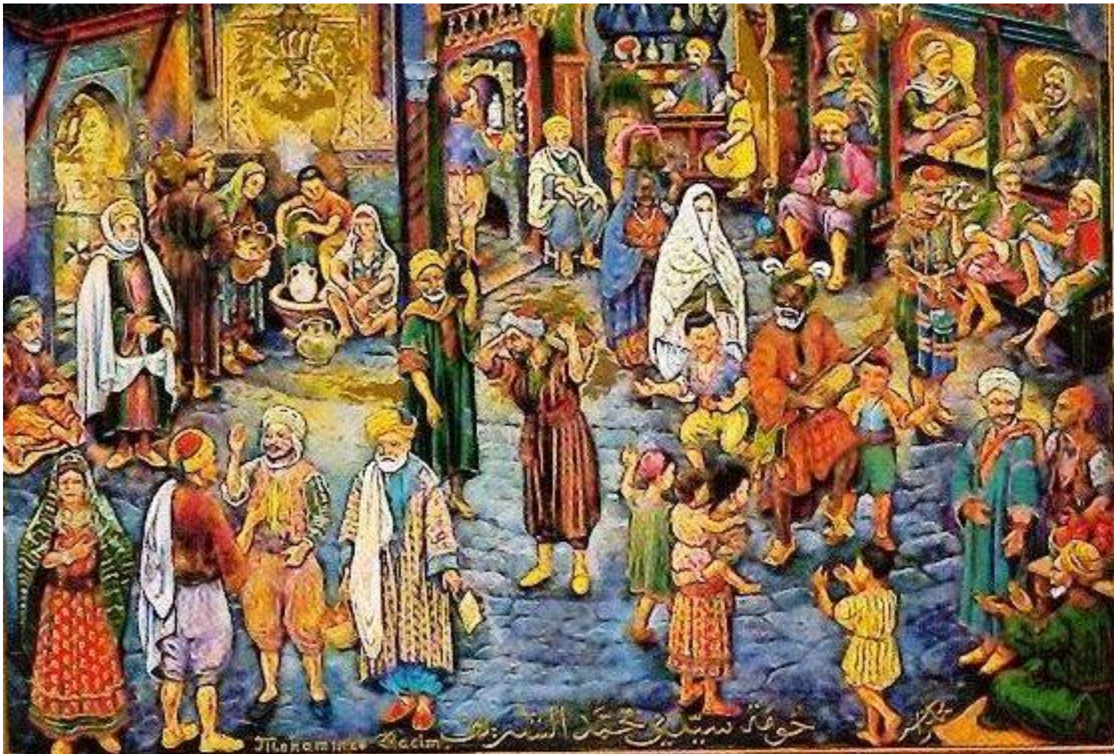
اهتمام الكثير من الأوربيين، من بينهم الفنان التشكيلي الفرنسي الشهير أُوجِينْ فْرُومُونْتَانْ الذي عَلَّقَ عليها في أحَدِ مُؤلَّفَاتِه. كما تقام في هذا المقام المطابخ والمقاهي في الهواء الطلق لينتهي الحفل بعد ساعات طويلة من الأكل والشرب والغناء والرقص والمرح على الإيقاعات الإفريقية الزنجية. هكذا كان يتم الاحتفال بـ: "عِيدْ الفُولْ" أو "عِيدْ سِيدِي بِلاَلْ" كما كان يُسميه البعض. وهكذا عاشت الجالية الإفريقية الزنجية في قصبة الجزائر طيلة قرون.

لكن هكذا أيضا نكون قد أتْمَمْنَا تَقْدِيمَ صورةً عامَّة للبُنية الدِّيمغرافية لأهل "المحروسة بالله"، وحدَّدْنَا مَنْ هُوَ شَامِيًا فيها ومن هو بغداديا، كما يقال، وكل الرجاء أن نكون قد أجبْنا على السؤال: ""نَاسْ البَهْجَة".. مَنْ أنْتُم...؟ ".

"ناس البهجة" في حَوْمة حوانيت سيدي عبد الله في مرتقعات المدينة. اللوحة بريشة محمد راسم الجزائري.



وجوه من المدينة "المحروسة بالله" تمثل مختلف سكانها نساء ورجالا وأطفالا في حومة سيدي محمَّد الشريف في الجهة العليا من الدينة المسماة "الجبل". اللوحة بريشة فنان المنمنمات الكبير محمد راسم الجزائري.



نماذج من سكان "بهجة" سيدي عبد الرحمن خلال العهد العثماني: البَلْدِيَّة، أو "أولاد البْلادْ" كما يُقال محليًا، وهم من الحَضر وينتمون عادة إلى الطبقات المرتاحة أوالغنية ماديًا. كان من ضِمْن البَلْدِيَّة الكثير من الأندلسيِّي الأصُول.



1 ET 2. COSTUMES DES RICHES MAURES D'ALGER. 3. RICHE MORESQUE DANS SON INTÉRIEURE. 4. Id. EN VILLE.

وجوه من المدينة خلال العهد العثماني: على اليمين رجل وامرأة من الحَضَر، وعلى اليسار رجل وامرأة من الريف



Pl 38
1. ARABE AVEC LE BERNOUS. 2. FEMME ARABE. 3 ET 4. MAURE ET MAURESQUE D'ALGER.

امرأتان من حَضَر المدينة، إحداهما، على اليمين، ترتدي الحايك والعجار مثلما هي العادة عند الخروج من البيت والأخرى بلباس الدَّار، على اليسار.

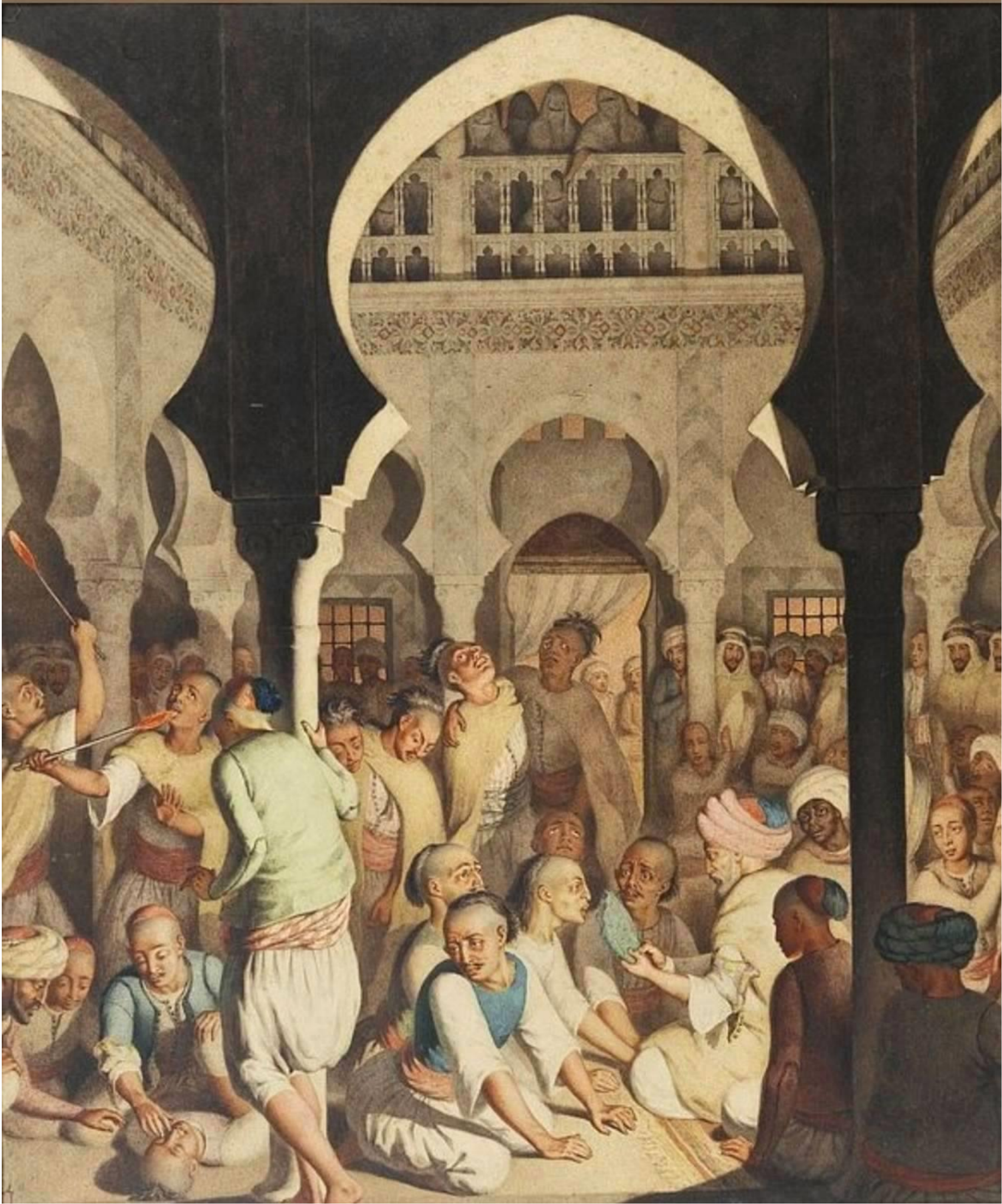


هكذا كان يلبس سكان "المحروسة بالله"، نساء ورجالا، حسب العادات والانتمات العرقية والإثنية لكل طائفة.
المرأة "البلْدِية"، على اليمين، مرتدية زي الخروج إلى المدينة وهو الحايك والعجار، ومن خلفها الخادمة الزنجية التي عادة لا تُغطي وجهها، كما أن لون الحايك الذي يسترها يغلب عليه اللون الأزرق الفاتح أو الرمادي. الزنجية قد تكون أَمَة، كما قد تكون حُرَّة. الطفل مع والدته بزي "أولاد البلاد" الذي كان شائعًا حتى بداية القرن 20م. يأتي بعده الزنجي الذي قد يكون عبْدًا أو حرًّا، ثم صاحب البندقية الذي يدل برنوسه على أنه من جبال زواوة الذين ما كان البرنوس يُفارقهم وإن لم يكن خاصّية تخصهم لوحدهم. بعد الزواوي، نشاهد "البَلْدِي"، أي "وليد البلاد" من قدماء المدينة، وهم أيضا خليط من العريقين بها على مدى أجيال وقرون. ويظهر "البلْدي" متحدثًا إلى مَن كان يسميهم الرحالة الأوروبيون خلالا العهد العثماني "المُور" (Maure) الذين يُقصَد بهم في غالب الاحيان آنذاك أهل الأندلس وأحفادهم اللاجؤون والمطرودون من الأندلس. على يسار "المور"، يوجد رجل من أصل عثماني بلباسه المميِّز لطائفته. والعثماني ليس بالضرورة تركيًا، لأنه قد ينحدر من محتلف جهات أوروبا وآسيا الوسطى بل حتى من جورجيا وروسيا. وفي أقصى اليسار التاجر اليهودي حاملا تحت إبطه صندوقًا. بشكل عام، هذه هي النماذج الإثنية التي كانت تُشاهد في أزقة وساباطات وأسواق ومساجد "المحروسة بالله" خلال العهد العثماني.
في هذه اللوحة التي تعود إلى بداية العهد الاستعماري، يبدو المكان أمام جامع علي بتشين حيث نرى العين خلف هذه المجموعة من الناس، وهي العين المعروفة خلال الحقبة العثمانية وإلى غاية وقتٍ قريب بـ: "عين الشارع". اليوم، في الغالب، تُسمَّى شعبيًا "عين الزُّجْ عْيون"، باستثناء قدماء المدينة من كبار السنّ الذين ما زالوا يُطلقون عليها اسمها القديم والأصيل "عين الشّارع".



لوحة فنية لطقوس السُّود واحتفالاتهم في الجزائر خلال القرن 19م





الجزائريون السُّود في احتفالات وطقوس في وسط الدار بمدينة الجزائر



نساء مدينة الجزائر عند عتبة الدَّار يشترين الياسمين على بائع متجوِّل في عمر الزهور. ووصيفة حافية تظهر عليها علامات الفقر تبيع الخضر.



السَّقَّاي في مدينة الجزائر حيث كان أغلب من مارسوا هذه المهنة خلال العهد العثماني من أهل واحة بسكرة في جنوب البلاد.



وجوه من مدينة الجزائر التاريخية في المقهى في بداية القرن 19م. عند بداية ظهور المقاهي في المدينة، كان القهوجي من العثمانيين في غالب الأحيان قبل أن تستقطب غيرهم.



**وجوه من مدينة الجزائر في "عْقِيبَة الشّيطان" بقلب المدينة التاريخية: "القصبة". الشارع موجود إلى اليوم.
اللوحة بريشة رةبير لومونييه (Robert Lemonnier).**



المتحف الوطني للفنون العادات الشعبية
من زاوية سيدي الزَّوَاوِي إلى دار خْداوَجْ العَمْيَاء

على أنقاض زاوية سيدي أحمد بن عبد الله الزواوي برز قصر فاخر وعتيق عرفه البعض بـ: "قصر يحي رايس" والبعض الآخر بـ: "دار البكري"، ثم غلب عليه اسم "دار خْدَاوَجْ العمياء" قبل أن يتحول إلى المتحف الوطني للفنون والعادات الشعبية...

عاش سيدي أحمد بن عبد الله الزواوي في القرن 15م ويُقال أنه عاصر سيدي عبد الرحمن الثعالبي (؟). كان فقيها كبيرا نبغ في علوم الدين، مِمَّا فتح له المجال لشغل منصب الإفتاء في مدينة جزائر بني مزغنة في عهده. بعد وفاته، بُنيتْ زاوية وقُبَّة على قبره تقديرا وعرفانا له بخدماته وعلمه وصلاحه وفضله الكبير على سكان هذه الحاضرة الصغيرة.

المفتي أو مشروع المرابط الصالح

لكن مصير سيدي الزواوي سوف يعرف تحولات جذرية منذ دخول الأتراك العثمانيين بسبب اهتمام كبار رموز الدولة بزاويته التي كانت تتشكل من مسجد ومقبرة صغيرة احتضنت رفاة ثلاثة من المفتيين الأوائل للمدينة.

بقي سيدي الزواوي بحي سوق الجمعة سنين طويلة ينعم بالسكينة المحيطة ببقعته بعيدا عن ضوضاء السوق وصخب وسط البلدة لأن جزائر بني مزغنة كانت في عهده لا تتعدى الشريط الساحلي وجُزءًا من ساحة الشهداء الحالية وشَارِعَيْ باب عَزُّونْ وأَوَّلِ نُوفَمبَر. غير أن أشياء كثيرة سَتَتَغَيَّر...

في سنة 1570م، كان قد مضى أكثر من نصف قرن على دخول الأخوين عَرُّوج وخَيْر الدين إلى البلاد، وفي هذه السنة بالذات كانت قصبة الجزائر تعيش في عز توسعها العمراني تحت البيلرباي رمضان باشا، وأصبحت مدينة بأتم معنى الكلمة بأسوارها وأبوابها وأبراجها وحصونها وخنادقها ومدافعها، وبأسطولها البحري الذي يفرض نفوذه في الحوض الغربي للمتوسط.

وفي هذه السنة بالذات أيضا قرر البيلرباي رمضان باشا بناء قصر فخم يُدمج فيه زاوية سيدي أحمد بن عبد الله الزواوي ليتزود ساكنيه ببركته وقداسته التي لن تكون حسب معتقدات ذلك الوقت سوى خير وسلام على أهل الدار. لكن هذا المشروع المعماري الأنيق سوف يدفن ذكرى الولي الصالح ليطغى جمال القصر الجديد الذي اشتهر بقصر يحي رايس على ذكرى الزاوية وصاحبها.

السلطة تُجاور سيدي الزواوي

توسعت مدينة سيدي عبد الرحمن الثعالبي، وأدرك عُمرانُها زاوية الفقيه سيدي أحمد بن عبدالله الزواوي التي كانت من قبل"فَحْصِيَة" تقع خارج المدينة. فأصبح الولي الصالح والقصر الذي بُني فوقه جزءا من حي جديد ظهرت فيه سوق أسبوعية جديدة متخصصة في بيع الحمام كل جمعة حتى أصبح هذا الحي يُعرف بـ: "سوق الجمعة" إلى يومنا هذا، وافتقد سيدي الزواوي الهدوء والسكون اللذين نعما بهما قبل أن تغزوه فوضى وضوضاء طقوس العرض والطلب. ثم لم يطل الزمن كي يُصبح سيدي الزواوي وسكان القصر جيرانا لنُمونْكْلاتورَةِ (Nomenclature) إيالة الجزائر، حيث أحاطت به شوارع جديدة وقصور فخمة ومساجد فاخرة من أجمل ما جادت به الهندسة المعمارية الجزائرية في العهد العثماني، مثل قصر الجنينة الذي كان المقر الرسمي لسالم التومي ثم لخيرالدين وللباشوات والدايات الذين جاءوا بعده وأعاد صالح رايس بناءه منذ عام1551، ودار عزيزة بنت الباي، وجامع السيدة الذي هدمه الاستعمار في 1832م، وجامع كتشاوة والجامع الجديد، وقصر حسن باشا أو"قصر الشتاء"، حسب التسمية الفرنسية، الذي أصبح مديرية الشؤون الدينية منذ سنوات... وبعبارة معاصرة جدا أصبح سيدي الزواوي يقيم في حي "تشِيتشِي" بامتياز كالغُولْفْ أو حِيدْرَة، اليوم، وهو الذي اختار بإرادته الابتعاد عن الناس والزهد والاعتكاف على عبادة الله حتى وفاته في سنة 874 هجرية، الموافق لـ: 1469م – 1470 م.

نسي الناس وليهم الصالح وأصبحوا لا يعرفون إلا قصر يحي رايس قبل سنة 1783م. وعندما أجره التاجر الكبير اليهودي ميشال كوهين البكري طيلة 6 سنوات بعد استقراره بمدينة الجزائر في 1770م قادما إليها برفقة أبنائه سَلُمُونْ وجُوزِيفْ ويعقوب ومَرْدُوشِي من مدينة ليفورن الإيطالية، اشتهر نفس القصر بـ: "دار البكري"، وهي التسمية التي لاتزال سائدة حتى اليوم لدى بعض العاصميين القدماء بالمدينة. لكن التسمية التي ستطغى على هذا القصر وستثبت أكثر من غيرها في الأذهان هي تسمية "دار خداوج العمياء".

أسطورة خدوجة العمياء

في سنة 1789م، اشترى حسان، خزناجي الداي محمد بن عثمان باشا، الذي كان بمثابة رئيس الحكومة، قبل أن يصبح دايا على الجزائر من1792م إلى 1796م بعد وفاة محمد بن عثمان، دار البكري أو قصر يحي رايس وأهداه لابنته خديجة التي كان يدللها بـ: "خَدّوجة أو خْدَاوَجْ" التي قيل عنها أنها كانت مكفوفة، لذلك عُرفت بـ: "العمياء". كما ذكرت مصادر أخرى أنها كانت تعاني من قصر النظر فقط، وقالت عنها الأساطير الشعبية العاصمية أنها كانت فائقة الجمال ونرجسية إلى حد أنها لم تكن تتوقف عن النظر إلى جمالها في المرآة حتى أُصيبت بالعمى بعد أن تعبت عيناها.

المهم أن زاوية سيدي أحمد بن عبدالله الزواوي لم تعد في الذاكرة الشعبية سوى دار خداوج العمياء الذي ستتركه بعد وفاتها لابن أختها الأمير عُمَر وابنة أختها الأميرة نفيسة التي لا يزال أحد أبرز شوارع القصبة العليا يحمل اسمها حتى اليوم.

عندما سقطت الجزائر في سنة 1830م استولت الإدارة الاستعمارية على قصر خداوج وجعلت منه أول بلدية في البلاد. ولم يستفد ورثته من التعويضات، وأي تعويضات..؟، إلا في سنة 1860م أثناء زيارة الإمبراطورة أُوجِينِي (Eugénie) زوجة نابليون الثالث ملك فرنسا التي زارته برفقة مترجمتها عزيزة بنت جوزيف كوهين البكري.

لم تحافظ سلطات الاحتلال على هذا القصر العتيق كما وجدته، بل أحدثت عليه تعديلات هامة بجهته الجنوبية الغربية من طرف النَّحَّات "لاتور" وتم تزيينه بمدفآت (Cheminées) ومرايا. ثم تداول على الإقامة به عدد من الشخصيات الكولونيالية إلى غاية سنة 1939م حيث تم تسليمه لمصلحة الحِرَف. في السنة ما قبل الأخيرة من الاحتلال، أي في سنة 1961م، حُوِّل إلى متحف للفنون الشعبية.

ثم في سنة 1987م جعلته الجزائر المستقلة متحفا وطنيا للفنون والعادات الشعبية حافظا لتاريخ طويل لمدينة بني مزغنة وللمحات من التقاليد والعادات والفنون الجزائرية عبر العصور. أما سيدي أحمد بن عبدالله الزواوي فعليه السلام لأنه دخل في خبر كان ولم يعد يسمع باسمه وزاويته إلا المؤرخين والباحثين وبعض الفضوليين من هواة النبش في أعماق الزمان...

نساء "البهجة"



نساء داخل البيت في مدينة الجزائر العتيقة. لمحة عن أجواء حياة الأميرة خُداوج العمياء داخل دارها. لوحة فنية تعود إلى السنوات الأولى من الاحتلال.



داخل قصر "دار خداوج العمياء"



صحن، أو "وسط الدار"، قصر "دار خْداوَجْ العمياء" في القصبة السُّفلى.



دار عبد اللطيف... دار الفنون الجميلة

وليلة أُنس لذ فيها جني السمر فناهيك من أنس جنيناه بالسَّهَر

سيدي ابن عمار

لاأحد يعرف متى بُنيت دار عبداللطيف ولا اسم مؤسسها... لكن لا أحد من الذين مروا منها في بداية القرن العشرين يتجرأ على تجاهل إشعاعها الثقافي وفضلها على الفنون التشكيلية الفرنسية آنذاك...

المنتدى الشعري

أقدم وثيقة تناولت هذا القصر الجزائري العتيق المحاط بالبساتين الخضراء تعود إلى سنة 1715م فقط. في تلك الفترة سكنها عدد من أثرياء وأعيان مدينة الجزائر أمثال علي آغا، محمد آغا، والحاج محمد خوجة وزير البحرية. كما تداول على الإقامة بها كل من زوجة أحد المسؤولين السامين في السلطة بالإيالة، بالإضافة إلى السيد عبد اللطيف الذي اشتراها بأَلْفَيْ (2000) دينار ذهبي، أي ما يعادل 80 ألف فرنكا فرنسيا بقيم النصف الثاني من القرن 19م. وإذا كانت أسماء المُلاّك السابقين الذين تداولوا على هذه الدار قد دخلت طي النسيان، فإن اسم عبد اللطيف مازال حاضرا بقوة لأنه تَحَوَّل إلى بطاقة تعريف هذه التحفة المعمارية التاريخية. وقد يكون ذلك بسبب كَوْن عبد اللطيف، زيادةً على ثرائه ورُقيِّهِ الاجتماعيِّ، شاعر ومثقف من نخبة العاصمة الجزائرية قبل قَرْنَيْن، جمع في داره زبدة الشعر الجزائري آنذاك في مجالس أدبية وسهرات شعرية فائقة الجمال. ويُحكى أنه من بين مرتادي هذه المجالس الشهيرة فقهاء وقضاة المذهبين المالكي والحنفي بمدينة الجزائر على غرار الثلاثي الشهير سيدي محمد بن الشاهد، سيدي بن علي، الذي لايزال ضريحُه ومسجدُه موجوديْن بالقصبة العليا بشارع نْفِيسَة، وسيدي أحمد بن عَمَّار (وُلد حوالي 1119 هـ - مابعد 1205) الشاعر المتميز في الغزل الذي لازال ذِكْرُ بعضِ أعمالِه مِثل: "نَحْلَةُ اللَّبِيبِ بِأَخْبَارِ الرِّحْلَة إلى الحَبِيبِ" و "لِوَاءُ النَّصْرِ في فُضَلاَءِ العَصْرِ" في المصادر التاريخية، رغم أنها مفقودة اليوم، حيًّا يشهد على نُبُوغِهِ و على ثِقلِهِ الأَدَبِيّ. وهُم جميعا، على أيِّ حال، من أكبر وألمع شعراء الجزائر في القرن 18م سواء في مجال القصيدة الفصحى أو في الشعر الملحون والموشحات والأزجال. و يكفي لتوضيح نفوذهم الأدبي آنذاك أن نذكر بأن الزجل "الأندلسي" المعروف الذي اشتهرت به الفنانة المطربة نَسِيمَة شَعْبَان البُلَيْدِيَة في بدايات مِشْوَارِهَا الفني "سَرَقَ الغُصْنُ قَدَّ مَحْبُوبِي" من نَظْمٍ مُشْتَرَكٍ لِسيدي ابن الشَّاهد وسيدي ابن عَمَّار. كانت دارُ عبد اللّطِيف إحدى بقايا الإشعاع الأدبي الأندلسي – الجزائري للفترة السابقة لدخول غرناطة ودخول العثمانيين إلى البلاد، فساهمت

بالتالي في تنشيط الحياة الثقافية بجزائر الدايات والباشوات، لأن بلادنا لم تكن كما هو شائع مجرد ثكنة عسكرية كبيرة...

يقع القصر و"الجْنَانْ" الذي يُنسب إلى الثري المثقف عبد اللطيف، أو"الوزير الكاتب أحمد بن عبد اللطيف"، على حد تعبير أبي القاسم سعد الله، بين غابة الأقواس وحديقة التجارب بالحامة على ربوة صغيرة مطلة على خليج مدينة الجزائر الجميل. ويُعتبر اختيار هذا الموقع بالذات لبنائه مؤشرا على رُقَيِّ الذوق الجمالي المعماري المحلي في القرون الماضية ودليلاً على انحطاطٍ غريبٍ وَصَلْنَا إليه عُمرانيا منذ ذلك العهد وعلى تَقَدُّمنا إلى الوراء في هذا المجال تقدما ملحوظا.

بعد سهرة ممتعة "قلّما يجود بها الدَّهر" في جنة هذا القصر، مع الأصدقاء والأحبة من أعيان المدينة الحضر، "الذين تَهابُهُم القلوب وتجلُّهُم الأعْيان"، كَتَبَ سيدي بن عمار على منوال لسان الدين بن الخطيب والفتح ابن خاقان، وهو لا يدري أن ما كان يكتبه سوف يكون من الشهادات التاريخية النادرة، وربما الفريدة، حول "دار عبد اللطيف": "فاحتللنا قصرا وما أدراك مِنْ قصرٍ، تقابل الوصف أوصافه بالحبس والقصر، وتعبث محاسنه بالزهراء والزاهرة، وتزهو بدائعه على الزاهي والدمشق، وتلهو مقصوراته بقصور العراق ودمشق...". ولما جاشت قريحتُه وهو يصف القصر والسهر المباح حت طلوع الصباح، نظم قصيدة طويلة، مطلعها:

وليلة أُنسٍ لَذَّ فيها جنْيُ السّمرفناهيك من أنس جَنَيْنَاهُ بِالسَّهَرِ

المستشفى العسكري

مرت دار عبد اللطيف، مباشرة بعد سقوط مدينة الجزائر بقبضة الاحتلال، بفترة صعبة. في 1830م، حوّلتها الإدارة الاستعمارية إلى مستشفى ومركز نقاهة عسكري خاص بجنود اللفيف الأجنبي الفرنسي. وتمكن سيدي محمود بن عبد اللطيف من استرجاعها في سنة 1834م بعد مجهودات كبيرة وتدخلات لدى المحتلين ومختلف مصالح إدارتهم من الحكومة العامة بالجزائر إلى وزارة الحربية بفرنسا. لكن عائلة عبد اللطيف سرعان ما قامت بكرائها في 24 سبتمبر 1834م لليهودي موشي بن شيريي(أو شلبي؟) أبوقية لمدة ست سنوات مقابل 1000 فرنك سنويا والذي أعاد كراءها بدوره إلى السلطات الفرنسية. وسوف تنتقل ملكيتها نهائيا إلى الإدارة الاستعمارية بعد أن اشترتها بـ: 75000 فرنكا، لِتُحِيلَهَا إلى الشركة الفلاحية التي كانت تدير حديقة التجارب (Jardin d’Essai) .

غير أن الحظ سيبتسم مرة أخرى لدار عبد اللطيف بعد أن أثارت انتباه النخبة الفرنسية وبعض فنانيها على وجه الخصوص بفضل اقتراح أَرْسَانْ أَلِكْسَنْدْرْ (Arsène Alexandre) و ليونس بِيتِيدِينْ (L. Betedine)، محافظ متحف "اللُّوكْسَمْبُورْغْ"، بتحويلها إلى ورشة للفنانين التشكيليين بصفة خاصة. وقد وجد هذا الاقتراح الجميل كل التجاوب من طرف الحاكم العام جُونَارْ (Jonnart) الذي استرجعها ورَمَّمَهَا وحقق رغبة ألكسندر وبيتيدين، حتى وإن كان منطلقه في هذه المبادرة يتمثل في أن"الجزائر هي فرنسا ثانية بلغت سن

الرشد ولا تريد أن تكون فقط بلد تُجار(..) إنها فرنسا، ويجب عليها بالتالي أن تكون(..) امتداداً وصورةً لوطننا الرّقيق...".

دار الفنون الجميلة

هذه الدار التحفة التي فتنت كل من أُوجِينْ دُولاَكَرْوَا (Eugène de Lacroix) وأُوجِينْ فْرُومُونْتَانْ (Eugène Fromentin) وأَلْهَمَتْهُمَا إِلْهَامًا فَتَحَ لهما أبوابَ الشُّهْرَةِ في عَالَمِ الفنون التشكيلية والاستشراق الفني على مصراعيها، سوف تصنع أسماء أخرى ليست أقل أهمية ولمعانا طيلة النصف الأول من القرن 20م. ومنذ أن حرك الحاكم العام جونار دواليب هذه الورشة الفنية في خضم موجة الاستشراق المعماري التي سادت حتى سنوات 1930م، سوف يشتهر من خريجيها كل من Léon Cauvy de Buzon، Bourolle، Hambourg، والشهير Armand Assus... كما ستُعطي هذه الديناميكية الفنية بدار عبد اللطيف فنانا جزائريا كبيرا لمع في الأسلوب الساذج (Art Primitif) و هو حَسَان بن عَبُّورَة أحد أحفاد بابا عروج شقيق خير الدين بربروس.

وتَبَلْوَرَتْ بفضل هذه الدار التحفة التي أصبحت تشبه في الأربعينيات والخمسينيات كبريات الورشات الفنية في حوض المتوسط، مثل الفيلاَّ "مِيدِيسِيسْ"(La villa Médicis) الإيطالية و دار "فِيلاَسْكِيزْ" (Casa Velasquez) الإسبانية، سوقٌ جزائرية لِلُّوْحَاتِ والتُّحَفِ الفنية قائمة بذاتها، يتنافس فيها الأثرياء الكولون والسواح الأنجلوساكسونيون على اقتناء أجملها وأشهرها، خاصة إذا كانت تُحاكي أزقة القصبة وسطوحها أو مقبرة القطار ومنظر خليج الجزائر الساحر...

شَارْلْ دُوفْرَانْ (Charles Dufresne) أحد كبار الفن التكعيبي الفرنسيين تخرج من دار عبد اللطيف هو الآخر، وكذلك الأمر بالنسبة لأدولف بوفرار، أوغيستان فيراندو، و لويس بيرتوم..، الذين ألهموا بأعمالهم الرائعة حول قصبة الجزائر و"فَحْصِهَا" (أي ضواحيها) السينمائي دُوفِيفْيِي الذي سارع إلى توظيف مناظر هذه المدينة العتيقة في إنجاز فيلمه الشهير Pépé le Moko الذي لعب بطولته الممثل الفرنسي الكبير الراحل جانْ غَابانْ (Jean Gabin). في سنة 1922م، صنفتها الإدارة الاستعمارية في عداد الآثار التاريخية بالجزائر واحتفظت لها باسمها القديم "دار عبد اللطيف" في نفس الوقت الذي كانت تؤدي فيه دورها الفني.

للذين قد تحركت في نفوسهم رغبة استنشاق هواء جنة "قصر عبد اللطيف" من شرفاته المشرفة "عَلَى النُّجُومِ الزَّاهِرَةِ" و التفسح في أَرْوِقَتِهِ وبين سواريه ومقصوراته التي "تلهو بقصور العراق ودمشق" كما فعل سيدي بن عمار، نقول إن القصرَ لازال حيًّا يرزق، يطل من عليائه على كهف "سِيرْفَانْتَاسْ" وخُضْرَةِ حَديقةِ التجارب في الحَامَّة... فزيارة ممتعة. أما الكسلاء فما عليهم سوى اقتناء كتاب إِلِيزَابِيتْ كَازُونَافْ (Elisabeth Casenave) الذي يحمل عنوان La villa Abd-El-Tif un demi- siècle de vie artistique en Algérie 1907- 1962 (فيلا عبد اللطيف، نِصْفُ قرْن من الحياة الفنية في الجزائر 1907-1962). فَقِرَاءَة شَيِّقة...

منظر بانورامي لخليج مدينة الجزائر من سطح دار عبد اللطيف بفحص الحامة. مدينة الجزائر والمرسى في الأفق



منظر بانورامي لخليج مدينة الجزائر من سطح دار عبد اللطيف بفحص الحامة بريشة الفنان الفرنسي ألكسندر ريغوتار (Alexandre Rigotard) (1871م-1944م).



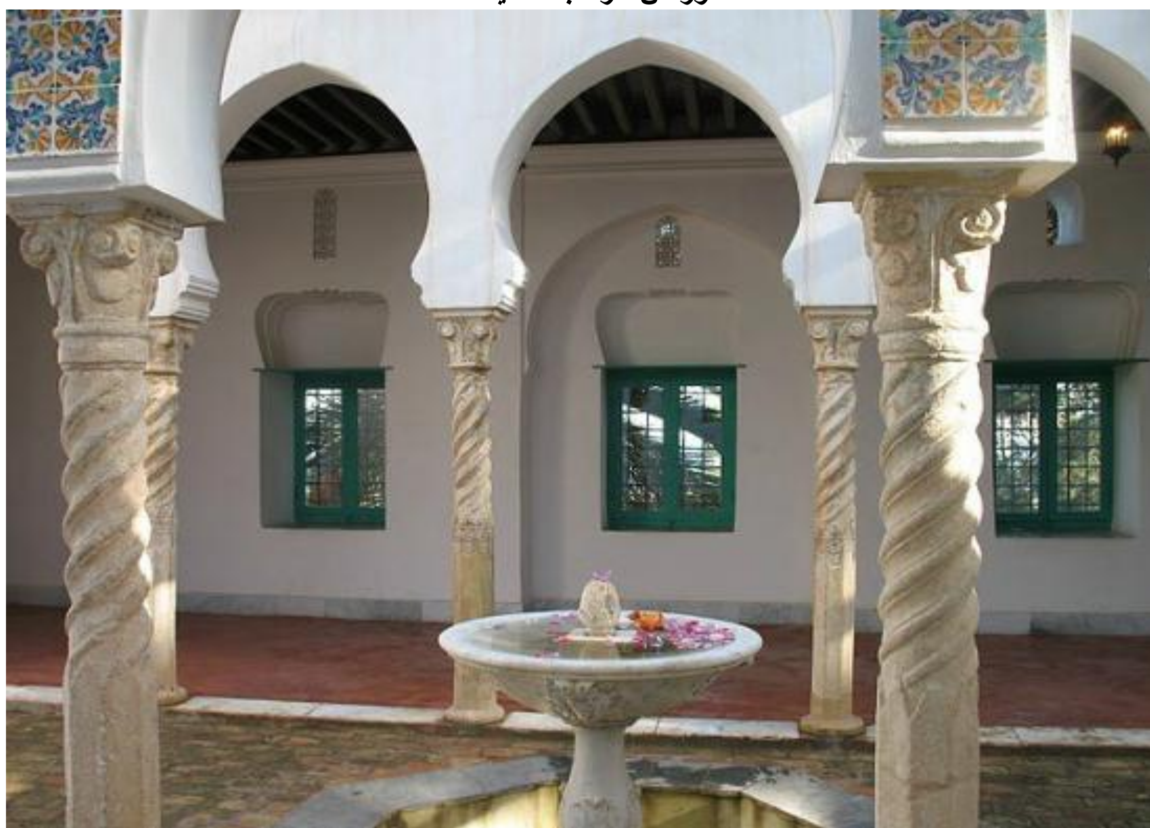
صحن دار عبد اللطيف، "وسط الدار" بعبارات محلية، بريشة الفنانة الفرنسية إيفون كلايس إيرزيق (Yvonne Kleiss Herzig) (1895م-1968م).



في فناء دار عبد اللطيف



صُوَر من دار عبد اللطيف





مقهى مالاكوف.. متحف موسيقى مدينة الجزائر

Que dois-je louer de ce cafetier ?
Il a trois cents tasses, plus celles qui circulent sur la place ;
Il a neuf garcons qui toréfient le café.
Il a scellé mille ducats dans un sac.
Sept cents campagnards vannent son blé,
Cent bédouins tournent pour lui le roti à la broche.
Huit cents clients boivent son café.
Il passe chez lui mille janissaires par jour,
Sans compter les ivrognes qui arrivent à minuit.

Chansons de janissaires.

هذا المقهى الهرم الذي ورث الأجواء الحميمية للمقاهي في مدينة الجزائر العتيقة..، جعل منه الحاج مْحَمَّد العَنْقَاء "أُودِيتُورْيُومْ" البهجة وفضاء لحرية التعبير والموسيقى المتمردة على القوالب الرسمية.. الموسيقى التي تحتقر الذين "يَحْسْبُوا كُلّْ شي خْطيفْ...غيرْ آجي وَازْدَمْ..."!

قام على أنقاض قصر الجنينة..، اتخذ لنفسه اسما غريبا عن ثقافة المدينة فيه نكهة روسية، واقترن وجوده بجيوش الجنرال دوبورمونت... لكن بعد إنجازه ببضعة عشريات استولى على قلوب الناس وأصبح معقلا حصينا لثقافة الأهالي منذ أيام الشيخ مْنَمَّشْ ومحمد بن علي سْفِنْجَة حتى آخر عمالقة الثقافة الموسيقية العاصمية الحاج مْحَمَّد العنقاء.

قهوة "اللّْوابَة"

يقع مقهى مالاكوف بين أقواس شارع باب الوادي بساحة الشهداء و حيّ سوق الجمعة في "زْنِيقَة" صغيرة تُعرف ب: شارع بْرُوسْ (Rue Bruce). مقهى مالاكوف مَعْلَمٌ ثقافي "فوق العادة" عَوَّضَتْهُ روحُه الشرقية الحضارة ضُعْف أصالة هويته المعمارية. غنى للقصبة ولكل الجزائر طيلة أكثر من قرن، استقطب إرث زرياب الذي كان مبعثرا بين قصور ومكتبات المدينة وهضم قصائد "قَدّور العَلْمي إمام مكناس" وغيره من شعراء فناني المملكة العلوية لِيُجَزْئِرَهَا ويُخْرِجَهَا في صيغة فن شعبي جزائري أصيل. كما سحر الباحثين والمستشرقين الفرنسيين الذين لم يصمدوا أمام جاذبيته، ليُصْبِحوا من

المدمنين عليه وعلى طقوسه من أجل اكتشاف أغوار وأصداف الثقافة الجزائرية. مقهى مالاكوف الذي خَفَتَ صَوْته منذ وفاة الحاج مْحَمَّدْ العنقاء سنة 1978م هو كل هذا الثراء وهذه المغامرات رغم تواضعه وبساطته. اليوم، يُحاول الهادي العنقاء، أصغر أبناء الحاج ووريثه الفني، مواصلة مسيرة أبيه على طريق مُلغَّم بالصعوبات من نفس الهيكل الفني الذي شهد نبوغ "الكَارْدِينَالْ"...

"كونْتْوَارْ"، آلات وأدوات لتحضير القهوة والشاي بالنعناع، رغم أن "الجَزْوَاتْ" العثمانية والشَّامِيَة قد اختفت منذ زمن طويل، سُكَّرِيَات وأكواب أنيقة وفناجين متواضعة الأصول الاجتماعية، وحركة دؤوبة لبضعة شبان بين القاعة الداخلية وفنائها الخارجي الذي يتوسط شارعي بروس وباب الوادي، يسهرون على خدمة مرتادي المقهى المُوَزَّعين حول طاولات هرِمَة مُثقلة بعقود من التاريخ والأحداث التي تعاقبت على القصبة السفلى.

"قهوة كَحْلة غُودْرون..."، "ابعثْ لْنَا آتايْ بالنعناع..."، "اَغْلَقْ الدُّومينْ..."..هي أهم ما يمكن سماعه وفهمه بوضوح وسط ضجيج المقهى وهمسات "أولاد القاع والباع" وصخب هواة "التَّقَرْعيجْ" الذين يلتقون هناك لتبادل "الملفات" والخبرات حول الحياة الخاصة للآخرين. "البْلُو دُو شَنْغَايْ" وعادة وضع أوراق النعناع خلف الأذن أو في مناخر الأنف و عادات أخرى تُعبر عن هوية جد محلّية مُعَبَّأة بشحنة قوية من الاعتزاز بالانتماء لهذا المجال الثقافي - التاريخي و لهذه البقعة من أرض الله لا زالت تُعَمِّر في مالاكوف شاهدة على جيل وعلى أسلوب حياة في طريقهما نحو الانقراض... كما تُعبِّر أيضا عن ماضٍ مجيدٍ لمدينة مايزال رصيدها الرمزي يخفق بالحياة. وفوق هذا الضجيج والصخب المختنق بدخان السجائر تخفق إيقاعات خفيفة ومتناسقة..، بصمات غْلِيلُو واضحة عليها..، لِتُرافق صوت مُحَنْدْ إيديرْ هَالُو على لَحْنٍ حزين..لحن"بْلُوزْ" (Blues) ينبعث من مُكَبِّر صوت جهاز كَاسيتْ: "يَحْسْبُوا كُلْ شي خْطيفْ، غيرْ آجي وَازْدَمْ...، سبحان الله يالطيف، أنت اللّي تعلم، كايَنْ شي ناسْ مَنْ اسْتْحاهُمْ يْقولوا خَافْ..."، فتسبح على إيقاعها أحلام مرتادي المقهى في أجواء هذه الموسيقى الوقورة الساحرة.. الموسيقى التي يُصغى إليها في وجوم وكأنها صلوات.

إشعاع العنقاء

صنع مقهى مالاكوف أجيالا من الفنانين ومن المعجبين الذين مازالوا يترددون عليه بحنين وإكبار ولو بصفة أقل انتظام مما كانت عليه في عهده الذهبي. آخر التلاميذ المتخرجين من هذا المقهى/المدرسة لا زالوا حاضرين بقوة في واجهات محلات الكاسيت واستوديوهات التسجيل الإذاعية والتلفزيونية ويسيطرون على قاعات الأعراس وسطوح البنايات في ليالي "البهجة" الصيفية. يؤكد مرتادو المقهى ذلك باعتزاز كبير ويركزون في حديثهم بافتخار واضح على الإشعاع الثقافي - التاريخي لمدينتهم العتيقة رغم أنهم لم يجلسوا أبدا على مقاعد المعاهد والجامعات ولا يدركون من تاريخها سوى بعض الشذرات...

آخر أصداء وامتدادات مجهودات مُحَنْدْ إِيدِيرْ هَالُو، أوالحاج مْحَمَّد العَنْقَاء حسب لقبه الفني، تتمثل حاليا في طاماش المهدي، كمال بورديب، حسيسن سعدي المطرب والفنان التشكيلي الذي يعتبر حالة نادرة إن لم تكن فريدة في عالم الغناء الشعبي لمدينة الجزائر، عبد القادر شرشام الأستاذ المُشْرِف على إدارة جمعية العنقاوية، كمال فرج الله، العيْمَاشْ..، وحتى الهادي العنقاء. هؤلاء انطلقوا كلهم ذات يوم من "مالاكوف" ومازالوا أوفياء له ولو في الأعياد والمناسبات على الأقل. أما الجيل السابق فقد حال تقدم السن به والعوامل الصحية دون تردده المنتظم عليه على غرار بوجمعة العنقيس، حسن السعيد، عازف البانجو بلحاج، عبد الغني بلقايد التي اختار في السنوات الأخيرة الإقامة في المهجر بباريس وغيرهم. غير أن هذا الغياب لم يَعْنِ أبدا الانقطاع لأن "مالاكوف" بقي يتمتع بكل كاريسماتيته وبرصيده من التاريخ والذكريات والرموز والحنين.

مقهى الفيشاوي ومقهى "مَالاَكُوفْ"

"مالاكوف" مقهى فوق العادة ينتمي إلى تلك السلالة من المقاهي الاستثنائية والمحظوظة التي انطلقت منها النهضة الثقافية في مختلف الحواضر الكبرى في العالم. فهو من سلالة مقهى الفيشاوي في القاهرة الذي ارتاده الشيخ طه حسين ومحمد عبد الوهاب ونجيب محفوظ، وكذلك مقهى بن يَدَّرْ في مدينة تونس الذي كان قاعدة المناضلين والسياسيين من أجل الاستقلال و نادي للمثقفين. "مالاكوف" ينتمي إلى هذه السلالة، لكن بنكهته الخاصة؛ بحقنة من "الرّجلة" العاصمية التي تمتزج فيها أقصى درجات خشونة الرجال بأقصى حالات نعومتهم وضعفهم وعاطفيتهم. وهو أيضا صورة للمقاهي الأنيقة والعتيقة بالحي اللاتيني بباريس التي كانت تجمع جَانْ بُولْ سَارْتْرْ وسِيمُونْ دُو بُوفْوَارْ، لكن في صيغة قصبجية. كما لا يختلف كثيرا أيضا من حيث الدور الثقافي الذي لعبه منذ أكثر من قرن عن قاعات الشاي التقليدية في طوكيو ونَاكَازَاكِي التي نضجتْ في أجوائها حكمة يَامَامُوتُو مُوسَاشِي وعبقرية الأديب الياباني المنتحر يُوكْيُو مِيشِيمَا.

في الحقيقة، لم يكن مُرْتَادُو "مالاكوف" من عيار هؤلاء المفكرين والأدباء الكبار، ولم يكونوا يمتلكون كل ثقلهم الثقافي – العلمي. لكن احتضان هذا المقهى لنهضة فنية لازالت ارتدادتُها حَيَّةً حتى اليوم، يُعَوِّضه العجزُ الذي سجَّلَه على مستوى العمق الفكري – الثقافي الذي لم يكن سوى نتيجة منطقية للطغيان الاستعماري الذي قام على الإفقار و التجهيل طيلة أكثر من 130 سنة...

ميــلاد مقــهى...

نحن الآن في الخامس من جويلية 1830م...

وَقْعُ الأحذية العسكرية يُثِيرُ الرُّعْبَ في القصبة التي أحاط بمستقبلها الخوف والغموض منذ خروج الداي حسين من "الدار الحمراء" متوجها نحو الإسكندرية. وفي 1856م سوف يتهاوى قصر الجنينة، القصر الملكي القديم الذي وضع صال رايس لَبِنَاتَه الأولى في عام 1551م، تحت الجرافات الاستعمارية وتزول معه البنايات العتيقة المجاورة له، زنقة الشماعين، زاوية ومدرسة...، وعلى أنقاضها قامت بنايات أوربية ترتكز على

سلسلة من الأقواس الضخمة القوطية الشكل والأسلوب المعماري التي سيأتي إلى الوجود من أطباقها الأرضية ما سيُعرف حتى اليوم بـ: مقهى"مالاكوف".
كانت نهاية القرن الماضي في هذا المقهى الشعبي، "الموريسكي" حسب التعابير الاستعمارية، من أكثر فتراته ازدهارا بفضل الجيل الأول من فنانيه الكبار الذين صنعوا مجده وسمعته الكبيرة.
الشيخ مْنَمَّشْ عميد الموسيقى الأندلسية في هذا النصف الثاني من القرن 19م ووريث حاج ابراهيم، وبن سالم وعْميمْراتْ، والوَنَّاسْ الذين بعثوا البهجة في قصور وديار ومقاهي "البهجة" في العهد العثماني، سوف يجعل من مالاكوف معبدا فنيا ومؤسسة ثقافية أهلية (Indigène) حافظة لذاكرتها الموسيقية ومُحَرِّكة لنهضة بدأت تُعطي ثمارها منذ بداية القرن 20م. هذه الذاكرة هي التي قال بخصوصها القنصل الأمريكي وِلْيَامْ شِيْلَرْ في السنوات الأخيرة من حُكْمِ الدَّاي حُسيْن بأن سكان الجزائر "يملكون عبقريةً أصيلةً في الموسيقى... وإنهم يعزفون على عدة آلات يُرجح أنم هم الذين اخترعوها".
كَوَّنَتْ "مالاكوف" الشيخ مْنَمَّشْ نجومًا وأسماءً لامعةً نفضت الغبار عن الفن الأندلسي وحفظته من الضياع قبل أن تستخرج منه أنواعا جديدة. ومن مجالس الشيخ في هذا المقهى/المعهد برز تلميذه الشيخ محمد بن علي سْفِنْجَة واليهودي بن فَرَاشُو اللذان ما انطفأ العقد الأول من القرن 20م حتى خلفتهما مجموعة من التلاميذ البارزين، مسلمين ويهود، لكن دون أن يتمكنوا من الاستغناء عن "مالاكوف".
إيدمون يافيل، مُوزِينُو، لاَهُو صِرورْ، مخلوف بوشَعْرَة...، من الجالية العبرية، والشيخ السَّعيدي، سي مُحَمَّد بن التفاحي، مُحْي الدّين باشْ تارْزي، المفتي الحنفي سي محمد بوقندورة، سي محي الدين لَكْحَلْ، الأخوان فخارجي، مصطفى الناظور، والحاج مْريزق...، من الأهالي المسلمين، مروا كلهم من هناك وتأثرت أصواتهم، أداؤهم وألحانهم بشيء من "مالاكوف".

"مالاكوف"..، قهوة العريش وقهوة التلمساني

لم تمر الحركة الثقافية التي عاشها هذا الأخير منذ مطلع القرن الحالي دون إثارة فضول ثم اهتمام ومتعة الباحثين والمستشرقين الفرنسيين المهتمين بالموسيقى الجزائرية. لذلك، بعد الفنان التشكيلي إيتيان دينيه (Etienne Dinet) الذي أسلم واستقر بعد ذلك في بوسعادة حتى وفاته، جاء سان سانس (Camille Saint-Saens) إلى "مالاكوف" وتابع بشغف سهراتها ليدرس قواعد الموسيقى العربية في الجزائر. ثم تلاه باحث آخر لنفس الغرض وهو من نفس الطراز ومن نفس العيار اسمه جول رواني (Jules Rouanet) الذي ترك أبحاثا قيّمة حول الموسيقى العربية بعد أن زار سوريا ومصر، والجزائر التي اكتشف فنها من "مالاكوف". وقد كانت أبحاثهما على درجة من الأهمية آنذاك لن تُضاهيها سوى أعمال البَارُونْ دِيرْلاَنْجِي (Le Baron d'Erlanger).
لم يجد رواني في دراسته للموسيقى الأندلسية التي كتب عنها دراسات ومقالات عديدة من يساعده على فهم أسرار هذا الفن سوى مرتادي المقهى وفنانيه. فكان اليهودي يافيل،

أستاذ ومؤسس جمعية "المُطْرِبِيَّة"، الوسيط بينه وبين الفانين المسلمين الذين كانوا لا يتقنون اللغة الفرنسية أمثال الشيخ سفنجة والمفتي بوقندورة...

غير أن مقهى "مالاكوف" الذي فتن جول رواني، وإن كان الأشهر والأكثر فعالية، فإنه لم يكن المقهى الوحيد الذي لعب هذا الدور الثقافي / الفني في مدينة جزائر بني مزغنة في سنوات القهر والتغريب. مقهى البوزة، قهوة العريش في القصبة العليا، الواقعة بين الباب الجديد وسوسطارة (سورالسَّطارة)، وقهوة الفْنَارْجِيَّة، قهوة بوشَعْشُوعَة، قهوة التلمساني، وقهوة شارع لالير (شارع بوزرينة حاليا) قرب كتشاوة التي امتلكها بُوعْلام خَرْيَة لمدة طويلة...، ساهمت كلها في هذه الحركة الثقافية وفي تخريج دفعات وأجيال من الفنانين في مدينة الجزائر المحتلة قبل ظهور الجمعيات الموسيقية الأندلسية الأولى كالموصلية والجزائرية والأندلسية...، وقبل أن تُنشئ الإدارة الاستعمارية فرع الموسيقى العربية في المعهد الموسيقي البلدي للمدينة سنة 1945م تحت إشراف سي محمد فخارجي وأخيه عبد الرزاق، بالنسبة للغناء الأندلسي، والحاج مْحَمَّدْ العنقاء ومصطفى إسكندراني بالنسبة للغناء "الشَّعبي".

كما تداول هؤلاء الفنانين على جميع هذه المقاهي بمرونة كبيرة من أسفل القصبة حتى أعلاها، من باب الوادي حتى باب عزون ومن حي البحرية حتى الباب الجديد.

"يَحْسْبُوا كل شي خْطيفْ..غيرْ آجي..وازْدَمْ"

في شهر رمضان 1954م، بينما كان الشيخ المحفوظ يحكي بلحن حزين وصوت عذب قصة "رَاشْدَة" في مقهى شارع 8 نوفمبر (أول نوفمبر حاليا) بدعوة من الممثل الراحل حسان الحسني، كان الحاج مْنوَّرْ، أحد الوجوه البارزة للغناء الشعبي، ينقر "الطَّار" في "جلسة مربعة" شرقية الروح بمقهى الإيالة (Café La Régence) بساحة الشهداء ويغني "قلبي اللّي كْواتُه،آ وَعْدي نارْ فاطْمَة، خَدّْ الوَرْدَة سَابْغْ الشّْفَرْ وَإلاَّ ياقوتَة في قُبَّة النّعْمَانْ..." وسط جمهور غفير من المعجبين. وعلى بضعة خطوات من هذا المكان كان الحاج مْحَمَّد العنقاء، المدعو الكاردينال، يرتجل في مقهى "إِيدِيَالْ" (Idéal) "الخانات" والطبوع والنوبات بقصائد الشعراء الأخضر بن خلوف، بن سهلة ، عيسى الأغواطي، بن التريكي، بالإضافة إلى القصائد المغربية التي استمدها من كُنَّاشات أستاذه مصطفى الناظور ومن رحلاته إلى المغرب الأقصى، وذلك أمام جمهور مفتون حتى القدمين، كما يقول نزار قباني، بقدراته الفنية وموهبته الواعدة. جمهور كان يُنصت إليه في سكون قداسي، سوف يرث عنه، حسب عَبْدِ القَادِرِ بَنْ دَعْمَاشْ، تسجيلات لـ: 360 قصيدة بالإضافة إلى 160 أسطوانة.

لكن "مالاكوف" بقي، رغم المنافسة، المقهى الطلائعي في خضم النهضة الفنية التي انطلقت منذ القرن 19م حتى النصف الأول من القرن 20م. هذا المقهى الذي ورث الأجواء الحميمية الدافئة والوظيفة الثقافية الحافظة للذاكرة الموسيقية عن المقاهي العاصمية العتيقة التي اكتسحتها جرافات الاستعمار الفرنسي منذ السنوات الأولى للاحتلال، مثل القهوة الصغيرة، قهوة بْجاية، قهوة العْزارَة والقهوة الكْبيرَة، سوف ينجح

في مواصلة مشواره طوال أكثر من قرن، واستمرت حركيته وإشعاعه إلى ما بعد الاستقلال. الحاج مْحَمَّدْ العنقاء الذي سبق له أن اكتراه سنة 1946م، بالاشتراك مع أحد أصدقائه، قبل أن يصبح مِلْكاً له منذ سنة 1976م، أنقذه من الاضمحلال ومن الشلل الذي كان يهدده بسبب احتكار النظام الاشتراكي للساحة الفنية. وكان المقهى الوحيد الذي سلم من "رداءة" العهد الاشتراكي الذي خنق وسائل وأساليب التعبير الشعبية، لأن العنقاء قاطَعَ النظام وقنواته في فترةٍ مَا وحرص بشدة على حريته وعلى سمعة "مالاكوف" ورصيده التاريخي الذي كان قد تجاوز المائة عام.
المرارة التي كانت تتدفق من حنجرة الكاردينال لا تزال تتردد بين جدران "مالاكوف" باللحن الحزين المعروف: "يحسبوا كل شي خطيف..غير آجي وازدم..." في الوقت الذي يواصل فيه الهادي العنقاء مشوار أبيه بخطوات متعثرة، ساهرا على استمرارية المقهى الذي رفض أن يكون بوقا متملقا "للثورة الزراعية" وصدى لنظام كان يريد تأميم كل شيء.. حتى المبادرات و المقاهي..، وقيل آنذاك حتى الحمّامات. المقهى الذي يمتلك رصيدا رمزيا قويا يجعله قادرا على لعب أدوار ثقافية – ترفيهية وفنية – إبداعية أكبر وأهم بكثير من الوظيفة التجارية البحتة النى انكمش فيها منذ غياب الكاردينال.
لكن هل بقي لِمالاكوف مكانا اليوم، في عهد السِّيـبير – كافي...؟
كل شيء ممكن.. وكل شيء يتوقف على الإرادات الحسنة...

مقهى مالاكوف قرب ساحة الشهداء في "القصبة السُّفلى". أجيال من الفنانين الجزائريين مروا من هنا.



محمد بن علي سْفِنْجَة (1844م-1908م)، على اليمين، أحد أقارب الرايس حميدو بن علي وأبرز فنان متخصص في الغناء العربي الأندلسي حسب أسلوب مدينة الجزائر في نهاية القرن 19م وبداية القرن 20م كان أحد ألمع الفنانين الذين غنوا لسنوات طويلة في مقهى مالاكوف وكوَّنوا مجموعة ممتازة من التلاميذ الذين حملوا مشعل هذا الفن وأوصلوا الأمانة إلى الأجيال الحالية على غرار الشيخ محمد بن التفاحي (1870م-1944م) في الصورة على اليسار.





تلميذا أبرز فنان في مجال الغناء العربي-الأندلسي محمد بن علي سفنجة: على اليمين، المْعَلَّمْ إيدْمون ناثان يافيل (1874م-1928م)، من أبناء المدينة وينحدر من يهود الأندلس. وعلى اليسار، عبد الرحمن رغّايْ المدعو الشيخ السّْعيدي (؟ - 1931م) الذي ينحدر من الجَلْفَة بجنوب الجزائر.



على اليمين: الفنان وأستاذ الغناء العربي الأندلسي محمد الفخّارجي (1896م-1956م) وهو من العائلات العريقة في مدينة الجزائر. على اليسار: شاؤول دوران المدعو موزينو (1865م-1928م) وهو ابن مدينة قسنطينة قبل انتقال أسرته إلى مدينة الجزائر وهو شاب حيث أصبح من أبرز المغنين والعازفين فيها في مجال الغناء العربي الأندلسي





مُحمَّد إيدير آيت واعراب المعروف فنيًا بـ: الحاج مْحَمَّد العنقاء (1907م-1978م). كان آخر كبار الفنانين الذين تركوا بصمات عميقة في الغناء في مدينة الجزائر وفي كل الجزائر، وبصمات أعمق في مقهى مالاكوف الذي اشتراه وأصبح مقهاه لسنوات طويلة وملتقى الفنانين في مجال الغناء العربي الأندلسي وما تفرع عنه كالحوزي و"الشعبي" الذي برع فيه هو ذاته وجدَّده مطعِّمًا إياه بأنواع فنية أندلسية جزائرية وأخرى مغربية.



الحاج مْحَمَّد العنقاء



الحاج مْحَمَّد العنقاء في أستوديوهات الإذاعة في العاصمة الجزائرية



الحاج مْحَمَّد العنقاء برفقة الكاتب المسرحي الجزائري كاتب ياسين



الحاج مْنُوَّر أحد كبار المغنين المختصين في فن "الشَّعبي" (1913م-1971م) في تسجيل تلفزيوني



الحاج منور يغني في التلفزيون. وفي الأسفل، يُحيِي عرسًا في مدينة الجزائر العتيقة..."القصبة"



الفنان "الرّاي مالك" (El Rey كلمة إسبانية تعني: الملِك) في شبابه حاملا آلة العود وسط مجموعة من رفقائه وتلاميذه. الراي مالك الذي غنى لسنوات لسلطان المغرب الذي كان صديقه لم يعد أحد يسمع اليوم حتى باسمه. في مدينة الجزائر، كان يملك محلا لصناعة آلات العود بمواصفات ممتازة، حسب الشهادات، في شارع بوتان قرب جامع كتشاوة. كان معروفا ومحترَمًا لكفاءته في الغناء والعزف وصناعة الآلات الموسيقية في الوسط الفني بالعاصمة الجزائرية. كان صديقا للعديد من فناني جيله الكبار في مدينة الجزائر، بمن فيهم الحاج مْحمَّد العنقاء.



الصَّادق بُو يحْيَ المعروف بـ: الصادق البْجَاوِي (1907م-1995م) أحد أصدقاء العنقاء والمترددين على مالاكوف



الإنجليز في مدينة الجزائر: مواسم عشق القصور و..الياسمين

مِنْ هؤلاء الإنجليز الذين فتنتهم مدينة الجزائر قبل أكثر من قرن، لم يبق الآن سوى بعض المعالم المعمارية..، لعل أهمها يتمثل في الكنيسة الأنجليكانية الواقعة بمفترق طرق أديس أبابا والتابعة حاليا لمصالح السفارة البريطانية...

منذ أن شق المصريون بمساعدة المهندس الفرنسي فرديناند دو ليسيبْسْ قناة السويس تحولت مدينة سيدي عبد الرحمن والرايس حميدو إلى ميناء لعبورالأوربيين والأمريكيين المتوجهين إلى المشرق، واكتشفوا بالتالي جمال الجزائر وأسرار تاريخها وثقافتها...

كَارْلْ مَارْكْسْ يُجاورُ قصر الشعب

من 1865م إلى 1870م كان يتردد عليها كل عام حوالي 1500 إنجليزي، ثلثاهم بين شهري أكتوبر وماي، ليقضوا شتاءهم في أجوائها المعتدلة وخضرتها التي كانت تغطي روابي الأبيار وتيليملي وكل الضواحي المحيطة بها. وشاع في ذلك الوقت بكامل أوربا أن مناخ مدينة الجزائر يساعد على الشفاء من الأمراض الصدرية والتنفسية على وجه الخصوص.

جاءها كل من الموسيقار والباحث الكبير في الموسيقى العربية، والجزائرية خاصة، كاميل سان سونس، والاقتصادي الشهير كارل ماركس أملا في الشفاء من الربو والسل.

سان سونس الذي قدَّم بعض أعماله الفنية في "الأُوبِرَا" (المسرح الوطني الجزائري حاليا) في سنة 1910م، استعذب الإقامة بها، وبقي يزور المدينة من حين لآخر، وفي كل مرة كانت إقامته تطول بها أكثر من المرات السابقة، حتى توفي بها في سنة 1921م، بعد أن تذوق وتنفس أجواءها وفنونها عندما كان يقضي أيامه وسهراته بين أزقة القصبة وإلى جانب الشيخ محمد بن علي سفنجة أثناء الحفلات الغنائية الأندلسية التي كان يقيمها بمقهى مالاكوف.

أما كارل ماركس الذي كانت مدينة الجزائر بالنسبة إليه مجرد عيادة مختصة في الأمراض الصدرية منذ قدومه إليها في 20 فيفري 1882م في الرابعة والستين من عمره، فقد زادت صحته تدهورا واضطر للعودة من حيث أتى بعد حوالي سنة ليموت في بلاده بهدوء متأثرا بمرضه. وقد كان مقر إقامته بفندق فيكتوريا المقابل لقصر الشعب والمحاذي لما يُعرف اليوم ببنك الجزائر... فندق لم يكن يبتعد عنه كثيرا ربما باستثناء تفسحه من حين لآخر بحديقة التجارب بالحامة، مما حال دون احتكاكه بالأهالي وثقافتهم رغم نزعته العَمَّالية المدافعة عن البروليتاريا المستضعفة في العالم.

مدينة الأحلام الشرقية

فكَّرتْ إدارة الاحتلال، أمام الإقبال الكبير للإنجليزعلى مدينة الجزائر، منذ 1908م في إقامة كازينو كبير لاستيعاب أموال هؤلاء الأثرياء وفي تحويل القصور التي تعود إلى

العهد العثماني إلى إقامات سياحية. وإذا كان المشروع الأول لم يتجسد إلا في سنة 1933م بإنجاز فندق "أَلِيتِي" (Aletti) (أيْ فندق السَّفِير حاليًا)، فإن الفكرة الثانية سوف تتطور حتى إلى بناء فيلات وقصور جديدة حسب النموذج المعماري القصبجي أو الموريسكي، كما يقال، بتشجيع من الحاكم العام جونار المحب للاستشراق. وقد برع في هذا النمط المعماري الذي تحول إلى موضة جديدة في العشريات الثلاثة الأولى من القرن 20م الإنجليزي بُوكْنَالْ (Bucknal) المهندس المعماري الذي جاء الجزائر في 1875م وترك بعاصمتها حيا بأكمله من إنجازه يُعرف بـ: درب بوكنال بالأبيار، بالإضافة إلى الكنيسة الأنجليكانية السابقة الذكر بمفترق طرق أديس أبابا التي أنجزها في سنة 1909م.

تهافت الأثرياء والنبلاء الإنجليز على القصور "التركية" المحيطة بالمدينة وافتتنوا بجمال تصورها المعماري وببساتينها وجنانها وروائح الياسمين المنبعثة منها، وتنفسوا بها طيلة سنين طويلة الجمال الشرقي العربي- الإسلامي الذي لم تتوفر لهم فرصة اكتشافه من قبل بسبب الصراعات التاريخية المعروفة بين الشرق والغرب وبين ضفتي البحر الأبيض المتوسط. لقد سكنت هذه النخبة الإنجليزية بأغلب القصور و"الجنانات" العثمانية الواقعة بـ: "فَحْص" قصبة الجزائر العتيقة، واشترت 35 منها في نواحي الأبيار، تيليملي و الأحياء المحاذية لقصر الشعب ونزل الجزائر المعروفة آنذاك بحي مصطفى الموروث عن جنان الداي مصطفى باشا. ففي نهاية القرن 19م اشترى جون بيل قصر مصطفى رايس ورممه بواسطة المهندس المعماري الفرنسي غِيُوشَانْ (Guillauchin) الذي كتب آنذاك في أحد مؤلفاته بأن شعاب وروابي الأبيار وحي مصطفى لم تحتفظ حتى الآن ببعض الديار والقصور الموريسكية والخضرة (المحيطة بها) إلا بفضل عدد من عناصرالجالية الأجنبية، والإنجليزية بصفة خاصة...

الملك إدوارد السابع يفتتن بـ: "جْنَانْ المُفْتِي"

أما اللُّورْدْ واللَّيْدِي آرْثُورْ فقد وقع اختيارهما على فيلا "جنان المفتي" قرب مؤسسة التلفزيون بشارع الشهداء، والتي مازالت موجودة حتى الآن، أين استقبلا في سنة 1905م الملك البريطاني إدوارد السابع وزوجته الملكة ألكسندرا. كما سكن بالقصر المعروف بـ:"دار الأَعْوَرْ" أو"دار لُوعَرْ؟" اللُّورْدْ هُولْدَنْ (Holden) و زوجته، اللذان كانا يجاوران الإقامة الفخمة لِلّيْدي هَارْتْوِيلْ (Hartwell) الأسكتلندية. في نفس الفترة، أقام المِيجُورْ بْلومْفيلْدْ (Major Bloomfield) بقصر "جْنَانْ السَّوْدَاء"، والثري الأمريكي ماكْ لِيْ (Mac Lay) بالحي الذي مايزال يُعرف باسمه حتى اليوم بالأبيار، وعائلة لُوفِيتْ – هِينْ (Lovett- Henn) بـ: "جنان سيدي مَرْزُوقْ" بالأبيار أيضا حتى وفاتهما هناك. لم تنس هذه الجالية الإنجليزية النخبوية، التي تجمعت في مدينة الجزائر و ضواحيها ما بين نهاية القرن 19م والعشريات الأولى من القرن 20م، أن تجعل لنفسها أحياء ومحلات راقية تليق بمقامها وثرائها في أفخم شوارع المدينة الأوربية. فقد كانت تقضي حاجياتها في محلات Vitalli-Franses و Lawson et Lefebure و Pohoomull Brothers بِشارعيْ باب عزون والعربي

بن المهيدي ، وكانت تستريح من تعب التجوال في المدينة حول طاولات شاي محل Fille الشهير في ذلك الوقت بخدماته ذات المستوى الراقي والـ: Afternon Tea (شاي العشية)، ولعبت التنس ومارست ركوب الخيل بضواحي بئر الخادم وبئر مُرَاد رَايَسْ. كما قرأتْ جريدة الجالية الوحيدة The Algerian Advertiser التي أصدرها الإنجليزي Joseph H. Hyam في سنة 1885م ؛ ما بين1 نوفمبر و نهاية أفريل الذي تلاه.

"نِيسْ" شمال إفريقيا

أَصْبَحَتْ مدينةُ الجزائر منذ نهاية القرن 19م بفضل هذه الأجواء السياحية مدينة جد منافسة لِمَدِينَتَيْ نِيسْ و كَـانْ الفرنسيتيْن، بحيث حَوَّلَتْ وجهة الإنجليز والأمريكيين نحو الضفة الجنوبية للبحر المتوسط ليكتشفوا لأول مرة إرث قرون من التراكم الحضاري العربي – الإسلامي بهذه البقعة، وسوف تستقطب بالتالي موضة قضاء الشتاء بمدينة الجزائر أوالإقامة الدائمة بها الأدباء والفنانين من مختلف بلدان العالم مثل الموسيقار السيمفوني العالمي يهوذا مِينُوجِينْ الذي توفي في سنة 1999م، جَاكْ تِيبُو، سَامْسُونْ فْرَانْكُوسْ وغيرهم. كما أتاها مفتونا في ثلاثينات وأربعينات القرن 19م الرسام أُوجِينْ دُو لاَكَرْوَا وأُوجِينْ فْرُومُونْتَانْ مجنون "زَنْقَة سِيدِي مْحَمَّدْ الشْرِيفْ" و القصبة العليا.

لكن ما إن حطت الحرب العالمية الأولى أوزارها حتى كانت أمور كثيرة قد تغيرت في الجزائر وفي العالم؛ أمور دفعت إلى الهجرة المعاكسة، وبالتالي لم يبق آنذاك بمدينة الأولياء والشعراء وريَّاس البحر سوى 250 فرد فقط من إنجليز بداية القرن 20م. آنذاك كانت الجزائر تستعد لموعد آخر مع التاريخ ، موعد وضع حدٍّ للاحتلال والاستغلال وإقناع الفرنسيين بالعودة من حيث أتوا...

قصور مدينة الجزائر التي سحرت الأثرياء الإنجليز والفنانين خلال القرن 19م وبداية القرن 20م





قصر الداي مصطفى باشا في جنان مصطفى باشا، وهو اليوم "قصر الشعب" التابع لرئاسة الجمهورية الجزائرية



ملك بريطانيا إدوارد السابع وزوجته ألكسندرا في مدينة الجزائر عائدا من زيارة ضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي.الملك والملكة أقاما في قصر "جنان المفتي".

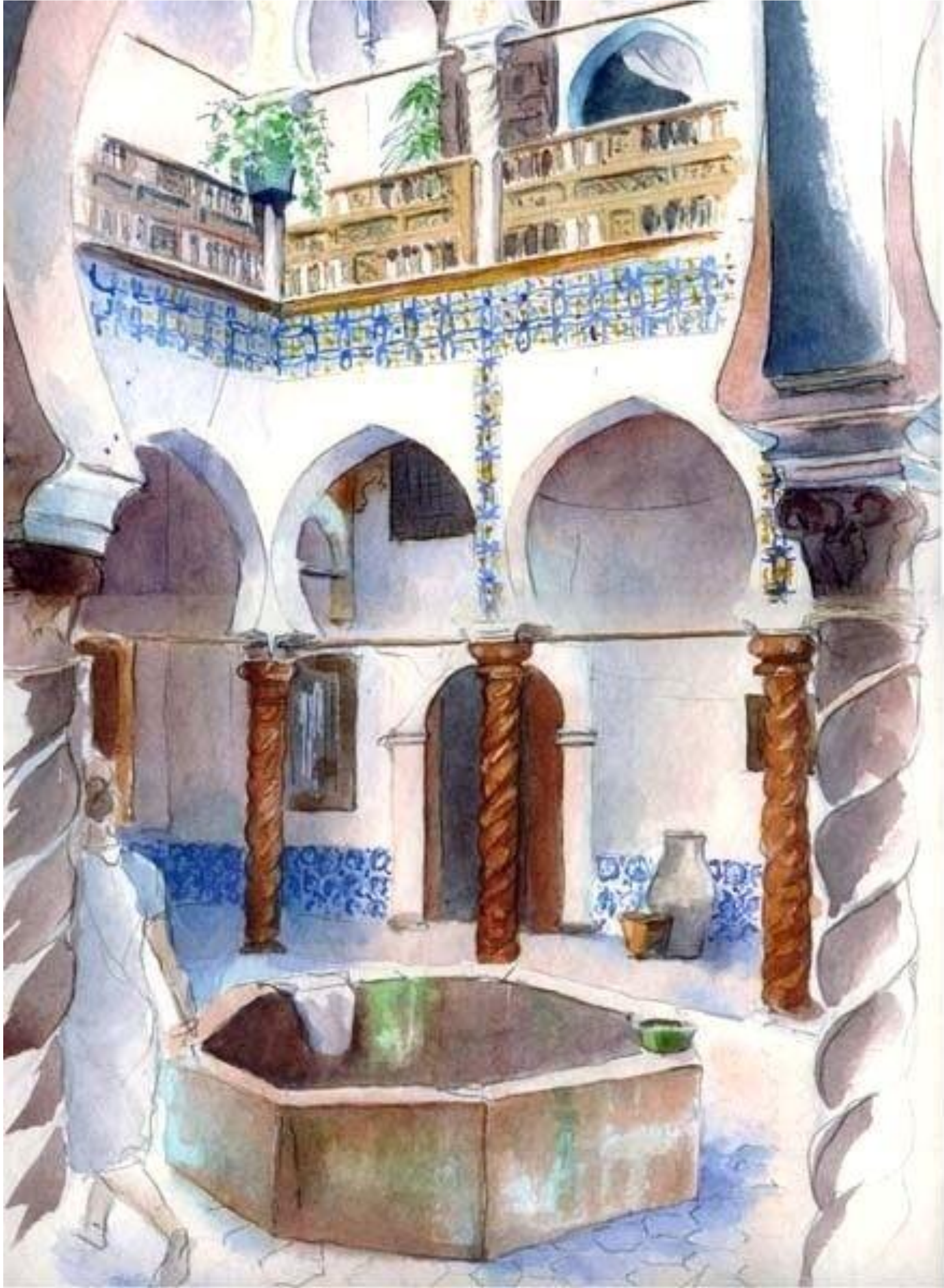


سحر قصور مدينة الجزائر..."ظلٌّ وماءٌ وأشجارُ"...وجَمالٌ قلَّمَا ترى مثلَه الأنظارُ





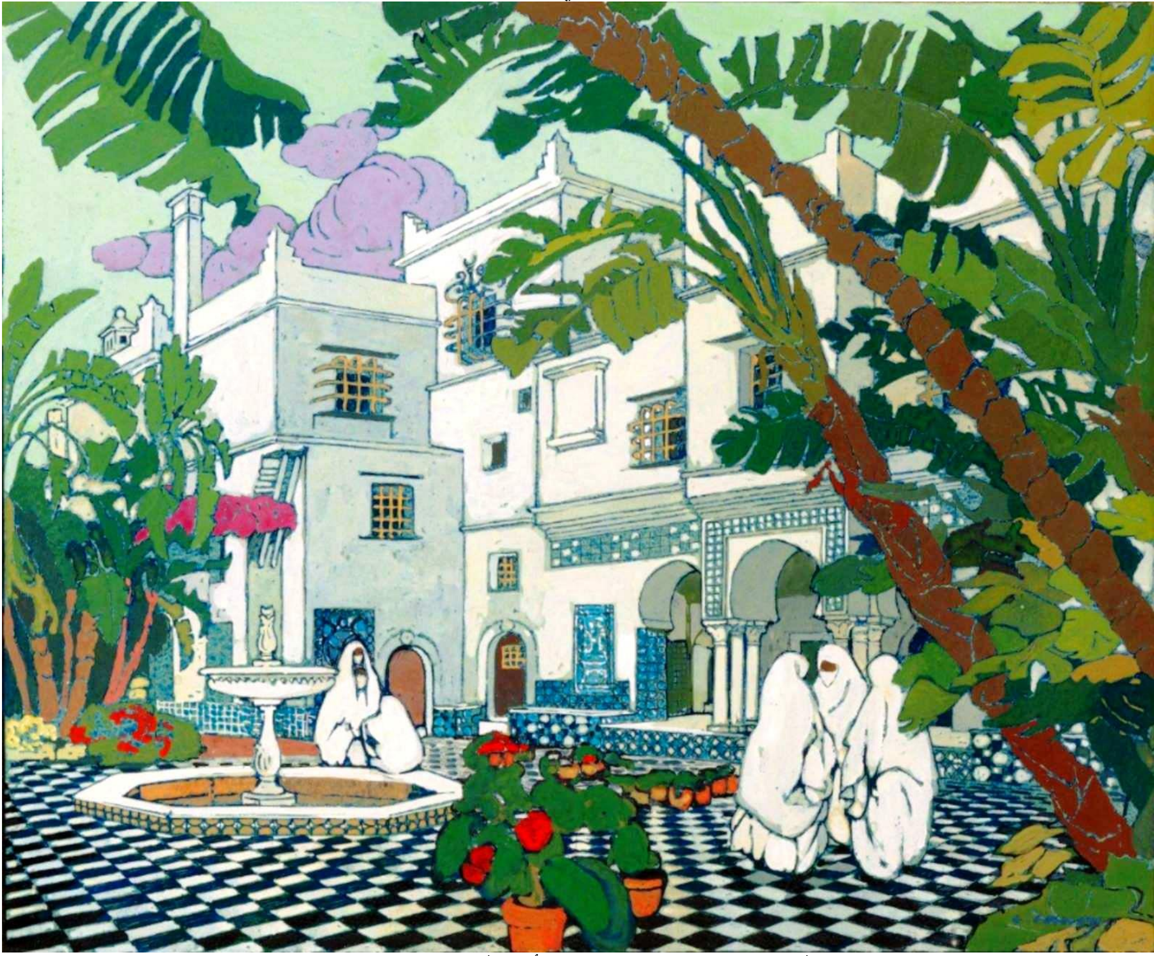
لوحة فنية مائية لصحن الدار، أو "وسط الدار" حسب المصطلحات المحلية، في أحد قصور مدينة الجزائر يعود إلى الحقبة العثمانية.



في مرتفعات فحص المدينة العتيقة، فناء قصر الباردو المحاذي لجنان مصطفى باشا سابقا، شارع ديدوش مراد حاليا.



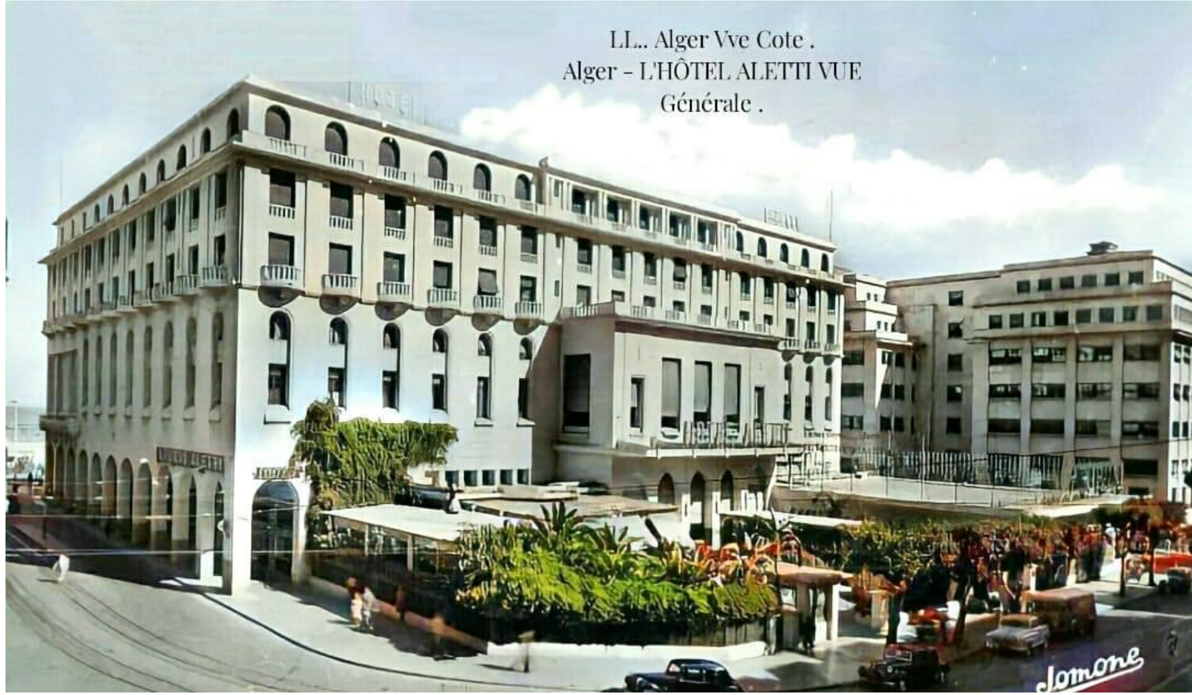
فناء قصر الباردو في لوحة فنية



قصر وجنان مصطفى باشا أو "قصر الشعب"



فندق "آليتي". حاليا فندق السفير في وسط مدينة الجزائر مطلا على البحر



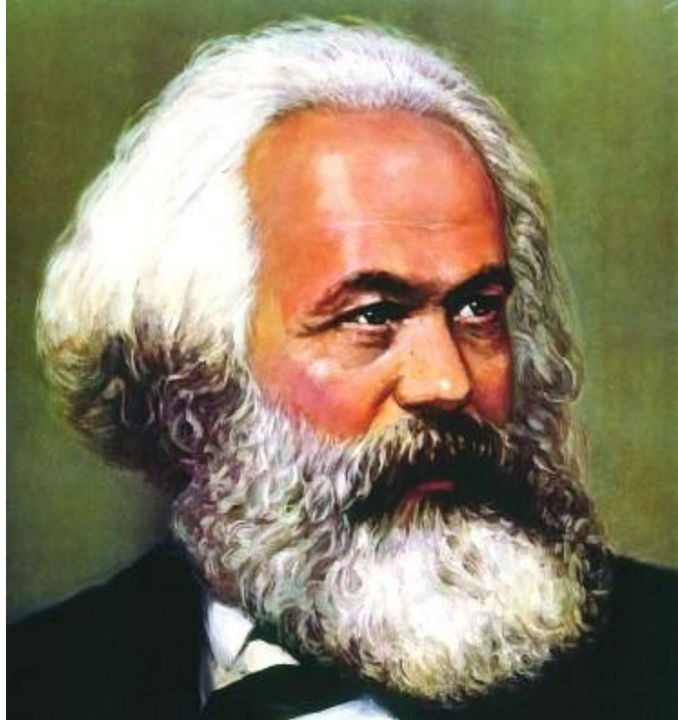
كان شارع باب عزون الشارع الأكثر فخامة في مدينة الجزائر ابتداء من منتصف القرن 19م حتى الحرب العالمية الأولى حيث تكثر المحلات الاوروبية ويتفسح الفنانون الأثرياء الفرنسيون والإنجليز. كان شارع باب عزون بمثابة "شانزيليزيه" مدينة الجزائر.

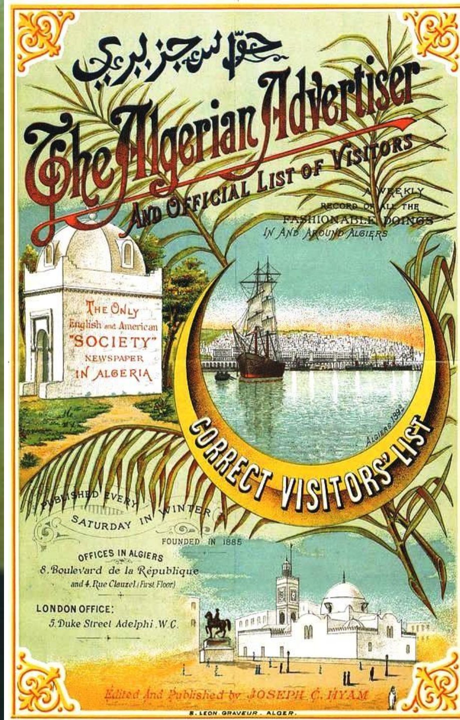


الكنيسة الأنجليكانية وهي تابع ة اليوم لسفارة بريطانيا في العاصمة الجزائرية. تقع في مفترق طرق أديس أبابا



غلاف صحيفة "ذي أدفتّايزر" الإنجليزية في مدينة الجزائر نهاية القرن 19م. وكارل ماركس الذي أقام في الجزائر لبضعة شهور من أجل التداوي من الربو في فندق مقابل لجنان مصطفى/قصر الشعب.





الموسيقار الفرنسي كاميل سان سونس الذي عشق مدينة الجزائر وأقام فيها وألَّف فيها عددا من أجمل موسيقاه وتوفي في أحد فنادقها الذي يحتضن اليوم مقر بنك "القرض الشعبي الجزائري" في ساحة البريد المركزي.



الحايك والعجار.. بين الماضي العريق والحاضر غير القارّ

إِذَا تْسَالْنِي نَعْطِي لَكْ الأَخْبَارْ نُورِيكْ مَا نْظَرْتْ بْعَيْنِي
زَلِّيتْ بْالأَقْدَامْ وشُفْتْ بْالأَبْصَارْ   حَتَّى لْقِيتْ مَنْ سَلْبَتْنِي
الزِّينْ والبْهَاء والحُسْنْ المَسْرَارْ   يُومْ الخْمِيسْ آشْ أدَّانِي
لْقِيتْ فَاطْمَة مَسْبُوغَةْ الأَشْفَارْ   مْشِيتْ مَنْ هْوَاهَا فَانِي

بن سَهْلَة (شاعر)

صمد في وجه الملك الإسباني فيليب الثاني، قاوم الموضات القادمة من الخارج طيلة قرون طويلة، ولم تزحزحه عن مكانته في فن الأزياء الجزائرية عملية حرقه في ساحة الشهداء قبل الاستقلال من طرف نساء جنرالات فرنسا.. بالعكس،" الحايك " ورفيق دربه "العْجَارْ" تَحَوَّلاَ إلى إيقُونَة من أهم إيقونات قصبة الجزائر "المحروسة بالله"، ولم ينسحبا من المنافسة في أسواق الأزياء إلا بعد أن تخلى عنه أهله طواعية وضمن استمرارية المبدأ الأخلاقي- الروحي الذي يقوم عليه...

شق كل واحد منهما طريقه بمفرده ذات يوم في عوالم الموضات النسوية إلى أن جمعهما القدر بمدينة فاس المغربية ثم بمدينة الجزائر قبل بضعة قرون، ليلازما بعضهما البعض حتى اليوم ملازمة الطابع البريدي لغلاف الرسائل..

بداية المشوار

تضرب جذور كل منهما في أعماق الحضارات والأديان الشرقية التوحيدية، فالحايك ليس سوى أحد أحفاد البُردة والخمار اللذين اشتهرا في الجاهلية وصدر الإسلام بالجزيرة العربية، وله قرابة كبيرة بجلابيب الراهبات النصرانيات منذ ما قبل الإسلام كما بأزياء النساء العبريات منذ مملكتي يهوذا وإسرائيل.

أما سبب هذه القرابة المثيرة فيرجع إلى اشتراك الأديان التوحيدية الثلاثة في مبدأ أخلاقي عالمي يتمثل في ستر المفاتن النسوية.

لكن أصول العجار يَبْدُو أنها تعود إلى بدايات الإسلام فقط حينما اتخذ شكل نقاب إسلامي، ثم تطور إلى ما يعرف بـ"البُرْقَع" ببغداد والشام حتى اليوم، قبل أن تجري عليه فاس ومدينة الجزائر بعض التعديلات إثر لجوئه القسري إليهما من الأندلس عندما ضاعت من يد المسلمين في 1492م، وتَحَوَّلَ اسمه إلى العجار، الكلمة الفصيحة التي ورد ذكرها منذ القرن 9م في "لسان العرب" لابن منظور.

عندما وَقَعَ الإسبانيُّ دْيِيغُو دِي هَايِيدُو في الأسر بمدينة الجزائر بين 1578م و1581م، كان الحايك والعجار مترسخيْن في ثقافة اللباس المحلي منذ أمد طويل حسب ما رواه في كتابه Topographie et Histoire Générale d’Alger الذي نشر في 1612م. فقد كتب في إحدى صفحاته عن نساء المدينة بأنهن كُنّ "عندما يخرجن (من بيوتهنNdlr) (..) يسترن ما

تحت العينين والجبين من الوجه (..) بساتر أبيض خفيف (..)، ثم يلففن الرأس بعباءة من القماش الصوفي الناعم(..) أو من نسيج الصوف، أو حتى من الحرير، يُسَمَّيْنَهُ "الحَايَكْ"(..)"، مُعَلِّقاً بأن نساء البهجة "كن يخرجن في الشوارع على درجة من السترة حتى أن أزواجهن في حد ذاتهم يعجزون على معرفة هويتهن(..)". قبل أن يضيف بأن "السيدات من الخاصّة (..) فإنهن يصطحبن معهن عددا من الجواري الزنجيات (..) والبيضاوات المسيحيات" اللواتي في غالب الأحيان لا يسترن وجوههن بالعجار. شهادة دييغو دي هاييدو بخصوص شيوع الحايك وزميله لم تكن شهادة فريدة آنذاك، بل سبقه إلى تأكيده بخمس سنوات الفرنسي "دوبراف" (De Brèves). أما أقدم شهادة، حسب معلوماتنا، ليس فقط عن وجود الحايك بل تتعرض حتى لأقدم لقاء بينه وبين رفيق دربه العجار فتعود إلى بداية القرن 16م، بحيث ذكر الدبلوماسي الأندلسي- المغربي "المتنصّر" بالفاتيكان حسن بن محمد الوزاني، الشهير في أوربا بـ: ليون الإفريقي (Léon l'africain)، بأن النساء الفاسيات كن يرتدينهما معا في نفس الوقت، وأطلقن على الحايك اسم "الكْسَا" أي الكساء... ولم تبق الجزائر بعيدة آنذاك عن هذه الموضة التي جمعت عناصرها من المشرق والأندلس وأضفت عليها لمسات محلية.

المَلْحَفَة، بُوعْوِينَة وحَايَكْ المَرَمَّه

لم ترتد الأندلسيات العجار، لكنهن لبسن الملحفة التي لا تختلف عن الحايك سوى في الطول بحيث لم تتجاوز أسفل الخصر وأحيانا تتدلى إلى أسفل حسب المناطق والأقاليم، وغَطَّيْنَ الوجه عادة بأحد أطرافها باستثناء العينين. وعندما لجأت الغرناطيات إلى تلمسان فرارا من القمع المسيحي، جلبن معهن هذه الموضة وكَيَّفْنَها مع الموطن الجديد، إذ زدن في طول الملحفة حتى القدمين لتصبح حايكاً بأتم معنى الكلمة السائد اليوم، لكن دائما دون عجار.

فاشتهرت في الجزائر هذه الطريقة في ارتداء هذا الزي بطريقة "الحايك بوعوينة" في العقود الأخيرة على الأقل، وبقيتْ مستعملة حتى اليوم، ليس في تلمسان فحسب، بل في كامل الغرب الجزائري، أين أطلقت النسوة على هذا الرداء آنذاك اسم "الكْسَا الغَرْبي" أي المَغْرِبي. ولعل هذا ما جعل باحثا كبيرا من حجم الفرنسي جُورْجْ مَارْسِي (Georges Marçais) يُعَلِّق بأن "التلمسانيات يبدو عليهن، ولا غرابة في ذلك، الالتزام بعادة نساء غرناطة (..) (اللواتي) كن يغطين أسفل الوجه بحايكهن مُمسكات به باليد اليمنى على مستوى أعلى الأنف. لذلك فَلاَ سَاتِر للوجْهِ لديْهِنَّ".

يتمتع هذا الزي بمناعة قوية وقدرة فائقة على الصمود، فالمصادر الغربية أكدت أن محاكم التفتيش الإسبانية المسيحية بقمعها الرهيب وإبادتها لم تنجح في القضاء على الملحفة الأندلسية بعد سقوط غرناطة في 1492م، بل استمرت هذه الأخيرة في الرواج حتى في أوساط النساء المسيحيات، اللائى أسمينها "المَلاَفَا" (almalafa) إلى غاية نهاية القرن 17م. وذهبت قوانين الملك "فيليب الثاني" التي منعت استعمالها أدراج الرياح، لينتهي الأمر عند يأسه إلى "الحل النهائي" الذي تمثل في الطرد الجماعي لبقايا المسلمين والمسلمات في إسبانيا بين سنوات 1609م و1614م.

قبل انصهار مختلف الجاليات ببلادنا في قالب ثقافي موحد ومتجانس في بداية العهد العثماني، كانت نساء مدينة الجزائر التركيات الأصل والنصرانيات اللائى اعتنقن الإسلام يرتدين الحايك والعجار مع بعض في نفس الوقت بحيث لم تنجح الأعين الأوربية والأمريكية الفضولية في رؤية أكثر من العينين والجبين...لأن العكس "لا يجوز"... وهو ما يؤكده حتى في القرن الثامن عشر لُوجْيِي دُو تَاسِي الذي لم يكن من الصعب عليه فهم بأن "التركيات"، قاصدا دون شك نساء الأتراك اللواتي لم يَكُنَّ بالضرورة تركيات إلا في حالات محدودة بل كان أغلبهن جزائريات، "لم يظهرن خارج بيوتهن إلا بمنديل أبيض يسترهن من الذقن إلى أسفل العينين". أما الأندلسيات الأصل والتلمسانيات، المتأثرات بالثقافة الغرناطية والقرطبية، المقيمات بهذه المدينة، فقد فضلن الالتحاف بـ"الحايك بوعوينة" الذي وصفه الرحالة الفرنسي لُوجْيِي دُوتَاسِي بـ:"ما يشبه القناع" عند تناوله للنساء العربيات، وهو دون شك يقصد نساء البلد دون تمييز بين مختلف انتماءاتهن القبلية والإقليمية، وذلك أثناء زيارته للجزائر في تلك الحُقبَة. قناع لم يمر دون إثارة انتباه واهتمام فارس آرْفْيُو(Chevalier d'Arvieux) الذي كتب عنه في مذكراته، التي نشرها في باريس عام 1735م، بأنه شاهد في أزقة مدينة الجزائر نساء المدينة متحجبات بشكل لا يظهرن فيه سوى عين واحدة، مُعَلِّقًا بأنه، في تقديره، موضة تلمسانية تشترك فيها معهن نساء الموريسكيين في عاصمة الإيالة.

على كُلٍّ، استمر وجود هذا "القناع" بالعاصمة إلى غاية منتصف القرن 18م قبل أن يزول بعد أن أنضجت المبادلات الثقافية-الاجتماعية بين جاليات المدينة هوية جديدة مشتركة جامعة لخصوصيات كل فئة اجتماعية أصبح فيها الحايك والعجار زيًّا عاما وشاملا لجميع النساء، خصوصا وأنه كان زي نساء السلطة والأثرياء اللواتي يتباهين به عند زيارة الحمامات العاصمية الفخمة، حَمَّامَات النخبة، مثل حَمَّام "الفْوِيطَة" وحَمَّام "إيتو" و"حَمَّام سِيدْنَا" بالقصبة السفلى. ومن المؤسف أن فُونْتُورْ دُو بَارَادِي (Venture de Paradis) عجز عن التمييز بين الحايك والعجار معتقدا بأنهما قطعة واحدة وليسا اثنتين وإلا كان قد سَهُلَ التدقيق في هذه المسألة. لقد كتب في 1789م يقول بأن كل نساء مدينة الجزائر يرتدين رداء ساترا "يُغَطِّي كُلَّ الوَجْهِ والجَبِين باستثناء العينيْن" وإن هذا الحايك منسوج من الصوف الرقيق "مَصْنُوعٌ في إمبراطورية المغرب" الأقصى.

القنصل الأمريكي وِيلْيَامْ شِيْلَرْ، الذي عاش سنوات في الجزائر في القرن 19م وعاصرَ احتلالَها من طرفِ الفرنسيّين، لم يكن أفضل منه ولا قدَّمَ تفاصيلَ أكثر بِقدر ما أكَّد تلك النزعة التَّهَكُّمِيَة أو الاحتقارية التي كانت سائدة عند "الكفار" تجاه الثوب الخارجي للمرأة الجزائرية عند خروجها من البيت. النزعة التي لم تتغيَّرْ، مع الأسف، حتى اليوم بل تعيش ازدهارا غريبا منذ أن ظهر الحجاب الإسلامي في أوربا وأمريكا، رغم أن مجتمعات هذه البلدان لا تكفُّ عن إعطاء الدُّروس للمسلمين ودَعْوَتِهِم إلى إحداث ثورة في ذهنياتهم حتى ينسجموا مع "التطور". فقد تحدث شِيْلَرْ عن ثوب المرأة في مدينة الجزائر وهي خارج البيت بأنه "حايك أبيض يُغطيِّ جسمَها كُلَّهُ، من الرأس إلى العَقِبِ، بحيث تبدو كأنها شَبَحٌ مُتَحَرِّكٌ...".

إلى أغلب مدن الشرق الجزائري، وعلى رأسها مدينة قسنطينة، انتقلَ العجار وتَعَمَّمَ استعمالُه منذ القرن 18م، مع تكييفات طفيفة من حيث طولِه، غير آبِهٍ بالقيل والقال الذي كانت تُروجه كتب الرحّالة والقناصلة الغربيين... ولم تندمج في هذه التحولات الجديدة سوى النساء الريفيات أو ذوات الأصول الريفية الحديثات العهد بالمدينة. أما الخصوصية القسنطينية التي تتمثل في ارتداء المْلاَيَة، أي المَلاءَة، إلى جانب العجار أو البُرْقَع في هذه المدينة وبقية المدن والجهات التي تدور أو دارت في وقت ما في فلكها الثقافي فتُرْجِعُها بعض الروايات إلى التأثير الشيعي منذ انطلاق الحركة الفاطمية في فج مْزالَة وبني عزيز في سطيف قبل قرون من قدوم العثمانيين إلى البلاد.
غير أن ما تذهب إليه مصادر أخرى فشيء آخر تماما على غرار الباحث الفنان حَسَان دَرْدُورْ، بحيث ورد في كتابه عن تاريخ مدينة عنابة بأن الملاءة السوداء دخلت في التقاليد بالمنطقة حزنا على مقتل صالح باي الذي عنه "قَالُوا العْرَبْ قَالُوا مَا نَعْطُوا صَالَحْ وَلاَ مَالُه" ثم خانوه وقدموه هدية لمبعوث الداي ليقطع رأسه بحد السيف. أما قبل هذه الحادثة السياسية الحزينة، يؤكد السيّد دَرْدُورْ بأن السيادة كانت للحايك الأبيض.
غير أن هذا الظهور للملاءة السوداء لم يكن فريدا من نوعه عبر التاريخ لِسَبَبٍ بَسيطٍ يتمثل في ارتدائه من طرف النساء الأندلسيات في عنابة وحتى في بَنْزَرْتْ في تونس حزنًا على ضياع وطنهن مُرسية الأندلسية وسقوطها بيد الإسبان في سنة 1266م. وعندما جاء الاستعمار في 1830م كان هذا الأسلوب الالتحافي قد أصبح زيا وطنيا ورمزا من رموز الهوية الجزائرية، في الوقت الذي كان يتراجع فيه باستمرار في المغرب الأقصى تاركا مكانه للجَلاّبة، وأصبح بالتالي الزي الوحيد للمرأة خارج بيتها في أغلب جهات الوطن منذ منتصف القرن 19م رغم ضغط التغريب الاستعماري ومدرسة "جُولْ فِيرِي".
بين الماضي والحاضر
بلغت هذه القطعة الحريرية، أو الصوفية، حسب فصول السنة، التي بلغ طولها في العهد العثماني حتى 4 أمتار مزينة الأطراف بـ"الدَّنْتِيلْ"، من الفخامة والأبهة في"عصرها الذهبي" إلى درجة أن الدايات والبايات جعلوها إحدى أجمل وأهم محتويات هداياهم في ذلك الوقت إلى بعضهم البعض وإلى أعوانهم وحتى إلى الخارج للملوك والأمراء المسيحيين، حيث نالت إعجاب الملكات والأميرات. ففي سنة 1586م، خلال عملية تبادل الأسرى بين الجزائر وتُوسْكَانْيَا (إيطاليا)، أرسل الداي إلى الدوق الأكبر، حاكم هذه الإمارة، مجموعة من الهدايا بحيث كانت أرقاها "قطعتان من حايك المْرَمَّه"، وذلك تعبيرا منه عن تقديره للدوق وحسن نواياه تجاهه.
اليوم لم يبق في العاصمة الجزائرية بأكملها سوى ثلاثة مختصين في نسج هذا اللحاف وعجاره؛ شيخ طاعن في السن بالقصبة العليا، يكاد يتوقف عن النشاط بسبب كساد تجارته، السيدة عباس بشارع ديدوش مراد، حتى وإن توقفت عن إنتاجه لتتخصص في البرانس و"الطّْبَقْ" و"الكَارَاكُو".. والسيد غرس ببني مسوس. أمّا في تلمسان، فَلَمْ يبق في الميدان سوى مصطفى العَشْعاشي، صاحب الحايك الشهير بـ:"حَايَكْ العَشْعَاشِي"،

والذي يمتلك محلا تجاريا جميلا بساحة موريس أودان بالعاصمة، متخصص في هذا المنتوج وفي مختلف أنواع الأغطية والأزياء الفاخرة المستوحاة من التقاليد الجزائرية.
أما الخِيّاطة المعروفة ياسمينة فلم يعد الحايك يشكل سوى جزء ثانوي من إنتاجها ومِنْ رقم أعمالها بِوَرْشَتِهَا بِشارع أَرَزْقِي حَمَّانِي (Rue Charasse) بالعاصمة.
أسباب هذا التراجع الكبير للحايك تُفَسِّرُهُ السيدةُ عبّاس بـ: "منافسةِ الحِجاب الذي يمنح النساء حرية أكبر لليدين، بثمن زهيد، مع إمكانية تنويع الألوان والشكل"..، فالحايك لا يتوفر على كل هذه المرونة لا في الشكل واللون ولا في ثمنه الذي يبلغ ما بين 2000 دج و3000 دج على الأقل إذا كان متوسط الجودة، أيْ "نصف مْرَمَّه"، و6000 دج إلى 8000 دج إذا كان "مْرَمَّه" مائة بالمائة.
يتجاوز عمر الحايك حاليا خمسة قرون، لكنه بلغ شيخوخته وهو اليوم على حافة الزوال من الحياة اليومية ليصنف مع المقتنيات التقليدية التي لا تستعمل إلا يوم الزفاف كَحُلّة فلكلورية فقط. القوة التي قاوم بها محاكم التفتيش الإسبانية وعلمانية الجمهورية خلال سنين الجمر الاستعمارية خارت وفقدت فعاليتها، وهو الذي لم تؤثر عليه أبدا لا "فُوطَة سَالُونِيكْ" التركية، أو"فوطة السُّنَانيقْ" حسبما سَمَّاهَا آخرون بعد تحريفِ التَّسْمِيَةِ الأصْلِيَّة، ولا حتى الحملة الدعائية المناهضة له التي قامت بها نساء الجنرالات سَالاَنْ ومَاسُو في آخر سنوات الثورة التحريرية وتَوَّجْنَهَا بِعَمَليةِ حَرْقِهِ وسط الجماهير بساحة الشهداء تحت التصفيقات والزغاريد المأجورة والضعيفة الشخصية لاستدراج الأخريات...

مسؤولية مصممي الأزياء...

غير أن هذا الانسحاب الصامت التدريجي ليس انهزاما حضاريا، لأنه لم يتم إلا بعد أن ترسخ الحجاب، وبصفة أقل الجلابة، في الأوساط الشعبية كضامن لاستمرارية القيم الأخلاقية التي حملها الحايك، وأوصلها حتى نهاية القرن 20م بسلام، من أعماق الثقافة الإسلامية.
مع ذلك، لو اجتهد مصممو ومصممات الأزياء الجزائريون وحركوا عبقريتهم من أجل تكييف الحايك مع العصر وضبطه مع الوظائف الجديدة للمرأة، كالعمل والخروج المكثف خارج البيت، التي لم تعهدها المرأة الجزائرية عندما تم تصميمه قبل قرون، لأمكن إعادة بعثه من جديد بقوة قد تحفظه من الزوال قرونا أخرى طويلة طالما بقي المجتمع الجزائري متمسكا بِقِيَمِهِ الأخلاقية الإسلامية. وبالتالي تتخلص المتحجبات من "الإتيكات" السياسية، المزعجة أحيانا، التي ألصقها العلمانيون بالحجاب و"التشادور" لأسباب تاريخية – سياسة معروفة، ويطوى هذا "الملف" نهائيا لأن مناهضة الحايك ستكون مناهضة للهوية الجزائرية. وربما أمكن القول بأن عدم تحمل المصممين لمسئوليتهم في تكييف "الحايك" وغيره من الأزياء العتيقة مع متطلبات العصر والحياة اليومية هو سبب الفوضى اللباسية السائدة اليوم، بغض النظر عن النزعة العولمية حتى في مجال الأزياء التي حملت قيما جديدة مستوردة ليست بالضرورة منسجمة مع نظامنا

الأخلاقي – الروحي، بل كثيرا ما تتحول إلى مصدر توترات اجتماعية، ثقافية وسياسية.

تستورد الجزائر حاليا الجزء الأعظم من حايك نسائها من تونس، وهذا أمر لا يشرف الجزائريين، ولم تعد تتوفر حتى على المواد الأولية التي تدخل في إنتاجه بالحجم المطلوب، وهذا أيضا مؤشر لا يبعث على الارتياح.

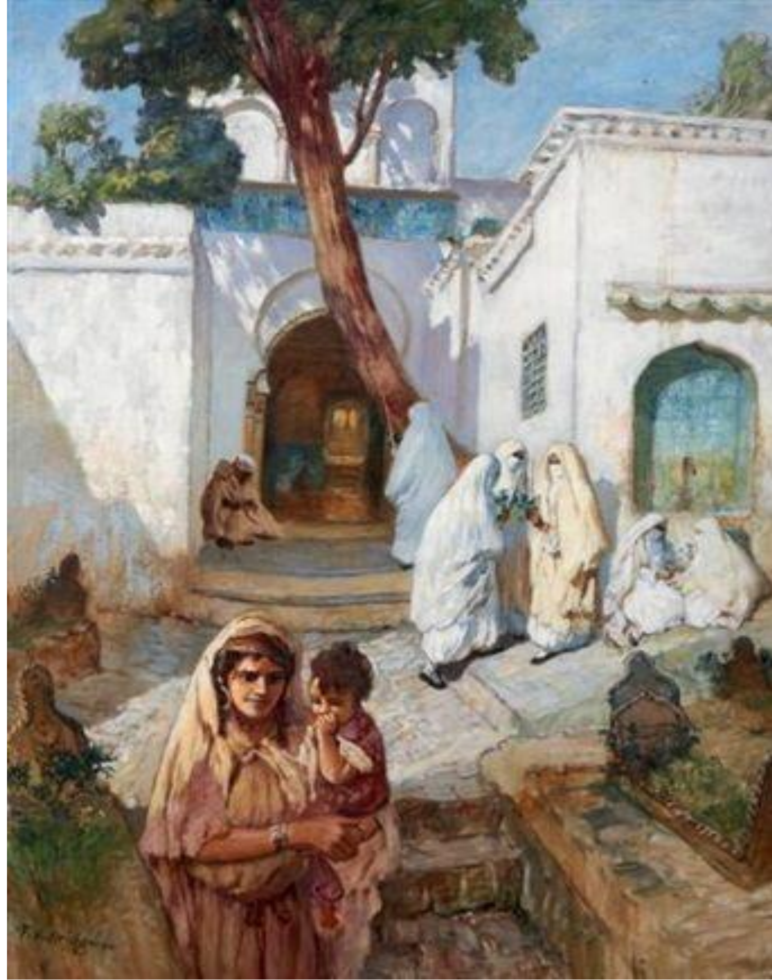
لوحة لفتاة جزائرية ترتدي الحايك في أجد جنان المدينة بريشة الأمريكي فلايديريك آرثور بريجمان (1847م-1928م).

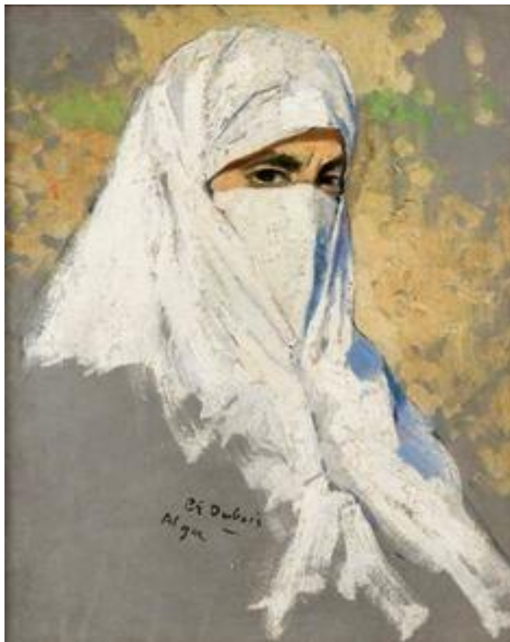


نساء يرتدين الحايك في نزهة خارج البيت.المكان يبدو بمحاذاة ضريح سيدي إبراهيم السلامي في المرسى الذي يعود إلى العهد العثماني. وتظهر عين البحرية في عمق اللوحة حلف المرأة وطفلها. هذه اللوحة بريشة الأمريكي فريديريك آرثور بريجمان (1847م-1928م).



نساء بالحايك والعجار في ضريح سيدي عبد الرحمن وفي أحد شوارع "المحروسة بالله"







نساء يرتدين الحايك والعجار في مدينة الجزائر في زيارة إلى المقبرة



"مَوْتُ..لُوجْيا": من " دار الغْرِيبْ" إلى..جَبَّانَة "القَطَّارْ"

أَلْطَفْ بِنَا يَالهَـادِي وَارْحَمْنَا يَا رَحْمَانْ
القْبَرْ كُلّْ يُومْ يْنَادِي وَيْعَيَّطْ للْغَفْـلاَنْ

كمال بُورْدِيبْ (مطرب شعبي)

لم يبق من المقابر العريقة بالقصبة بعد تلك التي حرثها الاستعمار بباب الوادي في القرن 19م سوى مقبرة القطار. لكن ماذا بقي من جمالها وحرمتها اليوم ..؟

كانت قصبة الجزائر مدينة يتعايش فيها الأحياء والموتى في انسجام روحي بهر كل الذين زاروها في القرون الماضية. مدينة تنتشر فيها الديار والقصور والمساجد والزوايا... وفي حدائق هذه البنايات كانت الأضرحة والقبورالخاصة ديكورا روحيا وزينة تصوفية لأهلها وهمزة وصل بين البعدين الدنيوي والروحي لسكان المدينة. لقد كانت نوافذ مطلة على الآخرة...
كانت القصبة ميَّالة لدفن موتاها من غير النخبة والأرستقراطية، باستثناء بعض الحالات الخاصة، في المقابر العامة خارج الأسوار في باب الوادي، لذلك كانت البقعة التي تحتضن الآن ثانوية الأمير عبد القادر والمديرية العامة للأمن الوطني وحديقة مارانغو والضواحي المحيطة بها عبارة عن مساحات مخصصة للدفن وموزعة بين الأديان الثلاثة: الإسلام المسيحية واليهودية التي تعايشت طيلة قرون طويلة في وئام. لكن لم يبق من هذه المقابر الشهيرة اليوم إلا ما حفظته لنا عنها المؤلفات التاريخية والبحوث الأثرية لأن الاستعمار حرثها حرثا وانتهك حرماتها بحجة توسيع مدينة الجزائر وبناء حي باب الوادي للمعمرين. وكم من بناية هناك ارتفعت على أنقاض الهياكل العظمية ورفات الأموات التي مازال بعضها حبيس أسس المدينة الأوروبية الجديدة .

عظام للتصنيع

"لقد ألقينا بِرُفات الموتى في العراء لتتقاذفها الرياح، يقول ميشال هابارت في "قصة اليمين الحانث" (L'histoir d'un parjure)، وجاءت هذه "الرياح" بالسفن لشحنها الى مرسيليا لتباع لمنتجي فحم العظام". في نفس الوقت "استولى الماريشال كْلُوزِيلْ (خليفة الماريشال دُوبُورْمُونْت قائد الحملة الاستعمارية على الجزائرNdlr) على شواهد القبور المرمرية ليبني بها ثلاثة طاحونات.."، فشل حسب ميشال هابارت في تحريك أجنحتها. لقد كانت هذه المقابر الشعبية متعة للناظر، أثارت إعجاب كل من رآها من الرحالة ورجال السياسة الأرورببيين مثل الإنجليزي الدكتور شو الذي اعتبرها حدائق قائمة

بذاتها أثناء زيارته للجزائر بين 1720م و1732م حيث كانت كل عائلة تمتلك مربعا خاصا بها محاطا بجدار صغير.
من هذه المقابر العتيقة في مدينة سيدي الثعالبي، لم تبق سوى واحدة وحيدة كانت أصغرها سنا وأقلّها شأنا في نهايات العهد العثماني وهي مقبرة القطَّار التي يرى البعض أن بداية استخدام أراضيها في الدفن تعود إلى بدايات القرن 18م.
القَطَّار في الأصل "جَبَّانَة" للفقراء و للغرباء عن القصبة الذين انقطعت صلاتهم بذويهم ولم يجدوا من يتكفل بهم عند الموت، لذلك اشتهرت في الماضي باسم "دار الغريب". وقد استمر وجود أمثال هؤلاء الغرباء عن المدينة، الهامشيين اجتماعيا واقتصاديا الذين كثيرا ما كانوا يعيشون على الصدقات، إلى غاية نهاية السبعينات من القرن 20م. وقد كانت غربتهم بشكل عام اختيارية ناتجة عن كونهم "بَرَّانيين" قادمين أحيانا من أوطان بعيدة، أوعَنْ خلافات عائلية-قبلية أو عن خيبات عاطفية أو مرتبطة بآفات معينة كالكحول أو المخدرات...اقتضت أن ينفوا أنفسهم فاشتغلوا في الحمامات أو حمالين في الأسواق إلى غاية انقراضهم وفسحهم المجال لأجيال جديدة من الهامشيين. ولم تكن مساحة القَطَّار تتعدى مربعا صغيرا قبل النصف الثاني من القرن 19م ثم أعطاها الاستعمار وضعيتها القانونية الجديدة كمقبرة عمومية عادية لا تختلف عن غيرها من المقابر الإسلامية، تستوعب الموتى من جميع الشرائح والطبقات والأعمار، وهو ما جعلها اليوم تحتوي على قبور تعود إلى نهاية القرن الماضي في بعض أركانها العتيقة التي تعرف بما يُسمَّي: "الجَبَّانَة القْدِيمَة" التي سُمِّيَتْ أيضا في العهد الاستعماري "الفريزي" نسبة إلى المعمر المالطي الذي كان يشرف على تسييرها حسب أحد إطارات مؤسسة الجنائز والمقابر ببولوغين .

أزمة سكن "حتى في المقبرة"

"دار الغريب" الصغيرة أصبحت اليوم بعد أن ضاقت بموتاها تتربع على 18570م2 (18ha57) بحيث أضيف إلى الجبانة القديمة " النواة" ، المساحات الشاسعة المعروفة بالجبانة الجديدة منذ الستينات ، قبل أن تضاف إليها مساحة أخرى تنحدر مع السلالم المؤدية إلى حي مناخ فرنسا والتي كانت حتى بداية الثمانينات عبارة عن حي سكني قصديري يعود ظهوره إلى عهد الحرب العالمية الثانية. ولما لم تعد هذه البقعة الإضافية قادرة على استيعاب "المسافرين إلى دار الآخرة "، كما كان يردد أحد أئمة القصبة في الثمانينات، بدأ حفارو القبور يستغلون حتى ممرات السيارات والمشاة داخل المقبرة في عمليات الدفن ولو على حساب نظام المقبرة وأمن وراحة العجائز والشيوخ الذين أصبحوا يجدون صعوبة كبيرة في تسلق مرتفعات المقبرة الوعرة للوصول إلى قبور ذويهم في الأعياد والمواسم الدينية. وأمام هذا "الانفجار السكاني" أصبح الحصول على قبر داخل "دار الغريب" من المستحيلات التي لا تتحقق إلا "بِخيطْ صْحِيحْ"، أي بالعلاقات والتدخلات الخاصة، لأن أهل المقبرة أدرى بشعابها وبالبقع والأركان التي لا زالت تحتمل استقبال موتى إضافيين.

بفضل عراقتها، "دار الغريب"، التي سحرت الكاتبة الفرنسية لوسيان فافر(Lucienne Favre) في الخمسينيات، هي في الحقيقة متحف للآثار الآدمية للعائلات العاصمية العريقة ولشخصياتها الثقافية والسياسية والدينية التي التقت جميعا هناك خلف قصبتها وضجيج أسواقها وأطفالها المرحين حول عيون الماء ودكاكين الحلويات و"الكتاتيب القرآنية".
وهي متحف أيضا يسلط الأضواء على علاقة المدينة بأمواتها وعلى فلسفة الموت وطقوسها عند أهل "المحروسة بالله". في هذه المقبرة، التي تشبه نظيرتيها الباريسية "بيرْلاشيزْ" (Père la chaise) و"مُونْبَارْنَاسْ"(Montparnasse) من حيث قِدمها ومكانتها التاريخية، ينام سواسية كل من الحاج محمد العنقاء، الحاج مْنَوَّرْ، الحاج مْرِيزَقْ، فضيلة الجزائرية، مريم فَكَّايْ، اللاّيَامْنَة بنت الحاج المهدي، رْوِيشَدْ، والمناضل الكبير من أجل القضية الفلسطينية الذي اغتالته أجهزة الموساد بباريس سنة 1973 الشهيد محمد بودية، وحتى حْسِيسَنْ مَانْيُوسْ أحد أهمّ توابل الحياة اليومية في قصبة العشريات الثلاثة الأخيرة.

"مقبرة للزواج والصعلكة"

تحتفظ "الجبانة القديمة" ببعض نماذج القبور العتيقة الأنيقة المُزَيَّنَة بقبب مَرْمَرِيَة أو زَّلِّيجِيَة لازالت تشع جمالا رغم أثار القرون... وتعلو الشواهد فيها مشرفة على مأكل وشراب الطيور الذي تذرره النساء هناك كلما زرن موتاهن أيام الجمعة وأثناء المواسم والأعياد. وحول القبور تَعَوَّدَتْ هؤلاء النسوة على اللقاءات الطويلة الحميمية لتبادل أطراف الحديث والأخبار حول حياتهن اليومية ولعقد صفقات الزواج بالنسبة للفتيات العازبات اللواتي يغتنمن هذه الزيارة "لضمان المستقبل"..، لكن ليس بالمعنى السياسي الذي كان سائدا عند حكومات جزائر الثمانينيات من القرن 20م.
عن هذه الأجواء السعيدة في فضاء حزين بطبيعته ويرمز للألم، كتبت لوسيان فافر: "على شواهد القبور تسهر عادة أشجار التين (على الموتى)...، وتجلس تحت ظلالها الجميلة الزائرات لتجاذب أطراف الحديث وتناول الزاد الذي جلبنه معهن...(و) الأطفال يَجْرون (..) كالعصافير..". ومن بين تلك النسوة، تضيف فافر: "هناك زائرات جد جميلات (...) بحيث أن وجوه بعض الفتيات والنساء منهن شرقية في غاية النضارة والسحر تفتن القلوب. (..) إحداهن تحمل حفنة ماء، لرش النبات المحيط بشواهد القبر، تغترفه من "قَزْدِيرَة" بإناء صغير ثم تذرره بأيديها لتنسكب قطراته بين أصابعها كاللؤلؤ. كما لا تنس تلك النساء إطعام العصافير بفُتاة الخبز فوق االقبور".
حافظت "دار الغريب" على الكثير من هذه الطقوس والمراسيم حتى الوقت الحالي واحتفظت حتى بإحدى العائلات العاصمية بداخلها لتسهر على أمنها وراحتها منذ سنوات طويلة وكأنها ضريح لأحد الأولياء الصالحين.
أب عن جد، تسهر عائلة أُوشْفُونْ على حراسة المقبرة التي تقيم بداخلها، حتى أن الأب سقط قبل بضعة سنوات ضحية رصاص الفتنة السياسية عند مدخلها، وتتعايش مع مختلف أنواع الصعلكة والانحراف داخل "الجبانة الجديدة"، بما فيه الجنسي. الصعلكة التي اتخذت من المقبرة وكرا لها و"مركزا لقيادة العمليات" والاعتداءات على الزوار

في وضح النهار خصوصا في زواياها المعزولة. أما في الليل فلا حيلة لعائلة أوشفون أمام السهرات الحمراء حول أكواب الزومبريطو والخمور التي ينظمها المنحرفون في "البْرِيجَة"، بعد أن يكونوا قد عَرّوا القبورَ الحديثة من رخامها وزليجها وحتى شواهدها لإعادة بيعها... كانت مقبرة القطار في أيام عزها تحتوي على مصلى للموتى يقع داخل قصر صغير رائع الجمال ذي طراز معماري جزائري – أندلسي، وكان يحتضن في اليوم الثالث التالي لعملية دفن الميت تجمعات النساء أثناء الزيارات الجماعية وكذلك "وَعْدات" الكسكس ليلا. لكن هذا القصر الجميل لم يعد اليوم أكثر من مرحاض متعفن تنبعث منه كل أنواع الحوامض المفقودة في العالم لتضاف لقنوات تصريف المياه القذرة التي تصب سواقيها بين الأموات...

مقبرة القطار تعيش انحطاطا كبيرا لم تشهده حتى في العهد الاستعماري، ولا شك أن بعض الغيرة تنتابها من حين لآخر عندما تلتفت إلى جنوب القصبة لترى الراحة والاطمئنان اللذين تنعم بهما جبانة سيدي مْحَمَّدْ بُوقَبْرَيْن بالفحص في الحامة. إنها جديرة بإلتفاتة رحيمة من طرف "أهل الديوان" حتى تستعيد نضارتها وتنعم هي الأخرى وأمواتها بحياة كريمة، خصوصا وأنها مقبرة تاريخية نادرة بل آخر ماتبقى من عالم أموات القصبة القديم، كما قد يحتاج "أهل الديوان" إلى حُفَرِها ليواروا في التراب في يوم من الأيام.. وتقتضي سُنّة الحياة أن يذهب "السابقون" أولاً ثم يلتحق بهم "اللاحقون"...

نساء مدينة الجزائر في زيارة إلى مقبرة القَطَّار في مرتفعات شمال غرب المدينة قرب حَوْمَة الباب الجديد.



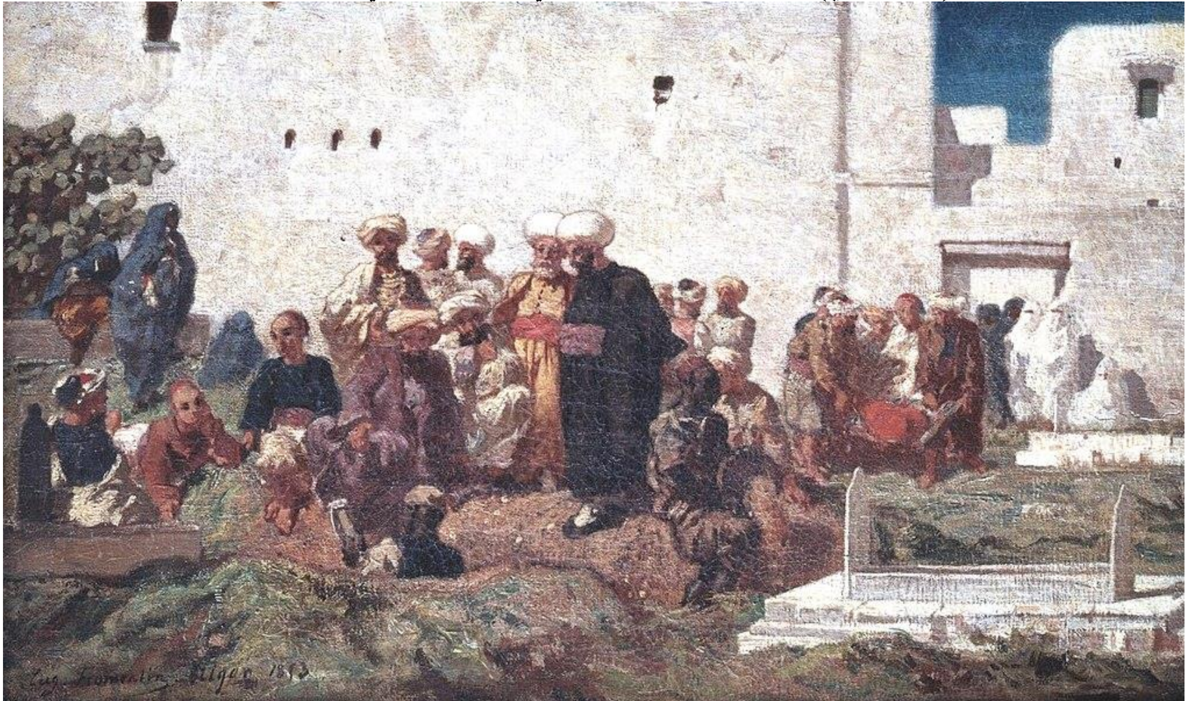
يوم الجمعة صباحا، تُزار المقابر. هنا جبّانة القَطَّار في "الجبل"، أي في "القصبة" العليا، على بعد نحو 100 متر من السور الشمالي لمدينة الجزائر العتيقة المنحدر من حومتيْ الباب الجديد وسيدي رمضان إلى باب الوادي وقاع السور على شاطئ البحر.



نساء حول الأضرحة والقبور في مدينة الجزائر. بريشة الفنان الأمريكي آرثور فريديريك بريجمان



لوحة مؤرخة بسنة 1853م للفنان الفرنسي أوجين فرومونتان، عاشق حومة سيدي مْحَمَّد الشريف، تحمل عنوان Enterrement maure (دفنٌ جزائري)، اللوحة تُخلِّد طقوس الدفن في مدينة الجزائر في منتصف القرن 19م.



نساء في مقبرة الحامَّة بفحص الحامة، ومدينة الجزائر ومرساها في الأفق. بريشة الفنان الامريكي آرثور فريديريك بريجمان.



زيارة إلى ضريح سيدي بن علي بمحاذاة حومة بئر الجبَّاح داخل مدينة الجزائر العتيقة في جهتها العليا. هنا يوجد قبر الأميرة نْفِيسَة وشقيقتها.



زيارة إلى ضريح ومقبرة سيدي عبد الرحمن الثعالبي. كانت المقابر والأضرحة جنات وحدائق للتأمل والاستراحة



في زيارة جبّانة القَطَّار في "الجْبَل" في مرتفعات المحروسة خارج الأسوار





فندق الأوراسي: هَضَبَةُ الثَّغْرِيّين..
هَضَبَةُ "الشِّيخْ القَطّْ" و..هَضَبَةُ أَحْمَد بن بَلَّة

حلم المهندس المعماري الفرنسي لُوكُورْبِيزْيِيه (le corbusier) بتحويل ربوة "التاغاران" و"وادي الشَّانْطِي" إلى مدينة عصرية جدا، تشبه مدن أفلام علم الخيال. وتَصَوَّرَها زملاؤه فضاءً لكرة القدم ومختلف الرياضات... بينما فَضَّلَ مصطفى موسى تخصيصها للسياحة واللقاءات السياسية الدولية الكبرى التي كان يحلم بها الرئيس أحمد بن بلة...

كان "الشيخ القَطّْ" الذي توفي سنة 1975م وهو على مشارف القرن من عمره، دائم الترديد في "سور السّطّارَة" بأن هذه البقعة كانت غابة للأسود والضباع والذئاب وحتى القردة الذين كانوا يزورونها في فصل البطيخ والدلاّع قادمين من غابات بني يَنِّي أو من مخانق الشّقَّة لإشباع نهمهم لهاتين الفاكهتين. مجلة "Algeria" وصحيفة "Lakhbar" اللتان أصدرتهما الإدارة الاستعمارية على التوالي في الخمسينيات الماضية وفي النصف الثاني من القرن 19م أكدتا في بعض مقالاتهما كلام "الشيخ القط" الذي كثيرا ما اعتبره الناس هذيان أفرزته السنون الطويلة التي عاشها. ولم يعد الآن أدنى شك في صحة ذلك حتى ولو أن بهرجة وفخامة نزل الأوراسي الذي بُنِيَ على هذه الربوة المتوحشة القريبة من "التّاغاران" المحاطة بالشعاب قد ألغيا هذه الصورة البدائية الطبيعية من الأذهان.

من عهد شارلكان حتى الجنرال دوبورمونت

عندما جاء شارلكان في 1541م لغزو الجزائر، لم تساعده صعوبة تضاريسها على الاقتراب من أسوار القصبة العليا والجبل من جهة الباب الجديد وبقي يُسَيِّرُ معركته من فسطاطه الذي أقامه بـ: "كُدْيَة الصَّابون" أو حصن الإمبراطور، على بعد بضعة مئات الأمتار منها حتى انهزامه وعودته محطما إلى بلاده. وبعد حوالي 3 قرون، عندما مرت بها قوات الاحتلال الفرنسي في 1830م، لم تكن هذه البقعة المتوحشة الجميلة التي احتلت حَيِّزاً هامًّا من إحدى أجمل لوحات محمد راسم الجزائري للمنظر العام لمدينة الجزائر قد عرفت أي تحوّل في جغرافيتها وتضاريسها، لكن كتائب الهندسة العسكرية الاستعمارية لم تماطل في اقتحام عذرية هذه الربوة الهادئة لشق الطريق الرئيسي المؤدي من الباب الجديد إلى الأبيار عبر بعض الديار التابعة لعدد من العائلات الأندلسية الثغرية (Les Tagarins) ثم دروب وطرق أخرى أهمها ذلك الذي يربط حاليا بين وزارة الدفاع الوطني و"تيليملي".

بقيت الربوة بعد ذلك جزيرة خضراء وسط العمران الزاحف المحيط بها من جميع الجهات شاهدة كمتحف طبيعي عن بقايا إيكوزيوم الرومانية وجزائر بني مزغنة ثم "بهجة " الباشوات ورياس البحر.

ميدان تناطح الكباش واصطياد العصافير

في الخمسينيات فَكَّرَ معماريو الاحتلال في بناء ملعب لكرة القدم في المكان الذي أقيم عليه فندق الأوراسي يتسع لحوالي 40000 متفرج، لكن الثورة التحريرية لم تمهلهم ولم تُمَكِّنهم سوى من بناء المكتبة الوطنية الجزائرية وملعب وَاقْنُونِي لكرة اليد وألعاب القوى، والشارع العريض الذي يتوسطهما المعروف بشارع فْرَانْتْزْ فَانُونْ.
بعد الاستقلال، استمر أطفال ومراهقو القصبة وضواحيها في استغلال هذه الربوة الكثيفة الخضرة والأشجار الباسقة، التي يتزعمها "الكاليتوس" والدّلب، في اصطياد العصافير وإقامة مباريات تناطح الكباش عند اقتراب عيد الأضحى، وكانوا يطلقون عليها اسم "وادي شانْطي"، نسبة إلى أهم شعبة كانت تعبرها حتى وإن كانت جافة طول السنة تقريبا من جهة، وورشة أشغال البناء (Chantier) التي كانت قائمة بها من جهة أخرى. ولم يتراجعوا عن هذا التقليد العريق إلا عندما أصبح مستحيلا في بدايات السبعينيات عندما تقدمت أشغال إنجاز فندق الأوراسي.

حلم "الزعيم"

في سنة 1963، قرر الرئيس الأسبق أحمد بن بلة تغيير مصير "وادي شانطي" ورَبْوَتِه التاريخية بإعطائه إشارة انطلاق إنجاز أضخم فندق آنذاك في الجزائر يتناسب مع "ضخامة" عظمة الشعب الجزائري ويتسع لضيوفه القادمين من مختلف بلدان العالم الثالث للمشاركة في الندوة الأفرو- آسيوية التي برمجها لسنة 1965م والتي لم يكتب له تحقيقها لسبب بسيط وهو أن صديقَه هواري بومدين قَرَّرَ الإطاحة به في 19 جوان من نفس العام.
مشروع فندق الأوراسي أسنده الرئيس بن بلة بحكم نزعته القومية العربية إلى المهندس المعماري المصري المعروف آنذاك مصطفى موسى. ولم ينجح اللوبي الفرنسي في الجزائر في تجميده ولا في تحويله إلى الخبراء الفرنسيين الذين رَكّزوا، مثل De Maisonseul Bachofen، في انتقاداتهم للمشروع ومهندسه على مبررات موضوعية تتمثل في عدم صلاحية الأرض لتحمل ضخامة الفندق وإمكانية انزلاقها التدريجي عبر السنين وفصل البحر عن ما وراء الفندق من أراض وعمران وتشويه جمال البقعة. لكن لا أحد من هؤلاء نجح في التأثير على التصميم الذي أعده مصطفى موسى، لأن هذا الأخير كان محصنا بدعم وثقة أحمد بن بلة. لقد كان فندق الأوراسي في هذا التصميم الأصلي بناية ضخمة وعالية بأشكال خارجية مستوحاة من الفن المعماري الإسلامي معبرة عن أصالة مدينة الجزائر... لكن معطيات وطوارئ تقنية، ورياح جرت بما لا تشتهي السفن عَطَّلَتْ إنجاز المشروع لسنوات طويلة بقي خلالها مجرد هيكل محاط بالجرارات وآلات البناء والإسمنت ومسرحا في ضواحيه للمصارعة الكِبَاشِيَة التي أسعدت أجيالا من المراهقين والأطفال.. وبصراحة حتى الكبار...
أدَّتْ التعقيدات التقنية الكبيرة التي عطلت إنجاز المشروع بالمهندس المصري مصطفى موسى إلى التَّحَوُّلِ منذ 1964م إلى غرب مدينة الجزائر لإنجاز مشروع بديل لاحتضان المؤتمرات والاجتماعات الدولية الكبيرة ريثما ينفرج الوضع على ربوة "التاغاران" وشعبة "وادي الشانطي" وهكذا شهد قصر الأمم بنادي الصنوبر ميلاده

ليستقبل في سنة 1975م وفود العالم الثالث للمشاركة في مؤتمر عدم الانحياز بالإضافة إلى قمة الدول العربية اللذين قاد أحداثهما وأشغالهما الرئيس الراحل بومدين، وحقق بقاعة القصر الجديد مكاسب سياسية كبيرة أقلها المصالحة التاريخية العراقية - الإيرانية بين صدام حسين وشاه إيران محمد رضا البهلوي.

ذئاب الأمس... وذئاب اليوم

أما مصطفى موسى، فلم يعد إلى "وادي شانطي" والفندق المشؤوم إلا لتسليم المشروع لمهندس آخر، لكن ليس لفرنسي، أجرى تعديلات على شكله وتصميمه بصفة عامة منذ 1973م بحيث قسَّمه إلى كتلتين سفلية وعلوية وتنازل عن الشكل الخارجي العربي-الاسلامي الروح ليُعوِّضه بديكور دولي "عصري" متعارف عليه في إنجاز الفنادق السياحية الضخمة في العالم. هذا المهندس المعماري هو الإيطالي الشهير مُورِيتِي (Moretti) الذي بنى كذلك حَيّ بَنْ عُمَرْ بالقبة في 1976م والمركب السياحي الصيفي الذي يحمل اسمه، أي قرية شاطئ موريتي.

في سنة 1975م توفي مصطفى موسى، ثم تلاه موريتي في 1976م، بعد أن حَوَّلا الربوة الخضراء المتوحشة القريبة من القصبة إلى إحدى أهم الهياكل السياحية الفخمة بالعاصمة الجزائرية، ولم يعد في شعابها المفقودة مكان للأسود والضباع والقردة والذئاب المفترسة التي تحدث عنها "الشيخ القط"..، ولا حتى للكباش. لكن ذئاب جدد من النوع البشري سيخلفونهم تدريجيا في شعاب البناية الضخمة ليفترسوا قطاعات اقتصادية كاملة بواسطة شركات الاستيراد والتصدير ذات "الطابع الجزائري".

حومة الثَّغريين في القرن 19م، أو "تاغاران" باللغة الفرنسية، وهم الأندلسيون النازحون من ثغور الأندلس، أي جبهات الجهاد ضد أعدائهم نصارى الشمال. بعضُهم انتهى بهم المطاف في هذه الحومة في فحص مدينة الجزائر التي ما زالت تحمل اسمهم إلى اليوم. في الصورة "حصن الإمبراطور" شارلكان أو "برج بوليلة" الذي ما زال قائما إلى اليوم كقاعدة عسكرية. من هنا، من أعلى بقعة مطلة على المدينة، قاد الإمبراطور الإسباني معاركه الصليبية الفاشلة لاحتلال الجزائر في خريف سنة 1541م.



حومة الثغريين، التاغاران، بقيت مثلما هي في لوحة الفنان الفرنسي بول غِيُون إلى غاية سنوات 1970م عندما تربع على هذه الهضبة فندق الأوراسي. كانت غابة صغيرة وسواقي تتدفق ماء عذبا ومرعى وحلبة للكباش عند اقتراب عيد الأضحى، وأيضا بستانا طبيعيا للتنزه والتسلية واصطياد العصافير، لاسيّما "المقْنِينْ"، أيْ الحَسُّون .



كانت هضبة الثغريين موقعا إستراتيجيا يُطل على كامل المدينة ومرساها. تحولت إلى موقع عسكري بعد الحملة الصليبية لسنة 1541م، واستمرت كذلك في عهد الاحتلال الفرنسي حيث يظهر العمود الذي أقامه الفرنسيون بمحاذاة الحصن وهي إلى اليوم قاعدة عسكرية منذ استقلال الجزائر في 1962م لأهميتها، فيما أُزيل العمود، اسمه لاكولون بايو" (La Colonne Bailloud) لرمزيته الاستعمارية.



القوات الفرنسية الاستعمارية في حومة الثغريين في 1830م تقترب من أسوار مدينة الجزائر التي تظهر فوق التلة على اليسار.



فندق الاوراسي شامخا فوق هضبة الثغريين. المدينة التاريخية، "القصبة، توجد على اليمين، لكنها لا تظهر في هذه الصورة.



فندق الأوراسي مطلا على المدينة وخليجها. المدينة التاريخية موجودة على اليسار، لكنها لا تظهر في هذه الصورة.



حي سيدي رمضان و "سِي الطيّب الوطني"

في حي سيدي رمضان امتزج تاريخ جزائر الأخوين عروج وخير الدين بذكريات التحضير للثورة التحريرية وبصدمات سنوات جحيم الفتنة... كل ذلك وسط مظاهر للفقر المدقع وأطلال لازالت تحتفظ بصدى وقْع أقدام "سي الطيّب الوطني" أثناء اختفائه من مطاردات الشرطة الاستعمارية.

أصبح شارعا بربروس وقَطْعْ الرَّجَلْ ("كَتَارُوجِيلْ" باللغة الفرنسية) أرضا خرابا بعد أن انهارت معظم مبانيهما في العشريتين الأخيرتين، وتحولا قبل سنوات إلى قاعدة ينطلق منها تنفيذ الاغتيالات بشارع لُونِي أَرَزْقِي، أو بِحَوْمَتَيْ "الرُّونْفَالي"، و"الدُّوزْيَامْ القْدِيمْ" وضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي. آنذاك شهد شارع قطع الرَّجَل اغتيال صحفي أجنبي، كما نُفذت عملية مماثلة بمدارج "لاكَرْوَا رُوجْ" ضد عنصرين من المبشرين المسيحيين كانا يشرفان على إدارة مكتبة الآباء البيض هناك.
منذ نهاية التسعينيات تقريبا هدأت الأوضاع ليس بحي سيدي رمضان بمختلف شوارعه فحسب بل عادت الطمأنينة إلى كل أحياء القصبة بعد تكثيف الحضور المشترك للجيش وقوات مكافحة الإرهاب في أهم النقاط الإستراتيجية بهذه المدينة الصعبة المسالك.
اليوم، لم تبق سوى الذكريات الحزينة والصدمات النفسية لتضاف إلى الخوف الدائم من انهيار المباني، كما يقع بانتظام في أحياء مجاورة، وإلى الفقر المدقع الذي يعيشه أغلب سكان هذا الحي العتيق بعيدا عن أضواء الإعلام الذي هجر القصبة منذ تدهور الوضع الأمني
رُكام، أطلال، بيوت وقصور عتيقة تعود إلى القرن 16م وما قبله، أزقة شبه مقفرة وبضعة سيارات قديمة اتخذت من هذه الأرض الخراب حظيرة لها... هي كل ما بقي من حي سيدي رمضان وشارعيه الرئيسيين قطع الرجل وبربروس بالمرتفعات الشمالية لقصبة الجزائر.
عمليات الترحيل الأولى للسكان انطلقت قبل سنوات ثم تلتها دفعة أخرى في سنة1999م بإتجاه أحياء سكنية جديدة ببرج الكيفان، ولم تبق في الوقت الحالي سوى العائلات التي فضلت التمسك بأملاكها التي تتمثل عادة في قصور فاخرة، رغم قدمها، مطلة على منظر خليج العاصمة الجميل، والميناء وأحياء باب الوادي وساحة الشهداء.

"أنَا دَارِي مَا نْبَدَّلْهَاشْ بْمَالْ قَارُونْ!"...

هكذا يصر أحد السكان باعتزاز، في حين يتردد أحد جيرانه في الحي بين الرحيل والبقاء، بين القصر العتيق الفخم الذي لم يعد يتسع لعائلته الكبيرة والشقة التي تقترحها عليه محافظة الجزائر الكبرى في أحد "الأحياء-المراقد" بشرق المدينة.

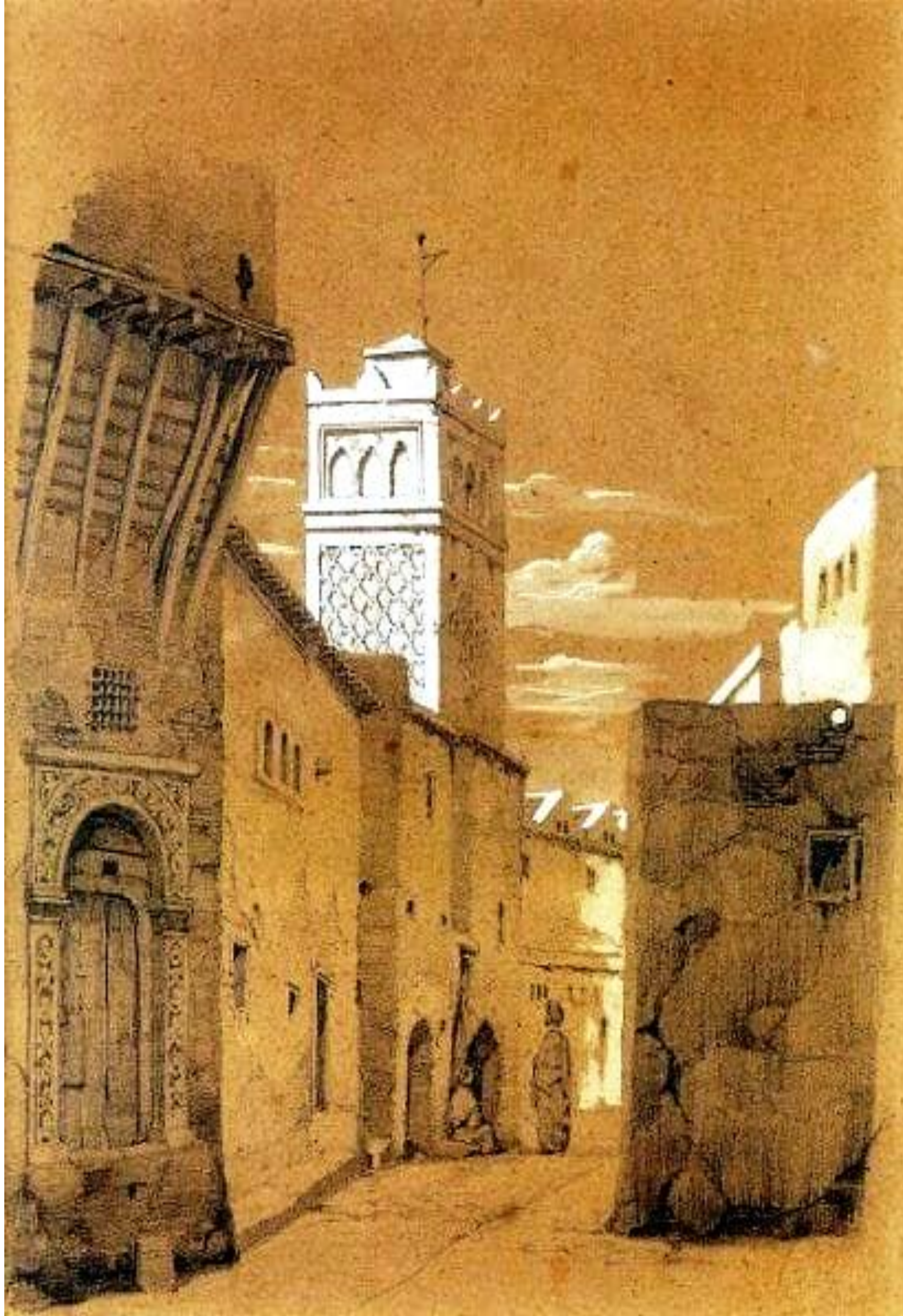
ربة البيت محتارة هي الأخرى بين هذا وذاك خصوصا وأن القصر مرتبط بتاريخ أجيال كاملة من العائلة، اشتراه الجد الأول كهدية عيد ميلاد لابنه قبل حوالي قرن.
من سطوح هذه القصور يبدو شارعا قطع الرجل وبربروس وكأنهما أحد أحياء بيروت بعد الغزو الإسرئيلي، لكن بينهما توجد مساحة صغيرة يلتف بإحدى جهاتها سور طويل حديث الدهن باللون الأبيض، ويتوسطه نصب تذكاري في طور البناء يوحي بسر خاص حتى وإن كان أغلب من التقيناهم يجهلونه؛ أحدهم لخص لنا كل ما يعرفه عن هذا السور ونصبه التذكاري بالعبارة التالية "جَاوْ البارَحْ صَبْغُوهْ ورَاحُوا.. واحد فينا ما فْهَمْ عْلاشْ حتى الآن..!!"
في 1950م كانت هذه البقعة عبارة عن بناية تتضمن ورشة خياطة ومحل تجاري وتحمل رقم 06 من شارع بربروس كما تُقابل نفس الرقم من شارع قطع الرجل الموازي له. البناية كانت ملكا لمناضل وطني في المنظمة الخاصة لحزب الشعب الجزائري/الحركة من أجل الانتصار للحريات الديمقراطية يُدْعى كَشِّيدَة عيسى تنازل عنها لزميله محمد بوضياف كي يحولها بأمر من الحزب إلى مقر ومركز عبور قيادات هذا التنظيم شبه المسلح. ومن هذه البناية أيضا التي هدمها الاستعمار في 1956 بعد انكشاف سرها، حَضَّرَتْ اللجنة الثورية للوحدة والعمل الثورة التحريرية، وسَيَّرَتْها في سنتيها الأولتيْن. وبعد أن بقيت أكوام حجر هذا المَعْلَم الثوري إلى وقت قريب كما تركها الاستعمار في 1956، تذكرت السلطات المحلية هذا المكان التاريخي وقررت تخليد ذكراه التي اقترنت بالرئيس الراحل محمد بوضياف.
عندما سألنا عددا من شبان ونساء الحي "هل تعلم أن بوضياف كان يقيم هنا أثناء الثورة؟" لقينا منهم جميعا نفس الجواب: "والله ما نَكْذَبْ عْليكْ..."!
لكن وضع نصب تذكاري هناك قد يضع حدا لمثل هذا الانطباع ويعيد ربط سكان الحي بذاكرتهم.

تاريخ مقر قيادة الثورة تحت مسؤولية محمد بوضياف

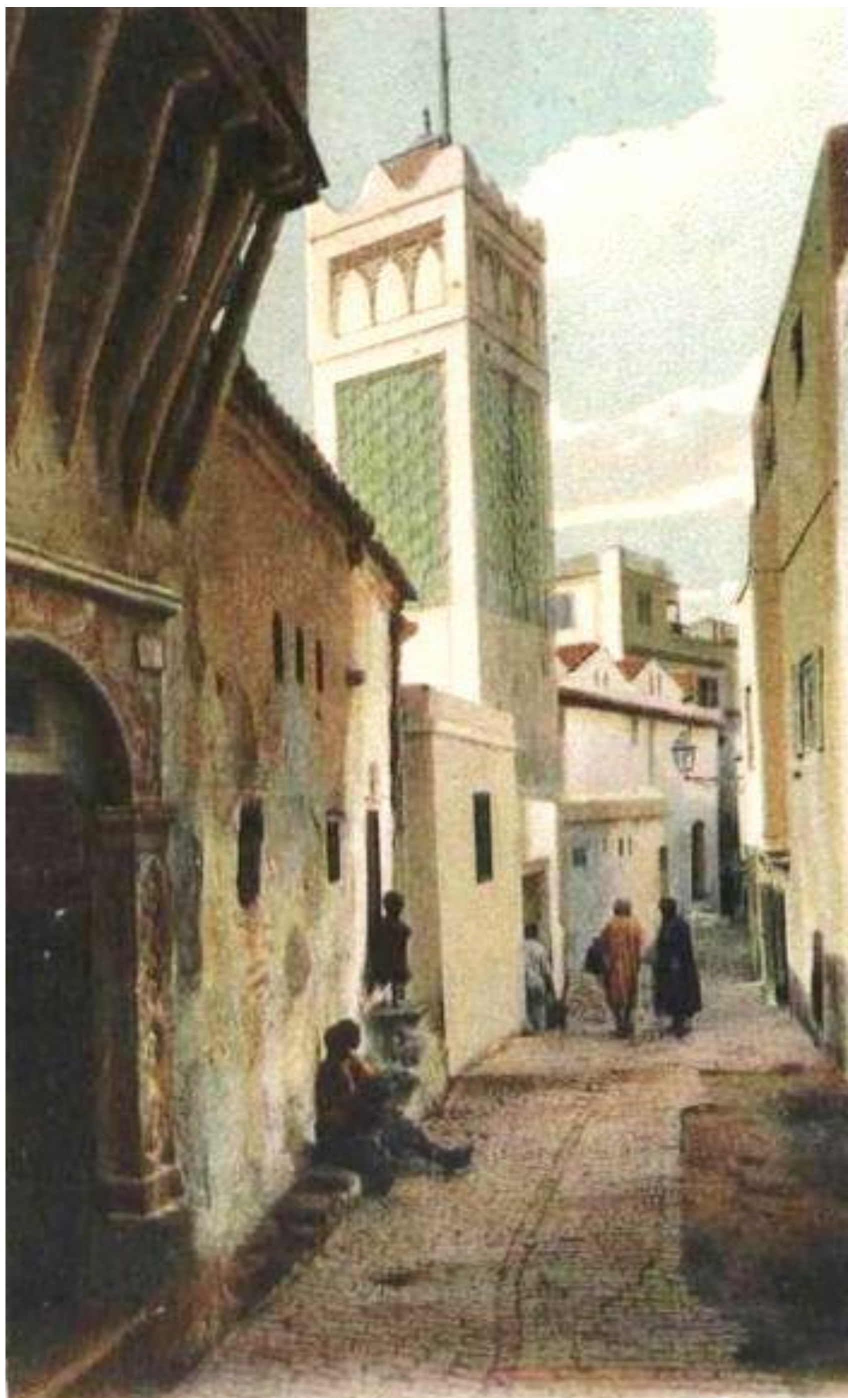
مارس 1950م...القوات الاستعمارية الفرنسية تكتشف وجود المنظمة الخاصة، الجناح الشبه العسكري لحزب الشعب الجزائري / حركة الانتصار للحريات الديمقراطية، التي كُلفت بتحضير العمل المسلح من أجل الكفاح التحرري الوطني.
في شهر أفريل 1950م بادرت قيادة الحزب بإحصاء بعض المحلات التجارية أو السكنات الصالحة للاستعمال كملاجئ للعناصر التي نجت من اعتقالات الشرطة الاستعمارية، فوقع اختيار محمد بوضياف، المدعو "الطبيب الوطني"، على محل بشارع بربروس، رقم 06، بالقصبة العليا، بحي سيدي رمضان بمدينة الجزائر كان ملكا للسيد كشيدة عيسى، الخياط، ومناضل في الحزب داخل المنظمة السرية.
يتكون هذا المخبأ المحدود المساحة، من محل وورشة خياطة ويتوفر على منفذين، أحدهما يطل على شارع بربروس والآخر على شارع كاتاروجيل (قطع الرجل) مما يوفر هامشا أمنيا هاما في حالة تَدَخُّلِ الشرطة.

كَلَّف الحزب محمد بوضياف بصفته عضوا في هيئة أركان المنظمة الخاصة، بعد نجاته من حملة الاعتقالات في شهر مارس 1950م، بالتكفل بأمر "غير النظاميين" أي المبحوث عنهم من طرف الشرطة الفرنسية الذين كانوا مُشَتَّتين عبر التراب الوطني.
فكانت بالتالي تحضيرات تفجير حرب التحرير الوطني قد قطعت أشواطا بعيدة في شهر جوان 1954م إثر تأسيس اللجنة الثورية للوحدة والعمل، وكان من الضروري لمحمد بوضياف أن يتوفر على أجواء آمنة ومطمئنة كي يفكر في هدوء في استراتيجية سياسية وعسكرية.
فطلب من المناضل عيسى كشيدة صاحب المحل أن يتخلى له عنه بصفة كلية لهذا الغرض، واستجاب له هذا الأخير بامتنان، وأصبح محله إثر ذلك مقرا لمحمد بوضياف، ومركز القيادة العامة للثورة. ومنذ هذا التاريخ وحتى بعد اندلاع الكفاح المسلح، تحول المقر إلى مركز عبور وملتقى لمسؤولي جبهة التحرير الوطني.
كما احتضن اجتماعات القادة الوطنيين الخمسة: بوضياف، بن بولعيد، بن مهيدي، ديدوش، وبيطاط الذين التحق بهم فيما بعد كريم بلقاسم.
في رقم 06 من شارع بربروس وضعت هذه النواة الثورية آخر اللمسات على عملية تفجير الكفاح المسلح في نوفمبر 1954م، أما آخر خطوة في هذا المسار فقد تقررت يوم 23 أكتوبر 1954م في مسكن مناضل قديم هو الفقيد مراد بوكشورة في رقم 24 من شارع بشير بديدي بحي الكونت فيو بـ:لابوانت بيسكاد سابقا، الرايس حميدو حاليا.
في 1956م دمر جيش الاحتلال الفرنسي بالمتفجرات أول مقر لقيادة الثورة الجزائرية، ولم يبق من ورشة الخياطة سوى أكوام من الحجارة وسط ساحة الحي.
محركو حرب التحرير الذين اختبئوا أو مَرُّوا من رقم 06 شارع بربروس هم: محمد بوضياف، محمد العربي بن مهيدي، مراد ديدوش، رابح بيطاط، عبد السلام حباشي، محمد مشاطي، عبد الرحمن غراس، بوجمعة سويداني، محمد بن مقدم، محمد خيضر، رمضان بن عبد المالك وعبد الحفيظ بوالصوف. يضاف إلى هذه القائمة ثلاثة عناصر لم يكونوا محل بحث من طرف الشرطة الاستعمارية في ذلك الوقت، أي في 1950م وهم: مصطفى بن بولعيد، سعيد بوعلي، و سليمان ملاح.
دمّر الاحتلال هذا المقر السري ومات من مات من رجال هذا البلد، لكن الثورة بقيت والشعلة استمرت والحرية انتصرت.. وعاد حي سيدي رمضان إلى أهله ليطل من عليائه بمتعة واطمئنان على البحر والمرسى والسفن والصيادين كما كان يفعل قبل 5 قرون عندما سكنه الأندلسيون لموقعه الإسترتيجي الذي يُمَكِّن من استكشاف مبكر لطلائع الغزاة الصليبيين...

حومة سيدي رمضان في أعالي مدينة الجزائر العتيقة، "القصبة"، وهي تحمل اسم الجامع الذي أعطاها هويتها وهو جامع سيدي رمضان ذو الهندسة المعمارية الأندلسية المغاربية الذي لا يُعرَف تاريخ بنائه، لكنه سابق للعهد العثماني. الصورة هنا، تعود إلى العقود الاولى للاحتلال الفرنسي للجزائر، أي إلى القرن 19م.



جامع سيدي رمضان والعين التي تحمل الاسم ذاته في حومة سيدي رمضان خلال القرن 19م وبداية القرن 20م.



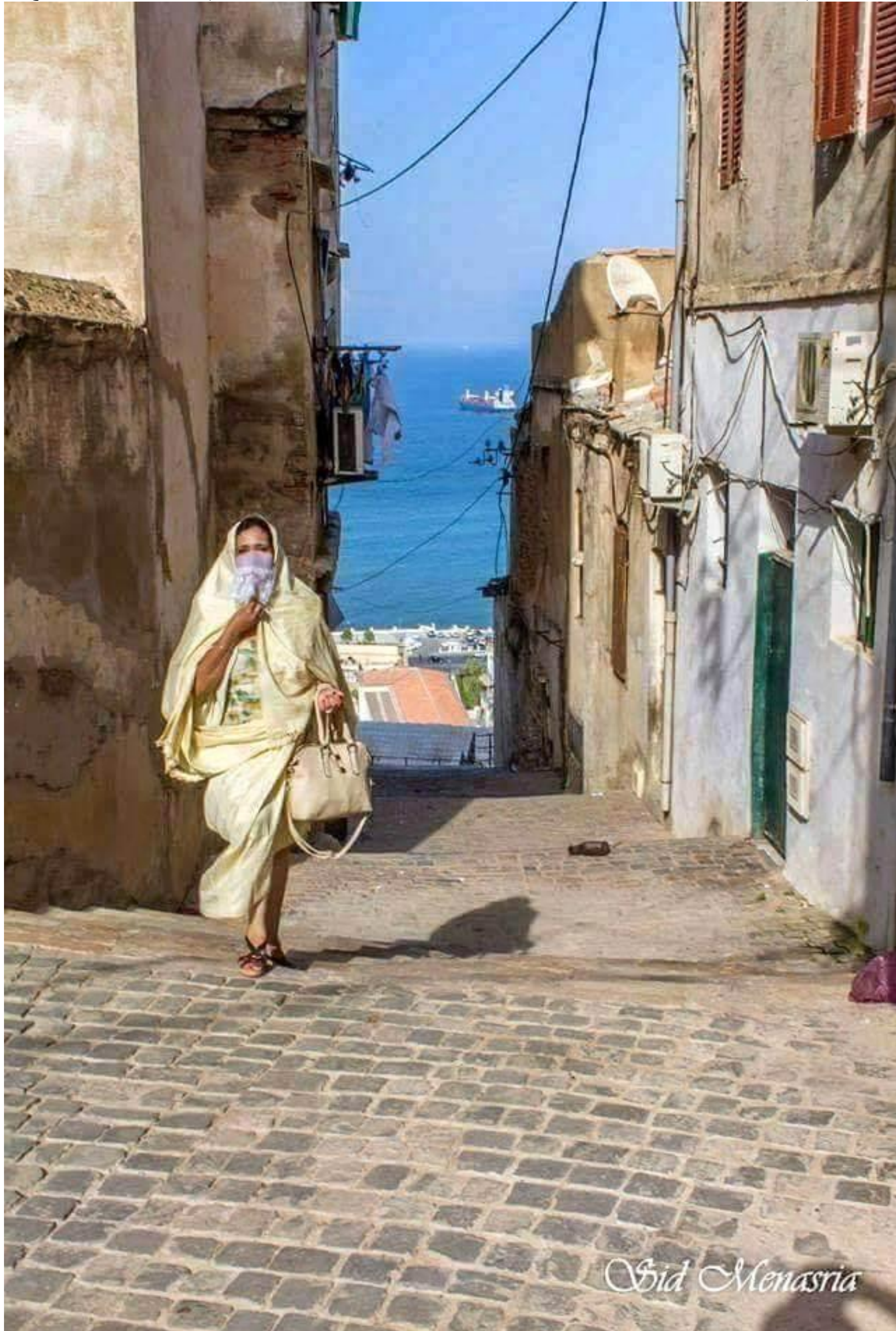
جامع وعين سيدي رمضان حاليا



جامع وعين سيدي رمضان حاليا



حومة سيدي رمضان، أو ما تَبَقَّى منها، مُطلةً على المدينة العتيقة وشاطئ باب الوادي وشاهدة على التاريخ.



محمد بوضياف في صورة تذكارية مع القادة الستة التاريخيين الذين قرروا تفجير الثورة التحريرية في 1 نوفمبر 1954م. الصورة سبقت اندلاع الثورة ببضعة أيام



محمد بوضياف خلال اللتحقيق مع أجهزة الأمن الاستعمارية الفرنسية بعد القبض عليه وعلى قادة آخرين في عملية حويل طائرتهم في الجو بعد إقلاعها من المغرب حيث كان في توديعهم الملك الحسن الثاني.



ذذذذ

غداة استقلال الجوائر: محمد بوضياف، أو سي الطيب، متحدثا إلى فرحات عباس وعلى يساره الرئيس آنذاك أحمد بن بلة.



محمد بوضياف رئيس الدولة الجزائرية في يناير 1992م مبتسما بفرحة العودة إلى بلاده بعد منفًى دام عقودا. بعد 6 أشهر تم اغتياله وهو يلقي خطابا في مدينة عنَّابة في ظروف ما زالت الكثير من حيثياتها غامضة.



حي باب الوادي... مذكرات باب ووَادِي

كما تُصَابُ باريس بالزُّكام إذا هبَّ البردُ على جادتيْ بَارْبَاسْ(Boulevard Barbès) والشَّانْزِيلِيزِيهْ، وتتشنج نيويورك لاضطرابات بْرُوكْلِينْ (Brooklyn) وهَارْلَمْ (Harlem)، تحزن مدينة الجزائر أو تفرح حسب نزوات باب الوادي... والذي لم يعرف باب الوادي، لا حق له في الادعاء بمعرفة "البهجة" وله الحق فقط في أن يفهم بأنه لم يفهم أيَّ شيء...

باب ضيق ووادي بخيل، الأول زال من الوجود منذ النصف الثاني من القرن 19م والثاني أصبح طريقا سريعا (Frais-Vallon) في أعاليه، وعمرانا جميلا عند مصبه قرب قـاع السور. عندما التقيا قبل قرون في العهد العثماني إثر بناء أسوار القصبة وأبوابها، لم يكن أحد يتصور أن صداقتهما ستدوم حتى اليوم ويبقى اسماهما مقترنين ببعضهما البعض كالتوأمين حتى بعد اختفائهما من الوجود.

أرض الأموات

الباب الشمالي الشرقي لمدينة الجزائر العتيقة و"وادي المْغَاسَلْ"، الذي يصبح "وادي قُرَيْشْ" عند اقترابه من "العَيْن البَارْدَة" (La Fontaine Fraiche) و حي "مناخ فرنسا" (Climat de France) هما النواة الأولى للحيّ الجميل والكبير الذي سيحمل اسميْهما حتى اليوم.

كان باب الوادي حيا للموت فقط... فبمجرد الخروج من المدينة وعبور الخندق العميق الدفاعي المحيط بالأسوار الحصينة، كان الريف المحاذي لها، الذي يبدأ من موقع ثانوية الأمير عبد القادر الحالية، ليس أكثر من مقبرة كبيرة مترامية الأطراف تمتد في خضرة نضرة وجمال طبيعي شرقي المذاق حتى ديار بني منـــاد عند مدخل بولوغين...

جمعت أرض باب الوادي في جوفها المسلمين، اليهود والنصارى.. وخَصَّصَتْ البقعةَ التي أُنْشِأَتْ عليها الحديقة الحالية المقابلة لحي سيدي الكتّانِي لعددٍ من الدايات، جعلت الناس يطلقون عليه اسم "جَبَّانَة البَاشَوَات"، لأن هذه المقبرة الأرستقراطية الفاخرة بقبورها وقببها المرمرية كانت تضم الداي مصطفى باشا، الداي علي وبضعة أضرحة للأولياء والصالحين.

وقبل الوصول إلى هؤلاء الباشوات، كان حي قاع السور يضم مقبرة للمسيحيين، سواء كانوا قناصل وديبلوماسيين أوعبيد وأسرى، وعلى مقربة منها وُجدت مقبرة "ريباش" اليهودية، التي كان من أشهر "نزلائها" الولي اليهودي الأندلسي الأصل إسحاق برفت بار شيشت المعروف ب: ريباش، قبل ترحيل رفاته في 1896م إلى مقبرة بولوغين الحالية.

التحــولات

بعد الاحتلال، ضاقت المدينة بالسكان والعسكر الفرنسيين، وحتى الباب، باب الوادي، لم يعد يتسع لحركة المرور منذ أن عبره لأول مرة الجنرال دوبورمونت في 5 جويلية 1830م. لذلك تم توسيعه في سنة 1841م، ثم تعرض للتهديم مثله مثل المقابر التي كان الريف المقابل له عامرا بها، من أجل توسيع مدينة الجزائر، فزال من بين مازال إثرها برج الزوبية، الخندق العميق، السور العتيق، جامع "رجل الحفرة"، ملجأ العجزة و المشردين "بو الطويل"، جامع "المصلى"، ضريح سيدي سالم، زاوية سيدي عمار التنسي، جامع سيدي السعدي بأعالي حديقة "مارانغو"... وحتى ضريح سيدي يعقوب حيث مستشفى مايو الحالي.ولم يسلم من التهديم سوى ضريح وجامع سيدي عبد الرحمن الثعالبي..."الله يزيد له في الشان"...

في 1861م، استبدل ريف باب الوادي كل هذا العمران العتيق بثانوية ضخمة أطلق عليها الاستعمار اسم الجنرال بيجو (Bugeaud)، قبل أن تحوله الجزائر المستقلة إلى ثانوية الأمير عبد القادر من أجل إعادة الاعتبار لزعيمها وتنكيلا بالجنرال السفاح الذي لاحقه الأمير حتى في الساحة التي كانت تحمل اسمه وتمثاله قبل عام 1963 م بشارع العربي بن المهيدي. ومنذ بناء ثانوية الأمير، بدأ حي المقابر والأضرحة يتحول تدريجيا إلى مدينة جديدة حديثة منافسة لقصبة الجزائر في صراع مازال مستمرا حتى اليوم بين العمران الإسلامي والعمران الغربي- الإغريقي الروماني.

الحنيــن...؟

بعد 127 عاما من هذا التحول، ذكّر حي باب الوادي الجزائريين والعالم بهوايته القديمة لرائحة الموت، واحتضن مجزرة كاملة في يوم 10 أكتوبر 1988م ذهب ضحيتها مئات القتلى والجرحى، وكان هذا الحدث، رغم بؤسه، بداية لتحولات عميقة وصعبة في تاريخ الجزائر المعاصر لم تنته بعد، ولم تمهلنا كي نعرف إن كانت في صالحنا أم في صالح غيرنا... لكن ما فهمناه جيدا هو أن التحول جاء من باب الوادي...، هذا الريف الذي أصبح يفرض نزواته ووتيرة حياته على كل البلاد مثلما سيفعل مرة أخرى ذات أيام ممطرة من عام 2001م أين التهمت أمطاره وسيوله الجائعة، أمام صدمة الجميع، عددا مروعا من البشر ذهبوا ولم يعودوا أبدا إلى ذويهم وبيوتهم... رحمهم الله.

ولد حي باب الوادي شعبيا للفقراء ومتوسطي الحال وبقي كذلك حتى اليوم، وإذا حدث لبعض أبنائه أن تحسنت أحوالهم الاجتماعية وارتقوا إلى أعلى المراتب في الجاه كما في الثراء، فإنهم يسارعون إلى تركه والاتجاه نحو حيدرة أو الغولف والأبيار..، وهذه سُنَّة الحياة، لكنهم لا يتخلوا عنه عادة كرأسمال رمزي، و كَ : "بْرِيسْتيجْ"، وكمرجعية يتباهون بها أمام الزملاء... وينطبق ذلك حتى على عدد ما من الوزراء على الأقل...

النضــج

امتص باب الوادي فائض السكان الذي اكتضت به القصبة، خصوصا منذ 1890م عندما بدأ أهل "أَزَفُّونْ" يتدفقون عليها بكباشهم ودجاجهم إلى الحد الذي جعل "أوْلاَدْ البْلادْ" آنذاك يقولون أن مدينتهم "أصبحت تنبعث منها رائحة تيزي وزو"، حسب ما رواه الباحث جَانْ لوِيس بْلاَنْشْ (Jean-Louis Planche). لكن هذا الفائض الباب - الوادي لم

يتعدَّ الطبقة الكادحة الاستعمارية من إسبانيين ومالطيين ويهود نزحوا من القصبة العليا ثم الوسطى في حين رحل الميسورون، بِمَنْ فيهم "الأهالي" إلى القبة وحيدرة وبولوغين. ثم دخلها "البيكو" منذ الثلاثينات، وأصبحت مدينة في مدينة تضم مبانيها الأوربية 30000 ساكناً بمصانعها وتجارتها وملعبها وشواطئها ومقبرتها وحتى قاعات السينما الخاصة بها. وتشكلت في خضم هذه الحركية الجديدة معالم حياة جديدة على رفاة أموات العهد العثماني، لها هويتها "الباب - الوادية" التي لا تزال بعض أنقاضها ماثلة حتى اليوم في بعض سكانها الذين عاصروا الفترة الاستعمارية.
هذه الهوية المتسمة بخفة الروح، الحيوية الصاخبة، حب اللهو والمرح والرياضة...المُغَلَّفَة جميعا بشدة البأس والعنفوان، "الرجلة " العاصمية، الموروثة عن بحريتنا و رياسها والقيم العسكرية- الجهادية في العهد العثماني...، جعلت باب الوادي يسهر إلى ساعات متأخرة من الليل ابتداء من الساعة التاسعة عندما كان شارع ميشلي (ديدوش مراد) يغط في نومه... ومازال هذا الفارق في الحيوية الليلية بين الحيين قائما حتى اليوم. لكن خلف مصابيح محلات وحانات وملاهي شارع باب الوادي الرئيسية، كان يختفي فقر المالطيين والإيطاليين والإسبان بـ: "البَازِيطَـة" (La Bassetta) و"الكانْتِيرَة" (La Canterra)... أما فقر الأقلية من "البيكو" التي كانت تجاورهم فكان تحت مستوى الفقر وخارج التاريخ آنذاك.
باب الوادي الجَبَّانات حوّلته الأقدام "السوداء" إلى شواطئ سياحية جميلة تتقاسمها مختلف الطبقات والشرائح الثقافية - الاجتماعية التي طغى عليها العنصر الإسباني، لكن في إطار سياسة "الحرم يا رسول الله"، بحيث لم يكن في أعراف المصطافين أن تتعرى النساء أمام الرجال للاستحمام في مياه البحر، لذلك اكتفين حتى وقت متأخر بمرافقة رجال العائلة وأبنائها وتحضير "القَسْوِيلَة" (La Cazuella) ومختلف الوجبات الخفيفة بالتْشَكْتْشُوكَة والمَرْقَازْ (أي المِرْقاصْ كما هي تسميته العربية الأصيلة) تحت المظلات الشمسية. وأدى التقاسم الاجتماعي - الطبقي لساحل باب الوادي الكبير إلى تجمع الطلبة والمثقفين والرياضيين وأهل "الحطـَّاتْ" و"التّْبَقاَصْ" في شاطئ نيلسون (Bains Nelson) قرب المُركَّب السياحي الكتَّاني، والموظفين والإداريين في شاطئ "باطوفاني" (Padovani). وخصصت شواطئ أخرى للشرائح الشعبية لتنال حقها من الشمس وزرقة البحر... ربما لأن الناس كانوا في ذلك الوقت أكثر إيمانا منا بأن "البحرْ تاعْ رَبّي" وليس "تاعْ شِي ناسْ" فقط.
لكن هذه الروح الخفيفة الحيوية التي ميزت باب الوادي لم تُنْسِه طبائعه العتيقة. إذ كان مسرحا لاشتباكات دامية أثناء الثورة التحريرية ووكرا لمنظمة الـ: OAS الإرهابية وللتطرف الاستعماري اللاإنساني الذي حصد الكثير الكثير من أرواح الجزائريين الأبرياء إلى غاية جويلية 1962م.
بعدها تحول إلى عصب رئيسي، إلى جانب القصبة، في إنتاج الثقافة الشعبية العاصمية بإيماءاتها وقواعدها ورموزها وفنونها ومخيالها...، فأعطت الممثل "مُوحْ باب الوادي" و المخرج مَرْزَاقْ عَلْوَاشْ، وعازف آلة البَانْجُو سِيدْ أَحْمَدْ النَّقِيبْ، و نَصْر الدِّين

قَالِيزْ...، وتَخَرَّجَ من ثانوياتها خَالَفْ مُحْيِ الدِّين ونَاذْيَة بن يُوسُفْ ونُور الدِّين شَنُّودْ..،وغيرهم.

سنوات الأزمة قلصت من دور باب الوادي في العاصمة، وفي الجزائر كلها، لكن الشعلة لم تنطفئ وستعود الأمور إلى نصابها بمجرد ما تستقر الأوضاع نهائيا و يسترجع الحي مافقده من جسده العمراني في السنوات الأخيرة بسبب الفياضانات الكارثية التي أعادت للأذهان المقولة الشهيرة: "باب الوادي ادّاه الوادي"...

هذا هو باب الوادي، على اليسار، الذي أعطى اسمه لكل الفحص الذي يُسمى إلى اليوم باب الوادي، وقد أصبح جزءا لا يتجزأ من مدينة الجزائر. القبة الضخمة فوق السور هي "دار النّحاس": مصنع المدافع ومختلف الأسلحة. الفرنسيون أطلقوا عليها اسم "لاَفُونْدْرِي" (La Fonderie) فالتصق بهذه البقعة حتى السبعينيات من القرن 20م



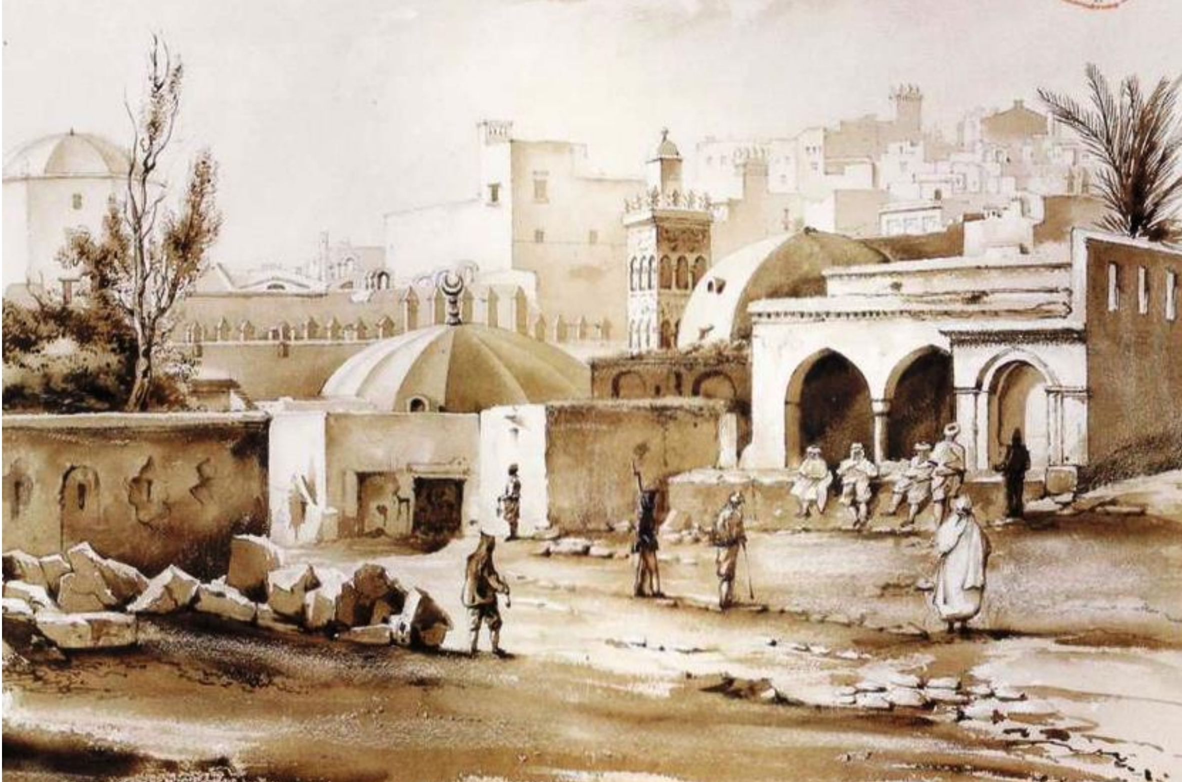
باب الوادي والسور المنحدر من "دار السلطان" وحومة سيدي رمضان، يمينا، حتى "قاع السور" فشاطئ البحر.



باب الوادي هلف الفارس الفرنسي، هنا من داخل المدينة والسور وليس من خارجه كما في الصورتين السابقتين. على اليسار، جامع "سِتِّي مَرْيم" وكان يُسمى أيضا جامع بن النِّيقْرُو المعروف أنه ينحدر من عائلة أندلسية الأصل.



باب الوادي، موقعه على اليسار، ولا يظهر في هذه الصورة المرسومة من خارج السور والتي يظهر فيها جزء من قبة "دار النحاس" خلف الشجيْرة. يمينا: "المُصلَّى"، حيث تُقام صلوات الجنائز قبل الدّفن في المقابر المحاذية، ومَحَلاَّته، والمَارْسْتَان، أيْ المستشفى، المعروف بـ: "بُو الطِّوِيلْ"، والعين المُدمَجة في جدار جامع سيدي سالم.



المُصَلَّى، وفي الخلفية فوق التّلّة ضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي ونخلته الباسقة الشهيرة



المُصَلّى و"بو الطّويل" وجامع سيدي سالم. يسارًا، المدينة وسورها. يمينا: ضريح سيدي عبد الرحمن في الخلفية



طاحونة هوائية في باب الوادي والمدينة العتيقة في الخلف. أسفلها، على الأرجح ضريح سيدي الكتاني



سور المدينة الشمالي بأبراجه منحدرا من الغرب، في الأعلى حيث حومة سيدي رمضان و"القصبة القديمة" التي تظهر ضخمة في أعلى الصورة والسور، نحو البحر مرورا بضريح سيدي عبد الرحمن المقابل له وباب الوادي في الأسفل. في هذا المنحدر انكسرت، قبل حملة شارلكان بنحو 20 عاما، هجمات كبيرة للإسبان بخسائر مفجعة أمام المقاومة الجزائرية-العثمانية. محلَّ الخندق تحت السور، بَنى الاستعمار سلالم تُعرَف بـ: "دْرُوجْ لاكْرْوَا روجْ".



أفران الجير في فحص باب الوادي على بُعد بضع مئات الأمتار من السور والباب. الصناعات الملوِّثة تُقام خارج المدينة. الرسم يعود إلى سنة 1831م.



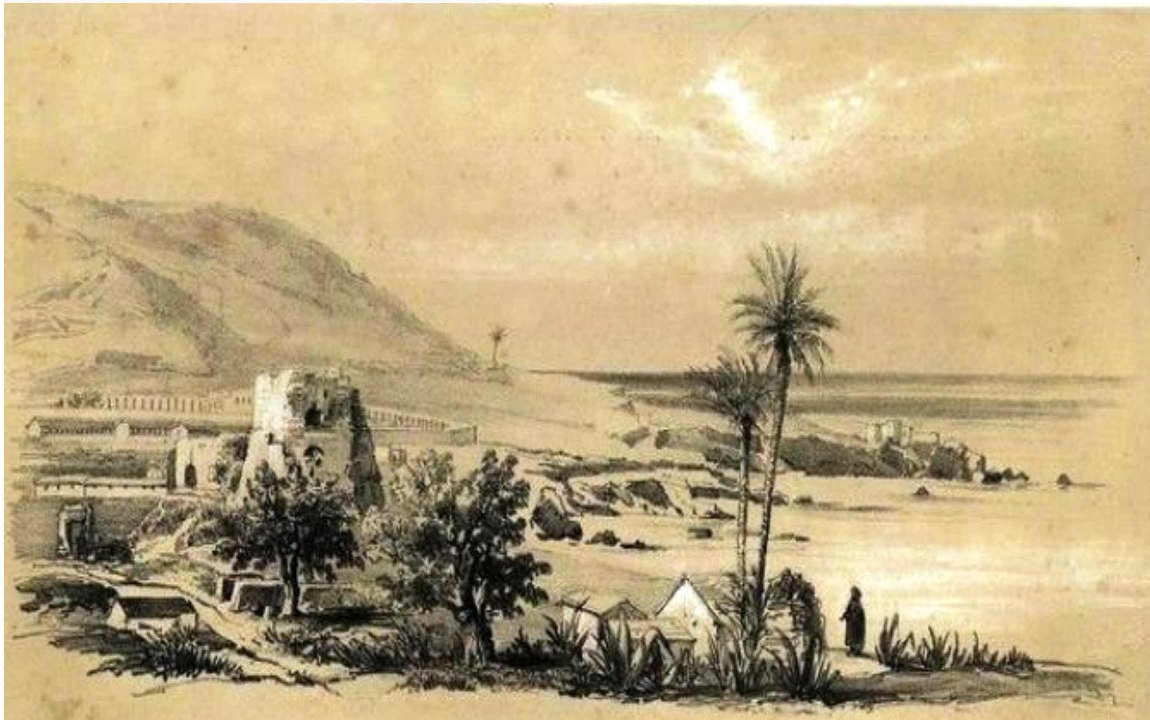
لوحة أخرى للمشهد ذاته. أفران صناعة الجير هذه كانت تقع في فحص باب الوادي، تقريبًا خلفَ ساحة وسوق نِيلْسُونْ الحالي الذي أُقيم على أنقاض أحد أهم المواقع الدفاعية عن المدينة: برج باب الوادي أو برج سِتِّي تاكْليتْ.



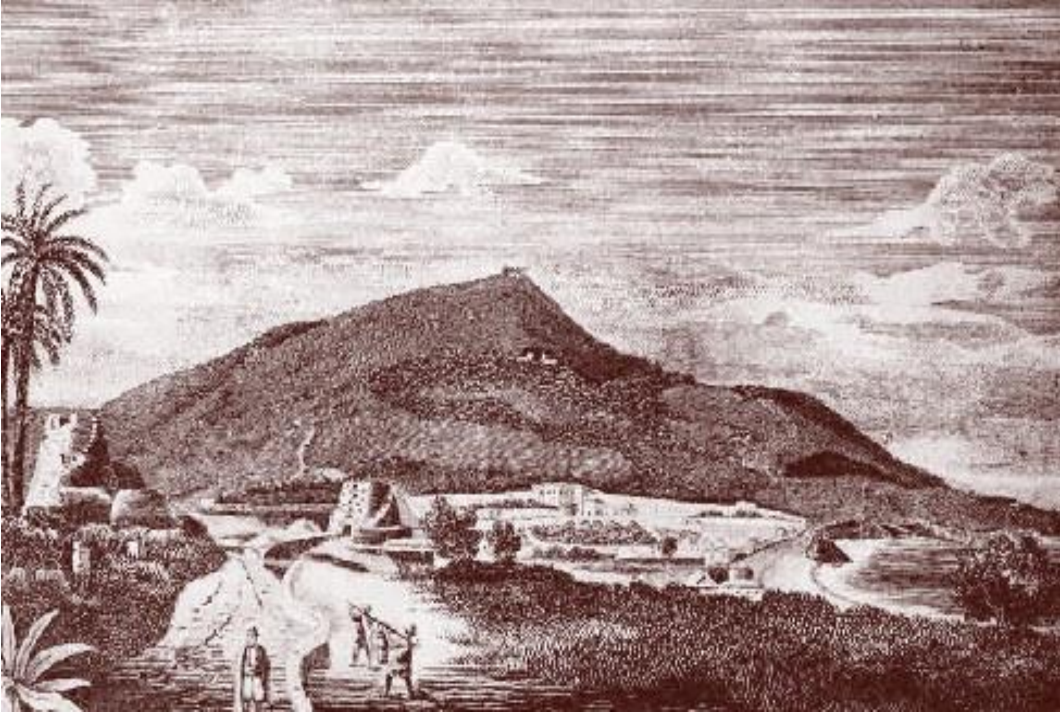
أفران الجير مطلة على شاطئ باب الوادي. في الخلف في أعلى الجبل، بنى المحتلون كنيسة سيدة إفريقيا، وما زالت موجودة إلى اليوم. الكنيسة شديدة الشبه شكلا وموقعا بكنيسة Notre Dame de Fourvière في لِيُونْ بفرنسا.



أفران الجير مطلة على شاطئ باب الوادي في الأسفل على اليمين.



الموقع ذاته في لوحة أخرى



كانت أفران الجير تقع على ساحل باب الوادي خلف برج باب الوادي الذي يظهر كبناية ضخمة بيضاء في الأسفل على اليسار. لاحظ على اليمين سور المدينة الشمالي، حيث الباب المسمَّاة باب الوادي، منحدرا نحو البحر.



منظر لفحص باب الوادي من داخل المدينة العتيقة من وراء السور حيث نشاهد ضريح سيدي عبد الرحمن والنخلة الباسقة يسارا، وبرج ستي تاكليت أو برج باب الوادي يمينًا مطلا على شاطئ باب الوادي. وراء هذا السور، بُنيتْ في بداية عشرية 1860م ثانوية بوجو (Bugeaud)، الأمير عبد القادر الجزائري منذ 1962م، بعد إزالة كل من المُصَلَّي وجامع سيدي سالم ومستشفى"بو الطويل" وضريح سيدي عمّار التنسيوالسور والخندق.



برج باب الوادي أو برج ستي تاكليت الذي بُنيت على أنقاضه ساحة وسوق نيلسون الحالييْن. ويقابله ضريح سيدي جامع الذي يقابل بدوره باب حديقة "مارانغو" الحالية، وبينهما الطريق المؤدي إلى ثانوية عقبة بن نافع وحيّ "الرُّونْفَالِي" سابقًا أو شارع لوني أرزقي حاليًا... اللوحة للفنان الفرنسي ألكسندر جيني (Alexandre Genet) أُنجِزتْ سنة 1835م - 1836م.



برج باب الوادي، برج ستي تاكليت، برج الأربع وعشرين ساعة، مقابلا البحر، وتأتي بعده طُبَّانة، أيْ بطارية، سيدي الكتاني.



برج باب الوادي، وسط الصورة قريبا من شاطئ البحر، موقعه خارج سور المدينة الظاهر في أعلى اليمين. وتليه طَبَّانة سيدي الكتاني في الأسفل على اليسار مطلة على شاطئ "بَادوفَانِي". الطَّبَّانة هي بطارية، أيْ مجموعة، من المدافع.



بعد مرور بضعة عقود على الاحتلال، المدينة العتيقة على اليسار، وعلى اليمين فحص باب الوادي لم يكن عامرًا بعد، وشاطئ "قاع السور". مياه البحر كانت تلامس السور.



فحص باب الوادي وشاطئ "قاع السور" في فترة لاحقة بدأ العمران الأوروبي خلالها يتضاعف.



شارع "لاَ لِيرْ": مِن قُبَّة سِيدي هَدِّي إلى مَعْبَدِ تِجَارَةِ الشُّنَط

شارع "لا لير" هو كل هذا الثراء..، عمران، تجارة، ثقافة، سياسة وتاريخ يمتد إلى مئات السنين، من عهد الشوارب التركية الطويلة كأجنحة الطائرات، المقوسة الأطراف إلى الأعلى، وقبة سيدي هدي..،إلى عهد "البزنس" ثم ..."البزنس"...

عهد العبادة

كان شارع (La Lyre) في 1830م حيا هادئا منسيا لا يزال بدائيا كما خلقه الله ربوةً خضراء كالجنة خَلْف الضجيج والصخب الذي كان يملأ زَنْقَةَ "القُورْنِيَة" (El-Gournia)، أي اليهود القادمون من مدينة لِيفُورْنْ الإيطالية، وزَنْقَة "السَّبْع لَوْيَاتْ" و"السُّوقْ الكْبِيرْ" الواقع أسفله بباب عزون وساحة الشهداء.. وكان يتمتع في الوقت نفسه بنكهة روحية - قداسية، لأن قلب هذا الحي كان مقرا لِقُبَّةِ وضريح أحد أتقياء وصُلاّح المدينة يُدعى سيدي هَدِّي، كان قد بناه الداي الألباني الأصل مَامِي غَرْنَاوَطْ في القرن 17م.

لم يجد سيدي هدّي مكانا لنفسه في المخططات المعمارية الجديدة التي كان يعدها المهندس المعماري الفرنسي "غِيُوشَانْ" (Guillochain)، كما كانت كل بنايات الحي التقليدية من دويرات وقصور مُطالَبَة هي الأخرى من مصالح الهندسة العسكرية الاحتلالية بإخلاء هذه البقعة لإقامة شارع أوربي "عصري".

حُوِّلت رُفات سيدي هدي بعد سنوات إلى زاوية بالية بالقصبة العليا بشارع التمور (Rue Des dattes) قرب شارع "بورْتْ نافْ"(Porte Neuve)..، أما البقعة التي احتضنته طيلة قرون فقد تم تهديمها وحرثها لإنجاز مشروع قيوشان المُعَدَّل من طرف البلدية في سنة 1855م. هكذا جاء إلى الوجود ما سيعرف بـ شارع "لالير" قبل أن يصبح شارع أحمد بوزرينة منذ 1962م، والذي بلغ عمره حاليا 152 سنة.

القلب النابض لشارع "لالير" هو سوقه الموجود في الساحة المحاذية له التي تحمل نفس الاسم، لكن في السنوات الأخيرة من القرن العشرين تحولت الساحة والشارع معا إلى سوق واحدة طويلة بعد أن بدأت الجزائر تتخلى عن الاشتراكية وتُحوِّلُ وِجْهَتَهَا نحو اقتصاد السوق..؛ الاقتصاد الذي وجد في الفوضى حليفا قويا في تجربته الجزائرية...

عهد التجارة

حَدَّدَ هذا السوق معالم ثقافة الحي بأكمله، بحيث جعلها تجارية بحتة، لكن ليس بالمعنى العِلْمِي للكلمة وإنما بالمعنى "التِّبْزْنِيسِي" لها الذي يقوم على الجَرْيِ وراء الدينار ومطاردته، كما يُطارَد تنظيم القاعدة، حيثما كان، "حيًّا أو مَيِّتًا"، حسب قاموس جورج بوش، وحتى نظيفا أو متعفنا، كريما أو بدون كرامة... فَلا مجال للحديث عن المبادئ و الأخلاقِ خلال هذه العملية التي لا تجري عادة في "مدينة فاضلة"... يحدث ذلك يوميا حول صناديق الخضر والفواكه وصناديق "البُوقَة" و"الرُّوجِي" و"السَّرْدِينْ" وخَلْف "طابْلات" الجِينْزْ والقُمَاش والمَاكِيَاجْ المستورد من فرنسا، إيطاليا وتركيا وحتى من دُبَيْ...قبل أن تقتحم الصين بكل ثقلها تجارة الحيّ في السنوات الأخيرة.

في هذا الحي الأوربي الجديد، الذي أصبح قديما منذ بضعة عقود، يعيش كوكتيل بشري من الفقراء ومتوسطي الحال وأقلية من البورجوازية الصغيرة، غير أن هذه البنية الطبقية تمر بتحولات عميقة منذ "انفتاح" الثمانينات الذي أتى بـ: "الطرابندو". كما تشهد الثروة في زحمة حركية التغيير هذه حركة متسارعة وتنتقل من فئة إلى فئة جديدة تتمثل في الشباب الذي علمه الفشل الاقتصادي للنظام كيف يتكفل بإشباع حاجياته بطرق فوضوية لكنها.. فعالة.

كانت محلات شارع "لالير" حتى مطلع السبعينات من احتكار الميزابيين مثل عائلات: دادي، حاج ناصر، حاج سليمان وبَكَلِّي وغيرهم من قدماء الحي الفعليين الذين جاوروا يهود شارع راندون (جامع اليهود) وساحة لالير مثل عائلة الطبيب دانيال تيمسيتْ أحد اليهود القلائل الذين ساندوا الثورة التحريرية وشاركوا فيها عمليا. أما اليوم بعد أن نمت ثرواتهم، توجهت استثمارات الميزابيين إلى مستويات أكثر طموحا، وتُرِكَتْ هذه المحلات للقبائليين بصفة عامة، في حين تجمع الجْواجْلة داخل السوق حول الخضر والفواكه و"حْوايَجْ فْرَنْسَا" كما يقال، التي تعتمد على تجارة الشنط والتي ستمتد حتى إلى الحاويات منذ بضعة سنوات . وقد أعطى نمو النشاط التجاري لهذا الحي منذ "الانفتاح" أبعادا دولية، بحيث ربط أقطابه علاقات وطيدة ووثيقة بمصانع القماش والألبسة والخردوات والأدوات الإلكترونية بفرنسا وإيطاليا وتركيا والمغرب الأقصى، قبل غلق الحدود، وتونس وليبيا وحتى تايوان وتايلاندا والصين... وقد أثرى من هذا التوسع التجاري للحي عشرات الشباب الذين كانوا قبل عشر سنوات يعيشون فقرا مدقعا، مما دفع بعدد من الجامعيين المقيمين في هذا الحي/السوق إلى تَوَخِّي الواقعية المُرَّة والتخلي عن الدراسة من أجل تحسين أوضاعهم الاجتماعية، لأن الزمن الحالي "زمن المال" والواقعية الرهيبة ولا مكان فيه للقيم والمُثل العليا حسب التفكير السائد الآن.

هذه الفئة الاجتماعية الحديثة الثراء التي أفرزها حي "لالير"، رغم افتقارها إلى حد الآن لطقوس ومراسيم الثروة وثقافتها بصفة عامة، قد تصبح مع ذلك في يوم من الأيام، بالاحتكاك بالأثرياء إلى مشروع طبقة بورجوازية أو حتى أرستقراطية "ذات طابع جزائري"...

وفي وسط هذا الزخم، يجد عشرات الزنوج الأفارقة، المقيمين بساحة بور سعيد بطريقة غير شرعية، السبيل إلى "تصوير" خبزتهم، كما يُقال، ببيع بعض التوابل والعطور التي جاءوا بها من أسواق "قاو" "تومبوكتو" و"نواقشط" ...في نفس الوقت الذي بدأوا ينسجون فيه بعض الشبكات الأولية للدعارة بواسطة الماليات والنيجريات القادمات معهم.

تتعايش بشارع "لالير" المعتقدات والمذاهب والإيديولوجيات والأزياء منذ تأسيسه، فقد كان قبل 1962م مفترق طرق الأديان الثلاثة والجاليات المسلمة، اليهودية والأوربية وحتى بعض الغجر.

الرحيل الجماهيري لغير المسلمين في 1962م لم يُؤثر كثيرا على تَفَتُّحِ هذا الحَيِّ وقُدْرَتِهِ على استيعاب الاختلاف والتباين، إذ تختلط هنا القندورة وسروال اللوبية والشَّاش والعَرّاقية والجِينْزْ الأمريكي و"الكَاسْكِيطَة" و"السُّنِيكْسَة" وغيرها اختلاطا عجيبا متكاملا ومنسجما لا مكان فيه لـ: "صراع الحضارات". كما قد تلتقي هذه الأزياء المتباينة بصفة راديكالية ضمن شخص واحد في كوكْتِيلٍ هِنْدَامِيٍ يعكس التخضرم الذهني والثقافي لأهل الحي وللمؤثرات الثقافية التي تهب يوميا عليهم.

في هذا الحي تعايشتْ أيضا "لحية" "الأفغان" والهجرة والتكفير مع تسريحة أَلْفِيسْ بْرِيسْلِي أو كَارْلْ لِويسْ، ونحافة قلب الدين حكمتيار وزُهْد شاه مسعود مع ضخامة سيلْفَسْتَرْ سْتالونْ وشْوارْزْنِّيغَرْ وتُقَى المؤمن مع "تْشَيْطِينْ" "الشَّرَّايْ" و"الزُّطُولُو" وعنجهية "الهُوزِّي"، وامتزجت أقصى أشكال الاحتشام والحياء بأقصى مظاهر التبرج، وحتى أرق مظاهر الجمال بابشع مظاهر القبح و"الزّعاقة" ..كل ذلك كان ومازال بعضه يحدث تلقائيا و بعفوية العوام.

ليس شارع " لالير" في الحقيقة سوى جزائر صغيرة نموذجية بمختلف تناقضاتها واختلالاتها التي أفرزتها أثار السياسات التنموية الاشتراكية والإصلاحية معا التي جعلته بشكل أوبآخر مزبلة للحكومات المتعاقبة تُلفظ فيه قاذورات خياراتها وقرارتها. لكن في قلب هذه التناقضات يحمل أيضا ثقل تناقضات التاريخ العريق والقريب...

عهد الثقافة والكفاح الوطني

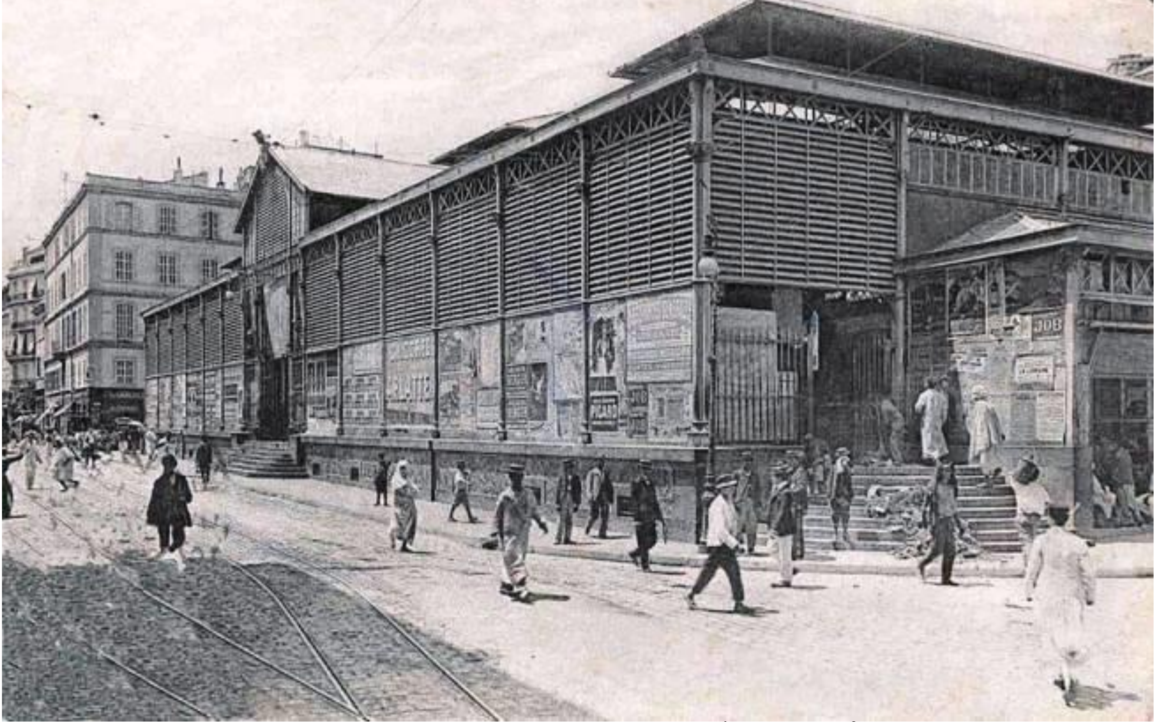
خلال الثلاثينات والأربعينات كان هذا الشارع مسرحا لأحداث حاسمة في تاريخ الجزائر وقلبا نابضا للحركة الوطنية التي غيرت مصير الجزائر. فقد شهد في جهته السفلى ميلاد جمعية العلماء المسلمين بنادي الترقي في سنة 1931م، وكان الحي الرئيسي الذي كثر تردد الطيب العقبي وعبد الحميد بن باديس ومفدي زكريا عليه مع العلم أن هذا الأخير كان يمتلك به محلا تجاريا كغيره من الميزابيين.

كما اتخذ المؤرخ أحمد توفيق المدني من أحد متاجر الشارع مكتبا شخصيا له منذ حلوله بمدينة الجزائر في 1928م حتى سنة 1956م عندما انتدبته جبهة التحرير الوطني للالتحاق بالقاهرة إلى جانب ممثلي الثورة هناك: "في ذلك المكتب، كتب توفيق المدني بحنين في السبعينيات، أَلَّفْتُ "كتاب الجزائر" " و(..) "محمد بن عثمان باشا داي الجزائر" (..) والمقالات والروايات (..) وفي ذلك المكتب بالذات كان يجتمع أسبوعيا مع رجال حزب الشعب وحزب البيان والعلماء والشيوعيين...

غير أن هذا الدور السياسي - الثقافي لـ "حومة سيدي هدي" سابقا سوف يتحول تدريجيا إلى الأحياء الأوروبية الجديدة الراقية منذ الستينات وتبقى هذه الحومة، بعد أن أفرغها الزمان من أدمغتها، مجرد سوق للأقمشة والملابس والخضر والفواكه وللشواء البروليتاري المحضر في الهواء الطلق حتى من لحم القطط والذي استمر وجود بائعيه إلى منتصف السبعينات.

عبد الحليم بن سماية المثقف الأشقر شقرة الأتراك، صاحب العيون الزرقاء الذي زاره محمد عبده في سنة 1903 عند زيارته الشهيرة للجزائر، والذي كان من الصفوة الثقافية الدينية لمدينة سيدي عبد الرحمن، أمضى آخر أيامه متنقلا عبر شارع لالير نحو ساحة الشهداء ممتطيا جواده ومتخيلا نفسه "باشا" جديدا يدعو الناس إلى الثورة ضد الاستعمار، خصوصا منذ احتفال هذا الأخير بالذكرى المئوية لاحتلال البلاد.
وعندما يئس من فعالية خطبه أقام بن سماية ذات يوم صلاة الجنازة على الناس المُلتفِّين حوله بساحة الشهداء ومات حزينا و"مختل العقل" للمصير الذي آلت إليه البلاد.
ومن بين صفوة الصفوة التي كان شارع لالير حيها المفضل وكأنه الحي اللاتيني بباريس نذكر الفنان الصحفي عمر راسم، فيكتور سْبِيلْمَانْ صديق ونصير الأمير خالد الجزائري، الموسيقار الباحث سَانْ سَانْسْ (Saint saens) وجُولْ رُوَانِي (Jules Rouanet)، يوسف بن المْرَابطْ، مَامَادْ المَانْصَالِي أحد أجداد السيدة أنيسة بومدين، محمود بن وَنّيشْ، قدور بن مراد التركي المعروف ب: الرُّودُوسِي صاحب أول مطبعة عربية حديثة في الجزائر، وعباس التركي الثريّ ورفيق درب الطيب العقبي...
وإلى نفس الشارع كانت رسائل الأمير شكيب أرسلان تتلاحق أثناء الحرب العالمية الثانية بمكتب توفيق المدني.. وبنفس الشارع أيضا تم اغتيال الشيخ كحّول إمام الجامع الكبير الذي تسبب في اتهام الإدارة للشيخ العقبي بهذه الجريمة وسجنه بسجن بربروس.
شارع لالير هو كل هذا الثراء... عمران، تجارة، ثقافة، سياسة وتاريخ يمتد إلى مئات السنين من عهد الشوارب التركية الطويلة المقوسة إلى الأعلى وقبة سيدي هدي إلى عهد "البزنس" ثم "البزنس" ثم.."البزنس"...

ساحة وسوق بُوزْرِينَة أو لاَلِيرْ في عهد الاحتلال الفرنسي للبلاد. السّوق أُقيم بمحاذاة سوق الفكّاهين، أيْ سوق الفواكه والخُضر، الموروث عن العهد العثماني. كانت هذه البقعة في العهد العثماني جزءا من الخندق الدفاعي تحت أسوار المدينة. وكان الخندق من إنجاز مهندس من اللاجئين من الأندلس إلى "المحروسة بالله".



على اليمين: شارع لالير سابقًا، شارع بُوزْرِينَة اليوم، أو الأقواس بالنسبة للكثير من سكان القصبة، وينتهي عند جامع كتشاوة المقابل لدار عزيزة وساحة الشهداء. على اليسار: شارع راندون سابقا، شارع عَمَّار علي (الشهيد علي لابْوانْتْ) اليوم، وتقابله ساحة وسوق بوزرينة. كان الشارعان مِن أول ما شَيَّده المحتلون بعد تهديم البنايات العتيقة التي كانت تُشبه ديار وقصور المدينة، "القصبة"، التي نعرف اليوم. المشروعان كانا أوّل ضربة لعمراننا.



شارع لالير/بوزرينة من جهته السفلى المحاذية لجامع كتشاوة. بعد أَقل من 100 متر من هذه النقطة، يمينا، كانت توجد زاوية الأندلس ومْسِيدْ الدَّالْيَة لتعليم أبناء الموريسكيين اللذان أُنْجِزا بعد تأسيس شركة الأندلس سنة 1623م.



قادة جمعية العلماء المسلمين. من اليمين إلى اليسار: الطيب العقبي وعبد الحميد بن باديس والبشيرالإبراهيمي



هذا مصحف "المطبعة الثعالبية" التي تُعدُّ أوَّل مطبعة في الجزائر تعمل باللغة العربية أسسها قَدُّور بن مراد التركي في ثمانينيات القرن 19م حسب حوار أجريتُه مع أحد أحفاده في المطبعة سنة 2000م. من أبرز إنجازاته طبْعُ المصحف الشريف الذي كانت كِمّياتٌ منه تُصَدَّرُ إلى دول الساحل وغرب إفريقيا كالسِّنغال، بالإضافة إلى مؤلفات تراثية على غرار "كشف الرموز في شرح العقاقير والأعشاب" لعبد الرزاق بن حمادوش الجزائري.



قرآن مجيد

لا يمسه إلا المطهرون

كتب بالخط المغربي من طرف

الخطاط الجزائري الراحل محمد السفاطي

رحمه الله

طبع بالمطبعة الثعالبية بالجزائر

لصاحبها رودوسي قدور بن مراد التركي

بنهج مصطفى اسماعيل عدد ٢ بالجزائر

طبع جديد

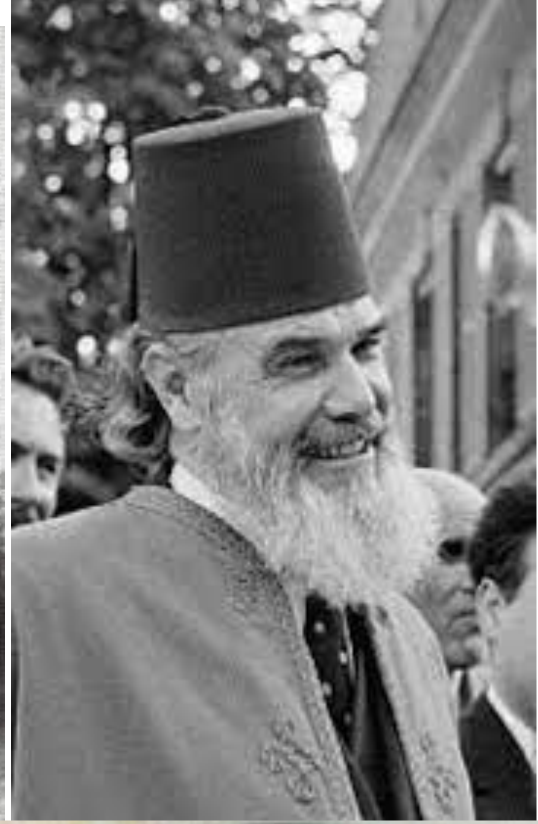
سنة ١٣٥٠

١٩٣١

على اليمين، العالم والكاتب عبد الحليم بن سماية. على اليسار، مصَالِي الحاج زعيم الحركة الوطنية الجزائرية وأول مَن طالب بالاستقلال عن فرنسا من بين الأحزاب والجمعيات التي تشكلت في بداية القرن 20م. في الأسفل، عبد الحليم بن سماية إلى جانب الشيخ محمد عبدُه عند زيارته الجزائر سنة 1903م. والفقيه الشاعر أحمد



سحنون.


فنان المُنَمْنَمَات والخَطّاط والصحفي عمر راسم الجزائري (1884م – 1959م) مؤسس جريدتيْ "الجزائر" (1908م) و"ذو الفقار" (1913م) في العاصمة الجزائرية، بالإضافة إلى إسهاماته في الصُّحُف التونسية منذ عام

1907م. وهو شقيق رَسّام المنمات المعروف دوليًا محمد راسم الجزائري. قبْرُ عمر راسم الجزائري موجود في مقبرة ضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي بـ: "القصبة".



الأمير خالد بن الهاشمي الجزائري حفيد الأمير عبد القادر الجزائري (دمشق 1875م– دمشق 1936م).



الشيخ عبد الحميد بن باديس والشاعر محمد الهادي السّنوسي والمؤرخ الكاتب أحمد توفيق المدني



الخبير الاقتصادي اللاّمع عبد الرحمن حاج ناصر المسؤول السامي برئاسة الجمهورية الجزائرية بين سنتيْ 1985م و1989م، في عهد الرئيس الأسبق الشاذلي بن جديد، والمحافظ الأسبق لبنك الجزائر، البنك المركزي الجزائري، وهو من أبناء "القصبة" الذين نشأوا بين حومَتيْ سوسطارة ولاَلِيرْ.



عند باب سوق لاَلِيرْ (على اليسار)، وقبالتها ساحة صغيرة أصبحت منذ بضعة عقود مقهًى شعبيًا يُعرَف بـ: "قهوة الزَّانْغْلْ". في عمق الصورة على الرصيف الأيمن، توجد "قهوة الجْوَاجْلَة" و، أبعد منها، الطريق المؤدي إلى شارع ذبيح الشريف حيث حومات "الكَادِيكْسْ" و"سُوسْطَارَة" و"سِيتِي بِيشْ" قبل الوصول إلى حومة الباب الجديد و"دار السلطان"، قصر الداي، والحد الغربي لـ:"القصبة".



الساحة الصغير المقابلة للسوق التي أصبحت "قهوة الزّانْغْلْ"، وفي الأعلى شارع وريدة مَدَّادْ، أو الشّجِيوْراتْ"، أو "عين محشاشة" عند كبارر السِّن وقدماء الحومة نِسبةً إلى عيْن محاذية عند مدخل المدينة/"القصبة". هنا كان يتجمَّع الحَمَّالون قبل نهاية الثمانينيات لكسب قوتهم اليومي من العمل في السوق للتجار والزبائن.



على بُعد نحو 150م من شارع لالير، توجد ساحة شارتر وسوقها الواقعة بينه وبين شارع باب عزون. في هذه البقعة، كان يوجد مقر أو نادي فريق مولودية الجزائر لكرة القدم الذي يُعد أول فريق جزائري في هذه الرياضة تأسس بين 1918م و1921م. في هذه الصورة، مكان النادي على اليمين، والصاعدون إليه هم 4 من لاعبي المولودية التاريخيين وصانعي أسطورتها خلال سنوات 1970م. اللاعبون من اليسار إلى اليمين: وعمروس الصَّادق ومُقِيدَشْ والطكتور في الطّب بَاشِي وطَاهِيرْ. خلفهما شارع باب عزون ثم الواجهة البحرية للمدينة.



سورْ سْطارَة: حَوْمَة السّْلاَوِي وحْوَانِيتْ بن رَابْحَة

في أعالي القصبة يوجد حي سورسطارة الذي يجمع كل المتناقضات والهموم، حي نال حظه من تاريخ البلاد بالأمس، وينال حظه اليوم من أزماتها المتعددة.

قبل بضعة قرون كان مجرد منحدر وعر مهجور مغطى بالأحراش خلف السور الجنوبي للقصبة، ولنَقُلْ أنه كان بالأحرى خندقا أمنيا وقائيا أسفل السور، تتجمع فيه السواقي لتصب على شاطئ باب عزون وتافورة، وتسكنه بعض البهائم الوحشية التي لم يكن ممكنا لها مجاورة الآدميين داخل أسوار المدينة. هذه هي "سور السطارة" تقريبا في العهد العثماني، وإن كان هذا الاسم قد اقترن في بدايات وجوده على تلك البقعة الجنوبية الغربية من القصبة المحاذية للسور مباشرة التي تُعرف حاليا بـ: شارع البحر الأحمر(Rue de la mer Rouge) وجزء من شارع سُونْطُورْ(Rue Centaure)... لكن حتى لا تختلط علينا الأسماء من المفيد التوضيح بأن أسماء هذه الشوارع من إنتاج جيش الجنرال دوبورمونت وإنها ليست أصْلِيَة..، في حين أن "نَاسْ زْمَانْ"، كما يُقال، كانوا يُسَمُّون هذه البقعة حَوْمَة السّْلاَوِي أوعلى الأقل شَكّلتْ جزءا منها ومن حَوْمَة حْوانيتْ بن رَابْحَة التي كانت توجد بين جامع القايد صَفَرْ وشارع البحر الأحمر... وعندما جاء الاستعمار وتهاوت تحت جَرَّاراتِه الأسوار، تَحَوَّل إلى شارع عصري ينتمي إلى المدينة الأوربية وتكثر فيه المنعرجات الخطيرة والحَادّة والبنايات الهوسْمَانِيَة (Haussmaniennes) التي كانت الموضة المعمارية الأكثر شيوعا بفرنسا في تلك السنوات الأخيرة من النصف الثاني من القرن 19م، وأصبح حيًّا قُطْبا للرياضة والعائلات الأوربية الميسورة حتى وإن كانت أصول أغلبها مالطية، إيطالية، إسبانية ويهودية. أما بعد الاستقلال فقد أصبح فضاءً للاستعراضات السياسية والاحتجاج الاسلاموي وحَيًّا للمولودية واتحاد الجزائر وللبَزْنَسَة والاغتيالات السياسية والإجرامية وتصفية مختلف الحسابات...

سورسطارة، إذن، حيٌّ جديد شهد الميلاد في مكاتب الدراسات الاحتلالية العسكرية ثم تشكل تدريجيا بسواعد محلية وفرنسية منذ النصف الثاني للقرن 19م حتى بدايات القرن 20م. لكنه وفاء منه للمدينة القديمة، رغم أنها أبقته في عهدها الذهبي مجرد منحدر متوحش للسواقي والحشرات والحيوانات المتوحشة، أصرّ على ربط اسمه بأسوارها العتيقة: "سور السطارة"، أو "السور والسطارة" حسب الشيخ عبد الرحمن الجيلالي، قبل أن يختصره الناس في "سُوسْطَارَة ". وعزف عن الأسماء الثلاثة التي "كَرَّمَتْه" بها الإدارة الاستعمارية: مونْبونْسْيِي (Montpensier)، رُوفِيغُو (Rovigo)، وقَامْبِيطَة (Gambetta)، وهي الشوارع الثلاثة التي تَفَرَّع إليها حي "سُوسْطارة"... روحٌ وطنية أم عنادٌ سياسي

في وجه المحتلين؟ أهل الحَيّ يعتقدون أنه "البُعْد الحضَاري" بِدَلِيلِ أن تعريب أسماء هذه الشوارع بعد الاستقلال على التوالي إلى أوسعدي عبد الرحمان، ذبيح شريف وأوْرِيدَة مَدّادْ، تَبَنَّاه الناس بصورة شبه تلقائية...

رواق الموت:

رغم شيخوخة سوسطارة المعمارية بعد أكثر من قرن من ميلادها، فإنها تعيش منذ الثمانينات مخاضا عسيرا وتحولات عميقة، لم تنته بعد، على مستوى الذهنيات بعد أن هبت عليها رياح جماعة الدعوة والتبليغ في السبعينيات وعواصف السلفية الثورية منذ نهاية الثمانينات التي صاحبها غزو النماذج الاستهلاكية – الثقافية الليبرالية التي روجها نظام الشاذلي بن جديد. الانحرافات الدينية والسياسية سوف تجعل من الحي ساحة معركة رهيبة للأفكار في البداية ثم للبشر مباشرة عندما اصطدمت هذه الأخيرة ببعضها البعض وفشلت في تحقيق حركة تبادل "أُوسْمُوزِي" هادئ في ما بينها أدى إلى الاحتقان. جعلها الانسداد ميدانا للحسم بالقوة، فسالت فيها دماء كثيرة منذ 1992م وقُطِعَتْ فيها الرؤوس ومُزِّقت بها الأجساد ونُكِّل فيها بالجثث... قبل ذلك بسبع سنوات احتضنت طوال أسبوع مواجهات عنيفة بين سكان القصبة وقوات حفظ الأمن بسبب أزمة الماء وقضية ترميم القصبة وتوزيع السكنات على منكوبيها، حتى اضطر الرئيس بن جديد إلى الإسراع بالعودة من الولايات المتحدة الأمريكية لتهدئة الأوضاع واستعادة الأمن الذي أخَلَّتْ به مشاكل الحياة في القصبة.

سوسطارة التسعينات هي "سراييفو" العاصمة الجزائرية، حسب القاموس الذي أفرزته الأزمة آنذاك، أو"رِوَاق الموت" الذي لم يُرْعِبْ الناس فحسب بل أصاب بالهلع حتى حركة المرور وأرهب حتى سيارات الأجرة التى تفادته طيلة سنوات وحافلات النقل الحضري التي تَخَلَّتْ عن خَطّ ساحة الشهداء - سوسطارة- شوفالي من 1994م حتى الآن.

سوسطارة التسعينات هي البركان الذي انفجرت فيه مشاكل السكن، الفقر، الإحباط، اليأس، الجهل، الانتهازية، تردي الأخلاق، تآكل القيم، مأزق عدم اكتمال التمدن، والشعوذة السياسية باسم مختلف الشرعيات طوال عشريات الاستقلال، فاحترقت بلهيب هذا البركان جميع الشرائح والطبقات وراح ضحيته المئات من الأرواح والطاقات الشبانية التي "كان يمكن استغلالها في بناء قصبة جديدة كاملة لو توفرت المهارة السياسية والنوايا الحسنة الصادقة...".

هذا هو الانطباع السائد اليوم عند سكان الحي بعد جحيم السنوات الماضية وبعد أن هدأت الأمور وعادت الطمأنينة والأمان.

1962م، الأقدام السوداء تحزم أمتعتها متوجهة إلى الميناء أو إلى مطار الدار البيضاء تاركة الحي لأهله الذين حرموا منه 132 سنة. بروليتاريا القصبة ذات الأغلبية المنحدرة من جَرْجَرَة (قبائل فْلِيسَة، أَزَفُّونْ، دَلَّسْ) ومن البْسَاكْرَة والسُّوَافَة والجْوَاجْلَة زحفت على سوسطارة، في خضم الفرحة بالاستقلال، لتستولي على العقارات/الغنائم كما حدث في جميع مدن البلاد... وباستثناء المرحومة خالتي فاطمة، الخادمة السابقة

في البيوت الكولونيالية، "مَادَامْ تَارْتِينْ" المُلقبة بـ"اليهودية" التي فارقت الحياة منذ بضعة سنوات، وبضع أشخاص إسبانيي الأصل، كان من بينهم من اعتنق الإسلام ومات أغلبهم الآن، لم يبق أيّ أثر للأقدام السوداء وثقافة حياتهم بهذا الحي التي مازالت تثير حنين بعض "البَلْدة" الذين عاشوا في وسطهم. اليوم لم يبق من أوروبيي سوسطارة الكولونيالية سوى اسمين، بدون مُسمَّى، يجهل أغلب الناس أصلهما: "النُّوغي" و"فِيسْتارْ"؛ الأول هو سِيبْرْيَانْ نُوغِي جراح أسنان في إحدى عمارات سوسطارة، والثاني اسم خباز إسباني قديم بنفس الساحة لم يتمكن خليفته وصديقه "عمي عمر" من محوه من ذاكرة الحي رغم مرور أكثر من 44 عاما على رحيله إلى فرنسا.

فوضى التَّسْيِيس

44 سنة كانت كافية لإحداث قطيعة راديكالية بين ماضي الحَوْمَة وحاضرها، لأن حومة بلا جذور تمتد بصلابة في عمق ذاكرة جماعية مشتركة هي حومة تفتقد إلى المناعة الثقافية التي تُمَكِّنها من الصمود في وجه الرياح والعواصف التي تعبرها كل يوم في مدينة ساحلية متفتحة على الجيران أكثر من تفتحها على نفسها. والمنحدر المتوحش خَلْفَ سُور القصبة الجنوبي ذي النكهة الشرقية – العثمانية، الذي تعبر منه رائحة التوابل والضُّولْمَة التركية والكسكس متسلقة الأسوار نحو "الفَحْص" وبساتينه، هو اليوم فضاء حضري مُهَجَّن بِلاَ عنوان ولا بطاقة هوية في انتظار انتهاء الاختلالات والعوارض الثانوية للتفاعل الحضاري للثقافات والتجارب التي مرَّت عليه منذ العهد العثماني. سوسطارة تبحث عن البديل الذي لم تنضج بعد معالمه الرئيسية، باستثناء بديل الإدمان على الحشيش وأخواته، بعد أن انهارت التجارب السابقة التي حَوَّلَتْه إلى مخبر للإيديولوجيات.

وبين سوسطارة التي تركها "فِيسْتَارْ" و"النُّوغِي" وسوسطارة التي عبرها الماريشال اليوغسلافي جوزيف بْرُوزْ تيتُو ببدلته البيضاء برفقة أحمد بن بلة سنة 1964م وسوسطارة السنوات اللاحقة يوجد فرق شاسع شساعة المسافة الفاصلة بين الأرض والسماء بسبب التطورات السريعة التي تمر بها، وهي في الحقيقة نموذج مصغر لما يحدث في هذا البلد... البلد الهش حتى في اسمه الذي رَكَّبَهُ من مجموعة من الجزر المتماسكة اصطناعيا بالحجارة والإسمنت...

حديقة، مقاهي وقاعة السينما

سوسطارة نهاية الستينات والسبعينات كانت أيضا حيا للرَّجْلة و"التْشُوكِيرْ"، وأَنْتَجَتْ "أبطالا" من نموذج "الضَّرْب بالمُوسْ والعيش بْلاَ فْلُوسْ"، ونُجُومًا كشفت الأزمات فيما بعد أنهم، مثل هؤلاء "الشْواكَرْ"، من ورق حتى وإن ذاعت أسماء بعضهم على المستوى الوطني...

وقد نجح هذا "الحيّ" الفخم سابقا، الذي رَسْكَلَتْهُ الرداءة، في صنع أشرار من العيار الكبير تَصَدَّرَ بعضهم صفحات الصحف الوطنية آنذاك. لكن سوف تُعَوِّضُ شخصيات شعبية أخرى هذا العيب وتُرَمِّم سُمْعَته ورصيده وكاريسماتيته التي لا نزاع حولها في جميع الأحياء الشعبية في العاصمة التي تنتسب إلى الإيديولوجية الحضرية المحلية

القائمة على ثنائية "الرَّجْلَة"/"البَلْدَة"، كما يقولون، حتى أصبح رمزا مركزيًا لهذه الثقافة الشعبية. ولا شك أن سوسطارة استفادت في ذلك من هويتها العريقة بِحُكْمِ كَوْنِها سليلة القصبة التاريخية "المحروسة بالله" ووَاجِهَتِها المُطِلَّةِ مباشرة على مدينة الجزائر الجديدة التي بناها الأوربيون..، وَلَوْ أنها قَصَّرَتْ بابتعادها شيئا ما جغرافياً عن حومة السُّلاوي وحْوَانيتْ بن رَابْحَة باتجاه الفحص خارج الأسوار...

سوسطارة المعتزة برصيدها الثوري في الستينيات، سجل التاريخ لها دعمها القوي والفعال للقضية الفلسطينية من خلال المناضل الراحل محمد بودية الذي كان الساعد الأيمن للدكتور وديع حداد وجورج حبش زعيميْ الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، والمسؤول الأول عن العمليات الفدائية الفلسطينية في أوربا من 1968م حتى اغتياله في جوان 1973م من طرف الموساد الإسرائيلي. ولم يكن هذا الشهيد إنجازها الوحيد بل مثالا فقط من بين أمثلة أخرى لا تُحصى. ومن َصعُبَ عليه التصديق فما عليه إلا أن يسأل عنها أحمد بن بلة وياسف سعدي والكوماندان عزّ الدين، و يراجع تاريخ الكولونيل أوعمران ومحمد بوضياف والعربي بن مهيدي وظروف إعداد تفجير الثورة المسلحة في صيف 1954م...

رياضة... وموسيقى

سوسطارة الاستقلال عاشت على نبض ثلاثة هياكل رئيسية: حديقة عمومية حُوِّلَتْ بفوضوية إلى ملعبٍ لكرة القدم، قاعة سينما "الجمال"، وثلاثة مقاهي تتمثل في مقهى "سي ابراهيم"، "النادي الرياضي لسوسطارة"(USS) و"نادي اتحاد العاصمة" لكرة القدم (US MA) الذي تحول منذ نهاية السبعينات إلى محل لتجارة المواد الغذائية. ثقافة الحي بمختلف أبعادها خرجت من هذه الهياكل الترفيهية - الثقافية - الرياضية. وبعد أن توقفت عن ممارسة وظائفها كما كانت، خصوصا بعد أن أغلقت السينما أبوابها في مطلع التسعينات واستولى بعض الناس على الحديقة العمومية لتحويلها إلى مقهى رديء منذ بداية الثمانينات، سقط الحي وسكانه في فراغ رهيب استرجعه بذكاء التيار الإسلامي وعَوَّضَ الهياكل المفقودة بالمساجد. مساجد برز من بينها جامعَا "سفير" و "سيدي مْحمَّد الشريف" بشكل خاص.

ومن هذه الحديقة، المقاهي، والسينما، تُضَاف إليها "زْنيقَاتْ" الحومة، تَخَرَّجَ رياضيون وفنانون كبار بلغت شهرتهم مختلف أنحاء الوطن وتجاوزته أحيانا إلى الخارج، مثل اللاعب الدولي لكرة اليد بوعانيق، وزميله شَرِّيح، وحسني، واللاعب الدولي لكرة القدم علي بن الشيخ، وبَرُّوشي حارس مرمى اتحاد العاصمة في السبعينات، وعَزُّوزْ لاعب مولودية الجزائر الدولي في نفس الفترة، وغيرهم الذين جعلوا سوسطارة ملتقى لا يمكن تفاديه لكبار الرياضيين آنذاك مثل: بطروني، باشي، مزياني، طاهير "بُوخْنُونَة" وأخويه، اللذين لا "خْنُونَة" لهما مثله، ولاَلْمَاسْ والحارس الزَّرْقَة...

كما تَخَرَّج من هذه الأجواء "الحومية" المطرب الشعبي بوعلام رحمة، وعزيوز رايس، والحاج نور الدين أوباباس، وعازف القامبار العتيق جدا القبائلي اللكنة

"الحبيب" وهو الشيخ العجوز صاحب الشوارب التركية الذي شارك إلى جانب دحمان الحراشي والباجي في تمثيل فيلم "صَحَّ دحمان" ويوسف الوَزْنَاجِي و محمود حاج علي تلميذَا جمعية "الجزائرية – الموصلية" اللذان أصبحا من أهم الوجوه الفنية والتعليمية في عالم الغناء الأندلسي في الجزائر... وهذا بغض النظر عن العدد الهائل من هواة ممارسة الموسيقى الشعبية العاصمية بحيث لا تكاد توجد عمارة بدون عازف ذي صوت "عنقاوي" و"عنقيسي" أو "زاهي"... هذه الحيوية الفنية هي التي جعلت مقاهي سوسطارة، زنيقاتها، مداخل عماراتها وسطوحها نواد ثقافية تلقائية ثرية ضمنت استمرارية تراث الشيخ السعيدي والحاج مْحَمَّد العنقاء، واستقطبت كبار مطربي الشعبي من العنقاء نفسه إلى العنقيس والزاهي وعبد القادر شاعو وعبد القادر قسوم والباجي وعليلو والشيخ الناموس وغيرهم.

سوسطارة، بقدر ما تملك من إطارات الانحراف و"التشيطين" وممثلي التيار "الرَّجْلاوِي"، أو "اللُّوَابَة" كما يُسَمَّوْن، ومن أقطاب الموسيقى والفن، تَخَرَّجَ منها أيضا جيش من الإطارات الجامعية؛ أطباء، مهندسون، رجال قانون وبياطرة وصحفيون... احتلوا المراتب الأولى في دفعاتهم بالمعاهد الجزائرية كما في الجامعات الأوروبية والأمريكية وهم اليوم عناصر محترمة حتى في مراكز البحوث والدراسات الأجنبية. كما قدمت للدولة الجزائرية وزراء ومدراء عامين أهمهم: لحسن موساوي ورَاوْرَاوَة المدير العام السابق للوكالة الوطنية للنشر والإشهار والمسؤول حاليا عن الفيدرالية الجزائرية لكرة القدم...

لكن رغم ثرائها الهدام والبناء أيضا الذي يعبر عن حيوية متوقدة وعن طاقة متميزة، ورغم إمكانياتها الحيوية التي تستند إلى الثقل التاريخي للقصبة وتسنده في نفس الوقت، تبقى سوسطارة في ظل تحولات نهاية القرن20م ومطلع القرن 21م حَيًّا لازال يبحث عن التوازن الذي فقده منذ أن انهارت أسوار مدينة سيدي عبد الرحمن واخترقته جرافات الاستعمار لتحوله إلى رهينة تتأرجح بين الشرق والغرب، بين القيم المحافظة لجزائر بني مزغنة وتلك التي تأتي بها الرياح القادمة من الضفة الأخرى للمتوسط، وبين حوانيت بن رابحة وحومة السلاوي من جهة، وشارعي رُوفيغُو وإيسْلِي من جهة أخرى...

الصورة الأولى: موقع سوسطارة الأصلي كان تقريبًا في أعلى الصورة بأقصى اليسار حيث السُّور وما وراءه شاملا شارع البحر الأحمر أو حومة السّْلاوِي وحْوَانِيتْ بن رابْحَة. سوسطارة الحالية بُنيتْ في نهاية القرن 19م وامتدَّتْ التسمية جغرافيًا لتشملها وتشمل الحومات المحاذية. الصورة الثانية: سور سُوسْطَارَة وعين مَحْشَاشَة وخلفه شارع أوريدة مدَّاد/غامبيطة. الصورة الثالثة: شارع البحر الأحمر.







الديار والقصور خَلْفَ السُّور (في اللّوحة الفنية على اليمين) في مستوى قهوة العريش منحدرا من دار السلطان المحاذية نحو سوسطارة إلى باب عزون والبحر، وهو ذاتُه السور الذي نشاهده من جهته الخارجية في الصورة أعلاه بالأسود والأبيض التي تعود إلى حوالي 1844م. هذا الجزء من السور بقي قائما حتى نهاية الثمانينيات الماضية. خلف السور، يوجد ملعب صغير لكرة القدم بُني محلَّ ما كان يُعرَف شعبيًا بـ: "الخرْبة".



لوحة فنية تعود إلى بداية القرن 20م لِشارع البحر الأحمر (rue de la mer rouge) الذي كان يدخل في العهد العثماني ضمن حَوْمَة حْوانيتْ بن رَابْحَة التي كانت تمتدُّ إلى شارع التّمور (rue des dattes). هذ الديار اليوم في حالة يُرثى لها وتكاد تنهار الكثير من بنايات "بهجة" سيدي عبد الرحمن ولا من مُغيث.



منظر جوي لما كان يُعرَف في عهد الاحتلال بـ: Tournants Rovigo (منعرجات روفيغو)، وهي اليوم شارع ذَبِّيح الشريف (أسفل الصورة على اليسار). في مركز المنعرجات تظهر أشجار الجنيْنة وساحة سوسطارة وجزء من شارع أوسعدي عبد الرحمن المؤدي إلى القصبة حيث العمران كثيف خلف البنيات الأوروبية الطابع المعماري.



منعرجات روفيغو أو شارع شهيد الثورة التحريرية ذبيح الشريف. في مركز المنعرجات نشاهد أشجار في مساحة نصف جائرية هي جُنيْنة سوسطارة ويقابلها على اليسار شارع أوسعدي عبد الرحمن وبعده الجهة الجنوبية من "القصبة". لاحظ وكأن الصف الأخير من العمارات الأوروبية من أعلاه إلى أسفله خطٌ مستقيم بشكل مُثِير للانتباه. السبب يكمن في أن هذه العمارات بُنيت على نفس خط أنقاض سور المدينة الجنوبي المنحدر من دار السلطان إلى البحر عبْر سُوسْطارة وعين مَحْشاشَة فباب عزون. في وسط الصورة بأقصى اليمين: نشاهد أشجار حديقة ساحة بور سعيد التي يقابلها "الأوبرا" في عهد الاحتلال أو "المسرح الوطني الجزائري" بعد الاستقلال، ومنذ بضع سنوات أصبح اسمُه "مسرح محيي الدين باش طَرْزِي".



منظر عام لحومة سوسطارة والجُنيْنة في بداية القرن 20م. هنا وُلِدْنا ولعبنا ودَرسنا وكبرْنا، وتعلمنا الحياة من مدرسة الحياة.



سوسطارة والجُنيْنة من الجهة المقابلة في بداية القرن 20م. الشارع على اليمين لا يتجاوز نحو 70 مترا لينتهي عند الحد الجنوبي للمدينة العتيقة "المحروسة بالله" حيث شارع البحر الأحمر في الأسفل وقهوة العريش أعلاه.



سوسطارة والجُنَيْنة بعد سنوات قليلة من التقاط الصورتيْن السابقتيْن أعلاه. خلف هذه البنايات، يمينًا، توجد على مرمى حجر "دار السُّلطان" أو قصر الدَّاي. أمَّا "القصبة"، المدينة التاريخية، ففي عمق الشارع على اليمين: شارع أوسعدي عبد الرحمن حاليًا/مونْبونْسْيِي (Montpensier) سابقا في العهد الاستعماري.



سوسطارة وشارع أوسعدي عبد الرحمن المؤدي إلى "القصبة" عبر قهوة العريش أو شارع البحر الاحمر وشارعي سونتور وميدي حيث كان ينحدر سور المدينة من دار السلطان إلى باب عزون فالبحر. في العمق مدرسة "سارْوِي" التي حوَّلها عسكر الاحتلال إلى مقر لتعذيب المجاهدين خلال "معركة الجزائر" سنة 1957م.



سوسطارة، المكان ذاته في فترة أخرى. مدرسة "سارْوي" هي آخر بناية على اليسار. بعدها تبدأ "القصبة". ومن هنا نذهب إلى جامع صَفَرْ بن عبد الله، أو "سَفِير" شعبيًا، وجامع سيدي مْحَمَّد الشريف والعيْن المحاذية له.



الجُنَيْنَة في قلب سوسطارة، كانت حديقة عمومية في عهد الاستعمار وساحة للعب المستوطنين الكرة الحديدية. بعد الاستقلال، أصبحت في الغالب حديقة للأطفال وملعبا لكرة القدم للصغار والكبار لعب فيها كبار نجوم كرة القدم الجزائرية، من بينهم لاعب مولودية الجزائر علي بن الشيخ ولاعب اتحاد الجزائر ناصر قْدِيوْرَة. أوَّل الجالسين يمينا تحت الشجرة هو الخباز "فِيسْتَارْ" (Fuster) الحقيقي وهو إسباني رحل إلى فرنسا في 1962م.



داخل الجُنيْنة قبيْل الاستقلال. الطفل من أبناء الأوروبيين، لم يكن وجود للجزائريين هنا...مكانُهم كان "القصبة" وأزقتها، وفي أفضل الأحوال ما كانوا يتجاوزون شارع أوريدة مدَّاد/"غامبيطة" (Gambetta) الواقع خلف هذه البنايات.



شارع الشهيدة أوريدة مدَّاد بعد الاستقلال/Boulevard Gambetta في عهد الاحتلال. هذه البنايات على اليسار الممتدة في خط مستقيم حلت محل سور المدينة المنحدر من دار السلطان إلى باب عزون فالبحر. وهذه الساحات التي تُعرَف بـ: "الشّْجِيوْرات" للأشجار الموجودة فيها هي تقريبًا مكان الخندق الدفاعي المتوازي مع السُّور.



الصورة الأولى لسوسطارة حيث مخبزة "فيستار" في بداية الستينيات من القرن الماضي. الصورة الثانية لشباب الحومة في منتصف السبعينيات، منهم مَن فارق الحياة ومِنهم مَن ما زال حيا يُرزق وهم اليوم في الستينيات من العمر على الأقل.





صورة لبعض سكان سوسطارة في الشارع المؤدي إلى دار الغولة وفي الخلف شارع أوسعدي عبد الرحمن بُعيْد الاستقلال، وكانت نسبة هامة منهم تقيم في "القصبة" خلال عهد الاحتلال. لم يبق من هذه المجموعة على قيد الحياة إلا واحدا منهم فقط. في خلف الصورة وراء السيارة "زْنِيقَة القُطُطْ". غالبية المستوطنين الأوروبيين رحلوا بعد 1962م، لكن بعضهم فضَّل البقاء، ومنهم مَن اعتنق الإسلام، وأبناؤهم وأحفادهم اليوم من أبناء الحومة الرَّاسخين جزائريين قلبًا وقالبًا.



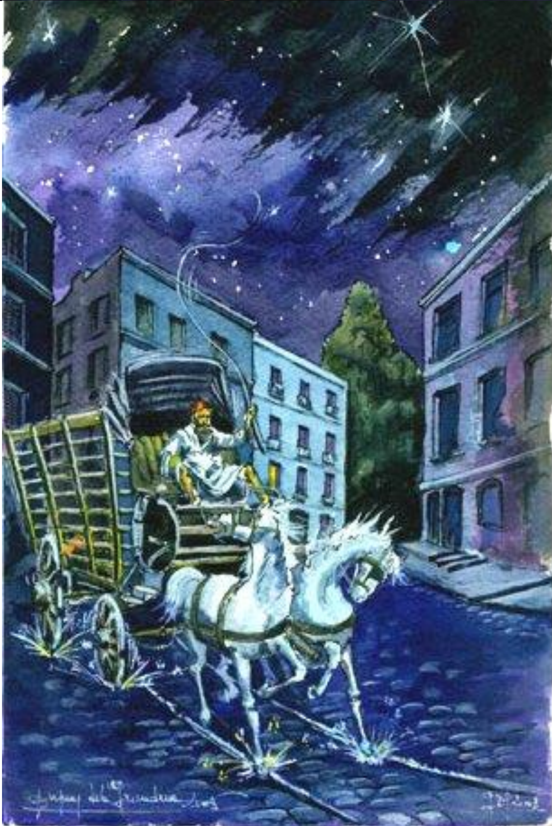
شباب سوسطارة والشّْجِيوْرات في بداية الثمانينيات احتفالا بنيل فريق اتحاد الجزائر لكرة القدم كأس الجمهورية، وأيضا في السبعينيات.





سوسطارة في بداية السبعينيات. على اليمين، حافلة النقل الحضري التي كُنّا نسمِّيها "الغُولَة" لشكلِها القبيح ووراءها الجُنيْنة. في العمق، شارع أوسعدي عبد الرحمن حيث مقهى/نادي فريق اتحاد الجزائر لكرة القدم ثم "القصبة". قبالة الحافلة، على اليسار، المقهى والنادي الرياضي الـ: USS (الاتحاد الرياضي لسوسطارة). في الأسفل بطاقة بريدية قديمة لِمنعرج يقع أعلى الجُنينة بنحو 50 مترا بمحاذاة مركز الشرطة، وصورة لخلفية سينما الجمال والمكتبة البلدية الملاصقة للجُنينة.







سوسطارة: هكذا كانت الجُنينة في السبعينيات من القرن الماضي قبل أن تصبح مقهى شعبيا في منتصف الثمانينيات. على اليمين حيث البناية المغطاة بالقرميد الأحمر، توجد سينما "الجمال" التي غنى فيها كبار الفنانين.



فريق مولودية الجزائر MCA لكرة القدم 1971/1970. الجالسون من اليمين إلى اليسار: زَنّيرْ، طاهير، باشطا، باشي وعمر بطروني. الواقفون من اليمين إلى اليسار: الحارس كاوَه، مالوفي، سي شعيب، مقيدش، الشيخ وعمروس.



سينما "الجمال" في سوسطارة. أصبحت منذ منتصف تسعينيات القرن 20م قاعة حفلات لإقامة الأعراس.



سوسطارة هي أيضا حومة الفنان المسرحي والصحفي شهيد القضية الفلسطينية محمد بودية وصديقه المجاهد الحاج محمد معروف أحد فدائيي الثورة الجزائرية الذي كان من رجال الرئيس الأسبق أحمد بن بلة. هنا باب المكتبة البلدية في سوسطارة رُسمت عليها صورة بودية قبل بضع سنوات احتفاء بذكراه بإمكانيات السكان المتواضعة بحضور أفراد من أسرته. كان بودية من أنصار فريق اتحاد الجزائر لكرة القدم **USMA**.

فريق اتحاد الجزائر لكرة القدم USMA 1979/1980. ناصر قِدِيوْرَة والمرحوم جمال كَدُّو في صف الجالسين على اليمين.



صورة لـ: "بيسْتْرُو مَارْتي" (Bistro-Marti) في منتصف الثلاثينيات وسط سوسطارة مقابلاً الجُنيْنة. سيُصبح منذ الخمسينيات "قهوة سي إبراهيم" بعد أن اشتراه هذا الأخير، حسب أحد أبنائه، من الحاج مْحمَّد العنقاء.



قهوة سي إبراهيم قبل بضع سنوات. في الصورة، صاحب المقهى نور الدين، ابن المرحوم سي إبراهيم، و"أولاد الحومة": المتحدث في الصورة هو عمرو بُودَانْ رحمه الله الذي توفي قبل بضع سنوات.



" دار الغُولـَــة"..دار الطفولة...

هي "دار" سكنها الأغوال في السنين الغابرة بين سوسطارة ودار السلطان، ورثها عنهم الأطفال الذين أقصتهم مراكز التخطيط والتنمية لِيُحَوِّلُوهَا إلى "عالم دِيزْنِيْ" الخاص بهم، ثم استولى عليها هواة البناء الفوضوي بعد أن فشل في استغلالها الوزراء والحكومات...

في السادس من شهر أكتوبر 1973م اندلعت الحرب من جديد بين العرب والدولة العبرية إثر عملية العبور الشهيرة التي قادها اللواء سعد الدين الشاذلي ومحمد أنور السادات.

حرب أكتوبر بـ: "دار الغولة"

في نفس اليوم على الساعة الخامسة بعد الظهر تجمع عشرات أطفال سوسطارة والقصبة في "دار الغولة" كي يُحاكوا ويُمثلوا بحماس فياض الحرب العربية-الإسرائيلية، حسب تصورهم. فانقسموا إلى مجموعتين خلف المتاريس تفصل بينهما مسافة حوالي عشرين مترا ليبدأ "القتال" تراشقا بالحجارة وبكل ما وقعت عليه الأيادي. تقمصت إحدى المجموعتين دور "اليهود" ولعبت الثانية دور "الفلسطينيين العرب"، ودام "القتال" أكثر من ساعتين حتى غروب الشمس، لينتهي بعدد من الجرحى على "الجبهتين" حتى وان كانت الجبهة "اليهودية" أكثر تضررا لأن الاتجاه العام لحرب أكتوبر في سيناء كان يقتضي أن ينتصر "العرب" على "الصهاينة". وكان ابن أحد بقالي الحي أكثر الجرحى تضررا ليس لأنه شارك في اللعبة من الجبهة "اليهودية" فحسب، بل لأنه لم يكن متمرنا بكفاية على فنون القتال في "دار الغولة"، ولم يتكلف عناء الإصغاء لما قاله في أمثاله الحاج محمد العنقاء آنذاك وهو يشتكي من "طْبَايَعْ الناسْ": "يَسْتْهَلْ مَنْ يَدْخُلْ البحرْ بْغيرْ رِيَّاسْ..يَسْتْهَلْ مَنْ يَطْلُبْ العْلُوّ بْلاَ سْلاَلَمْ"...

"دار الغولة" التي احتضنت هذه المعركة النموذجية وكأنها قناة السويس وصحراء سيناء بمتاريسها الرملية الإسرائيلية لم تكن في الحقيقة سوى أرضا جرداء متصاعدة من سوسطارة إلى "سيدي بيشْ"، قيل أنها كانت قاعدة لبضعة بنايات أزيلت في عهد الاحتلال، كما قيل أيضا أنها أرض عذراء لم يمسسها شَرُّ إسمنت أو "بِيطُونْ".

طيلة الستينيات والسبعينيات، عندما كانت هياكل التسلية والرياضة كماليات لا تتوفر عليها إلا بعض الأحياء "الراقية" في العاصمة، كانت "دار الغولة" بالنسبة للأطفال وبتلقائية عجيبة حديقة تسلية وداراً للشباب ومركزا ثقافيا ومركبا رياضيا في نفس الوقت، وحتى ميدانا للتزحلق على الطريقة السوسطارية التي لا تتكلف للأولياء الفقراء أيّ سنتيم من الناحية المادية. وباختصار، يمكن اعتبار هذه البقعة الخراب الواقعة تحت أسوار "دار السلطان" الفضاءَ الوحيد الذي تصالحت فيه الطفولة مع الأغوال وتعايشوا فيه مع بعض في منتهى الوئام في ظل الصداقة والانسجام...

الغولة تتنازل عن دارها لبراءة الأطفال...

من دار الغولة، التي تقول أساطير الطفولة انها كانت مسكنا لغولة كبيرة تأكل الأطفال الصغار، الذين لا يصغون لآبائهم وأمهاتهم، في الماضي السحيق، تخرجت عدة أجيال من سكان سوسطارة والقصبة.

ولا يوجد من بين الذين ولدوا قبل الثمانينات في هذه المنطقة من العاصمة من لا يملك ذكريات في هذا المَعْلَم الاجتماعي- الثقافي، بما في ذلك عدد من الإطارات السامية في الدولة الآن، وحتى بعض الضباط السامين حاليا في الجيش الوطني الشعبي...

"دار الغولة" كانت مساحة للتنزه على ما تبقى من عشبها الأخضر ولاصطياد "الكوكْسِينَالْ"، "للتْزَرْزِيحْ" (أي التزحلق) من مرتفعاتها إلى سفحها داخل "كَرْطُونْ"، الموز أو "بَسِينَة" بلاستيكية لم تعد صالحة للاستعمال في البيوت، للتراشق بالحجارة بين الأحياء في مواجهات عنيفة، ولتصفية الحسابات بالعراك الفردي أو الجماعي بين الحومات. كما كانت ميدانا للعبة "الغميضة" و"دِليفري" القريبة منها عائليا، و"لِتْشَ َبْتْشَاقْ المَرِيكَانْ" المشتقة منها في السبعينات... واسْتُعْمِلَتْ أرضية "دار الغولة" أيضا، في حالات نادرة، سَبّورةً لكتابة الأرقام والحروف باللغتين العربية والفرنسية بواسطة الطباشير بالنسبة للأطفال ذوي الطبع الهادئ والنزعة الثقافية، إذ توفرت إمكانيات شرائه أو بسرقته من الأقسام الدراسية، أو بالحجارة الجيرية...

"دار الغولة" التي احتضنت منذ بضعة سنوات مجموعة من السكنات الفوضوية كانت ملتقى حيويا لأطفال سوسطارة وفضاء لإطلاق العنان لطاقاتهم حتى في عالم الانحراف، فكثيرا ما كانوا يتلقون هناك أيضا دروسهم الأولى في التدخين أو في تذوق "الزَّطْلة"، ونادرا في الجرعات الأولى من الخمر الذي يتركه "الكيلاوة" في قارورات "الرُّوجْ" و"البيرَّة" بعد سهراتهم الليلية "الأبي- نُوَّاسِيَة".

والأجمل في كل هذه النشاطات التي كان يحتضنها "المركز الثقافي": "دار الغولة" أنها كانت منظمة بعفوية الأطفال الإبداعية حسب ترتيب زمني جوي خاضع لفصول السنة وللأحوال الجوية، بحيث كان لكل فصل لُعَبِه ونشاطاته الخاصة. وأَثَّرَ جمالُ الجو أو تهاطل الأمطار على اختيار اللعبة والنشاط الترفيهي. كما خصصت البعض من هذه اللعب للعطل المدرسية فقط مثل "البِيزَانْ" أو "لِي بُوسْ" (الكُوَيْرَات) و"الدِّينْوَايُو" أي نواة المشمش (Les noyaux) و"التْصَاوَرْ" (أي الصُّوَر) التي كان الأطفال يشترونها أو يتلقونها هدية عندما يشترون بعض أنواع "الشْوِينْغُومْ" في العهد الذي كان فيه يُباع بـ: "خمسة بدورو"... والذي للأسف لن يعود ولن يستفيد من أفضلياته أطفال اليوم...

لكن أَحَبّ التظاهرات التي كانت تنظم في "دار الغولة" إلى قلوب الأطفال آنذاك هي "الخَرْجَاتْ" مع كبش العيد وقضاء الأيام الطوال إلى جانبه قبل حلول يوم "الإعدام"، إلى درجة تبني بعضهم لبعض السلوكات الكباشية مثل تنظيم مسابقات تناطح هذه الحيوانات التي كثيرا ما كانت تنتهي بتناطح الأطفال ثم أوليائهم...

... وأزمة السكن تستولي عليها

هذه البقعة التي من المفروض أن تُحَوِّلَهَا منظمة اليونيسف إلى متحف للطفولة العاصمية المحرومة، جاءها في يوم من الأيام السيد سيد علي لبيب عندما كان "هارونًا رشيداً" على رأس وفد من وزارته (وزارة الشباب والرياضة آنذاك) لِيَعِدَ سكان الحي الذين تربوا جميعا فيها بأنه سيجعل منها مركبا رياضيا..، ثم تحول هذا المشروع الذي بقي مجرد ذبذبات صوتية صادرة عن وزير من وزراء الأزمة إلى مشروع مستوصف صحي. ثم قيل إن "دار الغولة" ستتحول إلى موقف للسيارات... لكن لم يتحقق شيء من هذه المشاريع الوهمية حتى جاء "آخرون" ليحسموا الأمر؛ ليبنوا عليها، ولا ندري بأي حق، بيوتا فوضوية بـ "البَارْبَانْ والتَّرْنِيتْ" (Parpaing et ternite)، ليحرم أطفال "الزَّوَالِيَة" حتى مما أنتجه فقرهم من إبداعات في العشريات الماضية.

لقد كانت "دار الغولة" التي افتقدت حيوية الأطفال وضجيجهم منذ سنوات دار حضانة للعائلات المتواضعة الحال بسوسطارة ومدرسة "الجوع والحْفَا" لأجيال كاملة أصبح عدد من عناصرها اليوم من صفوة الصفوة في المجتمع الجزائري... وربما كانت جديرة بأن تضع البلدية عند "دْرِيوْجاتها" إشارة: "آثار ومناظر".

"دار الغولة" هي هذه البقعة خارج السور المقابلة لجزئه الذي يبدوا منهارًا جزئيًا في هذه اللوحة الفنية التي تعود إلى نهاية القرن 19م وبدلاية القرن 20م. فهي تقريبا كانت جزءا من الخندق الدفاعي للمدينة الجزء الأعلى من السور فوق الربوة هو سور "دار السلطان" والبرج أسفله ما زال قائما إلى اليوم في حومة الباب الجديد مطلا على الخربة التي تحولت إلى ملعب صغير لكرة القدم أما الجزء المنهار من السور، في هذه اللوحة، فيقابل حومة "قهوة العريش". اوالجزء السفلي الوسطي من اللوحة فهو تقريبا شارع أوسعدي عبد الرحمن من جهة شارع أوريدة مدّاد، وقد كان جزءا من الخندق الدفاعي التحصيني للمدينة من هجمات الأعداء.



"الخربة" ودار الغولة على اليسار (لا تظهر في اللوحة) بعد إزالة السور الخارجي وبناء شارع عبد الرحمن القِينْعِي الرَّابط بين الجهة العليا لشارع وريدة مداد والجهة العليا لشارع سور ميدي (Rue du rempart Médée) من جهة عين "قهوة العريش". هذه الساحة أسفل البرج الضخم والسور هي اليوم ملعب صغير لكرة القدم. والبرج ما زال صامدا رغم الإهمال.



صورة فوتوغرافية تعود إلى أربعينيات أو خمسينيات القرن 19م يظهر في سور "القصبة" الجنوبي في جهتها العليا والخندق الدفاعي وما أصبح لاحقا دار الغولة والخربة وشارع أوريدو مدَّاد وسوسطارة. الباب الجديد موقعه تحت "دار السلطان ابتداءً من البرج الضخم المربع الشكل تقريبًا الذي ما زال قائما إلى اليوم. اللوحة: شارع البحر الأحمر خلف السور.

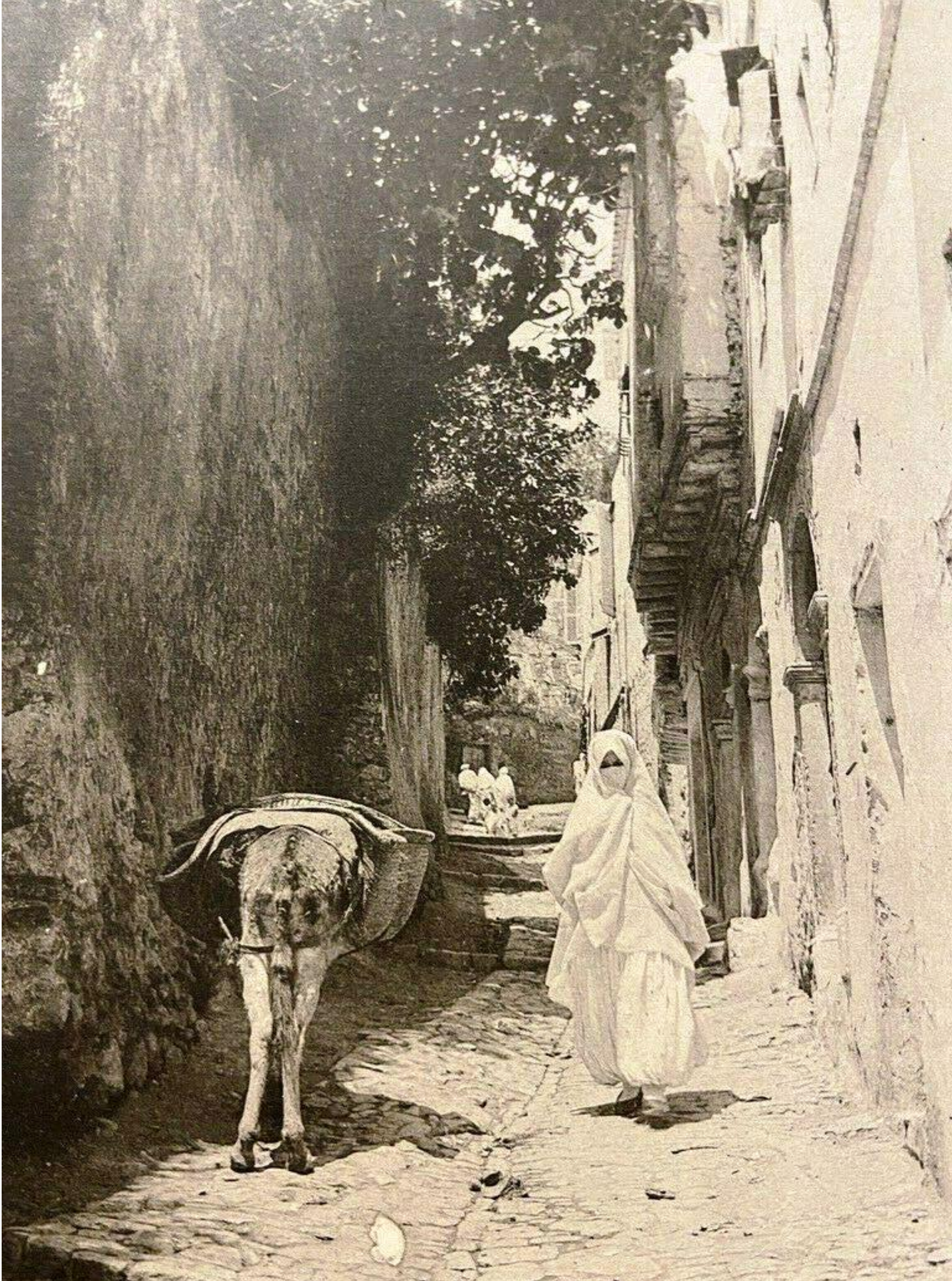




يقع هذا الشارع المنحدر من الباب الجديد باتجاه سوسطارة وعين محشاشة خلفَ السُّور الثاني الظاهر في الصورتيْن السابقتيْن تحت البرج الضخم المطل على "الخربة"، ويُعرف بِحَوْمَةِ "قهوة العْرِيشْ". وهو آخر العمران داخل "المحروسة بالله" قبل الاحتلال ثم يأتي بعده السور، كما يظهر في الصورة، فالخندق والفحص، أي الضاحية. مباشرةً بعد السور على اليمين، توجد "الخِرْبَة ثم "دار الغُولَة"، ويسارًا حوْمة "قهوة العريش" والمقهى الذي أعطى اسمه للحومة. كان هذا الشارع يُسمى في عهد الاحتلال Rue du Rempart Médée بسبب محاذاته للسور. بقي السور بهذا الشكل حتى الثمانينيات.



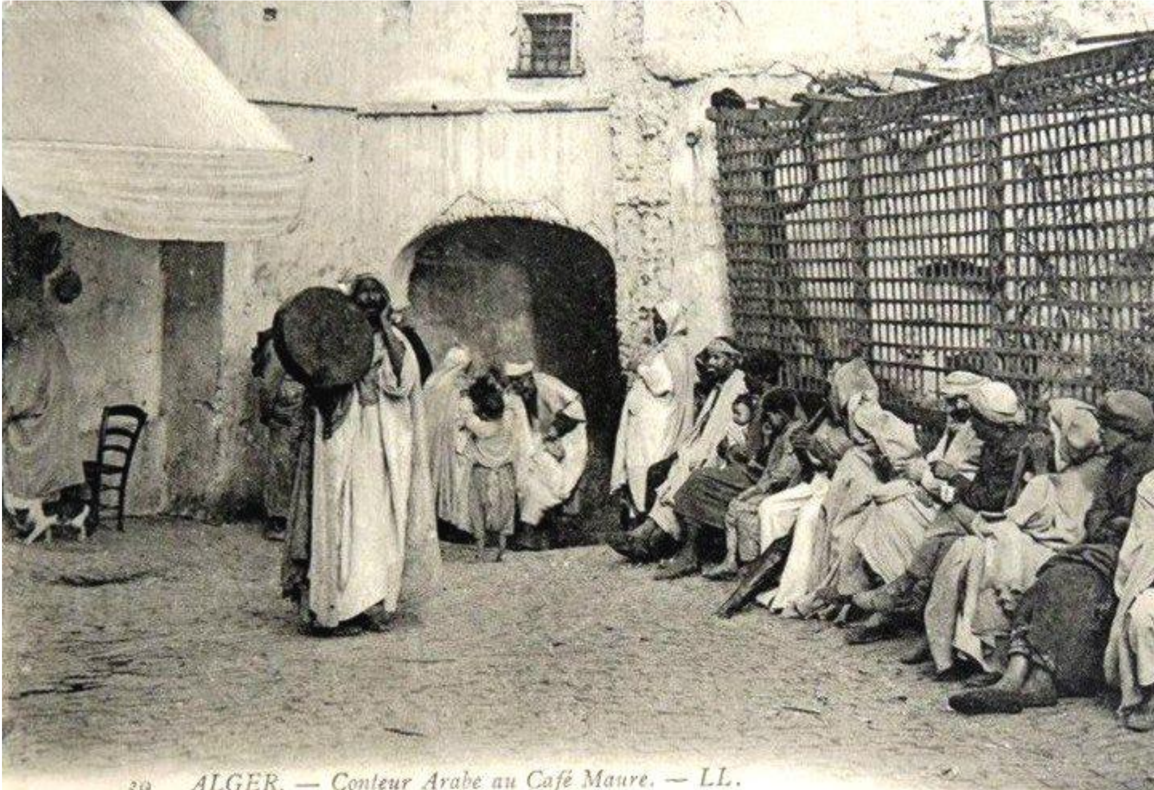
سور "المحروسة بالله" الجنوبي وشارع سُور مِيدِي (Rue du Rempart Médée)، حسب التسمية السابقة للاستقلال. يمؤدي إلى الباب الجديد صعودا وإلى باب عزون والبحر نزولا. الصورة تعود إلى نهاية القرن 19م وبداية القرن 20م.



قهوة العريش على اليسار، والحومة التي تحمل اسمها. وعبْر السَّاباط، النفق، في عمق الصورة على اليمين، يمكن الذهاب إلى جامع صفر وجامع سيدي مْحَمَّد الشريف أو إلى سوسطارة وعين محشاشة. أما الصعود يسارا فيؤدي إلى الباب الجديد. الصورة التُقِطت خلال النصف الثاني من القرن 20م.



هنا في نهاية القرن 19م وبداية القرن 20م



29 ALGER. — Conteur Arabe au Café Maure. — LL.

قهوة العريش في نهاية القرن 19م وبداية القرن 20م.



قهوة العريش في الفترة ذاتها



أعالي شارع ذبيح الشريف بعد حومة سوسطارة في صورة تعود إلى سنوات 1970م. هذه الحومة كانت تُعرَف في عهد الاحتلال، وما زالت، بـ: "سيتي بيش" (Cité Bisch). أما "دار الغولة" فهي المساحة الجرداء على اليمين بين العمارات العليا بيضاء اللون والسُّفلى. في شارع ضيق على اليسار، كانت توجد عيادة الدكتور خالدي صديق المفكر مالك بن نبي.



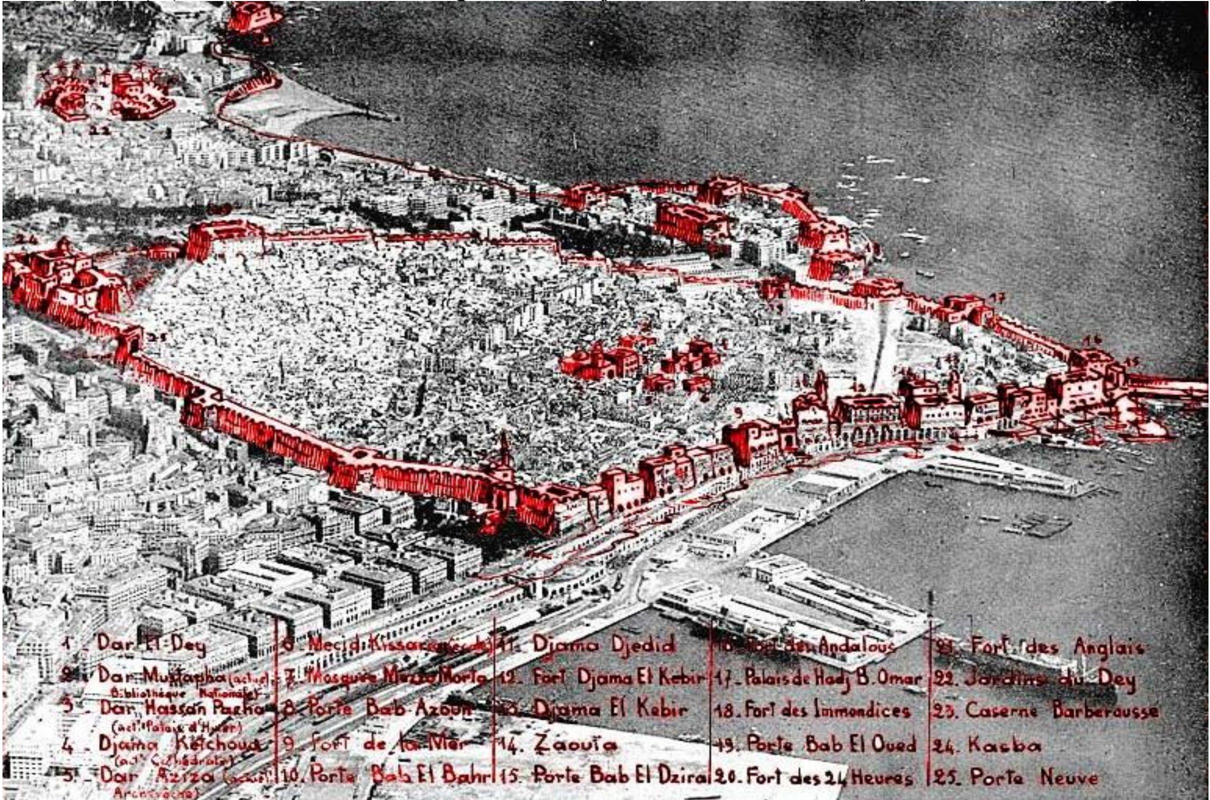
"دار الغولة" تقع خلف هذا السور. الصورة تعود إلى سنوات 1970م.



حومة الباب الجديد تبدأ من هنا، أيْ عند نهاية شارع ذبيح الشريف وبداية شارع النصر المؤدي إلى المقهى الشعبي "قهوة بوزوران" ثم سجن سركاجي أو بربروس في أعلى الشارع.



حومة "سيتي بيش" و"دار الغولة" كانتا تقعان خارج سور المدينة قبل 1830م: خلف الباب، أي الباب الجديد (رقم 25 في الصورة). أما حومة الباب الجديد فهي ما بعد الباب حيث يبدو في الصورة شارع النصر بين الباب وقصر الداي (رقم 24).



عين مَحْشَاشَة: من المهندس شَاصِيرْيُو إلى.. "مصطفى القَرْعَة"

قَامْبِيطَة هو اسم شخصية سياسية فرنسية قوية النفوذ ساهمت في صنع تاريخ فرنسا في النصف الثاني من القرن 19م، وكانت إحدى الموقعين على مرسوم كريميو الشهير الذي أصبح يهود الجزائر بمقتضاه مواطنين فرنسيين منذ 24 أكتوبر 1870م.

قامبيطة في مدينة سيدي عبد الرحمن هو اسم أحد أعرق شوارعها وأجملها، شهد النور إثر تبني مخطط شاصيريو في 1865م من طرف الإدارة الاستعمارية لتوسيع العمران حسب النماذج الباريسية الهوسمانية...

قبل 1830:

قبل الاحتلال، كان شارع قامبيطة عبارة عن منحدر وعر ينطلق من "السَّوَارَجْ" حيث دار السلطان وثكنته علي خوجة بباب الجديد ولا ينتهي إلا في أسفل باب عزون على صخور شاطئ البحر تحت ساحة بور سعيد الحالية.. وكان هذا المنحدر، الذي يعتبر إلى حد ما امتدادا لسورسطارة باتجاه "الوطأ"، يجمع بين الأحراش المتوحشة والخنادق التي كان يتراوح عمقها بين 6 و8 أمتار وعرضها بين 11,5 و14,5 مترا والتي كانت تقع خلف الأسوار الخارجية للمدينة من جهتها الجنوبية كإجراء وقائي من الهجمات العسكرية المسيحية. كما كان نفس المنحدر رافدا لسواقي صغيرة تضرب موعدا لبعضها البعض في كل فصل شتاء في هذا المكان لتواصل رحلتها مستأنسة ببعضها البعض نحو شاطئ البحر مثلما هو قدر كل السواقي والوديان والأنهار.

شارع قامبيطة الذي أصبح منذ الاستقلال يحمل اسم الشهيدة أوريدة مداد التي عذبها المظليون بمدرسة سَارْوِي، أو الإخوة زرار حاليا، حتى الموت، كان قبل 1830م الحد الطبيعي الفاصل بين الغابات والأحراش التي كانت تغطي تلال العاصمة وتخفي في أحشائها مختلف الحيوانات المفترسة التي انقرضت منذ قرن والمدينة التي أصبحت تملك في رصيدها آلاف السنين من التاريخ.

مخطط شَاصِيرْيُو المعماري حَوَّلَ هذه البقعة المتوحشة، التي احتضنتْ عدداً من معارك ومحاولات اقتحام المدينة على يد شارلكان في سنة 1541م ثم طيلة الحكم العثماني للبلاد، إلى حي أوروبي راقٍ، لم يسكنه من الأهالي سوى عدد محدود جدا مثل الدكتور قدور في الأربعينات الذي كان المسلمُ الوحيدُ من بقيةِ سكّانه الأوربيين.

السِّجِيوْرَاتْ وشواء القطط والكلاب:

وتم تصميم هذا الحي الجديد وفق 8 "طَحْطَاحَات" منحدرة نحو أسفل المدينة من نواحي الباب الجديد إلى السوق الأوروبي المعروف بـ: سوق لالير، محاطة على جانبيها تناظريا بسلسلة من أجمل دْرِيوْجَاتْ العاصمة. كما زُيِّنَتْ "الطَّحْطَاحَاتْ" الثمانية

بمجموعة من الأشجار الباسقة وحتى بنافورة عمومية في خلف إحداهن اشتهرت بـ: "عين مَحْشَاشَة" التي لم يبق منها حاليا سوى الاسم والذكرى. وقد أتت "حضارة" الريف بعد 1962م على أغلب الأشجار التي قطع بعضها بالمنشار وأحرق بعضها الآخر بالنار حتى لا تعرقل سير مباريات كرة القدم الشعبية جدا في هذه البقعة من القصبة. وقد سمح هذا التخريب، على الأقل، بفتح المجال لميلاد رياضيين من صفوة عناصر كرة القدم وكرة اليد الجزائريتين. والرجاء أن لا يُفهم هذا على أنه دعوة للاستمرار في التخريب...

إدارة الاستعمار لم تنس تخصيص إحدى أجمل البنايات التي أقيمت على جانبي الشارع من أعلاه حتى أسفله لإحدى الجمعيات التبشيرية والتي أصبحت منذ حوالي 10 سنوات مركز عبور للذين لم يسعفهم الحظ في العبور إلى أحياء سكنية جديدة بعد رحيل الآباء البيض.

شارع قامبيطة أو شارع أوريدة مداد هو أيضا "عين محشاشة" عند البعض أو "السَّجِيوْرَاتْ" عند البعض الآخر الذين جعلوا منه شارعا للتسلية بامتياز منذ نهاية الستينات، بحيث احتضن مباريات كرة القدم لمختلف الشرائح والأعمار، ودورات القمار من "البْتِي باكي" و"البُوكيرْ" إلى "الجَانْدُو" و"الرُّونْدَة" قبل أن تقضي الشرطة على هذه الآفة التي كانت متجذرة عند "حَوَّاتي" سوق لالير في بداية السبعينات في عهد "مَازِيغُو"، أحد صعاليك وسكِّيري الحيّ الأكثر شعبية، وعهد "طَابْلاَتْ" الشواء في الهواء الطلق المحضر بلحم القطط والكلاب...

وكانت عين محشاشة أيضا قاعدة لسرقة الدلاع والبطيخ و"المَنْدَرِينْ" بنفس السوق وساحة لتمثيل لعبة "أُوليمَانْ" (Hauts-les-Mains) التي انقرضت حاليا منذ أن تحولت إلى مشاهد يومية واقعية في عقد التسعينات، وكذلك للعبة التراشق بالحجارة "لأَطَاكْ" (l'attaque)، لكن بأقل حدِّة مما كان يحدث بدار الغولة بسبب طبيعة الشارع التي لا تسمح بإطلاق العنان للعنف الكامن في نفوس الأطفال وبالرماية بحرية مطلقة.

من "اللوابة" إلى علي بلحاج

لكن أهم ما ميز عين محشاشة هي استقطابها منذ نهاية الخمسينات لأصحاب الشاشية "نص راس" وأوراق النعناع المتدلية على الأذنين، وهم هوزية و"لوابة" ذلك العهد وأشدائه الذين كانوا يقدسون قيم "النيف" و"الرجلة" و"الشهامة" حتى وإن كانوا نواة الإدمان على "الزَّطْلَة" و"الزُّومْبْرِيطُو" ومختلف أنواع المُسكِرات و"المُدَوِّخَات".

عين محشاشة في ذلك الوقت كانت "المحشاشة" المفضلة لأحد كبار مطربي الشعبي المعروفين على الساحة الوطنية. لكنها عرفت كيف تُخرج من أجوائها الانحرافية أسماء وإطارات لامعة في عهد الجزائر المستقلة سوف تُغَيِّر صورتها وتُحَسِّن سمعتها، ويكفي عين محشاشة شرفا أنها أعطت كرة القدم الجزائرية أحد أكبر نجومها الأسطوريين وهو اللاعب الدولي علي بن شيخ، ودعمت الساحة الإعلامية بأحد أبرز الصحفيين وهو نور الدين خَلاَّصِي، الصحفي السابق بأسبوعية "لأَنَاسْيُونْ" ومدير سابق لإذاعة "راديو- مُونْتِي كَارْلُو" الفرنسية وحققت خلال السنة الدراسية 1999/1998 رقما

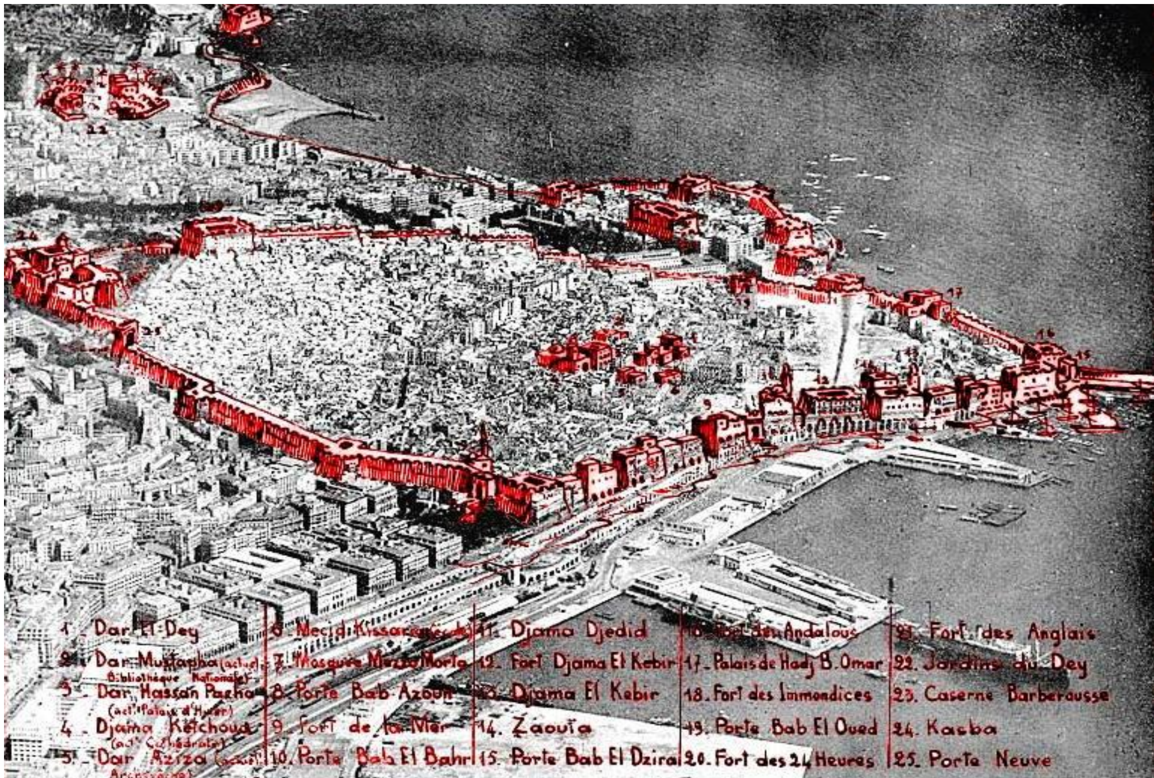
قياسيا في النجاح في شهادة التعليم الأساسي بمدرسة بن شرقي بركة (مايس سابقا) كما كانت "الحومة" المفضلة لدى الكثير من لاعبي كرة القدم بالعاصمة خلال السبعينات وبداية الثمانينات، حيث نظموا فيها مباريات ودية بقيت ذكراها راسخة في أذهان السكان حتى اليوم.
ومن عين محشاشة أيضا تخرج عدد من فناني الشعبي مثل المرحوم رابح كَاتْكَاتْ وأخيه المطرب الصاعد عمر سيلام، صاحب أَلْبُومْ "الشَّمْعَة" الذي صدر في 1999م، وكذلك عازف البانجو المعروف: بوعلام الطُّوِيلْ، وبرز منها أيضا مئات الأساتذة الجامعيين والأطباء والمهندسين الممتازين في مختلف الفروع والتخصصات... دون أن ننسى الشاعر الممتاز ياسين أُوعَابَدْ.
وقد نالت بسبب كل هذه الكفاءات والطاقات التي فشلت الدولة في استيعابها جيدا اهتمام علي بلحاج وتياره في بداية التسعينات حيث ألقى فيها إحدى خطبه الملتهبة، كعادته، في إحدى السهرات الرمضانية...
عين محشاشة هي كل هذا التنوع والتضارب والتفاعل بين مختلف السلوكات والقيم والمهن وحتى الأيديولوجيات، مما جعلها شارعا قطبا يساهم منذ أكثر من قرن في صنع ثقافة وذهنية الناس بقصبة الجزائر، مستفيدا من متعة الأجواء الطريفة التي كانت توفرها بعض "تَوَابِل" الحي بخفة الروح والحيوية والفكاهة أمثال: الشهير "تْشكِيكَنْ"، و"تَشانْتْشو"، و"مَازِيغُو" في بداية السبعينات، وكذلك مصطفى القَرْعَة وآخرون؛ منهم من مات وقضى نحبه، كما يُقال، ومنهم من لا يزال حيا يُرزَق على طريقة الحياة الجزائرية الجديدة التي تمخضت عنها عُشرية التسعينات...

لوحة مائية لـ: "الشّْجِيوْرات"، أو شارع وْريدة مَدَّاد، للفنان حبيب بوستَّة. في الحقيقة، "عين محشاشة" كانت تُطلق قبل الثمانينيات على الحومة التي وراء العمارات على اليسار، وهي جزء من "القصبة" وعمرانُها عتيق يعود إلى العهد العثماني، قبل أن تتعمم التسمية إلى "الشجيورات". هذه الأخيرة استحوذتْ تدريجيا على الاسم، أيْ "عين محشاشة"، ونسي الناس "عين محشاشة" الأصلية شيئًا فشيئا لتراجع أهميتها الاجتماعية والثقافية والاقتصادية أمام "الشجيورات" التي تتوفر على مدرستيْن وساحات للّعب وسوق بوزرينة في أسفلها المطل على الميناء والبحر.

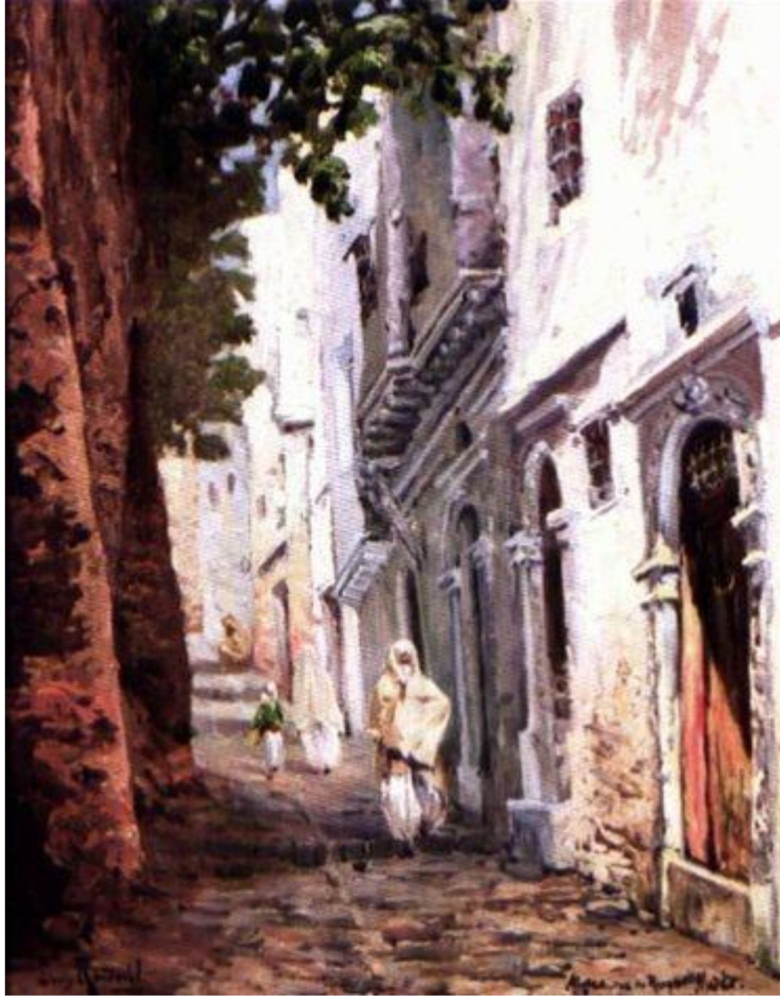


شارع وْريدة مداد، أو **"عين محشاشة"**، هو البقعة الداكنة المنحدرة في شكل خط مستقيم تقريبًا في الصورة الأولى من الأعلى يسارًا نحو وسط الصورة في الأسفل، أي نحو مسرح باش طَرزي الذي تليه حديقة بور سعيد ثم الميناء والبحر. وهي المكان الذي كان يوجد فوقه السور والخندق الدفاعي كما تُبيِّن ذلك بوضوح الصورة الثانية.
أما **"عين محشاشة"** الأصلية، المنسوبة إلى العيْن القديمة الموجودة بها، فكانت توجد مباشرة داخل السور، وعمرانُها هو أوَّل العمران المحاذي للسور والأبراج التي تتخللها.

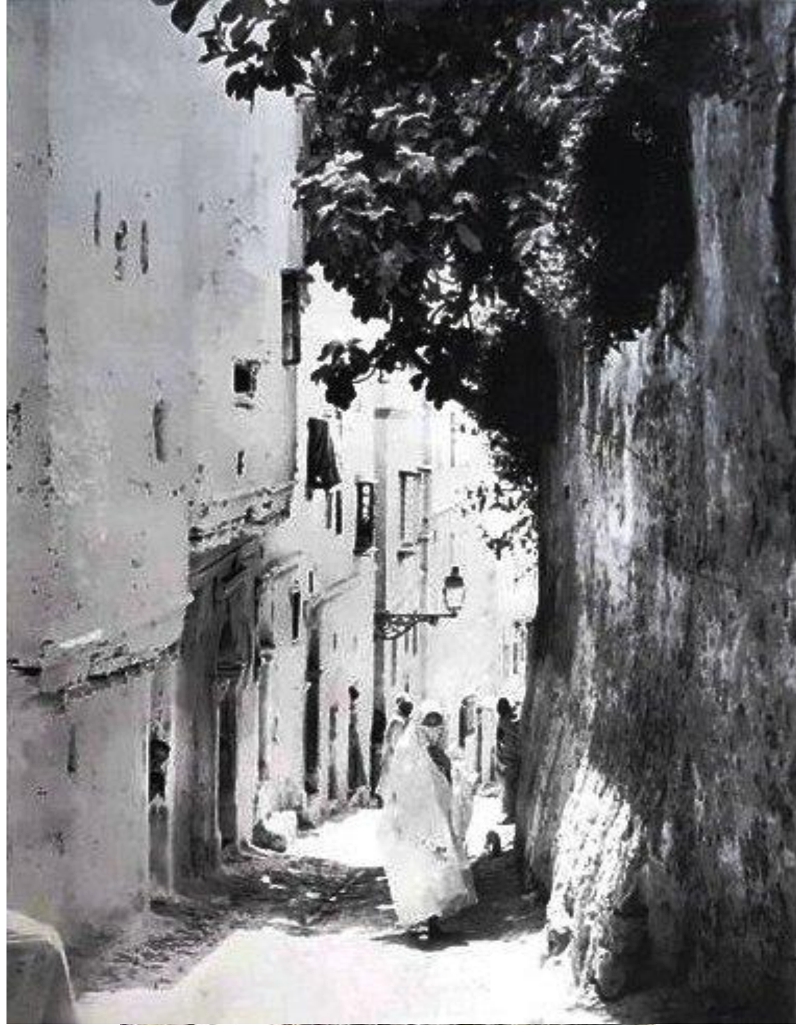




"عين محشاشة" الأصلية، نزولا من سوسطارة وقهوة العريش، قبل تهديم الأسوار. لاحظ السور، أو بقاياه، على اليسار. أما شارع وريدة مَدَّاد فقد بُنِيَ على أنقاض السُّور والخندق خارجَه. اللوحة تعود إلى العقود الاولى للاحتلال الفرنسي للجزائر. لكن من المرجح أن تسمية هذه الحومة بـ: "عين محشاشة" مستَحدَثة خلال النصف الثاني من القرن 19م أو في بدايات القرن 20م، لأننا لم نعثر لها حتى الآن على أثر في النصوص التي تعود إلى العهد العثماني بما فيها وثائق الإرشيف.



شارع سور ميدي في نهاية القرن 19م وبداية القرن 20م.





صورة تعود إلى بداية سبعينيات القرن 20م للجانب السُّفلي من شارع وريدة مداد، وفي الخلفية سوق بوزرينة المطل على ساحة بور سعيد والبحر. على اليمين، مدرسة الشهيد بن شرقي بركة الابتدائية/Mailhes قبل الاستقلال. أسفل المدرسة، كان يوجد اصطبل للخيل والحمير قبل أن يتحول إلى سوق للخردة استمر إلى غاية نهاية السبعينيات لتحل محله مدرسة للتعليم المتوسط. في هذه الساحة كنا نلعب كرة القدم، وهنا، ابتدأ اللاعب الدولي علي بن الشيخ يمارس هذه الرياضة بِحُكم أنه يسكن على بُعد خطوات من المدرسة في الجهة المقابلة لها.



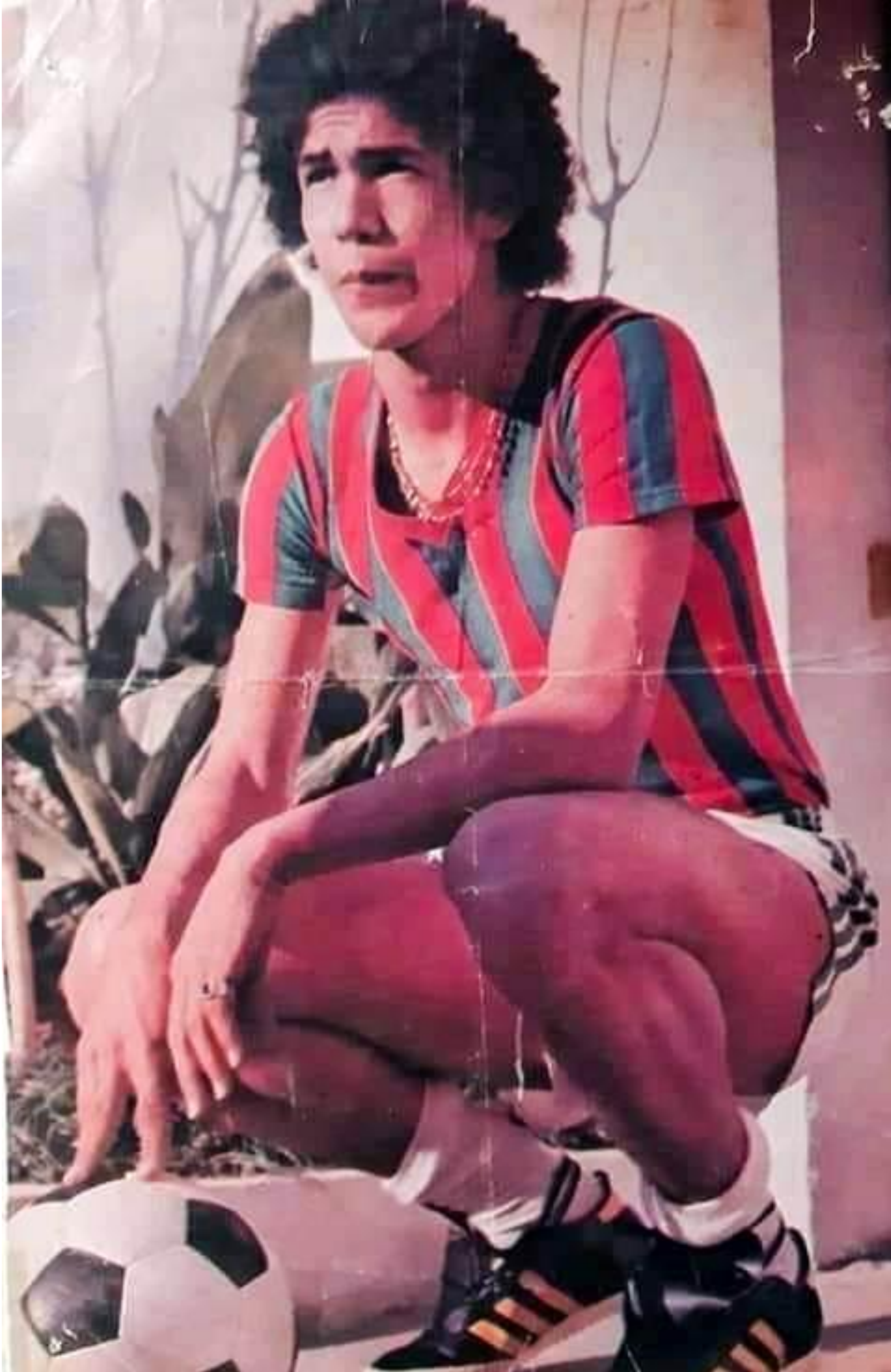
الشهيدة وْريدة مَدَّاد التي ماتت تحت التعذيب بين أيادي عسكر الاحتلال خلال سنة 1957م والتي يحمل الشارع اسمها بعدما حمل اسم السيساسي الفرنسي غامبيطة (Gambetta) منذ بنائه خلال العقود الأخيرة من القرن 19م.



ساحة من ساحات شارع وْريدة مدّاد، أو "الشجيورات" شعبيًا، اليوم. "عين محشاشة" يبدو أن الزمن قد عفا عليها، ولا تكاد الأجيال الجديدة تسمع بوجود هذه التسمية، لأن أسماء الحومات والشوارع عبْر تاريخ هذه المدينة متحرّكة وليست جامدة حيث تتغيّر بتغيُّر وظائفها الاجتماعية أو تتكيّف مع أحداث طارئة هامَّة في حياة السكان. ما زال شارع وْريدة مدّاد محتفظا بوظيفته الاجتماعية والثقافية والاقتصادية: اللعب والترفيه، المدرسة والسوق.



في الساحة أعلاه وفي غيرها من ساحات الشْجِيوْرَاتْ، شبَّ علي بن الشيخ، أو "خويَا عْلِي" كما كان يُقال في الحومة، ولعب كرة القدم ولمع قبل التحاقه بفريق مولودية الجزائر ليُصبح أحد أكبر لاعبيها التاريخيين ثم لاعبا دوليا بارزا في المنتخب الوطني الجزائري شارك في منافسات كأس العالم لسنة 1982م. كان يُلقب بـ/ "الساحر لقدراته الخارقة للعادة على المراوغات في الملعب وبفنيات عالية.



مباريات كرة القدم في الشَّجِيوْراتْ، كما في الجُنيْنة بسوسطارة، كانت عالية المستوى إلى درجة أن مسؤولي فِرَق كرة القدم في مدينة الجزائر كانوا يأتون إلى مثل هذه الأحياء الشعبية لانتقاء اللاعبين الموهوبين وهم أطفال ومراهقين لِدَمْجِهم في فِرَقهم ليصبحوا في المستقبل من كبار اللاعبين في البلاد، عدد منهم التحق بالمنتخب الوطني لتمثيل الجزائر في المنافسات الدولية ككأس إفريقيا وكأس العالم. في العمارة على اليسار، كان يسكن اللاعب علي بن الشيخ.



منظر لـ: "الشجيورات" من إحدى شرفاتها الأعلى، من "سوسطارة" تحديدا. "الشجيوْرات" معناها الشُّجيْرات. إذا كانت الشجيرات القديمة التي تعود إلى العهد الاستعماري قد زالت منذ نهاية السبعينيات تقريبا، فإن مبادرات شاب من ساكني الحومة وجهوده أعادت لهذه الأخيرة خضرتها المفقودة.



لاَبْوَانْتْ بِيسْكَادْ: من مرسى "الذبَّان" إلى "الرَّايَسْ حَمِّيدُو"

قبل 1830م، كان مركز مراقبة بحرية متقدم مجهز بالبطاريات والمدافع لرد الاعتداءات المسيحية القادمة من الضفة الأخرى للبحر الأبيض المتوسط، اشتهر آنذاك باسم "مرسى الذُّبَّانْ".. اليوم لم يبق منه في الذاكرة الشعبية سوى ماضيه القريب، لمحات من العهد الاستعماري ومتعة "التْشَبِّيكَاتْ" من المرفأ إلى البحر..

غداة سقوط مدينة الجزائر بيد الاحتلال، سارع الجنود الأهالي المرابطون بمرسى الذبان إلى إلقاء مدافع حصنهم في البحر حتى لا تقع بيد الأعداء، والتحق البَاشْ طُبْجِي (قائد المدفعية) والطُّبْجِيَة بِبَقَايَا المقاومة على الأطراف الجنوبية الشرقية للعاصمة. المؤرخ وعالم الآثار المستشرق أَلْبِيرْت دُوفُولْكْسْ ذَكَرَ في (المجلة الافريقية) بأنه شاهد بِعَيْنَيْهِ في نهاية القرن 19م عددا من المدافع ملقاة في قاع البحر بمرسى الذبان كُلَّمَا كان البحر هادئا، وقد تكون هي نفسها تلك المدافع السابقة الذكر التي فضلت الانتحار غرقا على الاستسلام للأعداء.
في هذه الفترة كان الاسم الأصلي لهذا الكورنيش الصغير، الذي تزينه مجموعة من الصخور الكبيرة العائمة على سطح البحر على بعد حوالي 100متر من الشاطئ، قد بدأ يتلاشى ويغيب من الذاكرة، وعوضته الإدارة الاستعمارية باسم جديد بقي متداولا حتى اليوم وهو: لابْوَأنْت بِيسْكادْ، والجزائر المستقلة أسمته: شاطئ الجنرال فرانكو الديكتاتور الإسباني الذي أنقذ بلاده من الحرب الأهلية ونصب نفسه ملكا عليها.
غير أن الصحوة المحتشمة للذاكرة الجزائرية تَخَلَّتْ عن كل هذه الأسماء وأطلقت على مرسى الذبان وضواحيه منذ سنوات اسم أحد أشهر رياس البحر الجزائريين في العهد العثماني: الرايس حميدو بن علي الخيَّاط.

حَسَانْ طِيرُّو... و"بَابُورْ المَقْرُوطْ":

بعد الاستقلال، كل ما كان يعرفه الناسُ عن هذه البقعة هو أنها تتوفر على أحد أجمل وأشهر الشواطئ العاصمية التي كان يرتادها "الكولون" من أصحاب الفيلات المحيطة بالشاطئ ومرفأ الصيد والسياحة الصغير الذي كان ممتلئا بالزوارق واليخوت ومراكب الصيد البحري، أما جزائريو المناطق الداخلية فأغلبهم اكتشفوا شاطئ ومرسى "لابوانت بسيكاد" في المشاهد الأخيرة من فيلم "حسان طيرو" أثناء البحث عن "البابور المْعَمَّرْ بالمَقْروطْ".
بقيت طقوس الاصطياف على الشاطئ وعلى رصيف المرفأ مستمرةً طيلة الستينات والسنوات الأولى من السبعينات؛ الشواء على الجمر، لقاء العائلات والأصدقاء تحت المظلات الشمسية على أنغام "المَكْنَاسِيَة" و"سُبْحَانْ الله يَا لْطِيفْ"، مسابقات العَوْم حتى الصخرتين الضخمتين في عرض البحر المعروفتين بـ: "الدُّوزِيلُو"(Les Deux Ilots)،

أكواب "قَازُوزْ" "سِلِيكْتُو" و"كْروشْ" المنعشة التي تنتقل بتلهف من يد إلى يد لتسقي الأفواه العطشى، وكذلك "التَّنْفيسَاتْ" تحت الماء من "الرُّوشي" (الصخرة) الأول إلى الروشي الثاني أمام نظرات إعجاب المراهقات وتصفيقات الأطفال المبتهجين.

قبالة الشاطئ، على يمينه ويساره، كانت تقاليد اصطيافية جديدة قد بدأت تتبلور في هذه السنوات في أوساط المراهقين والشباب وحتى بعض الكهول "البلدة" من أبناء "القاع والباع" وتتمثل في منافسات "التشَّبيكاتْ" والإبداع فيها بحركات بهلوانية من رصيف المرفأ أو من على الدعامات الخرسانية الأربعة المشهورة بـ:"لِي كَاتْ بْلُونْتُونْ" (les quatres plantons) المتواجدة على يمين شاطئ فرانكو والتي يجهل الكثير بأنها ليست سوى أطلال مرفأ قديم، في شكل جسر، بناه الفرنسيون أثناء العقود الأولى للاحتلال.

التْشَبِّيكَاتْ المُورِيسْكِيَّة

كثيرا ما كان الجمهور المصطاف المسترخي على رمال الشاطئ يجد متعةً كبيرةً في متابعة مشاهد الأجسام المتطايرة من هذه البقع العالية نحو البحر، الواحد تلو الآخر أو بشكل جماعي؛ "تشبيكات" على الصدر، على البطن، على الأرجل وحتى على الأنف..

وهناك أيضا "التشبيكات" الشاقولية التي تسمى "بِيكْ" (PIC) وأخرى تدعى "المُورِيسْكَاتْ" لأنها جزائرية أصيلة مُشْتَقَّة لُغويًا من كلمة "الموريسكيون" وهم اللاجئون من الأندلس في القرن 17م ابتداءً من 1609م إلى حوالي 1619م...

ويوجد من أشكال وأنواع الغطس الشعبية التي ابتدعت في "لاَبْوَانْتْ بِسْيكاد" ما يسمح للجنة تنظيم الألعاب الأولمبية بإثراء برامج منافسات السباحة العالمية.. لكن فيها من الشدة والخشونة والعنف ما قد تقشعر له أبدان المتنافسين الأولمبيين الغربيين.

لكن هذه الأجواء المرحة البريئة لم تستمر طويلا لأن نهاية السبعينات جلبت لشاطئ فرانكو آفات أتت على جماله ونكهته القديمة، بحيث شاعت سرقة الملابس وحافظات النقود وحتى "كَاسْكْرُوطَاتْ" بأساليب مباشرة وأخرى غير مباشرة بواسطة "السَّنَّارَة" من أعلى الشاطئ. واكتسح المنحرفون المرفأ وحَوَّلُوه إلى "مَحْشَاشَة" لاستهلاك الحشيش و"الزومبريطو" و"الروج" و"لَقْفَالِي" (الأقراص المخدرة)، فهربت العائلات والمواطنون المحترمون إلى شواطئ أخرى بحثا عن الراحة والأمن المفقودين.

أثناء الثمانينات والتسعينات أصبح هذا الشاطئ وِكْرًا للانحراف أكثر منه بقعة للاصطياف ليزيده التلوث تدهورا حتى تراجعتْ قيمتُه في بورصة السياحة إلى الحضيض، ولم يعد أحسن حالا في هذا المجال من شاطئ قاع السور بباب الوادي وضواحيها، و حُرم من خدماته جيشٌ من الذين لا تسمح لهم إمكانياتهم الضعيفة بالتردد على شواطئ أخرى ذات مستوى أفضل.

كاسكروط قرنطيطة بالإسمنت

"القَسْوِيلاَت" العاصمية، "التشْكَاتشَكْ" (جَمْعُ تشكتشوكة)، "الشْطَاطَحْ" المدعمة بالأسماك المتوسطية، ما عدا سمك "البُورِي" بسبب عدم احترامه لنفسه ولمعايير النظافة الدولية لتردده الزائد على حَدِّهِ على مَصَبَّات "زِيقُوَاتْ" (قنوات تصريف المياه القذرة) العاصمة،.. هذه المأكولات الخاصة بالنزهة على الشواطئ في فصل الصيف،

لم تعد سوى ذكريات جميلة حاليا، ولو أن بعض الصيادين والمخضرمين الذين عايشوا فترتي ازدهار وانحطاط "فْرَانْكُو" لا زلوا متمسكين بطقوس هذه "الخَرْجَات" البحرية بحرص شديد.

لقد حلت محلها منذ سنوات كاسكروطات القرنطيطة، والبيض المغلي، وكذلك كاسكروطات الطماطم وحتى الخبز "حَرْفِي" بماء"الأُوبِيَالْ" (مؤسسة توزيع المياه الصالحة للشرب)، وتضاف لها في أحسن الأحوال فلفل "لَحْلُو" وبطيخة أو دَلاَّعَة. وبعد الانتهاء من التهام هذا الزاد، يسترخي مرتادو الشاطئ والمرفأ الذي هجرته زوارق ويخوت زمان، وأغلبهم من الأطفال الفقراء، ليستنشقوا غبار مصنع الإسمنت الواقع خلفهم على الطريق الوطني مرشحين أنفسهم على قوائم مرضى الرَّبْو المستقبليين.

هذا ما حدث لمرسى الذبان منذ أن فقد طمأنينته وراحته في 5 جويلية 1830م ولم يفده في شيء اقترانه باسمِ جنرالٍ وملكٍ من طرازِ الراحلِ فْرَانْكو ولا أميرالٍ شهيرٍ من عيار الرَّايَسْ حَمِّيدُو بن علي.. فصبر جميل.

مرسى الذبان في لوحة زيتية في بدايات عهد الاحتلال الفرنسي للجزائر.



مرسى الذِّبَّان الواقع في فحص باب الوادي كان يضم حصنا دفاعيا مجهزًّا بالمدفعية عالي الأهمية على بُعد نحو 5 كلم شمال "المحروسة بالله" خلال العهد العثماني. ستُعرف هذه البقعة الإستراتيجية عسكريًا خلال عهد الاحتلال بـ: لابوانت بِيسْكادْ" (La Poninte Pescade)، وبعدِ الاستقلال في 1962م، أُطْلِق عليها اسم "شاطئ فْرَانْكُو" قبل أن تصبح منذ بضعة عقود "الرايَسْ حمّيدُو" نسبةً إلى البَحَّار الجزائري الشهير الرايس حمّيدو بن علي الذي استشهد سنة 1815م في معركة بحرية غير متكافئة الإمكانيات واجه خلالها بكفاءة عالية وشجاعة أعلى مجموعة من السفن الحربية الامريكية في مضيق جبل طارق. أغراض حمّيدو بن علي الشخصية يحتفظ بها الأمريكيون إلى اليوم في مكتبة الكونغرس بعد أن استولوا عليها خلا ل المعركة التي انتهت لصالحهم.



حصن مرسى الذبان الذي يعود إلى العهد العثماني.



شاطئ مرسى الذبان: هنا على هذه الصخور تم بناء المرسى الصغير الخاص بالصيد البحري والذي أصبح منصة للتفنن في الغطس أو ما يُعرف في مدينة الجزائر بـ: "التشبيكات".



منظر عام للشاطئ في بداية القرن 20م قبل بناء المرسى الصغير فوق الصخور الموجود في أسفل الصورة على اليسار. في عمق الصورة أُسُسُ جسرٍ ستتحول لاحقا إلى منصات للقفز والغطس، لاسيما في العقود التي تلت استقلال البلاد.



المرسى الصغير الذي بُنيَ فوق الصخور وجزء من الشاطئ. المصطافون يتفننون هنا في القفز والغطس. وفي الخلفية الصخرتان الشهيرتان المعروفتان بـ: "لي دو زيلو" (Les deux ilôts) أيْ الجزيرتان. الصورة تعود إلى سنوات 1970م.



تشبِّيكة من النوع الذي يُسمَّى شعبيًا في مدينة الجزائر: "المُوريسْكَة"..هل هي موضة في الغطس أتى بها الموريسكيون أحفاد أهل الأندلس عند لجوئهم إلى الجزائر خلال العهد العثماني؟ لا نعلم...قد تكون مجرَّد استعارة أو تعبير مجازي...



تشبّيكات جزائرية: باب الارتجال والاجتهاد مفتوح للجميع بديمقراطية...



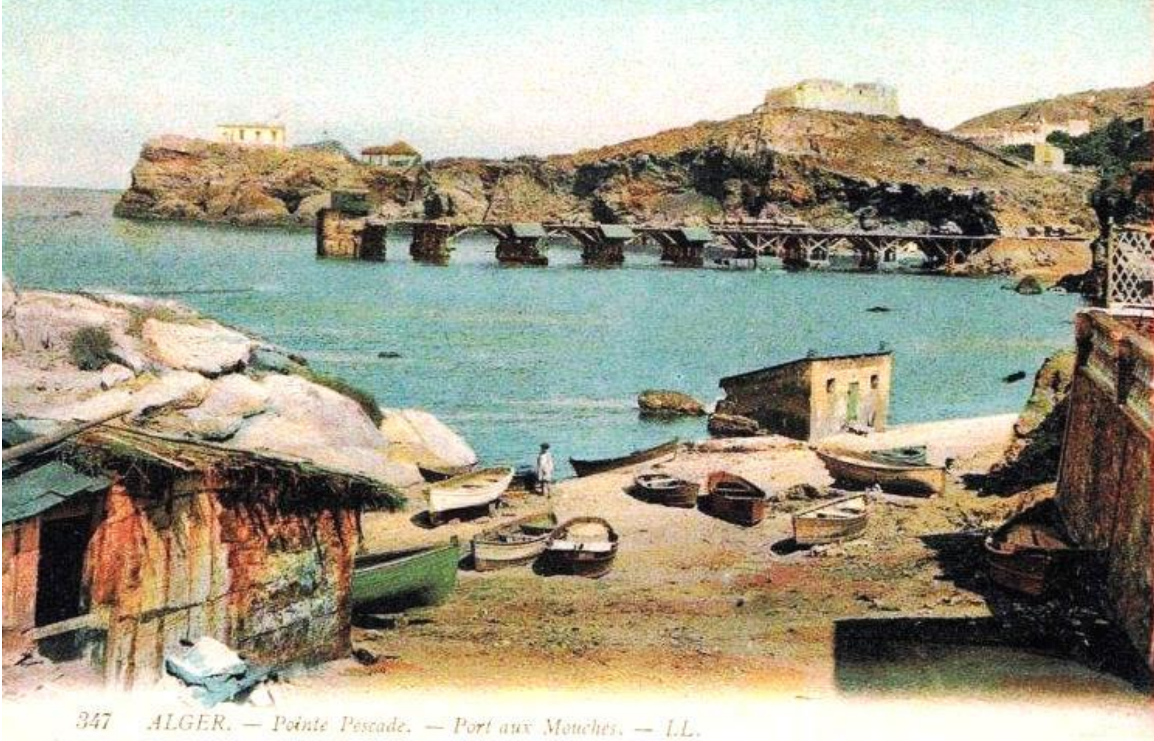
شاطئ مرسى الذَّبَّان، "لا بوانت بيسكاد"، أو "فرانْكو"، وحاليا "الرَّايس حَمِّيدُو" في بداية الثمانينيات من القرن 20م.



الأُسُس المعروفة بـ: Les Quatre Plantons التي لا يكاد يوجد مَن يُحسن السباحة في الأحياء الشعبية لمدينة الجزائر ولم يقفز من فوقها ذات يوم في طفولته وشبابه. أما الصخول المقابلة لهذا الجسر فهي المكان الذي بُني فوقه مرسى الصيد البحري الحالي.



شاطئ الرايس حمِّيدُو...مرسى الذّبّان في العهد العثماني. لاحظ فوق الربوة على اليمين الحصن الدفاعي المتقدِّم عن مدينة الجزائر. أسفله في أعماق البحر عُثِر خلال الفترة الاستعمارية على عدة مدافع جزائرية تعود إلى ما قبل الاحتلال.



شاطئ الرايس حمِّيدُو والأسس الأربعة (Les Quatre Plantons) وخلفها شاطئ "لاراسْكاسْ" الذي كان جنّة عمرو الزَّاهِي، المغني الشهير الراحل ابن القصبة، الذي كان يهوى هذا الشاطئ أكثر من غيره خلال الثمانينيات.



شاطئ الرايس حمّيدُو خلال السبعينيات من القرن الماضي.



شاطئ الرايس حمّيدُو عندما يغضب البحر.



الأَبْيَـــار... الحي الذي وُلِدَ بورجوازيًا

لعل من أجمل آثار الثَّغْرِيِّين والأندلسيين بشكل عام في فحص قصبة الجزائر جنان وبساتين الأبيار..، وتلك الديار الجواهر التي كانت روحها النابض بثقافة وحضارة بَلَغَتْ مِنْ حُسْنِ العَيْشِ ورغده ما لم يتوفر إلا للقليل من خلق الله قبل حلول مصيبة الاستعمار ببلادنا. غير أن هذا الفحص الفاخر سوف يفعل به الزمان ما فعل بغيره عبر التاريخ..، لكن دون أن تتأثر سمعته...ودون أن ينهار رصيده من السحر والجاذبية...

"إنه عبارة عن هضبة تحدها يسارا شعبة عميقة، ويمينا سفوح شديدة تنحدر نحو البحر، بها منازل عديدة مطلية بالجير وبها حدائق كثيرة تعطي للطبيعة مظهرا خلابا، حيث تكثر الأشجار المثمرة، وأشجار البرتقال على وجه الخصوص"... هكذا وصف ديبري، أحد ضباط الحملة الاستعمارية الأبيار سنة 1830م.

أما حليمي عبد القادر فقد قال عنه:" كان من أجمل الأحياء في ضواحي المدينة (أي الفحص) وكان يمثل الضاحية الممتازة بموقعها الجميل، تشرف على البر والبحر، ولهذا اختارها الأثرياء من سكان المدينة مقرا لهم في فصل الصيف، كما عَمَّرَها الأندلسيون والأتراك والكراغلة (جزائريون من أم جزائرية وأب تركي)، وفَضَّلَهَا السفراء والقناصلة الأوربيون مقرا لهم، منهم سفراء السويد والدانمارك وهولندا وإسبانيا وفرنسا".

كانت الأبيار القديمة التي اكتشفها الاستعمار عند محاصرته لبرج مولاي حسن أو برج بوليلة في جويلية 1830م عبارة عن غابات وأدغال، وبساتين جميلة تلتف حول قصور موريسكية ساحرة وفاخرة، مفروشة بحرائر مدينة ليون الفرنسية وجنوة، ومزينة بفسيفساء ورخام إيطاليا، ومرايا البندقية وزجاج بوهيميا وساعات بريطانيا...

لا يزال عدد من هذه الروائع الفنية المعمارية موجودا حتى اليوم على صخرة "سَانْ رَافَائِيلْ"، وفي أعالي الأبيار والروابي المحيطة بشارع البشير الإبراهيمي (بْوَارْسُونْ سابقا). لعل أهمها من الناحية التاريخية هي دار الرايس حميدو، التي احتضنت توقيع الداي حسين على وثيقة الاستسلام أمام الجنرال دوبرمونت. لكن هناك قصور أخرى، أغلبها إقامات للسلك الدبلوماسي الأجنبي، منذ العهد العثماني أحيانا. أما أشهرها على الإطلاق فهي ذلك القصر التحفة الذي سكنه قنصل السويد قبل الاحتلال، وجعل منه سفارة بلاده قبل أن يخربه الاستعمار والذي يبدو حسب العديد من الشهادات أنه كان "من أجمل ديار الدنيا.. (حيث) كانت تحيط به الينابيع والحدائق من رُمَّان وبرتقال وجوز وتين وريحَان". واشتهرت كذلك "دارْ تْشْكِيكَنْ" في القرن 18م التي كانت آية في الجمال والإبداع، وهي ما تزال موجودة إلى اليوم بعد أن انتقلت من صاحبها آنذاك سيدي ابراهيم بن يوسف، وزير البحرية التركية، إلى قنصل إسبانيا الذي اكتراها منه

ليحولها إلى مقره الصيفي، قبل أن يشتريها الباحث المستشرق الفرنسي ألبير دُوفُولْكْسْ (Albert Devoulx) بثمن رمزي سنة 1831م. وإلى نفس هذا الصنف من القصور الجزائرية العتيقة تنتمي "دار القائد أحمد" الواقعة في طريق "لاَ كُولُونْ فْوَارُولْ"(La Colonne Voirolle).

الأبيار القديمة التي اشتقت اسمها من طبيعتها الثرية بينابيع المياه والآبار، التي اشتهر منها بئر طْرَارْيَة، الأبيار التي استقطبت في سنة 1611م انتباه الأسطى أو المعلم موسى الأندلسي مهندس الري الذي قضى على أزمة الماء بقصبة الجزائر، هذه الأبيار كانت تتقي شر الأعداء المسيحيين القادمين من البحر بفضل مدافع حصن الإمبراطور، الذي يُعرَف أيضا ببرج مولاي حسن أو ببرج بوليلة أو حتى كُدْيَة الصَّابُون، وذلك من سنة 1541م إلى غاية 1830م. ولَمَّا سقط هذا الحصن سقطت معه الأبيار وكل مدينة الجزائر..، بل وكل البلاد.

الأبيار الحديثة بقيت وفية لتاريخها البرجوازي – الأرستقراطي، وهي اليوم لازالت الحي المفضل من طرف السفراء والقناصل ومن كبار حُكَّام الجزائر من باشوات جدد وأهل الديوان وآغوات وخوجات وحواشيهم...

وإذا احتفظت ببريقها حتى اليوم رغم نوائب الدهر ورغم امتحانات الأزمات الكارثية بما فيها فتنة التسعينيات الماضية، فلا شك أن هذا التحدي لم يكن سهلا أبدا بل تطلب منها المقاومة أحيانا والصبر أحيانا أخرى، أو اللجوء إلى دعم الأثرياء المحليين والأجانب بمن فيهم لوردات بريطانيا ومليارديرات أمريكا. ولا داعي للعودة، في هذا السياق، إلى الحديث عن موضة قضاء الشتاء في مدينة الجزائرمنذ منتصف القرن التاسع عشر التي أتت بكلٍّ من مَاكْ لِيْ وبُوكْنَالْ وهَارْتْوِيلْ وبْلُومْفِيلْدْ وعائلة لُوفِيتْ-هِيِنْ وغيرهم إلى الأبيار وضواحيها.

اليوم مايزال هذا الفحص محافظا على خصوصيته وعلى تَنَوُّعِهِ كما كان، وإن كان هناك من يرى في بعض هذه الخصوصيات والتنوع تَسَيُّبًا وشُذوذاًً عن المتعارف عليه. لكن هؤلاء، مع احتراماتنا، لانملك إلا أن نُذَكِّرهم بأن ذلك من طبيعة الأبيار وبأن رياضه وجنانه لم تكن أصلا سوى استنساخ لرياضِ الأندلس وجنانها وثقافة الاستمتاع بزهو الحياة واغتنام "الساعات الهنية" بها كما تقول الموشحات والأزجال الأندلسية...

مشاهد الغزل اليومية التي نشاهدها اليوم على أرصفته في أوقات الخروج من العمل ومن الثانويات والمعاهد، وبقاء محلاته زاهية بـ: "الطيبات والخيرات"، التي رزق بها الله هذا الحي في عهد الوِفْرة كما في عهدي الفتنة والنُّدرة..، قد تكون استمرارية لماضيه الرغد ولنزعته إلى اللهو وحتى إلى المجون... وعلى كلٍّ، هي تشهد بأن فحص الأبيار لم يتأثر كثيرا بعوارض التاريخ وبما حدث للبلاد من كوارث، "خمسة في عين الشيطان"... وهذا هو قدره إن كان يحرص على رضى الأعيان ويحافظ على أفضليات استئناسه بأهل الديوان. ويبدو أنه، بشكل عام، ما يزال عند حسن الظن مادام مداوما

على احتضان مقرات الوزارات والمؤسسات الكبرى ومدرسة الشرطة، والإقامة الرسمية الفخمة "جنان الميثاق"، ودِيَار النُّخَبِ والحُكَّامِ...
مع ذلك لا يجوز الإغفال بأنه عاش فترات صعبة هو الآخر وإنه عندما كانت الأزمة "الأمنية" تلفظ آخر أنفاسها في أغلب مناطق البلاد، تعرّض أربع مراهقين في أحد ضواحيه للذبح في الأشهر الأخيرة من سنة 1999م في مغارةٍ بسفح صخرة "سَانْ رَافَائِيلْ" التي تحتضن مقر إقامة السفير الفرنسي.
الأبيار التي اختارها رؤساء الحكومات والوزراء والجنرالات مقرا لسكناهم، ما زالت، إذن، كما كانت عبر التاريخ ضاحية للسفارات الأجنبية و..."للفِيزَاتْ"... خصوصا للراغبين في زيارة فرنسا وإيطاليا وإسبانيا، من طلبة وتجار الشنط والراغبين في الهجرة و اللجوء السياسي- الاقتصادي عندما كانت البلاد تقف حافية على الجمر. فتوفرت بهذه المناسبة فرص لم تُتاح من قبل للسفارات التي لم يحدث لمصالحها أن اشتغلت بالكثافة التي اشتغلت بها في السنوات الأخيرة... ولم يحدث لها أيضا أن بَقْشَشَتْ خدماتها هذه كما بَقْشَشَتْهَا منذ بداية الأزمة...

الأزمـــة

عندما غلقت قوات الأمن في أحد أيام رمضان 1992م مفترق طرق الأبيار، وسط تبادل طلقات الرصاص، لم يُصَدِّق أحد أن مثل هذه الأشياء يمكنها أن تحدث في حي كَحَيّ الأبيار.
لكن الحقيقة المُرَّة كان يجب تقبلها، لأنها كانت تشكل الديكور والأجواء اليومية التي كان يعيشها المواطنون في العديد من الأحياء والمدن والأرياف. وكان على رجال الأمن في ذلك اليوم المرعب أن "يصطادوا" – مهما كان الثمن- اللَّحْرَاني، أحد قادة "الجيا" في العاصمة، الذي كان قد أفلت منذ فترة من قبضة الأمن بأعجوبة وسط المدينة... لكن في هذا اليوم، وقبل لحظات فقط من موعد آذان الإفطار كان ملفه قد طوي نهائيا.
كانت الصدمة قوية بالنسبة لسكان الأبيار "المسالمين" الذين لم يتعودوا على مثل هذه الحوادث العنيفة. صحيح أنهم تعودوا على المناوشات بين أنصار فريق مولودية الجزائر لكرة القدم مع الشرطة عند رجوعهم إلى بيوتهم من ملعب 5 جويلية، وعلى تراشق الأنصار بالحجارة، وحتى على الشعارات التنابزية والاستفزازية تجاههم من نوع: "أولاد الأبيار لِيفْوَايُو ضَرْبُونَا بْلِيكَايُو"..، لكن على الاقتتال..لا! فكانت هذه العملية إشارة تُنْبِئ بضرورة الاستعداد النفسي إلى الأسوأ...
ولحسن الحظ، الأسوأ لم يحدث لأن الأبيار حي للراحة والنقاهة، ليس فقط لمسئولي البلاد، بل حتى لقيادات الجماعات المسلحة، الذين اختاروه منطقة للإقامة، وبالتالي لم يكن من صالحهم زعزعة الأمن والاستقرار فيه، خصوصا وأن جبل كوكو و"الزغارة" ووادي قريش والقصبة وباب الوادي كانوا كافيين لذلك.
على كلّ، حتى في هذه الحالةٍ، لم يزد فحص الأبيار عن أدائه لدوره التاريخي التقليدي الاستجمامي المعروف عنه لا أكثر وذلك حتى في عز الأزمة فبقي وفيا لنفسه، على

الأقل، رغم الظنون السيئة والإشاعات التي رددتها عنه أحياء أخرى أقل حظا بخصوص غموض موقفه السياسي وتعايشه في وئام مع الذئب كما مع الراعي...

الحافلات تخفف من الحرمان الجنسي

عندما بدأت أزمة السكن تتفاقم ومعدل الزواج ينخفض، أو يتأخر سنه على الأقل كان من المنتظر أن لا يطول الزمن كي تنفجر في الوجوه مظاهر البؤس الجنسي. لذلك منذ نهاية السبعينات، بصفة خاصة، اضطرت الحافلات التابعة لمؤسسة النقل الحضري الرابطة بين ساحة الشهداء والأبيار، رغما عنها، أن تقدم يد المساعدة للدولة ولضحايا أزمة السكن والزواج كي تخفف من حدة الأزمة الجنسية وتمتص الطلب المتزايد على هذه الحاجة البيولوجية-النفسية. ومنذ ذلك الحين اشتهر خط النقل "ساحة الشهداء-الأبيار"، سواء بالنسبة للنقل الحضري أو لنقل الطلبة بظاهرة "التَّعَابُزْ والتَّلابُزْ" أو "الكَالاجْ" حسب الصيغة المفرنسة التي اشتقتها الشبيبة "المُتبلِّدة". بذلك وجد عدد كبير من الشباب العاطل عن العمل، وعن كل شيء أحيانا، في الحافلات ملجأً له من المشاكل الاجتماعية والاقتصادية، بحيث لا ينزل بعضهم من الحافلة في الأبيار، حتى يركبوا في الثانية باتجاه ساحة الشهداء، ليعودوا ثانية إلى الأبيار، وهكذا من الصباح حتى إلى ما بعد المغرب... ولا نعلم إن كانوا يأخذون ساعة للراحة والأكل عند منتصف النهار أم لا.

أما السرقات وانتشال حافظات النقود، فقد بلغت من البداهة على طول هذا الخط إلى درجة أنها لم تعد موضوعا يستحق أن يتحدث عنه الناس، يحدث هذا يوميا في الطريق من وإلى الأبيار، لكن في أوساط ممولي برنامج التعديل الهيكلي وخدمة الديون الخارجية آنذاك فقط. أما أترابهم من ذوي الحل والعقد فانهم لا يسمعون بمثل هذه "السخافات" "الجدِّيَة" لأنهم كانوا يعيشون حياة "برابولية" مائة بالمائة ويقضون أوقات فراغهم في الملاهي بالمنطقة "المحروسة" والهياكل السياحية الساحلية القريبة منها عادة، ولا حاجة لهم لمؤسسة النقل الحضري.

في أبيار اليوم، وسط "النومونكلاتورا" والسلك الديبلوماسي، تعيش أقلية متوسطة الحال، أو فقيرة في بضعة بنايات عملاقة وضيقة الشقق عموما، تتمثل في حَيَّيْ "الإقامة" (لاَرِيزِيدُونْسْ) و(الشُّوفَالِي)، كما يعيش القط أمام الشحمة أو الفأر قبالة "الفرْمَاجْ". من وسط حياة يومية متواضعة، جدا ومشاكل مادية لا حدود لها وإحباط نفسي، يعيش هؤلاء على إيقاع حياة الآخرين.. الأثرياء..، مما يُوَلِّدُ في نفوس الكثير منهم شعورا بالحرمان والظلم الاجتماعي... فَهُم يحلمون بأنماط استهلاكهم الفخمة والباذخة، ثم يفيقون على حمض اللبن والكسرة، والعدس بالخبز، ونقص الماء، وعجز الشقق على استيعاب فائض العائلات. سكان "لاريزيدونس" يعانون دون شك من ضغط العيش المتواضع ضِمْنَ محيط يسبح في البذخ بأعين بصيرة وأيادي قصيرة. وقد أدت هذه الفجوة الطبقية العميقة إلى انقسام الأبيار اجتماعيا إلى طبقتين متجاورتين، لكن لا تربطهما أية روابط تقريبا، باستثناء ما ورد من مبادئ وقيم عامة في الميثاق الوطني

والدستور... كل طرف في عالمه الخاص..، إنه "المكتوب" الذي أتت به الليبرالية منذ بداية الثمانينات، أو بِالأَحْرَى "نهاية المكتوب" بعبارة فوكويَامِيَة...
ورغم كل هذا وذاك، لم تتدهور الأمور في الأبيار إلى درجات يائسة كما حدث بأحياء أخرى، فإرث الثغريين والأندلسيين مازال قائما ومعه علة وجود الأبيار؛ أي الترويح على النفوس بشكل أو بآخر...

داخل أحد القصور الجزائرية-العثمانية في فحص الباب الجديد بالأبيار. لوحة تعود إلى 1889م للفنان الأمريكي فريديريك آرثور بريجمان.



في أحد القصور الجزائرية التي ألهمت الفنانين الأوروبيين والأمريكيين. هذا القصر أو "الجْنَانْ، كما كان يُقال في زمان "المحروسة بالله"، يعود إلى العهد العثماني ويقع في الأبيار بفحصص الباب الجديد.

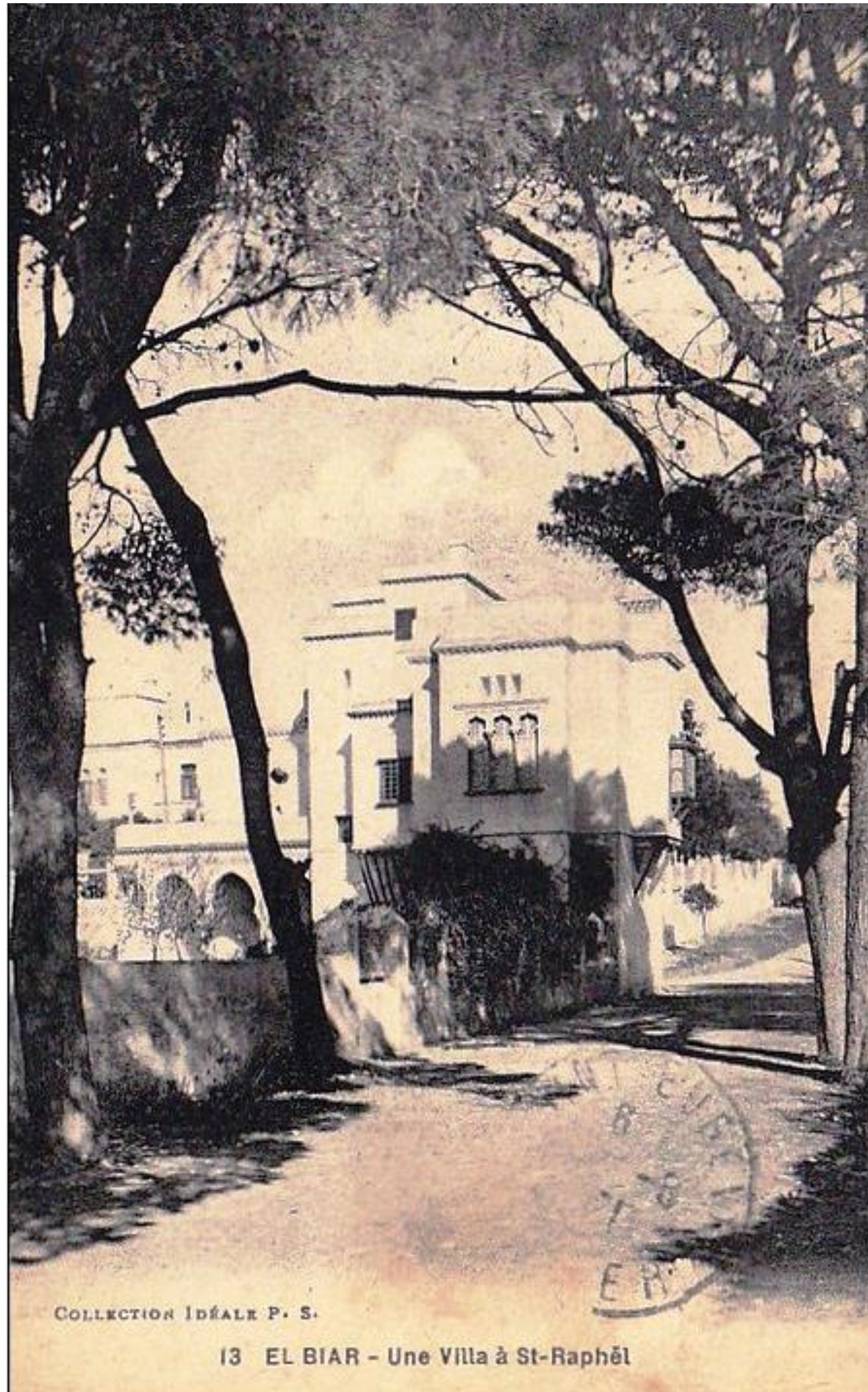


مقر قنصل السويد في الأبيار بمدينة الجزائر خلال العهد العثماني. هذا القصر والجنة المحيطة به وُصِف من طرف بعض الكتاب بأنه كان أعجوبة من عجائب الدنيا من حيث جماله... تم تهديمه من طرف المحتلين الفرنسيين.






في الأبيار



في الأبيار



"جْنَانْ يَحْيَ آغا" آخر كبار القادة العسكريين في الجزائر خلال العهد العثماني، أعدمه الداي حسين. محلَّ الجنان، بنى المحتلون الفرنسيون في بداية القرن 20م كنيسة القلب المقدس (Eglise Sacré Coeur) ومحطة الوقود في أعلى شارع ديدوش مراد في مدينة الجزائر.



قصر جزائري يعود إلى العهد العثماني يقع في فحص الباب الجديد، في الأبيار، مطلا على خليج الجزائر. وهو اليوم مقر إقامة سفير فرنسا في الجزائر. شخصيات دولية أقامت في هذا القصر المسمى منذ أواخر القرن 19م فيلا عائلة أوليفييه (La Villa des Oliviers)، من أبرزها الجنرال شارل دوغول في سنة 1943م برفقة أسرته.



"الجنان" ذاته والقصر في بداية القرن 20م.



هنا في هذا "الجنان" أقام أيضا خلال الفترةالاستعمارية جورج دوق روسيا.



LA VILLA « CALORAMA », A EL-BIAR, où doit résider le grand-duc Georges de Russie. — Vue extérieure.



في قاموس المحتلين الفرنسيين هي فيلا آرثور، نسبةً إلى مالكها البريطاني سر آرثور (Sir Arthur)، فيما كانت قبيل الاحتلال ملكا للمفتي الحنفي وكانت تُعرف بـ: "جنان المفتي"، وهي تُسمى كذلك منذ الاستقلال وتابعة لرئاسة الجمهورية الجزائرية. هذا القصر الجزائري البديع يقع أسفل الأبيار، وهو أقرب إلى حيّ "الاكولون".





جنان الرايس حَمّيِدو بن علي آخر أعظم رياس البحر الجزائريين في العهد العثماني، توفي عام 1815م. الجنان يقع داخل مستشفى في فحص الأبيار بمرتفعات مدينة الجزائر. عندما غزا الفرنسيون البلاد، أوَّل مَن استولى على الجنان وأقام فيه قبل دخول المدينة كان قائد الجيش الفرنسي الجنرال دو بورمونت. وتذهب بعض الروايات إلى القول إن معاهدة تسليم مدينة الجزائر تم توقيعها في جنان الرايس حميدو.



ساحة كينيدي في الأبيار. مقر البلدية.



عندما كان الوسخ من...الشيطان

فَسْدَتْ هَذَا الطَّرْقَة
دْخَلْهَا مَنْ وَالَى وَالكْلاَمْ عَادْ نْزَالَة لَلْحْتَايَلْ الهَرْتَالَة
كُلّْ مَنْ جَابْ حْمَارْ يْرَدُّه بْجَرّ وَالله مَا بْقَى وْقَرْ
وِينْ مّالِيهَا يْشَاهْدُوا ذَا الفَسْدَة فِيهَا غِيرْ حَلّسْ وَآجِي لِيهَا

الشيخ محمد بن سليمان الفاسي (شاعر)

يشكل كل من الزَبَّال، الرَّشَّاش، الحِمَار والزُّوبْيَة العناصر الأساسية التي اعتمدت عليها قصبة الجزائر للتخلص من قاذوراتها طيلة 312 عاما من الحكم العثماني. وكان يتم ذلك وفق نظام دقيق وفعال، أثار إعجاب كل من زار القصبة في ذلك الوقت.

كانت فرق نظافة المدينة تنطلق بعد غروب الشمس ثم مع مطلع الفجر من الإسطبلات مصحوبة بقوافل من الحمير المجهزة بـ"الشواري" على ظهورها لتعبر الشوارع والأحياء والأزقة الضيقة واحدة بواحدة، من أعالي المدينة حتى المرسى في أسفلها، لتطهرها من أوساخها وما يفرزه البشر يوميا من نفايات.
كان على سكان الجزائر العتيقة آنذاك أن يجمعوا هذه النفايات في حفر صغيرة مخصصة لهذا الغرض عند مداخل بيوتهم وقصورهم قبل موعد مرور قوافل الزبالين لتفريغها بواسطة الحمير في "الزوبية"، التي كانت تقع خارج أسوار المدينة. أما الذين لا يحترمون هذه القاعدة في التطهير اليومي للمدينة فما كان عليهم سوى تَحَمُّل العقوبات القاسية التي يفرضها عليهم النظام العثماني الحاكم، المعروف بصرامته وتشدده في هذا المجال. والويل لمن تَظَلَّمَ منه "قايد الزبل"..، لأن العقوبات تتراوح من الضرائب المالية إلى مئات الضربات بالعصا على بطن القدمين، التي يطلق عليها في المغرب العربي تسمية "الفَلَقَة"، وتُنَفَّذ هذه العقوبة عادة بعد صلاة الظهر في الساحة العمومية المقابلة لقصر الجنينة (بساحة الشهداء الحالية) أو بدار سركاجي (أي مخزن الخل باللغة التركية) القديمة قرب جامع كتشاوة أو دار سركاجي الجديدة (سجن سركاجي حاليا).

كفاءة حمير الجزائر

اعتنى الحمير يوميا بنظافة قصبة الجزائر، ولولاهم لغرقت في أوساخها واحتار الدايات في تسيير "أثقالها"، التي تلفظها كل مساء بعد غروب الشمس. وكانت هذه الحيوانات من شدة تفانيها في عملها، تحت العصا الصارمة التي كان الزبالون يشهرونها في وجوههم، توصلت إلى حفظ مسارها اليومي عن ظهر قلب وأصبحت

تعرف تلقائيا متى وكيف وأين تسير أو تتوقف، دون تَدَخُّل البشر في ذلك. وبفضل هذا النشاط الدؤوب اندمجت في ديناميكية الحياة بالمدينة وانسجمت مع عاداتها وتقاليدها ووتيرة حياتها اليومية حتى أصبحت من "أولادْ البْلاد" الفِعْلِيِّين بنفس الحقوق والواجبات.
كانت قوافل الزبالين والحمير تجوب يوميا المدينة، على طول محيطها الذي تجاوز في القرن 18م ثلاث كيلومترات ومساحتها التي بلغت 40 هكتارا، بقعة ببقعة، وتطهرها من نفايات حوالي 150000 ألف ساكن في ذلك الوقت.
ولاشك أن هذه المهمة النبيلة كانت شاقة جدا لأن "البهجة" آنذاك كانت من أكبر المدن المتوسطية وأكثرها كثافة سكانية، بحيث لا تقارن معها أبدا مدينة مرسيليا أو البندقية وجنوة وباليرمو... لهذا كان حمير القصبة يتعبون أكثر من حمير إيطاليا وفرنسا من أجل الحفاظ على جمال مدينة سيدي عبد الرحمن.

زُوبْيَة باب الوادي

كانت شبكة الزبالين في العهد العثماني تجمع أوساخ المدينة في بقعتين رئيسيتين بمحاذاة الأسوار الخارجية المحيطة بها من جهتيها الشمالية والجنوبية، في باب الوادي، قرب "قاع السور" حاليا، بصورة أساسية، وخارج سور باب عزون تحت ساحة بور سعيد المعروفة اليوم.
اشتهر مرمى النفايات العمومية الأول باسم "الزوبية" وبلغ من الأهمية إلى درجة تغيير اسم أحد أهم الأبراج الدفاعية للمدينة، الذي أصبح يعرف عند الناس بـ "برج الزوبية" بعد أن كان اسمه الحقيقي البرج الجديد. لكن عجز هذه الزوبية عن استيعاب النفايات المتزايدة في المدينة، التي تحولت إلى تلال وهضاب زبلية ضخمة، سممت الهواء الذي كان يتنفسه العسكر القائم بحراسة البرج وغيره من الحصون المجاورة، اضطرت السلطات إلى فتح مزبلة أخرى، أسفل سور باب عزون بالقرب من شاطئ البحر. هذه الأخيرة لم تكن تعرف حتى ذلك الحين سوى جثث الماشية الميتة والهياكل العظمية والجماجم القديمة، التي تراكمت بها على مر السنين.
في الحقيقة لقد كانت زوبية باب الوادي طيلة العهد العثماني بالنسبة للداخل إلى "البهجة" والخارج منها بمثابة وادي الحراش أو وادي السمار بالنسبة لقاصدي مدينة الجزائر المعاصرة، خصوصا إذا هبت رياح قوية على المنطقة.
اشتغلت إلى جانب هذه الشبكة العامة لجمع النفايات فرق من الكناسين، تكفلت بتنظيف أرضية الأزقة والأحياء والأسواق بتمويل من التجار والسكان، يوميا في بعض الظروف، أو بتمويل من السلطة عندما تسمح الميزانية بذلك في السنوات الناجحة زراعيا والفصول التي يحقق فيها البحارة الجزائريون مداخيل كبيرة من غنائم البحر والغزوات في البحر المتوسط والمحيط الأطلسي.
وكان يساعد الكناسين في عملهم فريق من المنظفين يعرف بـ"الرشاشين" الذين كانت وظيفتهم تتمثل في رش أرضية الأسواق والأحياء التي يكثر فيها الغبار والتراب للتقليص من حدة إزعاجها للناس وتلويث الهواء، غير أن هذه الفئة كانت متواضعة

العدد، عكس نظيراتها في المدن الإسلامية الشرقية كالقاهرة مثلا التي اشتكى من غبارها الكثيف العديد من الرحالة المسلمين والأوربيين في القرون الماضية.

هضبات النفايات

اعتمد نظام تنظيف مدينة الجزائر في العهد العثماني على مدير عام لهذه الوظيفة، كان يُعَيِّنُهُ الداي شخصيا من الأتراك المقربين، ويعرفه الناس باسم: "قايد الزبل" وقد دعمه الداي بصلاحية تنفيذ العقوبات الخاصة بمخالفة قواعد نظافة المدينة، مما جعل السكان يحرصون على المساهمة في الحفاظ على جمالها خوفا من بطشه.

ولعل هذا النظام الصارم هو الذي جعل الجزائر تتشرف بثناء الباحث أندري ريموند، أحد أبرز المختصين في مجال إدارة المدن الإسلامية في العهد العثماني، الذي وصفه بـ"النظام المتميز بحد كبير من الإتقان"...

منذ نهاية العهد العثماني وبدايات المرحلة الاستعمارية، وقع نوع من التراخي في تسيير نظافة العاصمة الجزائرية، وحدث أن أصبح رمي النفايات من فوق الأسوار إلى الخنادق الدفاعية العميقة (6 إلى 8 أمتار) المحيطة بها ظاهرة شبه عادية مثلما يرمي حاليا عدد من الجزائريين أكياس نفاياتهم من نوافذ العمارات. لكن مهما بلغ تلوث المدينة من هذا الإهمال، لم يبلغ أبدا ذلك التدهور الخطير في نظافتها الذي كان يسود أثناء الحصارات المسيحية للمدينة التي كانت تعرقل نشاط الزبالين أو خلال التمردات الشعبية أو الانقلابات العسكرية، التي كانت تليها فوضى سياسية-أمنية كبيرة. وخير مثال عن هذه الحالات الاستثنائية تَمَرُّد الإنكشارية في صائفة 1805م للإطاحة بالداي مصطفى باشا وقَتْل صديقه التاجر اليهودي نفطالي بوشناق، فوقع آنذاك في "البهجة" ما وقع لها في 5 أكتوبر 1988م..حتى اضطر السكان لمساعدة الزبالين بعد عودة الهدوء لاستعادة طهارة جمال مدينتهم.

فضل حمير الجزائر على حمير فرنسا

لقد كانت قصبة الجزائر من أجمل وأنظف مدن البحر المتوسط والحواضر الأوروبية، بشهادة الرحالة والباحثين في العمران. لكنها عانت من كون الاحتلال الفرنسي لم يتكيف إلا بصعوبة مع نظام نظافتها التقليدي، مما كاد أن يكلفها غاليا حتى في وجودها ذاته. ولحسن الحظ أنه تراجع عن فكرة شق الطرقات العصرية عبرها لتسهيل وصول عربات النظافة إلى أعماقها الضيقة، بعدما تفطن إلى بشاعة الفكرة إثر تجربة شق شوارع راندون (عمار علي) ولالير (بوزرينة). لذلك لم يجد مفرا من العودة إلى الاعتماد على الحمير والزبالين التقليديين، واكتشف من جديد القيمة الإستراتيجية للحمار في حياة البشر، مهما بلغوا من التطور والتقدم التكنولوجي... وربما هذا هو سر احتواء فرنسا اليوم على حظيرة وطنية من هذا الحيوان، تقدر بـ 35 ألف حمار، يتمتعون بسياسة وطنية خاصة وبميزانية هامة جعلتها تتحول إلى المصدر الرئيسي للحمير والبغال الذين تستوردهم إيطاليا.

دَعَّمَ الاستعمار الفرنسي هذا النظام في مطلع القرن 20م بـ"السِّيَاقين" الذين حلُّوا محل "الرشاشين"، وأصبحوا ينظفون المدينة كل صباح باكر بأطنان من مياه البحر بواسطة

شبكة من الأنابيب والينابيع العمومية لإزالة آثار النفايات بعد انتهاء الزبالين من مهامهم.
الأغواطيون والبساكرة شكلوا أهم إطارات هذه الوظيفة النبيلة، حتى أواسط السبعينيات من القرن الحالي، قبل أن تتخل السلطات المحلية للجزائر المستقلة عنها...

حمير القصبة كانوا متعددي الوظائف، تتنوّع مهامُّهم وتتراوح بين جَمْعِ النِّفايات ونقل البشر ركوبًا وامختلف السلع والحاجيات، بالإضافة إلى الخدمة مع الجِيَّارين المتنقلين الذين كانوا يضَعون موادّهم الأوّلية وأدواتهم على ظهور الحمير وهم ينادون في الأزقة: ِ"جيرْ...جِيرْ..." عارضين خدماتهم على مَن يريد تبييضَ بيتٍ من بيوته أو دارِه. في هذا اللوحة للأمريكي فريديريك آرثور بريجمان، الحِمار في مهمة جمالية لطيفة وهي بيْع الأزهار والورود التي غابت عن "القصبة" منذ نهاية ثمانينيات القرن 20م تقريبا. إلى غاية تلك الفترة، كان الياسمين لا يُفارق الناس كبارا وصغارا...بل كان "وْلِيدْ البْلاد" هو الآخر راسخًا منذ قرون في مدينة رياس البحر والأولياء.



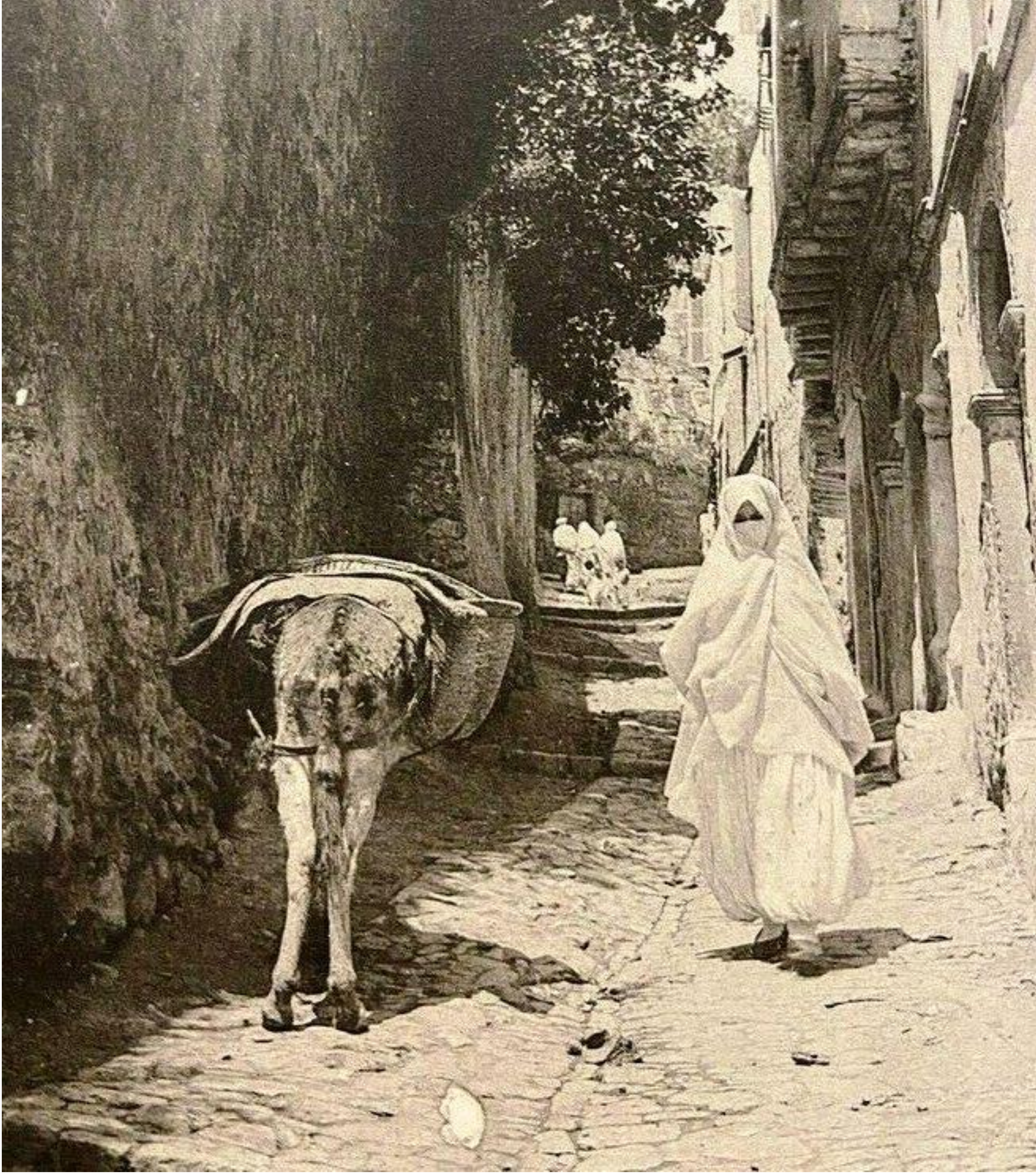
لوحة مائية للفنان الإسباني خْوَانْ بُوسْكُو (Juan Bosco) للمدرسة الثعالبية في قلب "القصبة" وعبور الحمير للحومة باتجاه ضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي المحاذي في إطار مهامها التطهيرية لجمع النفايات. الحمير ما زالوا أوفياء لوظيفتهم القديمة التي يزاولونها منذ قرون.



في شارع القصبة بـ: "الجْبَلْ" صعودًا نحو حَوْمَة الباب الجديد...خير خَلَف لخير سلف.



حِمار من حَمير "البهجة" ينتظر الأوامر في شارع سور مِيدي (Rue du rempart Médée) بمحاذاة عين "قهوة العريش"، والسور على يسار مطلاًّ على "الخِرْبَة". هو بالباب واقفُ...والزَّبل منه خائفُ...



في "القصبة": ظروف العمل صعبة للحِمَار والحَمَّار...ولا مبالٍ بهما.



في شارع القصبة نزولاً إلى شارع ابن شنب حيث ضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي والمدرسة الثعالبية.



وادي الحَرَّاشْ: في هذه البلاد..."العاقل يَاكْلُوهْ"

سُبْحَانْ اللـه يَا لْطِيفْ أَنْتَ اللِّـي تَعْلَـمْ كَاَيْن شِـي نَـاسْ مَنْ اسْتْحَاهُمْ يْقُولُوا خَافْ
يَحْسْبُوا كُلّْ شِيء خْطِيفْ غِيرْ آجِي وَاصْدَمْ وَاللِّي يَبْقَـى مْعَ التّْوَال يْقُولُوا زَحَّـافْ

مُصْطَفَى التُّومِي (شاعر)

إذا كان هناك وادي سيئ الحظ على سطح الكرة الرضية... لا يمكنه أن يكون سوى وادي الحراش...

بِطُولِهِ المُعْتَبَر الذي يمتد حتى جبال الأطلس المتيجي وعرضه البالغ 60 مترا، حَوَّلَتْهُ الأيام إلى مجرد قناة كبيرة لصرف المياه القذرة عند مصبه في مدينة الجزائر على ضفاف البحر المتوسط. وفي حين تتباهى مدينة لندن البريطانية بنهر التايمز وباريس بنهر السين والقاهرة بوادي النيل..، تتعامل مدينة الجزائر مع وادي الحراش وكأنه عورة البلاد حتى وإن تعذر عليها إخفاؤه عن الأنظار المشمئزة.. إنه منكوب الحظ مثل أهله الذين أهملوه...

تَوَاضُع، لُطْف، ولكن...

اسمه الحقيقي وادي الحراش نسبة إلى الروابي الواقعة على ضفته الشرقية المعروفة بـ: ذْرَاعْ الأَحْرَشْ، ثم حَرَّفَهُ الفرنسيون حسبما يتناسب مع قواعد نطقهم إلى وادي الحراش.

ورغم مرور سبعة وثلاثين سنة عن الاستقلال، لم تُبْدِ الجزائر بعد أية نية في تصحيح التشويه وإعادة الاعتبار لهذا المجرى المائي الذي روى عطش سكان ضواحي مدينة الجزائر القديمة وسقى أراضيهم قبل بضعة قرون فقط.. قبل ظهور مدينة الحراش.

هدوء طباعه وجنوحه للسلم هما سبب إهماله واحتقاره، لأنه لو كان عدوانيا مثلما كان وادي النيل مع الفراعنة، أو دلتا البنغلاديش حاليا مع البنغال، لرفعه أهله إلى مرتبة الآلهة، ولقدموا له الأضحيات والقرابين، ولنظموا حياتهم حسب وتيرة مزاجه وتقلباته وجعلوه محور تطورهم عبر التاريخ.. لكن "العاقل ياكلوه في هذه البلاد" كما يقال...

ومن شدة حبه لأهله ولطفه معهم، تبنى وادي الحراش، الذي ينبع من شمال جبال الأطلس المتيجي عابرا سهل المتيجة، أسماء كل القرى والمدن الصغيرة التي يمر منها إكراما لقبائل الثعالبة الهلالية التي حطت خيمها على ضفافه لأول مرة قبل حوالي 10 قرون. فهو وادي الأربعاء عند مروره بقرية الأربعاء، ويصبح وادي سيدي موسى بقرية سيدي موسى، ثم يتحول إلى وادي الحراش بـ: ذراع الأحرش، كي يصب في النهاية في البحر على بعد 8 كلم من قصبة الجزائر. ولم تشفع فيه شساعته وطوله الذي جعل منه أهم أودية مدينة الجزائر وضواحيها التي زال أغلبها من الوجود، بحيث لم

يضاهه وادي كنيس، أو وادي مغاسل الذي تحول إلى طريق **"فْرِي فَالُونْ"** (Frais-Vallon) السريع، ولا وادي الخميس أو وادي بني مسوس..، ولا حتى وادي مَاء زَعْفْرَانْ (Mazafran) الذي تم اشتقاق اسمه من اصفراره عند مصبه في البحر...

وادي الكفاح والتاريخ

كما لم يشفع فيه تاريخه العريق ومساهمته في افشال أكبر الاعتداءات الصليبية على قصبة الجزائر الناشئة في أيام 23، 24 و25 أكتوبر 1541م المشهورة بحملة شارل الخامس أو شَارْلُكَانْ (Charles-Quint) على البلاد. فقد ابتلع وادي الحراش وجرف ما أمكنه من عتاد ومؤن ورجال هذا القائد المسيحي المتعصب أثناء انسحابه من المعركة بعد انهزامه الثقيل، وعطل عبور قواته إلى الضفة الشرقية طيلة ثلاثة أيام بسبب إرتفاع منسوب المياه إثر العاصفة والأمطار الغزيرة التي هبت على مدينة الجزائر في تلك الأيام. فسمح الوادي بالتالي للمجاهدين الجزائريين تحت قيادة حسن آغا نائب خير الدين بربروس، الذي كان في مهمة باسطمبول، بتنظيم هجمات خاطفة استنزافية فعالة خلال تلك الأيام ضد بقايا الجيش الصليبي. ولم ينجح شارلكان في عبور وادي الحراش إلا بمشقة كبيرة بعد أن هدأ نسبيا بواسطة جسر تم تركيبه من حطام سفنه المترامية على طول شاطئ تافورة حتى رأس تامنفوست.

كما احتضنت ضفاف وادي الحراش بعد حوالي 3 قرون من ذلك كتيبة الحاج أحمد باي، بعد انهزام المقاومة الجزائرية في بداية جويلية 1830م، قبل عودتها إلى قسنطينة بعد سقوط مدينة الجزائر وتسليم مفاتيحها إلى الجنرال دوبورمونت في 5 جويلية.

القَنْطَرَة وبُرْجُ الآغَا

قبل 1830م، كانت منطقة الحراش عبارة عن مستنقعات تنتشر فيها الأمراض والأوبئة والحيوانات المفترسة، لكن ذلك لم يثن عددا من البدو عن الإقامة على ضفاف الوادي والاستفادة من مياهه التي كانت صالحة للشرب حسب الباحث عبد القادر حليمي.

ولم تتردد السلطة التركية أيضا في استغلال موقعه عند أبواب سهل المتيجة وعلى طريق قسنطينة لبناء قنطرة في سنة 1697م بمبادرة من الداي الحاج أحمد، قام بترميمها وتدعيمها في سنة 1737م الداي ابراهيم. وعلى قطعة أرض كانت تابعة لأوقاف ضريح الولي دادة الشهير، الذي كان مدفونا خلف جامع كتشاوة قبل ترحيل رفاته إلى ضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي، أسست السلطة التركية أيضا ثكنة عسكرية صغيرة، اشتهرت باسم: برج القنطرة أو برج الآغا ما بين سنة 1822م و1824م أشرف الآغا يَحْيَ على إنجازها وتحول هذا البرج إلى ثكنة لعبور كتائب الجيش المتوجهة لإخماد التمردات بمنطقة القبائل أو في أوساط قبائل العرب الرحالة بالمدية وضواحيها، وأطلق عليه العسكر اسم: فندق القنطرة.

بعد الاحتلال، دعمت فرنسا منطقة وادي الحراش بغرس 5000 شجرة كاليتوس في سنة 1887م، استوردتها من أستراليا..، لكن بعد اقتلاعها لأهم ما كان يزخر به الغطاء النباتي الأصلي هناك.

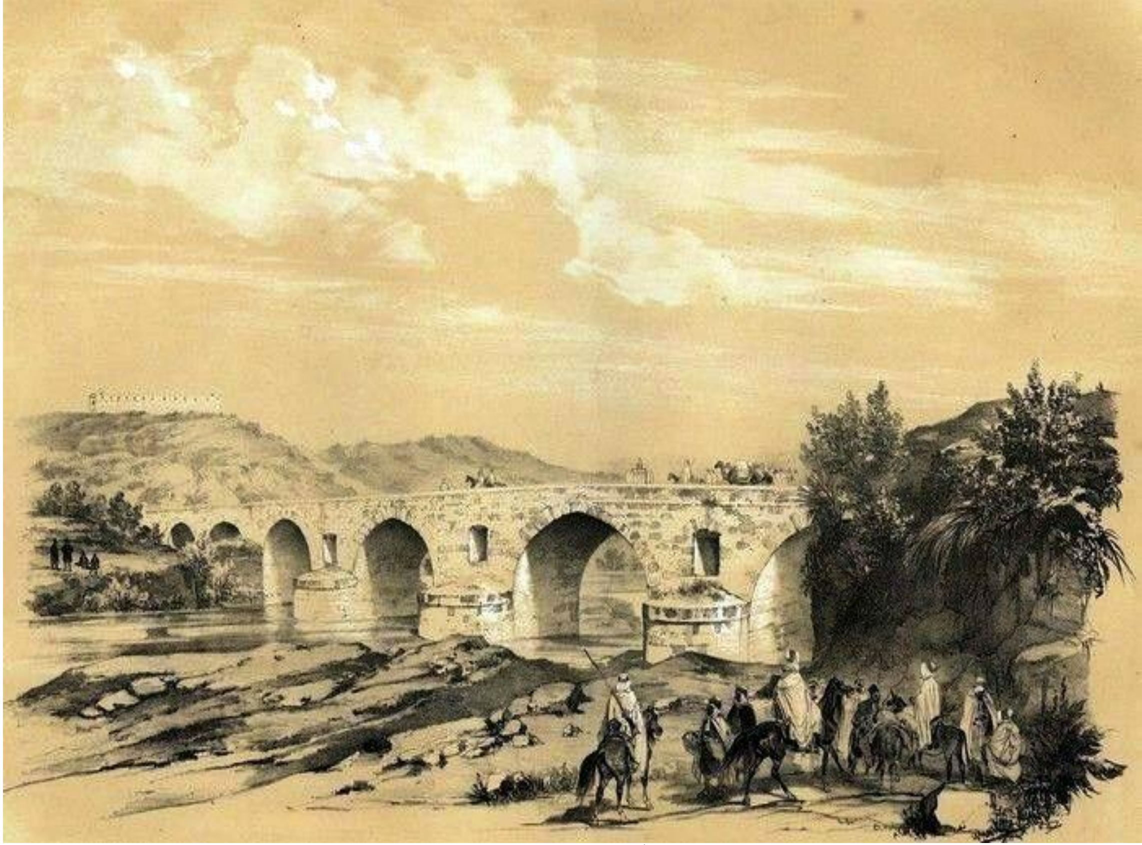
"اللِّي مَا يَقْتَلْشْ.. يْسَمَّنْ.."

وفي هذه الفترة أيضا، بدأ الوادي يمرض وسمعته تنحط بسبب صرفه الرديء للغاية عند مصبه في البحر، ويعود ذلك إلى انخفاض مصبه عن مستوى سطح البحر، مما أدى إلى ركود مياهه صيفا بصفة خاصة، عندما ينخفض منسوبه، وبالتالي تعفنها وتبخرها، وميلاد تلك الرائحة الكريهة الشهيرة التي لم يجد أفضل منها لإثارة الاهتمام به والتعبير عن حاجته الماسة إلى الحنان ككل مَا، ومَنْ، هو جزائري...
في ذلك الوقت، قبل اتساع مدينة الجزائر عمرانيا، كانت رائحة وادي الحراش تبلغ حتى حسين داي وبلكور وأحيانا إلى مستشفى مصطفى باشا كلما هبت الرياح الشرقية، ليقول للجميع بما فيهم المرضى: أنا موجود...
ويُحكى في إحدى النكت المحلية أن الرئيس الراحل هواري بومدين، عندما استقبل الأمين العام الأسبق للأمم المتحدة كورت فالدهايم بمطار الدار البيضاء وكان يرافقه إلى مقر إقامته بالمدينة، اضطر إلى التظاهر بالمزاح معه عند بلوغهما منطقة وادي الحراش وإلى مسك أنف الضيف بإصبعيه مُداعبًا وقائلاً له، على طريقة ممازحة الكبار للأطفال: "تْحَبُّ "البَاتِيسْرِي"..؟ آه يَاحَلُّوف.." وذلك حتى يسدّ منخريْه ويحول دون شمه لرائحة الوادي.
لكن كان من الأجدر أن يبحث بومدين عن حل راديكالي ودائم لتفادي مثل هذا الإحراج باستصلاح الوادي أو تطهير وتعديل مصبه على الأقل.
ولمَّا كان أغلبُ الجزائريين يؤمنون بالمثلِ الشعبي القائلِ: " اللِّي مَا يَقْتَلْشْ يْسَمَّنْ"، فَمَا على الوادي إلا الصبر ريثما تتغير القِيَمُ التي تَحْمِلُهَا مِثل هذه الأمثال والحِكَم الشعبية ليرى شيئا ما يتحرك على مستوى حَظِّهِ وقَدَرِهِ...

برج الآغا: القاعدة العسكرية الجزائرية خلال العهد العثماني المطلة على وادي الحراش، والتي أطلق عليها المحتلون اسم Maison Carrée (الدار المربَّعة) لشكلها الهندسي ثم تَعمَّم هذا الاسم إلى كل هذا الفحص لفترة طويلة، فيما بقي اسم "الحَرَّاش" غالبًا عند الجزائريين، وهو كذلك إلى اليوم.



القنطرة الموروثة عن العهد العثماني تربط بين ضفتي وادي الحراش في لوحة تعود إلى بدايات الاحتلال الفرنسي للجزائر. في الأعلى فوق الرّبوة، تظهر القاعدة العسكرية أو برج الآغا الذي جدَّده ووسَّعه الآغا يحي الذي انتهى مقتولا بأمر من الداي حسين بوِشاية مِن منافِسيه.



القنطرة والوادي في بداية القرن 20م في عهد الاحتلال.



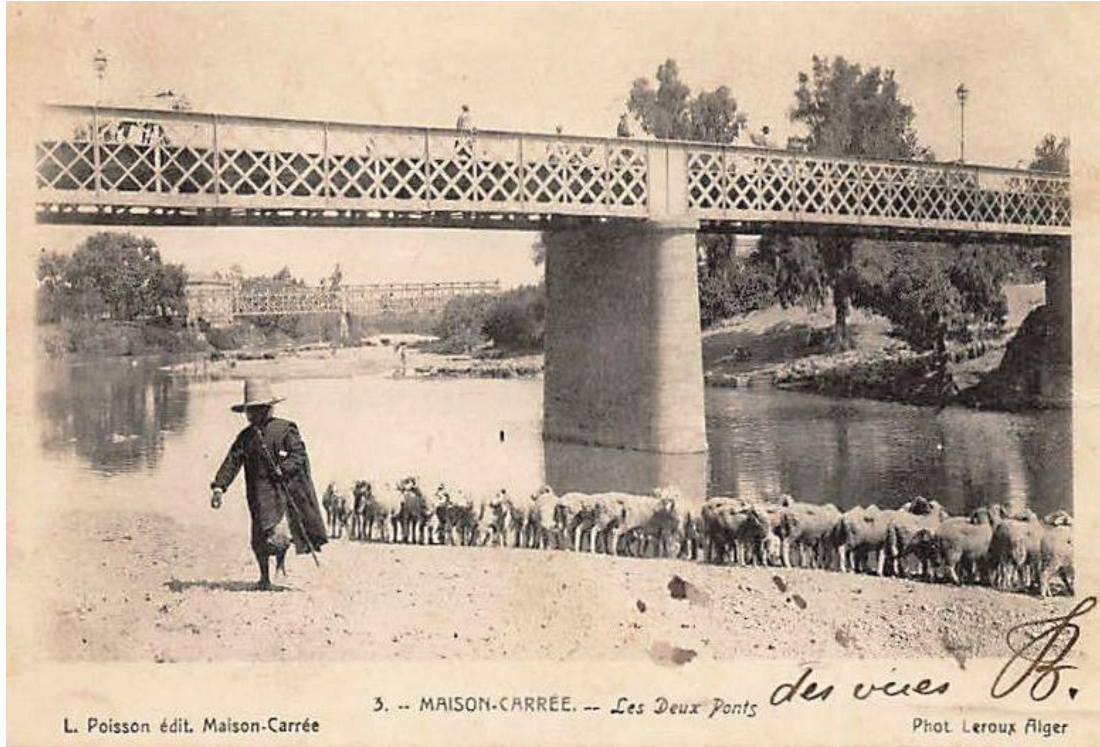
سوق الماشية في الحراش الذي ما زال السوق الرئيسية للأضاحي في كل عيد.



الحراش والوادي.



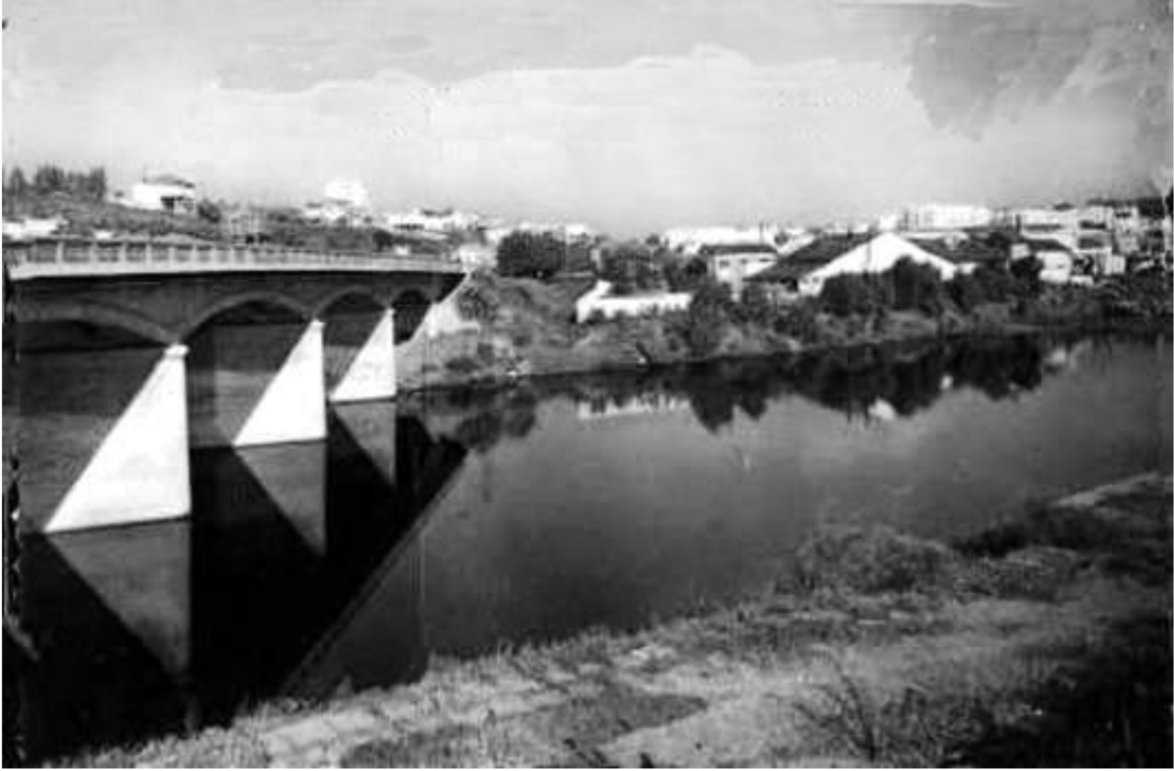
راع وأغنامه على ضفاف وادي الحراش في بداية القرن 20م.



على ضفاف وادي الحراش في بداية القرن 20م.



وادي الحراش والقنطرة.



مدينة الحراش المحاذية لمدينة الجزائر العاصمة 0لال النصف الأول من القرن 20م.



مدينة الحراش في بداية القرن 20م...وكأن قدرها أن تكون سوقا منذ "زلادتها" إلى اليوم.



"كِيلُو"..، لكن شَرِيف: "اللّيل، اللّيل.. أنا خابَطْ ونْقُولْ قْليلْ..."

كانوا منحرفين، عاشوا على هامش المجتمع وفي هامش الأحياء الشعبية للمدينة، حيث صنعوا لأنفسهم عالما خاصا له دستوره وقوانينه التي كثيرا ما أثارت إعجاب وتعجب "المواطنين الصالحين".

هؤلاء تمردوا على المجتمع وضغطه، حملوا قرعة الرّوجْ والزّومْبْريطو في يد والخبز بالزيتون "كاسي" و"الكاشير" في يد، وضربوا عرض الحائط بالآيات والأحاديث التي تُحَرِّم الخمر وكل المسكرات ..، لكنهم رعوا الكثير من المبادئ والقيم الاجتماعية-الدينية وساهموا في ترويجها ونشرها بين الناس.
هؤلاء هم "المَبْلِيُون بالطَّاسَة وسَهْر اللّيل" كما قال عنهم أحد أكبر منظريهم وهو الفنان المرحوم دحمان الحراشي.

من "السّابْلاتْ" إلى "لامَرِينْيَارْ"

نهارُ هذه الشريحة / الأقلية كان يبدأ مع حلول الليل، أما ليلها فيبدأ مع طلوع الفجر، لأنها تنام عندما ينهض الناس وتسهر عندما تخلد المدينة كلها للنوم.
فضاءاتها الشهيرة تتوزع بين مختلف "الحَوْمَات" العريقة التي تتجذر فيها "إيديولوجية" "الرجلة"، حَوْمَات تقع في أقدم وأعرق أحياء العاصمة، بحيث تمتد من لاَبْوَانْتْ بِسْيكَادْ حتى حسين داي؛ من مرفأ فرانكو إلى "لِي فِيِّي" و"رْوِيسُّو"..، وبعبارة أخرى إنها تنتشر في الأحياء الوريثة للثقافة القَصَبَجِيَّة...
بمصطلحات اليوم، يمكن وصفهم بأنهم "تَاعْ رَاسْهُومْ" عاشوا لإشباع رغبتهم في الإدمان على الخمر و"المُدَوِّخَات"، لا يؤذون الناس عادة وحتى إذا تسببوا في حوادث معينة فإنها تتم عادة فيما بينهم، لأن ذلك الجيل من "المْخَابْطِيَة" كان يتمتع بحس شرف قوي جدا وكان شديد الحرص على سمعته وصورته داخل المجتمع.
أثناء الستينيات والسبعينيات، كانوا يهربون من المجتمع إلى شاطئ قاع السور، حيث كانت السفن الجزائرية ترسو قبل 5 قرون عندما كان الإسبان يحتلون حصن البنيون ويُحَرِّمون على أهل البلد الاقتراب من مرفإهم الطبيعي، وكانوا يخفون أنفسهم عن الأنظار في "الصَّبَّارة" بالباب الجديد الواقعة أسفل قصر الداي أو في الجنينة بسوسطارة والزنيقة الصغيرة المحاذية لسينما الجمال التي لم تسميها البلدية بعد على أي أحد...
كما تجمعوا أيضا في "دْرُوجْ" المسرح الوطني الجزائري، وبسيدي هْلال بالزُّوجْ عْيُونْ، وبالخَرْبَة بالباب الجديد، وبعين مَخْشَاشَة في أعلى سوق بوزرينة (لالير)، وبشارع شارتر، وحتى بالرُّوشي كَارِي في باب الوادي، وفي شاطئ السَّابْلاتْ وخليج لاَمَارِينْيَارْ (La Marinière) (الرّايس حميدو حاليا) وزوايا معينة بمرفأ لابوانت بيسكاد.

الأعمار تراوحت بين 20 سنة و60 سنة، أغلبهم أصابتهم صدمة في حياتهم جعلتهم أسرى لليأس والفشل، وكل واحد منهم كان يحمل في قلبه أسرارا وذكريات وحكايات تمتزج فيها بأسى كبير سعادة الصبا والمراهقة بمرارة الفشل في الحياة والمصائب التي غيرت مسار حياتهم في الكبر. ولا يوجد، بطبيعة الحال، من بين هؤلاء "المخابطية" الشرفاء من وُلِدَ مُنحرفًا، لأن الانحراف لا يتنقل وراثيا في الجينات إلى غاية إثبات العكس، وعواصف الحياة هي التي تجري بما لا تشتهي سفن المسارات وتدفعها لقمة سائغة لمختلف التيارات...

بدأ "تَادِيلُو"، المعروَف أيضا بـ: "بَلْحُو"، يقترب اليوم من منتصف الستينات من عمره. إنه أحد آخر نماذج ذلك الجيل من الهامشيين الذي بدأ ينقرض تماما منذ سنوات. هذا النجم الرياضي الوطني، الذي كان لاعبا شهيرا لكرة القدم باتحاد الجزائر في نهاية الستينيات إلى جانب كل من تَشلَبي، بَرْنَاوِي، الزَّرْقَة، ومَزْيَانِي، واشتهر أيضا حتى في الفرق الفرنسية، هو اليوم مجرد شيخ ينطفئ تدريجيا بالإدمان على الخمر كما حدث للاعب البرازيلي "غَارِينْتَشه"، ولا يشعر بوجوده وبسعادته إلا وهو سكران بين صخور "بادوفاني" بباب الوادي أو "لامَارِينْيَارْ" يُغني نشيده الوطني "بُوطِي يا بُوطِي، عْلِيكْ نْسُوطِي" أو "مَامَا وِينَاسْ، القَرْعَة والكَاسْ". إنه ينطفئ كما انطفأ من قبله "العْوِيقَل" الذي توفي في نهاية السبعينيات وهو في بداية الستين من عمره مدمنا على الخمر وعلى قِيَمِ هذه الشريحة الهامشية..، وكما انطفأ أيضا حَمُّودْ فِيفَا(Viva) اللاّعب القديم في مولودية الجزائر لكرة القدم.

بوعلام شِيطُوحْ.. "العزة والكرامة"

بوعلام شيطوح له حكاية خاصة جدا جعلته يتحول إلى "كيلو" من أنبل "الكيلاوة" في القصبة التي شهدت ميلاده ، بعد أن كان حلاقا ماهرا وَسِيمًا أثناء شبابه يحلم الكثير من أترابه بوسامته. كان "كيلو" وشريفا إلى أقصى الحدود حتى أصبح رمزا لـ: "النيف" في الوسط الذي عاش فيه، وكانت هذه الخصال مصدر الاحترام الذي تمتع به حتى في أصعب لحظات عمره. بوعلام أحبه الناس وعطفوا عليه وساعدوه ماديا حتى وفاته وهو يحمل قرعة "رُوجْ " تحت إبطه.

بعد وفاة أمه، تزوج أبوه من إمرأة ثانية لم تتمكن من الانسجام مع بوعلام، فبدأت المشاكل..، واضطر لترك البيت والإقامة بـ: سقيفة إحدى العمارات بسوسطارة طيلة أكثر من ست سنوات مفترشا "كَرْتُونًا" ومُغَطًّى بـ: "زَاوْرَة" يتبرع له بها عادة الأصدقاء في الحي.. وكان يجد مصروفه اليومي تحت فراشه عادة، كل صباح، من تبرعات المحسنين من أولاد الحومة..المصروف الذي كان ينفقه على وجباته الغذائية والسجائر وعلى.. "قرعة روج" بطبيعة الحال.

بوعلام كان حامي "المحقورين" ولم يكن يتردد في المخاطرة بحياته في معارك بالموس "دوقْ دوقْ" و"الكْرَانْدَارِي" أو حتى بزجاجة خمر فارغة من أجل مبدأ أو مسألة شرف حتى ولو كان شرف الآخرين، ولهذا كاد أن يتسبب في قتل أعز أصدقائه

"حسان قْرَمْ قْرَمْ" لأنه اعتدى بكلمات بذيئة على مراهقة من الحومة. الشرف عنده أهم من الصداقة، و"النّيفْ" أغلى من كل شيء.. أحيانا حتى من الحياة...

"يالشَّابَّة يَا بَنْتْ الحَوْمَة، يَا مَرْيُومَة"...

لكن أصعب لحظات هذا "الكيلو" الشريف هي الساعات المتأخرة من الليل عندما يكون يسبح في أعماق "الخبطة" ويتذكر أمه التي تَرَكَتْهُ يَتِيمًا، فيشرع في الغناء وارتجال القصائد بامتياز. وأثمرت معاناته هذه، حسب بعض ما تردد آنذاك، بنظمه الأغنية الشعبية الشهيرة في مطلع السبعينيات "أَدْعِ لِي بالخيرْ يَالَمِّيمَة، أدْعِ لِي بالخِيرْ..وْلِيدَكْ مَسْكِينْ في غْبِينَة، مْعَذَّبْ كْثِيرْ" التي يقال أنه أهداها للمطرب الحاج رحمة بوعلام الذي أداها بنجاح فائق زاده شهرة على الساحة الفنية. ولا زالت سوسطارة تتذكر صوته وهو يغني بـ:"الجنَيْنَة" بأعلى صوته في ظلام الليل وبرد الشتاء أهازيج عالم "القرعة والكاس" مثل "دِيرِي دِيدَايْ"، "الليلْ الليلْ يَا مَانَة، أنا خَابَطْ ونْقُولْ قْلِيلْ يَا مَانَة" أو أغنية الفنان المرحوم الباجي أحمد (خُويَا البَازْ) "إِيهْ يادَانَكْ دُونِي، تْحَامَاوْ فِيَّ ضَرْبُونِي" أو أغنية بوجمعة العنقيس العاطفية الشهيرة "أُوهْ، أُوهْ يَا انْتِيَّة"، كما غنى كثيرا "كَحْلْ عْيونَكْ نَظَرِيَاتْ، يَالشَّايْعَة في البْنَاتْ، خَلْقَكْ الله في أحسن ذاتْ، يا الشَّابَّة يا بنتْ الحَوْمَة، يا مَرْيُومَة". بوعلام توفي بسبب الإدمان على الكحول وهو لم يتجاوز بعد 45 سنة بمستشفى مصطفى باشا.

أمّا "حمود فِيفَا الرِّيفَا" (RIVA) السابق الذكر فكان ظاهرة رياضية في عالم الانحراف، بحيث اختصر حياته، بعد انزلاقه في الإدمان على "الطاسة"، في الخمر وحبّ مولودية الجزائر فقط، أما باقي أشياء الحياة فلم تكن موجودة بالنسبة إليه. لم يؤذ أحدا وكان كل الناس يحبون خفة روحه، ويعطفون عليه لأنه كان يقول "أنا مَبْلِي".. حمّود يكون قد توفي منذ أكثر من 20 سنة.

بوعلام شِيطُوحْ، حمّود فيفا الرِّيفا، تَادِيلُو وغيرهم لم يكونوا حالات فريدة في قصبة الجزائر بقدر ما كانوا الأكثر شهرة. ولا شك أن أهل المدينة العتيقة لا زالوا يتذكرون أسماء أخرى على غرار "مَازِيغُو" بشارع بوزْرِينَة (لاَلِيرْ)، "الشَّاكُورْ" (أيْ الشِّيكُورْ بلكْنة جيجلية) بُودُوَّارَة بِحَوْمَة "السّْجِيوْراتْ"، "اَلُونْلاَدْ" بـ:"زْنيقَة القْطُطْ"، وآخرون.. يتوزعون على الأحياء المجاورة. لقد كان هؤلاء جيلاً أفرزه مجتمعٌ وحقبةٌ تاريخيةٌ تداخلت فيهما القِيَمُ القويةُ التي طبعت الجزائر كلها عبر التاريخ والاهتزازات التي كان يتعرض لها هذا النظام القِيَمِي بسبب ثورة الاتصالات التي كانت في طور التَّبَلْوُرِ مِن جهة، والاستعمار من جهة أخرى...

"الكِيلاَوَة" في عهد التَّحَوُّلاَتِ

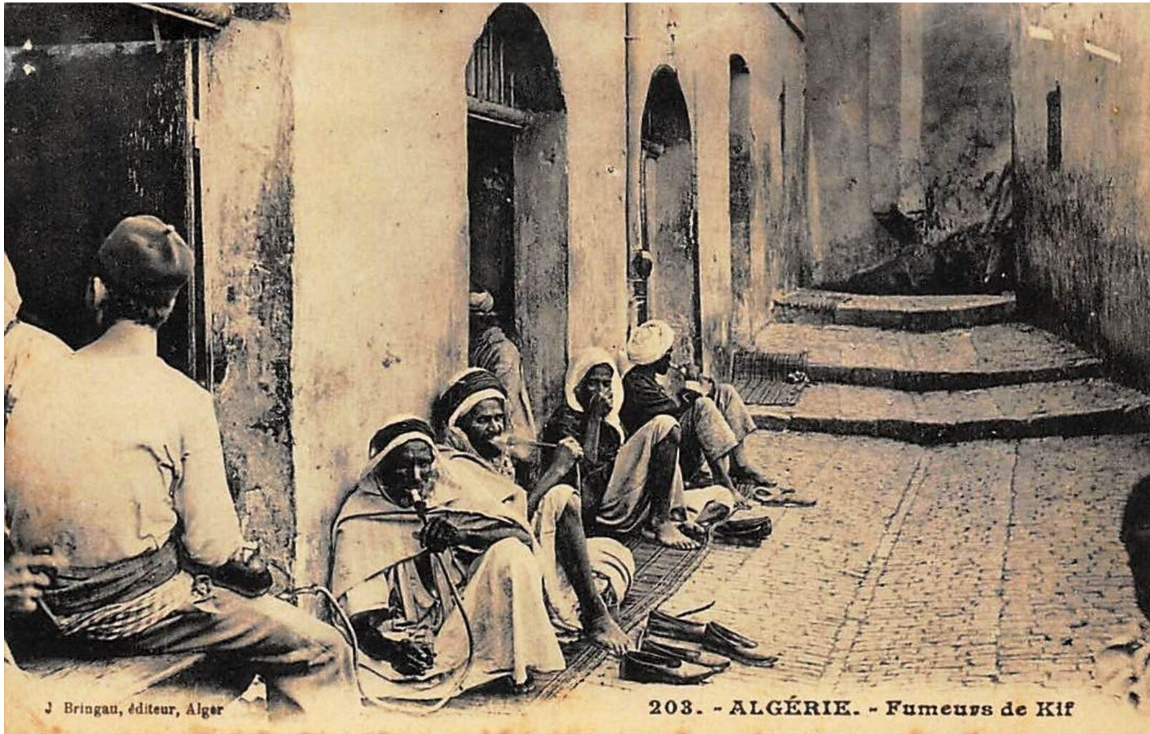
بعد انقراض هذا الجيل، ظهر رعيل من الشباب الذين ساروا على نفس المنهج، لكنهم لم يبلغوا أبدا بْرِيسْتيجْ "السَّلف" لأنهم كانوا فقراء جدا من الناحية الأخلاقية والقيمية بصفة عامة من جهة، ولأن المجتمع كان يعيش تحولات عميقة منذ نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات تحت تأثير التيار الديني الذي حارب الإدمان واسترجع الكثير من المنحرفين وقضى على ظاهرة الانحراف الأخلاقي هذه وما صاحبها من تمجيدٍ لـ:

"الهامشية" كفلسفة حياة. لذلك وجد الجيلُ الجديد من "المْخَابْطِيَة" نفسه إما في المسجد أو في قاع السور والزوايا المعزولة عن المدينة، فأصبحوا بعد أن لفظتهم "الحومات" وكفت عن تبنيهم أكثر هامشية من ذي قبل، ولم ينجحوا في إعادة إنتاج نموذج "الكيلو" الشريف، لأن أغلبهم بقي مجرد "كيلو" بلا شرف. فكانوا آخر ما تَبَقَّى من عهدٍ زال ومن نموذج انحرافي قصبجي أصيل كان فضاءا بائسا اجتمعت فيه التناقضات الاجتماعية، الثقافية والحضارية في عاصمة وجدت نفسها وسط إعصار من التحولات العميقة المتسارعة.

"مُدخِّنو الكيف" لوحة للفنان الفرنسي غبريال فيريي (Gabriel Ferrier) تعود، على الأرجح، لعام 1887م.



"مُدَخِّنُو الكِيفْ" أو الحشيش في مقهى شعبي بـ: "قصبة" الجزائر في نهاية القرن 19م وبداية القرن 20م.



شاطئ "قاع السور" يصلح للسباحة والاستجمام ولصيد الأسماك والنزهات البحرية بالقوارب وللرياضة. لكن في السبعينيات غلب عليه تعاطي الكحول والمخدرات، مثلما كان بقعة للمبارزة وتصفية الحسابات بين الشباب بأسلوب شريف...بعد المبارزة وإخراج ما في الصدور من غضب، لا نعود إلى الوراء، بل نفتح صفحة جديدة قد تتوطد فيها العلاقة إلى صداقة قوية بين الغالب والمغلوب.



شاطئ "قاع السور" في نهاية القرن 19م وبداية القرن 20م. في وسط السورة مُطلاً على البحر "قصر الرِّيَّاس" الذي ما زال موجودا إلى اليوم.



"موح باب الوادي" في لقطة من فيلم "الهُوزِّي". كان هذا الممثل يجسد بشكل واقعي جدًّا السُّكارجي/الشَّريف.



لقطة من فيلم "الهوزي" مع "موح باب الوادي".



"موح باب الوادي" مع رجاله في القصبة...فيلم "الهوزي".



أحد مُدخني الحشيش في مدينة الجزائر في نهاية القرن 19م.أمثالُه كانوا يعيشون على هامش المجتمع وعلى أطراف المدينة، كشاطئ "قاع السور" و"الصَّبَّارة" في حومة الباب الجديد، حتى لا يُزعجوا الناس ولا يُزعجهم أحد.



صورة أخرى للشخص ذاته في مدينة الجزائر في الفترة نفسها.



الفصل الثالث:

بُورْتْرِيهَات...

حميدو بن علي.. آخر الريـــاس

عَيْبْ عْلِيكُمْ عَارْ كَشْفَـة يَـا أهْلْ بْلاَدِي يَا سْخَافْ
دَرْثُوهَا مَرْتْبَة وْ حَرْفَـة نْكَرْتُوا الخِيرْ وَ الأصْنَافْ
سُومَتْكُمْ مَا سْوَاتْ عَلْفَة فِي سُوقْ السَّبْتْ وَالجْيَافْ

مصطفى التومي (شاعر)

قضى حميدو طفولته مترددا بين محل أبيه "عمي علي" في قصبة الجزائر يتعلم فنون الخياطة وبَابَيْ دْزِيرَة و السَّرْدينْ، أيْن كان يُشبع فضولَه حَوْلَ عالم البحار وأساطير الرِّيَّاس.

وُلِدَ حمِّيدو حوالي سنة 1770م من قبيلة عربية نزحت من الضواحي إلى المدينة. بدأ مساره العسكري البحري وهو في العاشرة من عمره نُوتِيًا في إحدى السفن بعد تجربة صغيرة في عالم الخياطة بمحل أبيه في القصبة. ومن أسفل الرُّتب البحرية، ارتقى النُّوتي (Matelot) حتى أصبح أميرالَ الأسطول الجزائري في العشرية الأولى من القرن 19م.

حميدو بن علي الذي وصفه المؤرخون والرحالة الأوربيون بالوسيم والجميل الوجه، المتعدد اللغات (العربية، الإيطالية، الإنكليزية وحتى الإسبانية والتركية)..، عرف انطلاقته البحرية الأولى، التي رَفَعَتْهُ إلى مصاف كبار قادة البحر، في مدينة الجزائر ومرساها العتيق، ثم طلبه باي وهران بعد شيوع ذكر نجاحاته في المعارك والغزوات وأمَدَّهُ بِشَبَابيكِه (سفن متوسطة وخفيفة الحركة) لِيُغِيرَ بها على السواحل والجزر الإسبانية والبرتغالية.

وبقدر ما سطع نجمه في البحر المتوسط، كان حُسّاده يترصدونه بالوشايات والمؤامرات لدى الداي والباي. وعاش بضعة سنوات صعبة في تسعينات القرن 18م وبداية القرن 19م اضطرته للهجرة إلى تونس وحتى إلى بيروت بلبنان أين أقام حوالي سنة حتى جاءه عفوُ الداي مصطفى باشا ودَعْوَتُه للعودة إلى البلاد في 1803/1802م.

حقق حميدو بعد إعادة الاعتبار له، انتصارا خارقا للعادة أكد به قدراته وعبقريته البحرية، بحيث استولى ببضعة مراكب جزائرية ضعيفة العُدَّة والعدد على مجموعة من السفن الكبيرة البرتغالية المجهزة بأحدث ما أنتجته ترسانات البرتغال من مدافع وقذائف، وكان أضخمها وأجملها السفينة الشهيرة بـ"البُرْتُوغِيزَة" التي عَرَّبَها الجزائريون وعلى رأسهم الحاج الشريف الزهار في القرن 19م، إلى "البَرْدْقِيزَة" والتي لازمها حميدو طيلة ما تبقى من حياته، حيث قضى نحبه عليها في 1815م أثناء معركته الشهيرة ضد الأسطول الأمريكي.

بتكليف من الداي علي "غَسَّال التشوَالقْ" أعاد تنظيم القوات البحرية الجزائرية بما يجعلها قادرة على مواجهة الاعتداءات الأوربية المتزايدة على البلاد، وجَعَلَهَا مدرسة قائمة بذاتها، وحرص أثناء انتصاراته على معاملة الأعداء معاملة إسلامية نبيلة، شهدوا له بها جميعا، وقد أثنى عليه كثيرا أحد أسراه الإيطاليين، وهوالمؤرخ باناْنْتِي، وحتى القنصل الأمريكي الذي حاصره وِيلْيَامْ شِيْلَرْ.
حميدو الذي رفع راية الجزائر شامخة في البحار والمحيطات بمساعدة أصدقائه الأوفياء الحاج يعقوب وعَلْوَاشْ ودحمان وْلِيدْ بابا الشْريف.. كانت عودته من الغزوات البحرية إلى مرسى مدينة الجزائر عيدا كبيرا يهرع له السكان والقادة والأعيان ليستقبلوه بطلقات المدفعية والبارود والزغاريد والزُّرْنَة...ويوزع عليهم بالمناسبة الهدايا التي غنمها من سفن الأعداء.
في 17 جوان 1815م، انتهت أسطورة الرايس حميدو في عرض مياه جبل طارق بقذيفة أمريكية، حزنت لها الجزائر كثيرا وبكاه الناس وعزل الداي أحد أكبر أعوانه الذي تسبب في خروج حميدو إلى البحر رغم الظروف والإمكانيات غير الملائمة. لقد كانت وفاته كارثة بالنسبة للبحرية الجزائرية وخسارة كبيرة للبلاد.
حميدو بين أهله و"الكفار"
استشهد حميدو بن علي الخياط في عرض البحر من أجل الجزائر. جزائر رفع رأسها عاليا طيلة أكثر من عشرين سنة، رفقة أعوانه المخلصين الرِّيَاس شَلَبي، دَحْمَانْ وْلِيدْ بابا الشريف، حاج سْليمَانْ وعَلْوَاشْ...
بعد 192 سنة، لم يبق من هذا البَحَّار العظيم سوى صفحتين أو ثلاثة تتناول بطولاته في "مذكرات الحاج الشريف الزهار"، المخطوط الذي حققه أحمد توفيق المدني، إشارات متفرقة له في المؤلفات التاريخية للدكتور مولاي بلحميسي... وترجمة الدكتور محمد العربي الزبيري لكُتَيِّب المستشرق الفرنسي ألْبيرْ دوفولْكْسْ تَمَّ نشره في بداية السبعينات، بالإضافة إلى تخصيص عبد الرحمن الجيلالي لثلاث صفحات له في سياق حديثه عن "عداء أمريكا للجزائر" في كتابه "تاريخ الجزائر العام".
لكن مادامت أعرافنا قد جعلت "الجزائري عزيزا في كل مكان إلا في بلاده".. فإن حميدو لم ينجح في الشذوذ عن هذه القاعدة وسوف يجد التكريم والاحترام الذي يليق به خارج وطنه.
تحتوي مكتبة الكونغرس الأمريكية على وثائق هامة عن مسيرته البحرية، ويمتلك أرشيف البحرية الأمريكية كمية معتبرة من المراجع العامة والمختصة حول حياته وحول تقنيات واستراتيجيات القتال البحري التي كان يعتمدها في زمانه. وقد أشاد به الباحث ج. بَارْنْبِي في كتابه "الجزائر في عهد القراصنة" (Algiers in the Age of Corsairs) كما تحتفظ البحرية الأمريكية حتى اليوم برايته الخاصة وربما بأشياء شخصية له أخذوها من سفينة "البردقيزة" في 1815م.
لِحَمِّيدُو مكانة كبيرة أيضا في البحوث والمؤلفات التاريخية الفرنسية والإيطالية الكلاسيكية، جَسَّدتها أعمال أحد أسراه، الإيطالي بَانَانْتِي والفرنسي أُوجِينْ بْلاَنْتِي وألْبِيرْ

دُوفولْكْسْ، وحتى المؤرخين المعاصرين تعرضوا له مثل الإيطالي سَالْفَاتُورِي بُونُو.. وغيرهم.
ماذا لو كان حميدو أمريكيا أو فرنسيا أو إنكليزيا... هل كان سيعرف نفس المصير واللامبالاة..؟ أعتقد إنه لو كان كذلك لما تعرض على الأقل للسطو على سيف تمثاله كما وقع له بباب الوادي قبل بضعة سنوات على مسافة بضع خطوات من إحدى أكبر المؤسسات الأمنية الجزائرية.

الرايس حميدو في آخر معاركه: "ديكاتور" يُحَيِّي رايته ويأخذها إلى أمريكا

عندما كان الرايس حميدو بن علي في أوج قوَّته وشهرته في البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي، كانت اوربا تتآمر على الجزائر في مؤتمر فيينا سنة 1814م بعد معركة واترلو بين فرنسا وبريطانيا. وقبل ذلك كانت الحرب الطويلة بين بريطانيا ومستعمرتها القديمة الولايات المتحدة الأمريكية قد هدأت بعد التوقيع على معاهدة غانت في 1812.
أما في الجزائر فقد طغت الفوضى السياسية على البلاد من خلال الانقلابات العسكرية المتواصلة وعدم كفاءة عدد من الدايات والقادة، في ظل ثورة سياسية - دينية، تزعمتها الزاوية التيجانية وكذلك الزاوية الدرقاوية طيلة العقد الأول من القرن19م ضد السلطة المركزية بمدينة الجزائر...
عودة الاستقرار إلى أوربا وتردي الأوضاع في الجزائر، كان مؤشرا على دخول البلاد عهدا صعبا لم تكن جاهزة له، لذلك سوف تتحمل البحرية الجزائرية كل المصائب القادمة من أوربا. ولقد كان الرايس حميدو وسفينته المشهورة "البردقيزة" (البرتغالية) أول من دفع ثمن هذه التحولات الإستراتيجية الدولية.
توقفت الولايات المتحدة الأمريكية عن دفع إتاوة 24600 دولار سنويا في 1812م بقرار من الكونغرس الأمريكي بعد أن انتهت حربها مع الإنكليز، وقرر هذا الأخير التفرغ لإعادة النظر في علاقات بلاده مع الجزائر بالدخول في حرب معها.
في يوم 17 جوان 1815م التقى الرايس حميدو خلال إحدى خرجاته البحرية على رأس سفينتين فقط من أسطوله بأسطولٍ أمريكي من 11 سفينة كبيرة، وكانت "بردقيزة" حميدو وتابعتها لا تحتويان سوى على 11 مدفعا مقابل 300 مدفع لدى الأمريكيين. ومع ذلك انطلقت المعركة.. انطلقت صدفة قرب مضيق جبل طارق بشراسة، رفض حميدو الانسحاب منها رغم إلحاح أعوانه نظرا لعدم تكافؤ الموازين. ووفق فلسفة "النِّيفْ والخْسَارَة" الجزائرية جداٍ، تَشَابَكَ الرّايس مع رُعاة البقر الأمريكيين بشجاعة كبيرة ودهاء نالا إعجاب واحترام أعدائه وكذلك البحارة البرازيليين والأوربيين الذين كانوا يتابعون من بعيد المعركة الدائرة في عرض مضيق جبل طارق.
وبعدما أصيب بجروح منذ بداية القصف الأمريكي تلقى حميدو قذيفة تزن 12,5 كلغ انشطر جسده لها إلى نصفين، فألقاه نائبه أحمد وَلْدْ عمر باش رايس في البحر، حسبما أوصى به، حتى لا يقع في قبضة "الكفار"... وواصل الباش رايس المعركة التي دامت 5 ساعات، إلى أن نفذ بارود البحارة الجزائريين، أو ساعتين ونصف حسب الرواية

الأمريكية آنذاك، قبل أن ينجح الأمريكيون في الاستيلاء على "البردقيزة"... وما إن وطأت أقدامهم سطحها حتى سارعوا إلى البحث عن الرايس الشهيد الذي أخضع رئيسهم توماس جيفرسون طيلة سنوات طويلة للسياسة الجزائرية في البحر المتوسط وبعض مناطق المحيط الأطلسي، واغتاظوا كثيرا لموته... وحَيًّا قائد السفن الأمريكية ديكاتور العَلَمَ الجزائري والراية الخاصة بحميدو وأخذها بإكبار داخل صندوق أنيق إلى الولايات المتحدة أين وصفهما لقادة بلاده بأنهما "لضابط جزائري محترم".. وهما الآن محفوظان في متحف أرشيف البحرية الأمريكية.

بعد هذه المعركة، شهدت العلاقات الجزائرية - الأمريكية تطورا نوعيا بحيث أصبح الداي أقل قوة تفاوضية مما كان عليه في السابق واضطر لإلغاء الإتاوة على أجداد جورج بوش و دُونالد رامْسْيِفِيلْدْ.

بعد 181 سنة من استشهاده: ماذا بقي من الرايس حميدو؟

عندما أرادت الجزائر تخليد ذكرى أميرالها الكبير الرايس حميدو، أطلقت اسمه في نهاية الثمانينات على مرقص ساحلي يقع بين نادي الصنوبر وموريتي في العاصمة.

وعندما تحركت همم الجزائريين وجاشت نخوتهم، بنوا لحميدو تمثالا قرب "قاع السور" بين "رْمِيلة لَعْوَادْ" والمديرية العامة للأمن الوطني في باب الوادي. في نفس الفترة تقريبا استبدلت السلطات المحلية اسم حي لابوانت بيسكاد باسم الرايس حميدو والذي أصبح يشمل دائرة بأكملها تبدأ من بولوغين حتى نواحي ميرامار، وهي دائرة ساحلية تطلّ على أحد أجمل خلجان وشواطئ غرب مدينة الجزائر.

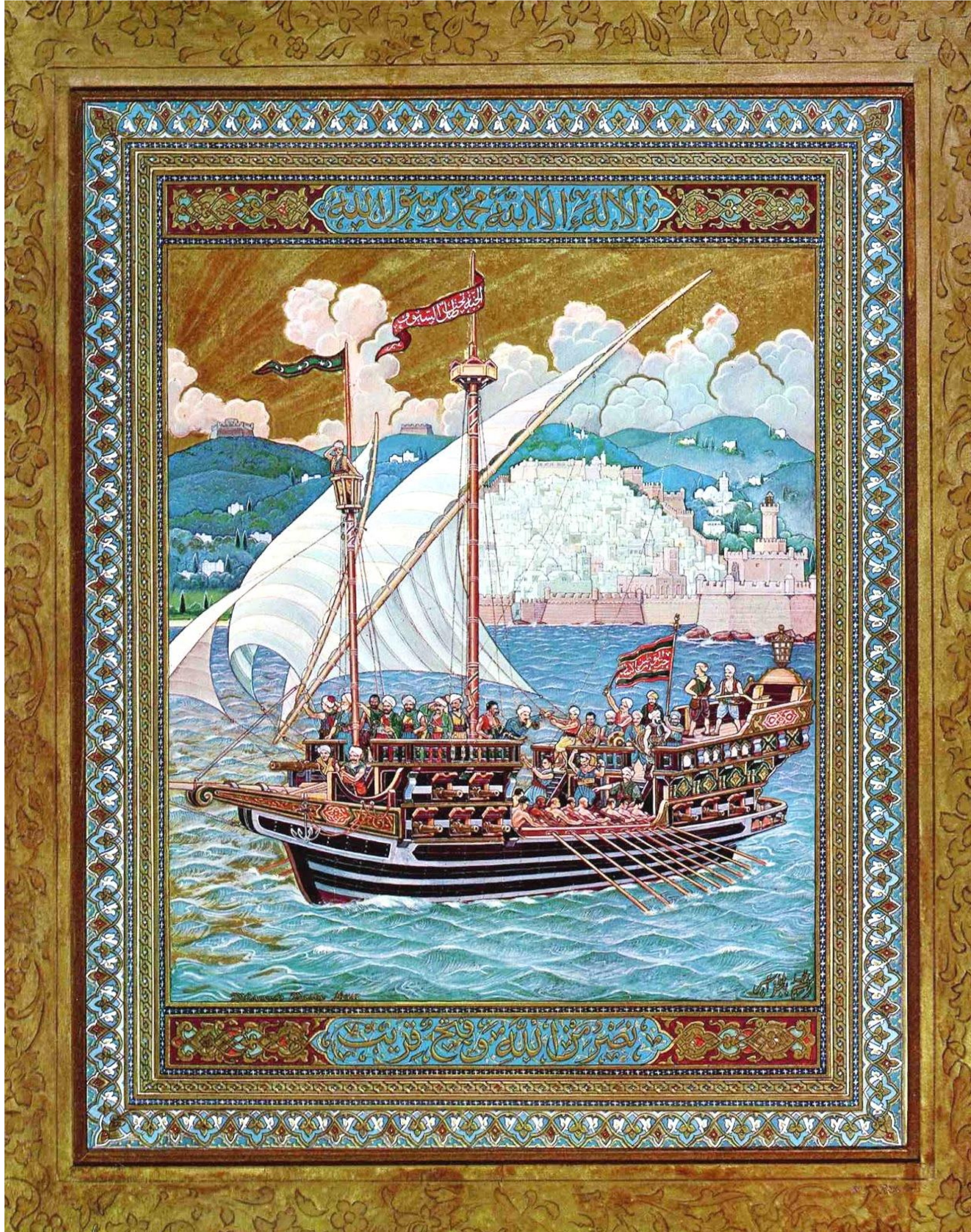
هذا كل ما بقي من ذكراه البائسة بعد 181 سنة من استشهاده، وقد زادها بؤسا تجريده من سيفه قبل سنوات، وهذا "عيب" كبير وإهانة لشخصية عسكرية في مرتبته، غير أنه متعود على ذلك ما دام الداي حسين اختار قصره الشخصي الكائن بالأبيار لتوقيع وثيقة الاستسلام لفرنسا في 5 جويلية 1830م...

لكن قد يُفاجئنا مستقبلا الأستاذ علي تابليت، بمعهد الترجمة في جامعة الجزائر، بكتاب جامع ومفصل لسيرة هذا البحار البطل الجزائري. وهو الذي يقوم منذ أكثر من عشر سنوات باقتفاء آثاره حيثما وُجدت سواء في الجزائر أو في خارجها، بحيث تتبع أخباره حتى في عدد من المدن و المكتبات ومراكز الأرشيف الأمريكية في السنوات الأخيرة...

تمثال الرايس حميدو بن علي الخياط في باب الوادي بمدينة الجزائر على مرمة حجر من المدينة التاريخية "القصبة".



لوحةُ منمنمات للفنان محمد راسم الجزائري للقوات البحرية الجزائرية في مهمة عسكرية قبالة "المحروسة بالله".



بعد أشهر من استشهاد الرايس حمِّيدو بن علي في مضيق جبل طارق في 1815م، القوات البحرية البريطانية بقيادة اللورد إيكسْموْثْ تقصف مدينة الجزائر قصفًا شديدًا سنة 1816م.



لوحة فنية أخرى خلَّد بها الأوروبيون قصفَ البريطانيين مدينة الجزائر سنة 1816م. الخسائر كانت كبيرة، لكن "المحروسة بالله" صمدتْ، رغم الضعف الذي لحق بالدولة وقوة التحالف الأوروبي-الأمريكي الذي كانت تواجهه.



جنان الرايس حمِّيدو بن علي، أو "فيلاَّ المعاهدة" (La Villa du Traîté)، في الأبيار بعد ترميمه قبل بضع سنوات (الصورة: Etudes Caribeenes). المعاهدة المقصودة من هذه التسمية الفرنسية هي معاهدة تسليم المدينة في 1830م بعد فشل المقاومة الجزائرية النظامية في صد الاعتداء.



داخل دار الرايس حمِّيدو في الجنان الذي يحمل اسمه في الأبيار (Etudes Caribeenes).



رياس البحر الجزائريون في رسوم أوروبية قديمة.

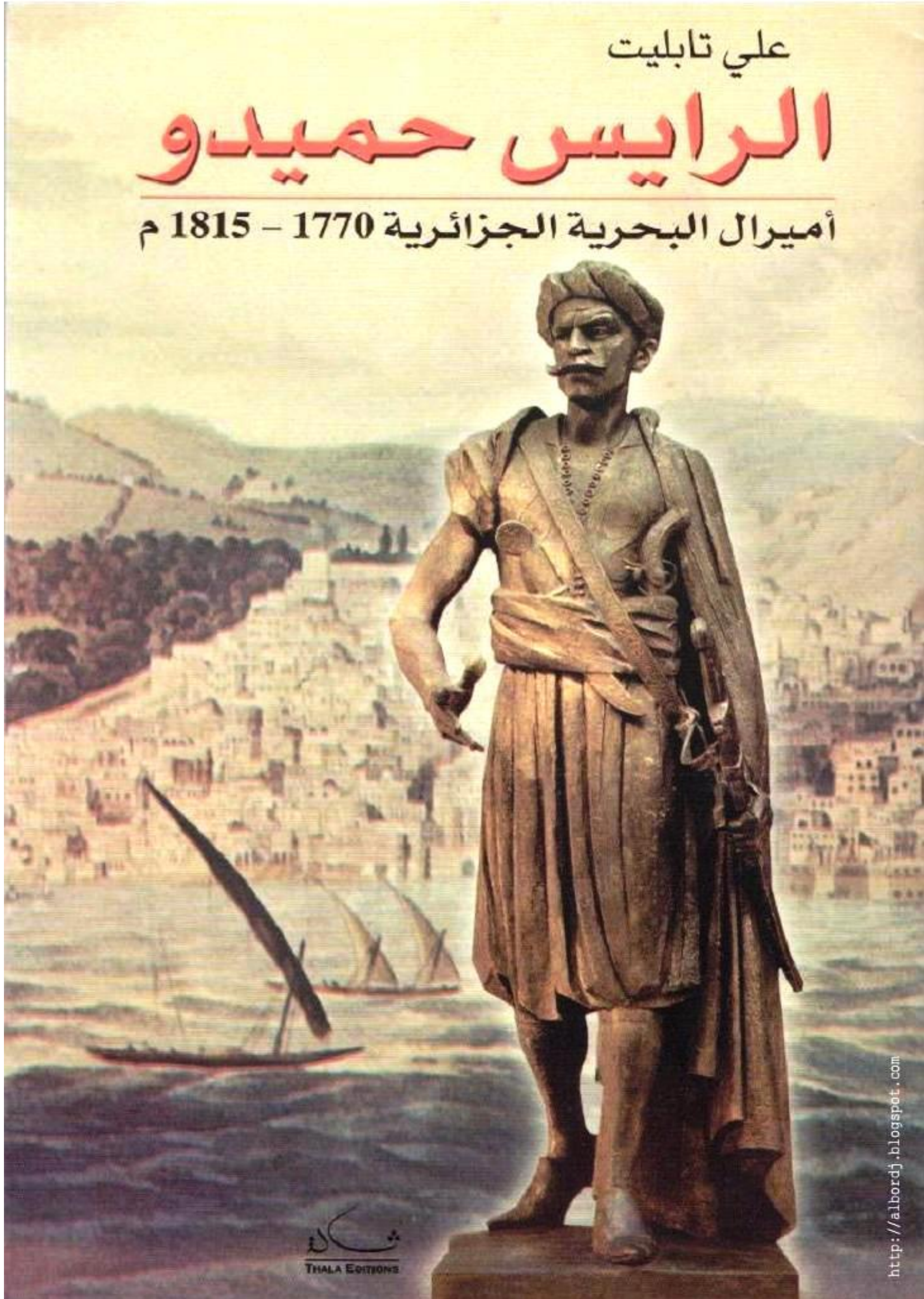

Ein Schiff Capitan von den Algierischen See-Räubern


et Sculps. Aug. Vind
miral der Turckischen Schiffe, der See-Rauber.
von Algier.

الإيطالي جْيُوفانِي دْيُونِيجِّي غالِن (Giovani Dionigi Galen) الذي أصبح جزائريا بعد اعتناقه الإسلام وأصبح يُعرَف بـ: الرّايس العلج علي، ولُقِّب بـ: "الفرْطاسْ"، كان أحد رفقاء خير الدين بربروس، وتوَلّى حُكم البلاد سنة 1568م ليُصبح آخر بيلربايات الجزائر. العلج علي، أو أوتْشْيالي (Ociali) بالنسبة للأوروبيين، قدَّم خدمات كبيرة للأندلسيين خلال ثورتهم ضد الاضطهاد الإسباني في جبال البُشرات بين 1568م و1571م، وأجلى عدد كبير منهم. توفي العلج علي سنة 1587م.



كتابٌ صدر قبل سنوات للصديق الدكتور علي تابليتْ، المحاضر السابق بمعهد الترجمة في جامعة الجزائر، عن حياة الرايس حمِّيدو بن علي.



الشيخ عبد الرحمن القِينْعِي.. "بَـابَـا نُـوَالْ" الفـقـراء

"ضَبْعاتْ النساء تْجيبْ سبُوعَةْ الرّجَالْ"

يحفظ كل الناس المثل الشعبي العدواني القائل: "مائة يْهُودِي وَلاَ وَاحَدْ بْلِيدِي.." لكن لا أحد تقريبا يتذكر ذلك البُلَيْدِي ابن نهج السَّلُّومْ (شارع دي توناك) الذي أسعف ما لا يحصى ولا يعد من الفقراء والمعوزين والذي لم تلد الجزائر مثله منذ وفاته قبل أكثر من قرن.

كان يمتلك حقولا فسيحة وأراضي عقارية شاسعة بسهل المتيجة وضواحي مدينة الجزائر، وعدد كبير من الدكاكين والحمامات والمنازل والقصور خاصة بقصبة الجزائر. طعامه خبز وزيتون طول العام، كما يقول الشيخ عبد الرحمن الجيلالي، وحرفته المفضلة هي التجارة في الحبوب والملابس والدباغة. لقد كان "ملياردير" زمانه بالعاصمة وضواحيها..، وذلك في نفس الفترة تقريبا التي برز فيها جون دافيد روكفيلر بولاية تكساس الأمريكية، بغض النظر عن نمطي معيشتهما المختلفين...

الملياردير "البخيل"

الحاج عبد الرحمن بن علي القينعي، ترك البليدة مسقط رأسه، وهو شاب صغير ليختار مدينة سيدي عبد الرحمن مقر إقامته حتى وفاته، فسكن بالقصبة بحي يعرف بـ: "خْرَبْ بن ميمون" بالقصبة السفلى بين حَيِّيْ سوق الجمعة ولاَلاَّ هُمْ..

هناك نجح في تجارته و وَسَّعَ رأسماله وأصبحت ثروتُه مضربا للمثل وموضوعا للخرافات والأساطير والأعاجيب التي كان يتداولها عنه الناس والتي كانت تسترسل في الخيال عندما يتعلق الأمر بما سيعرف بـ: "كنوز الشيخ القينعي"... كان ذلك في بداية القرن 19م عندما كانت العاصمة لا تزال تحت حكم أواخر الدايات، علي خوجة والداي حسين.

بمرور الزمن، تحول القينعي إلى لغز كبير عند سكان مدينة الجزائر وسهل المتيجة الذين لم يهضموا أبدا التناقض الذي كان يعيش فيه سابحا في الثراء بين أكياس الذهب والفضة وحياة التقشف المتطرف التي كان يعيشها معتمدا على الكسرة أوالخبز والزيتون. فرموه بالبخل وجعلوا منه رمزا للشح والتقتير على النفس وموضوعا للنكت والتهكم..، لكنه لم يتأثر أبدا بالقيل والقال حتى آخر أيامه، واستمر في مزاولة الدراسة من محلاته التي كانت تقع في الفحص خارج باب عزون حيث المسرح الوطني الجزائري ومقهى طُونْطُونْ فِيلْ حاليا.

اللغز العجيب

في الوقت نفسه كان سكان العاصمة والبليدة يتداولون أخبارا عجيبة من حين لآخر عن بعض زملائهم الفقراء الذين كانت تُطْرَقُ أبوابهم في غسق الليل، وحتى تحت الأمطار الغزيرة، ولا يجدون عند فتحها سوى أكياس من المال أو من الألبسة والأطعمة كثيرا ما غيرت أوضاعهم الاقتصادية-الاجتماعية وعالجتها إلى الأبد.
هل كان الأمر يتعلق بـ: بَابَا نُوَالْ (Papa Noèl)، الذي يعرف العام والخاص أنه مجرد خرافة لم يعد يؤمن بها حتى الأطفال، أم بـ: رُوبِينْ الغابة (Robin Des bois)...؟
لا أحد تمكن من حل هذا اللغز الذي بعث الأمل والطمأنينة في نفوس الفقراء في أواسط القرن 19م، وكان على الجميع أن ينتظروا حتى سنة 1868م ليدركوا سر المساعدات المادية الكبيرة التي كانت تصل سرا إلى بيوت المحتاجين على طريقة حكايات ألف ليلة وليلة دون أن يُعرَف مصدرها...
في يوم 14 رمضان 1284هـ الموافق لـ: 9 جانفي 1868م توفي الحاج عبد الرحمن بن علي القينعي في منزله بنهج السَّلُّومْ بالبليدة ودفن في مقبرة ضريح الولي الصالح سيدي أحمد الكبير الأندلسي بِوَادِي الرُّمَّان، بنفس المدينة، على مقربة من قبر هذا الأخير. هنالك عرف الناس من مُقَرَّبي المرحوم بأن "بابا نويل" أو "روبين الغابة" العجيب لم يكن سوى الحاج القينعي لا غير..

ماذا بقي من ذكرى القينعي

قبل ذلك بسبع سنوات، قام هذا الابن البارّ لعشيرة بني قينع البليدية، التي يتوزع أفرادها حاليا عبر سهل المتيجة بين دائرة بوينان ونواحي تابلاط، بالتنازل عن جميع أملاكه بعد وفاته للفقراء المسلمين بعاصمة الجزائر أمام رجال قضاء "المَحْكْمَة" المالكية بالعاصمة وذلك بتاريخ 17 رمضان 1277هـ الموافق لـ: 29 مارس 1861م. كما خصص نصيبا من هذا الميراث الذي قَدَّرَتْهُ السلطات الاستعمارية آنذاك بـ: 1مليون فرنك فرنسي، "حوالي 15 مليار أو أكثر بالقِيَمِ الجارية" لقراء القرآن الكريم بضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي في كل ليلة جمعة، وكذلك لقراء مسجد مدينة البليدة. وحسب الشيخ عبد الرحمن بن محمد الجيلالي: "لا يزال هذا الوقف نافذ المفعول إلى يومنا هذا".
أما أبناؤه، فلم يترك لهما الشيخ القينعي سوى شيئ قليل يحفظهما من الفاقة ويحفظ كرامتهما، فخصص لابنه الحاج محمود 150 فرنك كل شهر والدار التي كان يقطنها بالقصبة، وقد توفي في حياة والده... وجعل لابنته عائشة ولزوجته عائشة بنت اسماعيل 75 فرنك شهريا لكل واحدة منهما مع احتفاظهما بمسكنهما.. فقط.
تحولت أموال الشيخ إلى رصيد إسلامي بـ: "دار الصَّدَقَة"، التي أسَّسَهَا الاستعمار قرب ساحة الشهداء في سنة 1857م لمساعدة الفقراء والمعوزين، وكان وسط دار هذه المؤسسة مزينا حتى بدايات الاستقلال بلوحة كبيرة تحمل صورة الشيخ القينعي.
لم يبق من ذكرى هذا البُلَيْدِي الكريم حاليا سوى اسمه الذي أُطْلِقَ على شارع صغير يقع بين حَمَّام سِيدْنَا ومديرية الشؤون الدينية (قصر الشتاء أو قصر الداي حسان) قرب

جامع كتشاوة ودائرة باب الوادي. لكن كم هو عدد الذين يعرفون العظمة والتاريخ اللذين يختفيان خلف هذا الاسم الذي أصبح نكرة ؟

الصورة الوحيدة المتداوَلة للشيخ المُحسن عبد الرحمن القينعي، وكانت لعقود موجودة في "دار الصدقة" في "القصبة".



وهذا رسم يجسِّد الشيخ القينعي من مصدر قديم يعود إلى ما قبل استقلال الجزائر.



"خَالْتِي مِينَة": آخـر تحفـة بشرية في قصبـة الجزائـر

الله الله قُولُوا لْهَا   إذا رَغْبَتْ زِيدُوا لْهَا
الله الله يا دينـي   زُوجْ مْحَارَمْ يَكْفُونِي
والأسْمَرْ عْلاَشْ مْعَادِينِي..؟

خالتي مينة تحفة بشرية نادرة وثمينة وسط قصور وأطلال قصبة الجزائر شاهدة على قرن من الحياة الحميمية بـ: "محروسة" سيدي عبد الرحمن الثعالبي.

تجاوز عمر خالتي مينة 97 عاما في سنة 1999م وبدأ جسدها يستسلم للشيخوخة، لكن هذه السنين الطويلة التي عاشتها بقصبة الجزائر لم تؤثر على حيويتها وخفة روحها وحضور بديهتها وطرافة الحديث معها.

خالتي حْلاَوَتِي، كما لَقَّبَها الذين تذوقوا "قْنِيدْلاَتَهَا" و"دْزِيرِيَّاتَهَا"، تُقيم بأحد القصور العتيقة البالية المُشِعَّـَة بفخامة الفن المعماري الجزائري- الأندلسي- العثماني بالقصبة في حي سيدي رمضان حيث تعيش حياة بسيطة على وقع ذكريات الماضي والشباب والترف الذي عاشته في كنف زوجها المرحوم أحمد بن المرابط المدفون بضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي. وهي تحفظ في ذاكرتها وقائع وصور حية عن الحياة العاصمية منذ بداية القرن 20م بِحُكْم انتمائها إلى عائلة من وُجَهَاءِ وأعيان المدينة وبِحُكْم مجاورتها لكبار رموزها الثقافية والاجتماعية.

لقد سَكَنَتْ على بضعة خطوات من دار سي محمد بن التفاحي، الفنان والاستاذ الكبير في الغناء الاندلسي، الذي تتلمذ على الشيخ محمد بن علي سفنجة أكبر وألمع فناني القرن 20 م في هذا الميدان. كما حضرت، منذ أن كانت تسكن في "عْقِيبَة الشّيطان" (شارع سَاطَانْ)، أعراس "المْسَمّْعَة" اللاَّ يَامْنَة بنتْ الحاج المهدي، التي سلبت عقول نساء المدينة بصوتها وأزجالها قبل وفاتها في سنة 1932م، والتقتها عن قرب في حفل زفاف بنت سي غِيدَة الجيجْلي، "الذي كان يسكن في زَنْقَةْ بُوعَقَّاشَة"، من محمد مَزْغَنَّة.

"الطَّارْ، الطَّارْ، وَافْتِيهَا يَا رَاسْ الحْمَارْ"

لا زالت خالتي مينة تتذكر تفاصيل دقيقة عن الحياة العاصمية، عن فخامة اللاّ يامنة وعن آلة "الطَّارْ" التي كانت تنقرها عْوِيشَاتْ رفيقة دربها، وعن بعض ألغاز ذلك الوسط الفني مثل "الطارْ، الطارْ، وافْتِيهَا يا رَاسْ الحْمَارْ"! ولا زالت تحفظ عن ظهر قلب "البوقالات" و "السّْلِيسْلاَتْ" العاصمية العتيقة التي طالما غنَّتها اللاّ يامنة والشيخة طِيطْمَة ثم مريم فَكَّايْ وفضيلة الجزائرية بعدهما؛ مثل الأغنية الافتتاحية التقليدية

للأعراس العاصمية "رَانا جيناكْ يا ضَوْ عِينَيَّ... دارْ عْلَى دَارْ.. أحْنَا سْكارَى ورَبِّي غفَّارْ..".
خالتي مينة.. هل كنتم تسكرون في الأعراس؟ ترد على الفور مستنكرة : "لاَ لاَ يَا كبْدي وْليدي، هذا الشيء حْرَامْ.. كُنَّا نْغَنُّوا ونَضحْكُو بَرْكْ...". ثم بصوت عذب لم يتأثر كثيرا بثقل السنين السبعة والتسعين التي عاشتها، تُرَدِّدُ خالتي خْلاواتي بابتسامة دافئة مقطوعةً كانت من أجمل ماغَنَّتْهُ اللاّ يامْنة: "الله الله قُولُوا لْهَا... إذا رَغْبَتْ زِيدُوا لْهَا.. الله الله يا ديني.. زُوجْ مْحَارَمْ يَكْفُونِي.. والأسْمَرْ عْلاَشْ مْعَادِينِي...".
"واشْ مْنَ سْفِيرِيَة.. وَاشْ منْ شْبَاحْ الصَّفْرَاء"..
اسمها الحقيقي سَقَّالْ الضّاوية، وُلِدتْ في 4 أفريل 1905، ولعل ولادتها في فصل الربيع هي سر بشاشتها وخفة روحها و"فَحْشَشتها". عندما توفي زوجها الأول وهي في الستين من عمرها، كانت خالتي مينة ما تزال شابة أنيقة وحلوة على مستوى كبير من الجمال الذي استقطب اهتمام من سيكون زوجها الثاني أحمد بن المرابط الذي تعزه إلى درجة أنها تُلَقِّبُه: "الدَايْ علي خوجة"... "خالْتَكْ مِينَة كِي كَانَتْ عْلَى دِيدَانْهَا، كان شَعْرْهَا يوصل هْنَا..." وأشارت بيدها إلى خصرها... ورغم تَحَفُّظ أسرة الخطيب الثاني من هذا الزفاف، إلا أنه تمَّ في ظروف جيدة... وسرعان ما أحب الجميع خالتي مينة التي سحرتهم بأطباقها وأبدعت لهم في فن الطبخ حتى كادوا أن يلتهموا أصابعهم: "واش من سْفِيرِيَّة، وَاشْ منْ شْباحْ الصَّفْرَاء، وَاشْ منْ سَكْرَانْ في الدْرُوجْ، وَاشْ منْ البَرَّانِيَة، وَاشْ منْ طْعَامْ بَالْفْلِيُو"... أطباق أسالت حسب تعبيرها لُعَاب العائلة والجيران بمن فيهم الأوربيين، لأن الجزائر كانت لا تزال محتلة آنذاك، الذين كانوا يأتون إليها ليتذوقوا كنوز فن الطبخ الجزائري ويستمتعون بـ: "حَطَّة" خالتي مينة وهي في زَيِّها التقليدي العاصمي بـ: "مْحَرْمَة الفْتُولْ" و"سَرْوالْ الشَّلْقَة" والبَابُوشَة... "إِيهْ يا كَبْدِي وْلِيدِي"...
ثم تتحدث خالتي مينة عن أعراس زمان وتنتقد انحطاط أعراس اليوم وزوال تقاليد وعادات القصبة العريقة بأسف شديد ولهجة ساخرة، وتتذكر كيف كان "الطْبَقْ" الذي يُقَدَّم للعروس يتكوَّن من "الكُوفْرِيَاتْ" الخشبية المُزَيَّنَة بالأشكال والألوان المملوءة بـ: "الصياغة والعْصَاصَبْ، والمْسَايَسْ وخيطْ الرُّوحْ والجْوَاهَرْ".. ثم تُعَلِّق بنبرة خافتة حزينة: "يا وْلِيدِي مَاشِي لَبْلاَدْ.. عْبَادْهَا"...
خالتي مينة والأميرة خْدَاوَجْ العَمْيَاء
أكدت خالتي مينة مرارا بأن لها علاقة قرابة عائلية مع الأميرة "خْداوَجْ العَمْيَاء" التي مازال قصرها الرائع موجودا بالقصبة السفلى، وهو في الوقت الحالي مقر المتحف الوطني للفنون والعادات الشعبية الذي سبق ذكره.
لقد كانت خداوج البنت الجميلة المُدَلّلة لحسان باشا أحد أكبر دايات الجزائر الذي حكم من 1792م إلى 1798م قبل أن يخلفه ابن أخته الداي مصطفى باشا الشهير، وكانت الأميرة خْدَاوَجْ فتاة حَسْناء بلغت من الجمال مستوى جعلها تفتتن هي نفسها بنفسها إلى درجة أنها أمضت وقتا طويلا من حياتها تتأمل بنرجسية تقاسيم وجهها الفَتَّان في المرآة

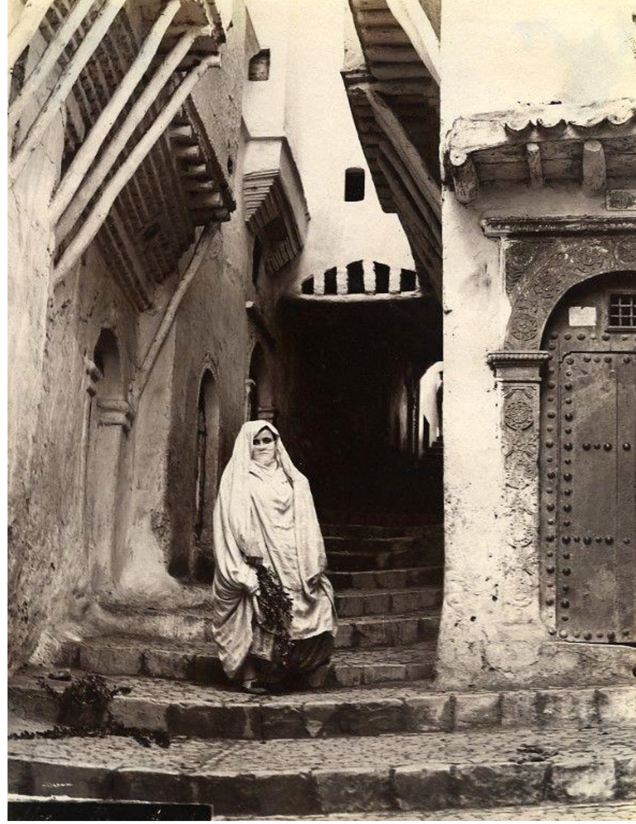
حتى أُصيبتْ بالعمى. وتقول الأساطير أيضا بأنها كانت تعاني من قصر النظر لذلك لُقِّبَتْ بـ"العَمْيَاء"..، غير أن خالتي مينة تُفَنِّد بقوة هذا الادّعاء وتقول: "مَا كَانْشْ مَنْهَا.." وتُفَضِّل الأسطورة الأولى.

كما تعتقد خالتي مينة أن الداي علي خوجة الشهير بـ: "اللُّوكُو"، الداي ما قبل الأخير في الجزائر الذي تلاه بعد موته بالطاعون الداي حسين، من أقارب زوجها المدفون بمقبرة ضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي، ولعل ذلك أحد أسباب تلقيبها لهذا الأخير بـ: علي خوجة عندما تتناوله بالحديث.

"أبْقَاوْ عْلىَ خِيرْ، وَاحْنَا مْشِينَا"

عند خروجنا من بيتها الصغير عَبْرَ "وَسْطْ الدَّارْ" لنعود إلى حي الباب الجديد لاستراحة قصيرة بِقَهْوَة بُوزُورَانْ، بَعْدَ عُبورِنا شارعي قَطْعْ الرَّجَلْ (كَاتَارُوجِيلْ باللغة الفرنسية) وبَرْبَرُوسْ بسيدي رمضان في أعالي القصبة، أصَرّتْ خالتي حْلاواتي الحِلْوَة، رغم تعبها، على مرافقتنا حتى باب الدار لتُشَيِّعَنا وهي تغني بصوت عذب وبهيج والابتسامة تعلو وجهها النحيف: "أبْقَاوْ عْلَى خيرْ وَاحْنَا مْشِينَا..واللِّي يْحَبْنَا يَحْلَفْ عْلِينَا"... فالله يبقيك على خير خالتي مينة..، وأطال في عمرك، لأن طول عمرك هو، على الأقل إطالة في عمر "ريحْةْ البَهْجة" "المحروسة بالله"..، ذلك العطر الذي يبحث عنه عبد المجيد مسكود بحرقة منذ سنوات في مرثيته الحزينة لمدينة سيدي الثعالبي.. الله يزيد له في الشان...دون أن يجده.

نساء في "بهجة" سيدي عبد الرحمن الثعالبي بين القرن 19م واليوم.





حْسِيسَنْ مَانْيُوسْ... ضمير القصبة

في أحد الأيام الحزينة من سنة 1957 وفي خضم التوتر الذي ساد أثناء "معركة الجزائر" (Bataille D'Alger) اختطفه الجيش الاستعماري برفقة أخيه محمد الأكبر منه سنا من البيت بالقصبة العليا، واقتادهما إلى مركز التعذيب قرب مسجد سيدي مْحَمَّد الشريف. هناك، حدث ما حدث...، ثم أَلْقَى بهما في غرفة مظلمة...

مع طلوع الفجر، انتبه إلى أن أخاه الأكبر الذي توسد رجليه النحيفتين بعد أن أنهكه التعذيب لم يتحرك منذ لحظات طويلة... واكتشف فجأة أنه قد مات شهيدا بين يديه... تحت الصدمة، صرخ حْسيسَنْ صرخة عنيفة كالزَّئِير بلغ صداها مختلف أرجاء حي سيدي مْحمَّد الشريف قبل أن يفقد الوعي ويدخل في غيبوبة طويلة...

كانت هذه الفاجعة أول خطوة له نحو الاختلال العقلي الذي سوف يلازمه باستمرار منذ نهاية الستينيات حتى وفاته عام 1995م.

"مجنون القرية" و"تشْبَاتشِقْ اللَّيَالِي"

لكن في هذه اللحظات لم يكن يعلم أنه سيصبح بهذا التحول أكثر أهمية بالقصبة وببعض أحياء الجزائر الوسطى وباب الوادي مما كان عليه قبل هذه الحادثة وهو يَتمتَّع بِكُلِّ قُدُرَاتِه العقلية. تحول بالفعل تدريجيا إلى مَعْلَم اجتماعي- ثقافي في قلب العاصمة طيلة ثلاثة عشريات وأصبح أحد أهم توابلها من خلال أدائه، الذي لم يختاره، دور "مجنون القرية" (Le Fou du Village) بِبُعْدِهِ الفلسفي- الفكاهي بنجاح مثير.

حْسِيسن مانْيوسْ (Manius) هو اللقب الذي أصبح يُعرف به منذ أن أطلقه أبوه عليه لأول مرة ويكون قد تمّ اشتقاقه من كلمة La Manie الفرنسية التي تعني الهَوْس...

لا يحتاج مانيوس إلى التعريف أو التذكير به لأن الناس الذين عرفوه بالقصبة وزملاء المهنة بالبريد والمواصلات لازالوا يحنون إلى خفة روحه وعباراته القوية الذكية وصيغاته اللغوية الفريدة من نوعها التي سرعان ما كان الناس يتبنونها بسهولة كبيرة لدقتها وقوتها التعبيرية، وأيضا لنكهتها الساخرة اللاذعة التي تحتوي على شحنة كبيرة من الدهاء. فهو أول من اجتهد لترجمة مصطلح Les boîtes de nuit قبل جمعية الدفاع عن اللغة العربية وهياكل التعريب التي سبقتها، وذلك منذ بداية السبعينيات.

فاختار لها صيغة شعبية، كثيرا ما تداولها الناس آنذاك بالقصبة، وهي "تْشَبَاتْشِقْ اللَّيَالِي" وتَرْجَمَ La chauve – souris أي طائر الخُفَّاش، إلى "الطُّوبَّة الفَرْطَاسَة" وله الكثير من الإبداعات في هذا "المضمار"، كما يقال عند كلاسيكيي لغة الضاد.

الصهر المستحيل لعائلة شوفالْيِي

عندما شفي حْسِيسَنْ مَانْيُوسْ من صدمة فقدانه لأخيه، تابع دراساته وأصبح منذ 1962م مُعَلِّمًا للغة الفرنسية التي كان يتذوقها ويتقنها جيدا. خلال هذه السنوات، تعرف على زميلةٍ له فرنسيةٍ تنتمي إلى عائلة شوفاليي (Chevalier) الفرنسية العريقة التي كان نائب

مدينة الجزائر آنذاك، الشهير جاك شوفاليي، أحد أبرز أفرادها. فنشأت بينهما صداقة وثيقة تحولت إلى حب قوي حَلِمَا معاً بأن يثمر بالزواج، خصوصا وأن المعلمة الفرنسية بقيتْ بالجزائر بعد الاستقلال... لكن أب مَانْيُوسْ رفض الفكرة متذرعا بأنه لا يرضى بأن يتزوج ابنه من فتاة أجنبية غريبة لا يعرف لها أهلا أو أصلا بالجزائر. في الوقت الذي كان حسيسن قصبجيا أصيلا ومتفتحا في نفس الوقت على زمانه وعلى الثقافات الأخرى...

بعد معارضة أبيه ارتباطه بالمعلمة الفرنسية، غاب حسيسن عن الأنظار بضعة أيام، حيث سافر إلى مدينة إيكسْ أونْ بْروفونْس (Aix-en-Provence) بمقاطعة مرسيليا الفرنسية وعاد مرفوقا بأب فَتاتِه ليُفْشِل مناورة أبيه وذرائعه. غير أن أمله خاب عندما سمع أباه يرد على الفرنسي شوفالْيِيه، الذي كان يتوسل إليه بأن يبارك زواج حْسيسن من ابنته، بأن كرامته كجزائري حارب الاستعمار لا تسمح له بمصاهرة الاستعمار... حدث ذلك بالمقهى- النادي الذي كان تابعا لفريق اتحاد الجزائر لكرة القدم بسوسطارة في أواسط الستينيات.

فكان هذا المشهد صدمة كبرى وحاسمة لِحْسِيسَنْ أَثَّرَتْ كثيرا على معنوياته وأدخلته عالم الإدمان لبضع سنوات. ومنذ تلك الصدمة لم يسترجع توازنه النفسي أبدا وفقد طمأنينته حتى وفاته.

في منتصف الستينات، يضيف أخوه عَنْتَر لِقَايِمَةِ صدمات حسيسن صدمة أخرى فيزيولوجية تعرض لها عندما تَلَقَّى لَكْمَةً عنيفة في الرأس خلال شجار مع أحد أبطال الجزائر السابقين في الملاكمة، وذلك بنفس الحي الذي شهد تبخر أحلامه العاطفية.

صديق الوزراء

منذ هذه الفترة، بدأت أعراض الاختلال العقلي تظهر بوضوح عليه، ولم ينجح العلاج المستمر سوى في تخفيف الداء وإحالته على عُطل مرضية لبضعة أشهر كانت تسمح له بالالتحاق بمنصبه الجديد بمصلحة الطرود البريدية بالبريد والمواصلات حيث لازالت ذكريات "هَدّاتِهِ" الطريفة موضوع حديث زملائه حتى اليوم. ويعود الفضل في التحاقه بهذه المؤسسة لأحد أصدقائه الذي شغل عدة مرات منصب وزير البريد والمواصلات وهو السيد عبد القادر زَيْبَقْ...

في بداية السبعينيات، سمحت إحدى فترات النقاهة لِحْسِيسَنْ بمتابعة تربص مهني بألمانيا الشرقية..، غير أنه لم يتممه بسبب تدهور حالته النفسية، مما أدى إلى إحالته على مستشفى للأمراض العقلية. هناك أظهر ذكاءً خارقا أدهش الألمان لأنه كان الوحيد في تاريخ هذه المؤسسة الصحية العريقة الذي تمكن من الفرار منها بحيلة خاصة رغم الإجراءات الأمنية المشددة على المرضى وتحركاتهم. وعاد مانيوس إلى أرض الوطن دون أن يعثر مسؤولو المستشفى على آثاره.

حسيسن الميكانيكي

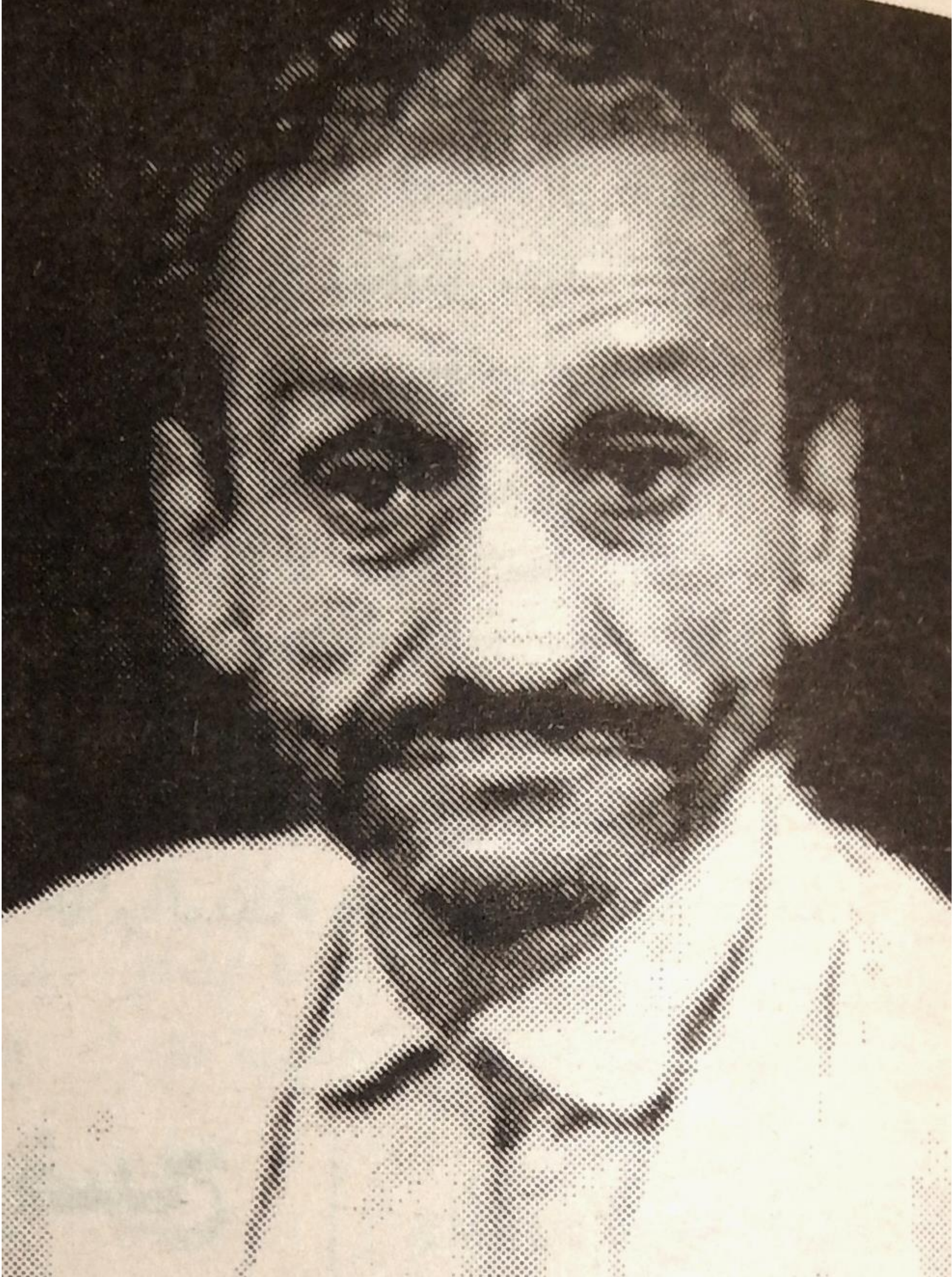
ظهرت أعراض ذكائه الخارق في سن مبكرة بحيث كان أول من زَوَّد في نهاية الخمسينات عربة "لامْبْرِيطَا" (Lambretta) بميكانيزم السّير الخلفي (La marche-arrière) قبل

المصنع الذي اخترع هذه السيارة. نبغ في الميكانيك بنفس القدر الذي نجح في عمله لمدة سنة أو أكثر في مطلع السبعينيات بديوان امتحانات البكالوريا بـ: تيليملي. كان يتقن قواعد اللغة الفرنسية بدقة مهووسة حتى آخر أيامه ويتحدثها بطلاقة كبيرة. كما سمحت له ذاكرته القوية وقدرته الدقيقة على الملاحظة بأن يتحول إلى ذاكرة القصبة البعيدة والقريبة، بحيث كان على علم بكل ما يحدث بهذه المدينة العتيقة، ربما أكثر من سيدي منصور، وبأسرار الحياة اليومية لسكانها وحتى "بالماضي الثوري" لثوريّي اللحظات الأخيرة... وكان ذلك أمرا خطيرا.

كان حْسيسن هاويا لمساعدة عجائز "الحومة" على حمل قفف الخضر والفواكه والاستفسار عن صحة ذويهن وأبنائهن، ويتأثر لِمَشَاهِد "الحقرة" التي ينتقدها جهرا بعباراته المتفجرة بالفكاهة اللاذعة، حتى أن الكثير من الناس كانوا يتفادون لقاءه عندما يتورطون في الأخطاء والفضائح. كما كان رقيق العاطفة وحساسا لقصائد وأنغام الحاج ْمحمد العنقاء وهاويا للثقافة والسلوكات "الرّجْلاوِيَة" العاصمية مع تقديره الخاص لأغاني دحمان الحراشي التي تتقاطر حكمة. بقي يردد حتى وفاته بشغف روائع العنقاء "سبحان الله يالطيف"، "الحمام اللِّي وَالَفْتُه مْشَى عْلِيَّ"، "مَرْسُولْ فاطمة" وبصفة خاصة "أنايَا بحْمَاكْ قُلْتْ لْها يا وَلْفي مريم" التي كان يحسن حتى عزفها على آلة الموندول والقيثارة...

في سنة 1995م، في قمة اختلاله ونضجه في نفس الوقت، توفي حسيسن سَكَّايْ المعروف بـ: مانيوس عن عمر يناهز 52 سنة تاركا وراءه أرملة ويتيما في عمر الزهور بعد زواج متأخر تم في منتصف الأربعينات من عمره، وفراغا هائلا بسوسطارة والقصبة. وقد شُيِّعتْ جنازته بمقبرة القطار في أجواء مهيبة حضرها جمهور غفير من الذين عرفوه وأحبوه كما يحدث في جنازات الشخصيات والوجهاء، لأن مانيوس لم يكن شخصا عاديا... لا هو "مجنون" تماما، ولا هو عاقل تماما.. بل بقي طيلة حياته يتأرجح بين الحكمة والجنون بذكاء فائق ساعد الناس على رؤية أنفسهم في مرآة انتقاداته الساخرة... لقد كان ضمير القصبة في هيئة "مجنون القرية".

معلّم اللغة الفرنسية حْسِيسَنْ سَقَّائ المدعو "مانْيُوسْ" رحمه الله.



تَحيَّــة لِحَمِيـرِ القصبـة !

قَالْ العيَّارْ مَنْ لاَ يَدْرِي مَعْنَى وَ لاَعْبَرْ قَيَّسْتْ كْلاَمُه إذا هْدَرْ كَصَوْتْ الحِمَارْ
عَنْدْ المُولَى مَنْكُورْ مَا قْرَا

بَلْقَاسَمْ البُورَاشْدِي (شاعر)

يتشرف الحمار دون غيره من الكثير من الحيوانات بورود اسمه في القرآن الكريم وبخدمته للإنسان بوفاء وإخلاص منذ فجر التاريخ... مدينة الجزائر، التي أَقْصَتْهُ من الاحتفالات بأَلْفِيَتِهَا في عام 1999م، سهر قرونا طويلة ولا زال ساهرا على نظافتها، وأنقذ ثقافتها من لهيب الحروب، كما ساهم في إفشال أحد أكبر انقلاباتها السياسية...

دخل حمير القصبة التاريخ من بابه الواسع بحضورهم في مؤلفات ومذكرات الرحالة والجغرافيين المسلمين والأوربيين الذين وَقَعُوا دون شك في زحمتهم في الأزقة والمسالك الضيقة للمدينة.
الإسباني هَايِيدُو، الفرنسي فُونْتُورْ دُو بَارَادِي، البريطاني الدكتور شَوْ والأمريكي جِيْمْسْ كَاثْكَارْتْ وغيرهم، أثنوا بشكل أو بآخر على فضل الحمار على المدينة في كتبهم التي أصبحت مراجع أساسية لتاريخ مدينة سيدي عبد الرحمن في العهد العثماني.
كَتَبَتْ لُوسْيَانْ فَافْرْ (Lucienne Favre) في "كُلِّ ما يُجْهَل عن قصبة الجزائر" في الخمسينات الماضية عن: "حمير ينقلون الفضلات وفي أَعْيُنِهِم رِقّة وأَلَم بشريَّيْن (...)، فَيَسْكُنُ بعضُهم القصبة وينامون في أقبية لا ضوء فيها ولا هواء برفقة أصحابهم من البشر".
في هذا الماضي القريب استفاد الحمير من فترة استراحة، بحيث حُوِّلوا إلى نقل مواد البناء بصفة خاصة بعد أن ابتدع الاحتلال نظام تنظيف للمدينة العتيقة بواسطة "السِّيَاقين" والأطنان من مياه البحر. لكن بعد زوال هذا التقليد الموروث عن عهد جاك شوفاليي، عادت حليمة إلى أشغالها الشاقة القديمة منذ أواسط السبعينات. وقد استنفذت هذه المهمة الصعبة والمضنية طاقة الحمير وقضت على عدد منهم في السنوات الأخيرة خصوصا وأن البشر لم يُسَهِّلوا لهم القيام بعملهم.

أقل من 40 حمار لتنظيف القصبة؟

أندري ريموند (André Raymand) صاحب "المدن العربية الكبرى في الفترة العثمانية" وأحد أكبر المختصين والخبراء في المدينة الإسلامية ، أكرم الحمير بصفحة ونصف من كتابه التحفة سنة 1985م اعترافا لهم بدورهم الأساسي في تنظيف ليس مدينة الجزائر فحسب، بل حتى تونس والقاهرة وحلب والقدس ودمشق... واليوم، كل ما بقي

من هذا "السلف الصالح" لآل الحمار بقصبة الجزائر يمكن اختصاره في اصطبل يقع أسفل مقبرة القطار بِوَادِي قُرَيْش، قبالة حي مناخ فرنسا (Climat De France)، يحتوي على أقل من 40 حمارا، عدد منهم عاطل بانتظام عن العمل بسبب الأمراض والشيخوخة..، مما جعل هذا الإصطبل مركزا للخدمات الاجتماعية الخاصة بهذا الحيوان في نفس الوقت الذي يقوم فيه بالسهر على تنظيف المدينة. يؤكد أحد قدماء هذه المؤسسة التابعة للبلدية بأن أثناء العهد الاستعماري كان الإصطبل يضم 70 إلى 80 حمارا تمتعوا بظروف عمل أفضل بكثير من نظيرتها في الجزائر المستقلة. ظروف رُوعِيَتْ فيها مختلف الإجراءات الوقائية الصحية بفضل طبيب بيطري كانت تربطه بهم علاقات حميمة قوية جعلته يسهر على راحتهم وصحتهم كما يفعل مع أطفاله...

عمِّي مُحَمَّد، أحد قدماء منظفي القصبة المتقاعدين، أكد بعد اشتغاله مع الحمير طيلة 38 سنة، بأنه كان لهؤلاء الحق في "الدُّوشْ" بانتظام وفي غسل المعدة من طرف البيطري في حالة الإصابة بآلام البطن وفي التطعيم بمختلف الحقن الضرورية للصحة وفي أنواع أخرى من الأدوية وفي تطهير الأظافر وحتى في المشط "بالقَرْدَاشْ" الخاص بهم، دون ذكر الاعتناء الخاص بالمأكل والمشرب.

كان ذلك يحدث في عهد المُعَمِّر، الإيطالي الأصل، بِرْلِسْكُونِي (Berlusconi) الذي اشتهر في الخمسينات برِفْقِهِ بالحمير وبقساوته على البشر الأنديجان الذين كان يُسَيِّرهم بصرامة شديدة حاملا معه في جيبه مسدسا للتهديد وحتى لاستخدامه لو اقتضتْ الضرورة...

جامعة "كْلِيمَا دُو فْرَانْسْ" !

والوحيد الذي تمسك بهذا الاحترام الكبير للحمير وحافظ على التقاليد الاستعمارية في هذا المجال هو "كِيكِي" الذي تقاعد في الثمانينات ويكون قد توفي، حسب بعض زملائه، منذ بضعة سنوات..، وكانت وفاته خسارةً كبيرةً ونكبةً للحَمِيرِ كانت سَتَنْعَكِسُ على عددهم الذي تناقص متسارعا بسبب الوفيات الناتجة عن الأمراض وكبر السن، ثم عدم تجديد السلطات المحلية لحضيرتها من هذا الحيوان.

حسب قدماء الإسطبل، الذي يحلو للبعض تسميته "جامعة كْلِيمَا دُو فْرَانْسْ" أو "أُوتِيلْ الحمير" (Hotel)، لم يشتر المسؤولون المحليون في ظرف الخمسة والثلاثين سنة الأخيرة أكثر من 10 أحمرة، وجلهم من جيل الاستقلال. يُقال عنهم إنهم "لا يصلحون لا للدف ولا للقمْبْرِي" بسبب، من جهة الكَسَل و"التَّفْيَاسْ" كالبشر، و من جهة أخرى لضعفهم الجسدي وقِصر قامتهم، مما يقلص من قدرتهم على تحمل الأثقال ويعرقل عملية السير بها لأنها تصطدم عادة بالأرض وبـ: "الدّْرُوجْ"... هؤلاء الحمير ليسوا من "أولاد البْلاد"، ممّا يجعل عملية تكوينهم وتَعْوِيدهم على السير في المدينة وعلى مسار العمل ونقاط التوقف أمرًا شاقًّا يتطلبُ وقتًا طويلا وجهودا كبيرة من طرف عمال النظافة المُدعَّمِين بالعِصيّ الغليظة. لذلك ، يُقال بأن أغلبَ حَمِيرِ القصبة الجدد غَيْرُ مُؤَهَّلين لوظيفة النظافة بالقصبة، عكس أجدادهم الذين شاركوا مشاركة حاسمة حتى في صنع تاريخها بل وتاريخ كل الجزائر.

الحمير ينقذون الداي..

في سنة 1816م عندما أطاح الجيش الإنكشاري بالداي عمر باشا وأتى بعلي خوجة مكانه، سارع هذا الأخير بعد فترة قصيرة إلى نقل مقره الرسمي من قصر الجنينة بساحة الشهداء إلى القلعة الحصينة بالباب الجديد كوقاية من الحركة السياسية المعادية له داخل الجيش، لأن بعض قياداته كانت تُحَضِّرُ انقلابا جديدا.

أثناء انتقاله من أسفل إلى أعلى القصبة، لم يتمكن الداي علي خوجة من الاستغناء عن خدمات الحمار، ويقال أنه اعتمد على 400 حمار وبغل لنقل متاعه وأمواله ليلا وبطريقة سرية من غروب الشمس حتى طلوع الفجر. ثم بعد نجاحه في إفشال محاولة الانقلاب، واصل نقل ما تبقى من قصر الجنينة من أموال وكنوز "الخزنة القديمة" إلى "الخزنة الجديدة" بالقلعة طيلة 36 ليلة على ظهر 300 حمار وبغل كل ليلة. ولو لم يُهَرِّب الداي معه أمواله بهذه السرعة لما نجح في البقاء على العرش، لأن السلطة كانت ولا زالتْ لِمَنْ يَملكُ الكنوز...

في الحقيقة لا يكاد يوجد شيء أو حدث في قصبة الجزائر دون أن يكون للحمير فضلا عليه، لأنهم نقلوا مواد البناء لتعميرها، وأحجار أطلال مدينة تامنفوست ومحجرة باب الوادي لبناء مرسى المدينة في 1529م، كما قدموا خدمات لوجستيكية إستراتيجية لبَحَّارة علي بتشين في القرن 17م، ثم مراد رايس والرايس حميدو في إيصال المؤن والمعدات من وإلى السفن الراسية، دون ذكر دورهم الصحي في تنظيف المدينة. وعندما كان فرانسوا دوكان يقصف الجزائر باسم ملك فرنسا في عام 1683م متسببا في تحطيم ثلثي المدينة وحرقها، سارع الحمير إلى انقاذ عدد هام من الكتب والمخطوطات التي كانت موجودة بالجامع الكبير من لهيب الحرب بمساعدة الجمال وهربوها إلى حصن الإمبراطور بالتاغاران (Tagarins) بعيدا عن دائرة الخطر.

أحفاد هؤلاء الحمير، يجوبون اليوم شوارع القصبة ليلا ونهارا لتطهيرها من نفاياتها بإحباط كبير، نظرا لظروف العمل القاسية وقلة عددهم بالمقارنة مع حجم الطلب على خدماتهم، بالإضافة إلى شعورهم بعدم تلاؤمهم مع الألفية الثالثة والتصور الذي يريد مسؤولو العاصمة إعطاءه لها. فهل فكر هؤلاء في إعفائهم من هذا العذاب وإحالتهم على التقاعد بعد كل هذه القرون التي خدموا فيها عاصمتهم بوفاء وإخلاص وفي استبدالهم بنظام تطهير يتناسب مع العصر؟.

الحمير كانوا دائما أصدقاء جيِّدين للأطفال، بمن فيهم أطفال أصبحوا أدباء كبارا على غرار المصري توفيق الحكيم. هنا، نحن في مرتفعات مدينة الجزائر التاريخية، "القصبة"، في لوحة للفنان الأمريكي بريجمان تعود إلى سنة 1873م.



حِمار من حمير "المحروسة" عند باب عزّون حوالي سنة 1830م بُعيْد الاحتلال. هذه البقعة هي اليوم ساحة بور سعيد.



حمير المدينة أمام باب "دار السلطان"، أو قصر الداي، في الباب الجديد خلال دوريات جمع القمامة. هذا القصر كان قلعة للدفاع عن المدينة منذ بنائه في نهاية القرن 16م قبل أن يجعله الداي علي خوجة في 1816م مقرّ الحُكم، أيْ "دار السلطان" ليتحصَّن فيه من الانقلابيين ويُباشر منه إصلاحات عميقة وشجاعة للمؤسسة العسكرية.



عندما كان فرانسوا دوكان يقصف مدينة الجزائر من البحر، كان حمير المدينة في مهمة ثقافية تاريخية أنقذوا بمقتضاها مجموعة كبيرة من الكتب التي كانت تزخر بها المدينة إلى "كدية الصابون"، أو حصن الإمبراطور، في حومة "الثغريين" (تاغاران) قرب الأبيار. اللوحة: الاعتداء الفرنسي على مدينة الجزائر في 1683م، وتم الرَّدُّ عليه بالمدفعية وأيضا بوضع القنصل/الرّاهب الفرنسي "لوفاشي" (Levacher) في فوهة أحد المدفع الجزائرية في المرسى وقذفه نحو السُّفن المعتدية.



على اليمين، "دار الإمارة" أو "قصر الجُنيْنة"، الذي كان مقرّ الحُكم في الجزائر منذ سالم التومي وبعده الأخويْن عروج وخير الدين بربروس في بداية القرن 16م إلى غاية رحيل الداي علي خوجة إلى "دار السلطان" الجديدة في حومة الباب الجديد. خلال هجوم فرانسوا دوكان على "المحروسة"، كان مقر الحُكم هنا في قصر الجُنَيْنَة المقابل للجامع الجديد والبحر. اللوحة تعود إلى سنة 1845م عند تدشين المحتلين تمثالَ دوق أورليان مَلِك فرنسا ممتطيًا جواده. هذا المكان يُسمى اليوم: ساحة الشهداء، الذين بفضل تضحياتهم اقتُلِع التمثال من هذه البقعة سنة 1963م لِيُعاد من حيث أتى. وهو اليوم في إحدى ساحات نويي سور سان المحاذية للعاصمة الفرنسية باريس.



قصر الجُنَيْنَة على اليسار مقابلا الجامع الجديد والبحر على اليمين. خلال العقود الأولى للاحتلال.



حمار من حمير "المحروسة" داخل المرسى القديم في مدينة الجزائر أمام عين أميرالية المحاذية لضريح سيدي إبراهيم البحري. اللوحة للأمريكي بريجمان خلال النصف الثاني من القرن 19م.



حمير "البهجة" في شارع البحر الأحمر 1894م قرب السور والستارة (سوسطارة) وشارع سور ميدي على بُعد خطوات.



الفصل الرابع:

تَحَوُّلاَت و..غُمُوض

متى تُسْتَرْجَع كنوز القصبة...؟

تَسْوَى مْايَةْ هَيْفَاء غِيرْ المُخْتَــارْ وْمْايَة جَارْيــة سُودَانِــي
تَسْوَى مْايَةْ عَلْجَة مَنْ بْنَاتْ الكُفَّارْ تَسْوَى خْزَايَنْ العُثْمَانِـــي

ابن سهلة (شاعر)

في إيفيان 1962م، لم تكن الحكومة الجزائرية المؤقتة تُصَدِّق أنها انتزعت فعلا استقلال البلاد، لذا كان من الترف بالنسبة للمفاوض الجزائري أن يطرح على طاولة المفاوضات مسألة التعويضات عن أضرار الحرب المادية والمعنوية. أما التعويض عن أضرار الاحتلال منذ 1830م فهذا ما لم يكن قد خطر على بال كريم بلقاسم وزملائه... كانت الثورة مندهشة لما حققته، إلى حد الصدمة، لذلك لم تتوفر لديها الفرصة في تلك الأشهر الحرجة كي تسترجع أحداث النهب والسلب التي تعرضت لها مدينة الجزائر في أول يوم من احتلالها سنة 1830م...

مسألة كهذه كانت تتطلب متسعا من الوقت والاستقرار، لن يتوفرا إلا بعد سنوات طويلة وميلاد جيل جديد لمحاسبة الاستعمار على جرائمه والمطالبة بالحقوق المنتهكة كما يطالب هو ألمانيا حتى اليوم بمختلف التعويضات والاعتذارات والترضيات.. وحتى بمحاكمة قادة النازية ومجرمي الحرب العالمية الثانية.

فرنسا تسترجع كنوزها الفنية.

في شهر ماي 1994م التقى الرئيس الفرنسي السابق فْرَانْسْوَا مِيتِرَانْ بنظيره الألماني هِلْمُوتْ كُولْ في مدينة مِيلُوزْ الفرنسية لغرضٍ خاص جدا. تقدم منه كول بابتسامة عريضة، وسلمه لوحة زيتية رائعة من أجمل ما جادت به الفنون التشكيلية الفرنسية في القرون الأخيرة. فتنفس الفرنسيون والألمان الصعداء، لأن هذه اللحظة التاريخية في علاقتهما لم تتحقق إلا بعد جهود طويلة ومضنية .

هذه اللوحة الزيتية هي واحدة من مجموعة كبيرة من لوحات كبار فنّاني فرنسا في القرنين الأخيرين تنتمي إلى: مُونِيه، سِيزَانْ، دُولاَكْرْوَا، سُورَا، بِيسَارُو، ومَانِيه.. سرقها المحتلون النازيون من بيوت الفرنسيين أثناء الحرب العالمية الثانية، وهي جزء يسير جدا من عشرات الآلاف من الأعمال الفنية التي لقيت نفس المصير آنذاك والتي اختفى بعضها إلى الأبد..

ظلت هذه اللوحات موضوع مفاوضات شاقة بين ألمانيا الشرقية وفرنسا منذ 1972م حتى 1989م دون نتائج ملموسة. وكبر الموضوع ونُقِل إلى أعلى مستويات الدولتين

بعد الوحدة الألمانية، وتحول إلى محور لقاءات بين المستشار الألماني السابق هلموت كول وفرانسوا ميتران الذي تحصل على التزام ألمانيا بإعادة اللوحات الفنية إلى فرنسا. وهو ما تم تنفيذه في شهر ماي 1994م بين الرئيسين قبل أن تتم عودتها جميعا إلى بلدها الأصلي بعد هذا اللقاء بشهرين. وقد عرضتها السلطات الفرنسية بعد ذلك في أروقة متحف "أُورْسِي" (Musée d'Orsay) على الشعب الفرنسي كي يتعرف عليها أهلها أو ورثتهم.

"الخَزْنَة" اليتيمة...

مرت الآن 177 سنة على سقوط مدينة الجزائر بيد الاحتلال الفرنسي... كلما جاء موعد هذه الذكرى الحزينة، يتكرر نفس السلوك لدى الدولة الجزائرية منذ 1962م، حيث تتفادى النبش في أحداث الانهزام وتُرَكِّز كل جهودها على الانتصار الذي أريد له أن يكون في نفس اليوم؛ 5 جويلية. وبهذا السلوك، سواء كان تلقائيا أو مقصودا، بقيت جرائم الجنرال دوبورمونت، قائد الحملة الاستعمارية، وعمليات نهبه لقصبة الجزائر خلال الأيام الأولى لاستسلام المدينة حبيسة الوثائق والكتب التاريخية في المكتبات ومراكز الأرشيف لَوْلا تَحَرُّك بعض الأصوات في العشرية الأخيرة بمبادرات شخصية من حين لآخر... يحدث ذلك رغم أن الحقوق المنتهكة في الجزائر وما تم نهبه منها تبدو الانتهاكات والنهب النازيَيْن بفرنسا أمامها مجرد تجاوزات طفيفة.

5 جويلية 1830... الداي حسين يوقع وثيقة الاستسلام، والجنرال دوبورمونت يدخل القصبة منتصرا من باب الوادي، بعد أن دَخَلَتْها كتائبُه من الباب الجديد في أعقاب تجطيمها لبُرْجِ مَوْلاَيْ حَسَنْ (Fort l`empereur) في الثَّغْرَة (Tagarins).

بداية النهب.

في خضم صدمة السقوط والانهزام، ضرب المحتلون عرض الحائط بالتزاماتهم للداي حُسَيْن المُتعلقة بحماية الأرواح والممتلكات وحرية ممارسة الشعائر... وبدأ مسلسل إحدى أكبر عمليات النهب والسلب الدَّوْلِيَة في تاريخ البشرية التي لم يقترفها حتى هتلر وجيوشه النازية في فرنسا: "كنا مستعجلين أن نضع أيادينا الجشعة على كنوز القصبة الضخمة" يُوضِّح Armand Hain أحد المشاركين في العملية.

انطلق الجنود الفرنسيون كالجراد صاعدين في أزقة المدينة العتيقة يصرخون ويحطمون البيوت والقصور بإيعاز من أعيان الجالية اليهودية بالمدينة..، ويستولون على كل ما وقعت عليه أياديهم. كان عددهم يتجاوز 15000 عسكري، وتبين بعد بضعة أشهر أن حصيلة "إنجازهم" تمثلت، حسب Michel Habart، في تهديم 900 دار ومصادرة 300 أخرى، وتحطيم 120 مسجدا بعد الاستيلاء على محتوياتهم الثمينة وابتزاز أهلها بالقوة والتهديد مثلما حدث لخزناجي (رئيس الحكومة) الداي ولسيدي حمدان بن عثمان خوجة ولآخرين... مما دفع بـ" 2000 من أهل المدينة، حسب صحيفة Le Moniteur ليوم 12 جانفي 1830م، إلى الرحيل نحو المشرق"، بعد أن سبقتهم عملية طرد 1700 عسكري من الجيش الجزائري. لكن هؤلاء المهاجرين والمطرودين لم تتحرك السفن التي كانت تقلهم من ميناء المدينة، إلا بعد أن جُرِّدُوا من جميع

ممتلكاتهم، خصوصا وأنهم كانوا من أكثر الناس ثراءً في المدينة، وربما في كل البلاد. وحتى سيوف وخناجر العسكريين المطرودين لم تسلم من هذا الجشع، مع العلم أن أبخس أسلحة الإنكشارية وأقلها قيمة كانت تقدر بأكثر من 100 فرنكا ذهبيا، في وقت كان الأجر اليومي المتوسط في فرنسا لا يتجاوز 1 فرنك في اليوم. لقد كانت أغلب هذه الأسلحة تحفا فنية ثمينة ليست أقل جمالا من لوحات سيزان ومونيه وبيسارو...

استولى المحتلون على ما قِيمَته عشرات أو مئات الملايين من الفرنكات الذهبية من الجواهر والمصوغات الثمينة والأموال النقدية بمختلف العملات والألبسة الفاخرة والأثاث النادر والأحجار الكريمة والأسلحة وريش النعام والهدايا الفاخرة، وغيرها...

لكن السَّطْوَ والابتزاز لم يتوقفا عند هذا الحد من النذالة، لأن الحملة الفرنسية كان من بين أهم أهدافها الرئيسية من احتلال إيالة الجزائر الاستيلاء على كنوزها العظيمة التي كانت تنام في "خَزْنَة" الداي حسين في القلعة، أي القصبة الواقعة في الباب الجديد. ذلك ما تؤكده جميع المصادر التاريخية والأجنبية من شهود عيان مثل حمدان خوجة والفرنسي Alfred Nettement والقنصل الأمريكي Shaler William إلى الباحثين المعاصرين أمثال عمَّار حَمْدَانِي مُؤَلِّف Toute La Vérité sur l`Expédition d'Alger، و Habart Michel صاحب: Le Grand Parjure، والأمريكي Wialliam spencer مؤلف Algiers in the Age of the Corsairs..، وغيرهم...

وليس صدفة أن ينفق ملك فرنسا شارل العاشر الأموال الطائلة ويجند 37500 رجل، من بينهم 1976 ضابط و675 سفينة كبيرة و15000 قذيفة مدفعية، و4008 من الخيول، إضافة إلى حوالي 5 أشهر من المؤونة -حسب مصادر محاسبة جيش الاحتلال- لو لم يكن متيقنا أن محتويات "خزنة" الداي حسين لديها من الكنوز ما يكفي لتعويض هذا "الاستثمار" فضلا عن أضعافه المضاعفة من "الأرباح".

وما يؤكده الدكتور العربي إشبّودَنْ هو أن وزير الحربية الفرنسية أبلغ الملك أن قيمة هذه الكنوز، التي تحولت إلى أسطورة في قصور ملوك أوربا وحتى في أكواخ الفقراء الذين أضافوا لها من خيالهم الأحاجي والخرافات، تقدر بـ: 150 مليون فرنك.

كنوز تفوق ديون الجزائر على فرنسا

في خضم سطو الجنود على بيوت وقصور القصبة، صعد الجنرال دوبورمونت سلالم أزقة المدينة العتيقة برفقة مجموعة من كبار ضباطه إلى القلعة بحثا عن الكنوز، و اتخذ من زعيم الطائفة اليهودية الجزائرية يعقوب بكري وزميله يهوذا بن دوران دليله الخاص نحو خَزْنة الداي.

هذه القلعة الواقعة في أعالي القصبة، التي صمدت في وجه جميع الاعتداءات الأجنبية والمحلية منذ تأسيسها سنة 1551م وبقيت منيعة ومحصنة خلف أسوارها طوال ثلاثة قرون تقريبا تطل بشموخ على المدينة والبحر من ارتفاع 118م..، هذه القلعة سقطت أخيرا..، وانهارت بسقوطها الأساطير والخرافات التي أحاطت بأسرارها وبعجائب قصورها وكنوزها ومحتوياتها النفيسة...

كانت "الخزنة"، قبل أن تطأها أقدام دوبورمونت، غرفةً مظلمةً سرية تشبه مغارة علي بابا، لا يدخلها سوى اثنين من رجال الدولة الجزائرية هما الخزناجي والداي نفسه الذي يحتفظ بمفتاحها في جيبه بعد ساعات العمل. لقد كانا الوحيدان اللذان يعرفان حجم كنوزها التي تراكمت عبر القرون من غنائم البحر والهبات والهدايا والمصادرات والتبرعات والأملاك التي تفتقد إلى الورثة... وقَدَّرها Michel Habart بـ: 200 إلى 500 مليون فرنك حتى وإن كان يُرَجِّح تقدير المؤرخ Michaud؛ أي: 350 مليون فرنك. أما البريطاني الدكتور Shaw، الذي زار مدينة الجزائر في 1720م، فقد تحدث عن 40 مليون بياستر Piasters، ما يعادل 200 مليون فرنك. وقد عَلَّق بأن "هناك تأكيدات على أن ما يوجد من الكنوز المتراكمة في مدينة الجزائر(..) يتجاوز ما يوجد في أي مدينة أخرى من مدن العالم". وحتى القنصل الأمريكي Shaler تعرض لها بإسهاب في كتابه Esquisse de l`Etat d`Alger الصادر سنة 1826م في الوقت الذي بلغت شهرتها جميع البلدان المتوسطية والأوربية وحتى الأمريكية.
دخل الجنرال دوبورمونت، إذن، "الخَزْنَة" وشاهد بعينيْه وهما جاحظتيْن عن آخرهما محتوياتَها من الكنوز منبهراً تحت أنوار الشموع والمشاعل الخافتة: جِرارٌ وأكياسٌ ضخمة تحتوي على كميات خيالية من الذهب، الفضة، الألماس، المجوهرات، وكميات هائلة من مختلف الأقمشة والألبسة الفاخرة، وأجمل وأغلى ما أنتجته الأسواق العالمية في ذلك الوقت. بالإضافة إلى تُحَفٍ فنية عسكرية فخمة، وأسلحة من أَجْوَدِ ما زخرت به ترسانات العالم مُرَصَّعة بالذهب والجواهر النادرة..، تشهد جميعا على الترف والذوق الراقي الذي بلغته الجزائر في العهد العثماني.
أما هذه الأسلحة الثمينة، فقد وزع قائد الحملة بعضها على ضباطه وضباطه السامين مباشرة. أما البقية فستعرف مصيرا بقي غامضا إلى يومنا هذا... غامضا لأنها تَحَوَّلتْ إلى موضوع سطوٍ مُنظم من طرف دوبورمونت وكبار سياسيي فرنسا والملك على رأسهم. وقد تكفل الجنرال من أول لحظة بإتلاف وحرق الوثائق الوحيدة الموجودة "بالخزنة" والكفيلة بإعطاء القيمة الحقيقية لكنوز القصبة تفاديا لِتَسَرُّب أيّ معلومات محرجة جنائيا وسياسيا. ثم حَوَّلَ محتويات "الخزْنة" إلى الملك بباريس. غير أن ما دخل رسميا إلى صناديق الدولة الفرنسية وما تم التصريح به هو: 48 مليون فرنك فقط، في حين يؤكد الصحفي الجزائري عمار حمداني بعد قيامه بأحدث البحوث والتحريات الدقيقة حول هذه القضية أن قيمة الكنوز التي استولى عليها الجنرال دوبورمونت تتراوح بين حد أدنى قدره بـ:150 مليون فرنك وحد أقصى يتراوح بين 700 إلى 800 مليون فرنك ذهبي.
شَدَّتْ عملية الاستيلاء على كنوز القصبة – بغض النظر عن أموال الداي الخاصة التي بلغت قيمتها عشرات الملايين من الفرنكات والتي لقيت في معظمها نفس المصير- انتباه العالم، وبَلَغَتْ أحداثها آفاق أوربا وأمريكا. خصوصا بعد أن بدأت تتسرب بعض الأخبار عن الغموض الذي ساد عملية تحويلها إلى فرنسا فاضطر الملك إلى فتح تحقيق شكلي بشأنها لحفظ سمعة بلاده. وانتهى التحقيق بتبرأة ذمة جيش دوبورمونت وعدم

الاعتراف إلا بـ: 48 مليون فرنك كقيمة للكنوز. أما الإطارات المكلفة بالتحقيق التي رفضت التوقيع على المحضر والتقرير الختامي المفبرك، مثل المقتصد فْلاَنْدَانْ (Flandin)، فقد سُلِّطتْ عليها كل متاعب الدنيا حتى آخر أيامها بسبب نزاهتها...

صبر سيدي حمدان..!

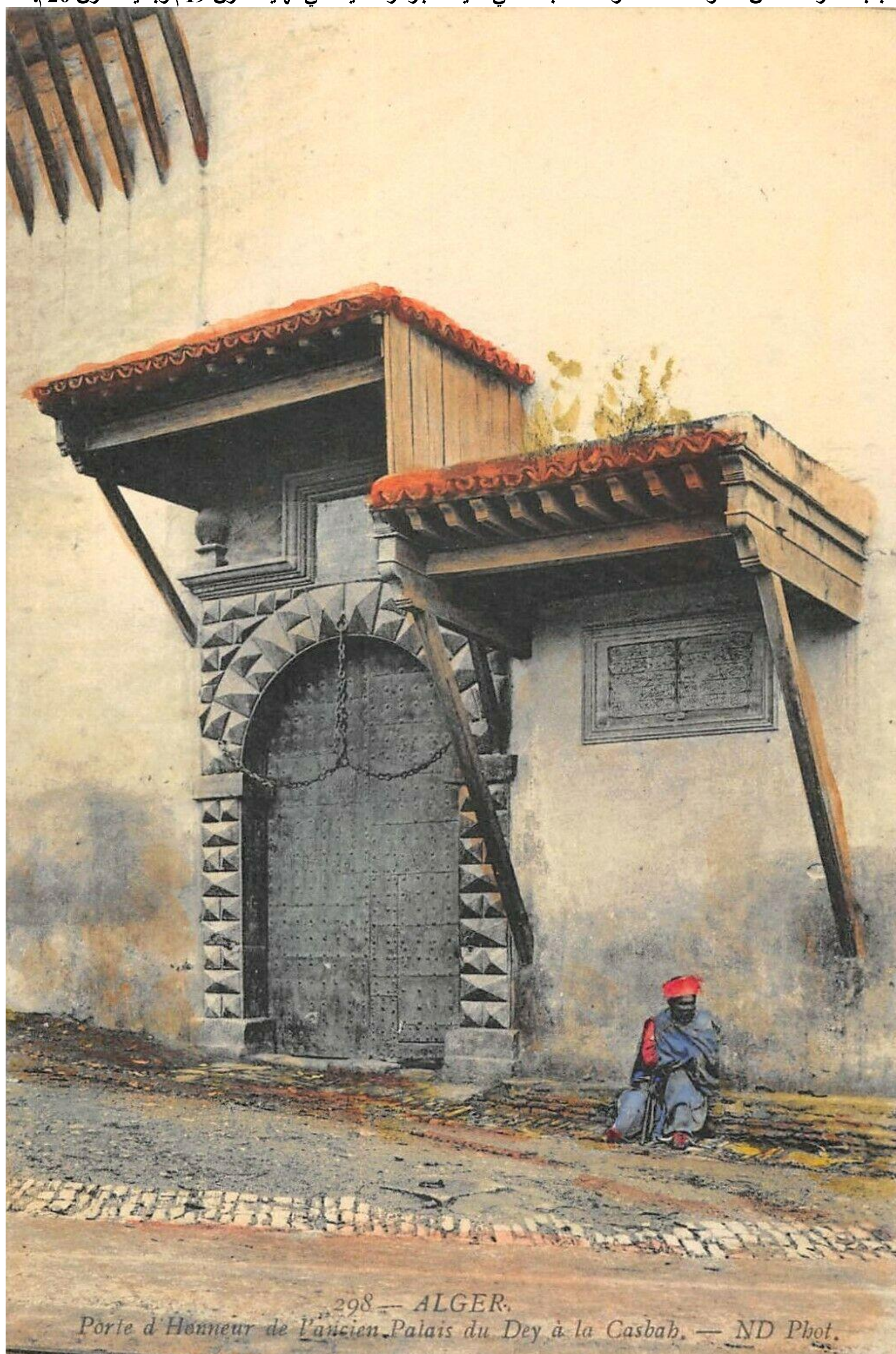
أما سيدي حمدان بن عثمان خوجة صديق الداي حسين الذي أصر على كشف الحقائق بتحركاته الديبلوماسية، فقد عَرَّضَ نفسه للقمع والإهانة وحياته للخطر. كما صودرت ثرواته واختفى ابن أخته إلى الأبد في ظروف غامضة بمدينة عنابة... فاضطر إلى اللجوء إلى تركيا سنة 1836م، بعد أن اقتنع بفشل مساعيه، أين سَيَسْتَقِرُّ وسَيَقْضِي نَحْبَهُ بعد ذلك بسنوات. وهكذا طُوِيَ إلى الأبد ملف كنوز القصبة وكنز الداي..، رغم إنهما أهم بكثير من لوحات سِيزَانْ ومُونِيه وبِيسَارُو لا مِن الناجية المادية وَلاَ مِن الناحيتيْن السّياسية و التاريخية...!

هل تكون الجزائر قد تنازلت إلى الأبد عن ثروتها المنتهكة في 1830م؟ وهل نسيتْ فرنسا التي كانت إلى وقت قريب تملك "حصة الأسد" من ديون الجزائر الخارجية أنها سرقت كنوز شعب بأكمله قبل 177 عاما؟ هل يعود هذا الصمت المطبق عن هذه القضية الكبيرة والخطيرة إلى الجهل بالتاريخ، أم إلى اللامبالاة واللامسؤولية، خصوصا أن الجزائر لم تطالب فرنسا أبدا بأي تعويضات كانت، في حين تبتز هذه الأخيرة ألمانيا ابتزازا وتطارد قادة النازية حيثما حلوا بعد أكثر من 50 سنة من انتهاء الحرب العالمية الثانية. مثلما فعلت مع "كْلاَوْصْ بَارْبِي"، ومع المتعاونين مع النازية مثل "مُورِيسْ بَابُونْ"...؟

مات حمدان خوجة منفيًا..، وبقيتْ صرخةُ الصَّحفيُّ الجزائري عمَّار حَمْدَانِي بدون صدى حتى الآن...

لكن في نفس الوقت "الكولون" الذين كانوا يملكون نزل السفير"Aletti" بالعاصمة، والملاك السابقون لبناية إدارة الخطوط الجوية الجزائرية بساحة موريس أودان بالجزائر العاصمة، وعقارات أخرى، بدأت مطالبهم بالتعويضات عما تخلوا عنه سنة 1962م تتعالى منذ نهاية الثمانينات وتأخذ منحى جادا تدريجيا... ولا داعي للخوض مرة أخرى في المطالب الجديدة ليهود الجزائر، الذين تركوها في 1962م، بتعويضات لم تستقر قيمتها بعد عند حد معين بل لا تزال تتسلق أضخم الأرقام باستمرار وهي مرشحة لبلوغ ما لم يبلغه الخيال...

باب "دار السلطان"، أو "القلعة" أو "القصبة"، في مدينة الجزائر العتيقة في نهاية القرن 19م وبداية القرن 20م.



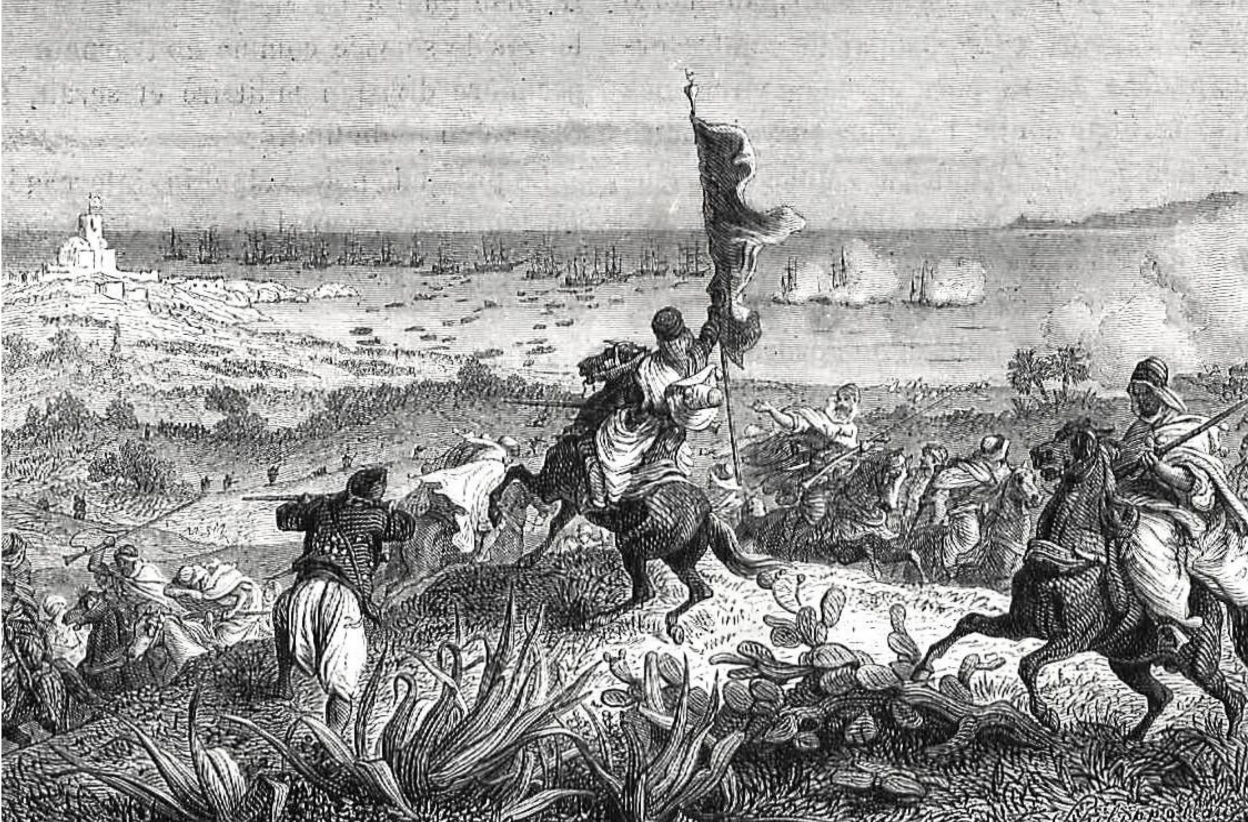
الجنرال دوبورمون قائد الحملة الاستعمارية على المدينة الجزائر سنة 1830م وسارق كنوز الدولة الجزائرية مثلما فعل القادة الأمريكيون في العراق سنة 2003م.



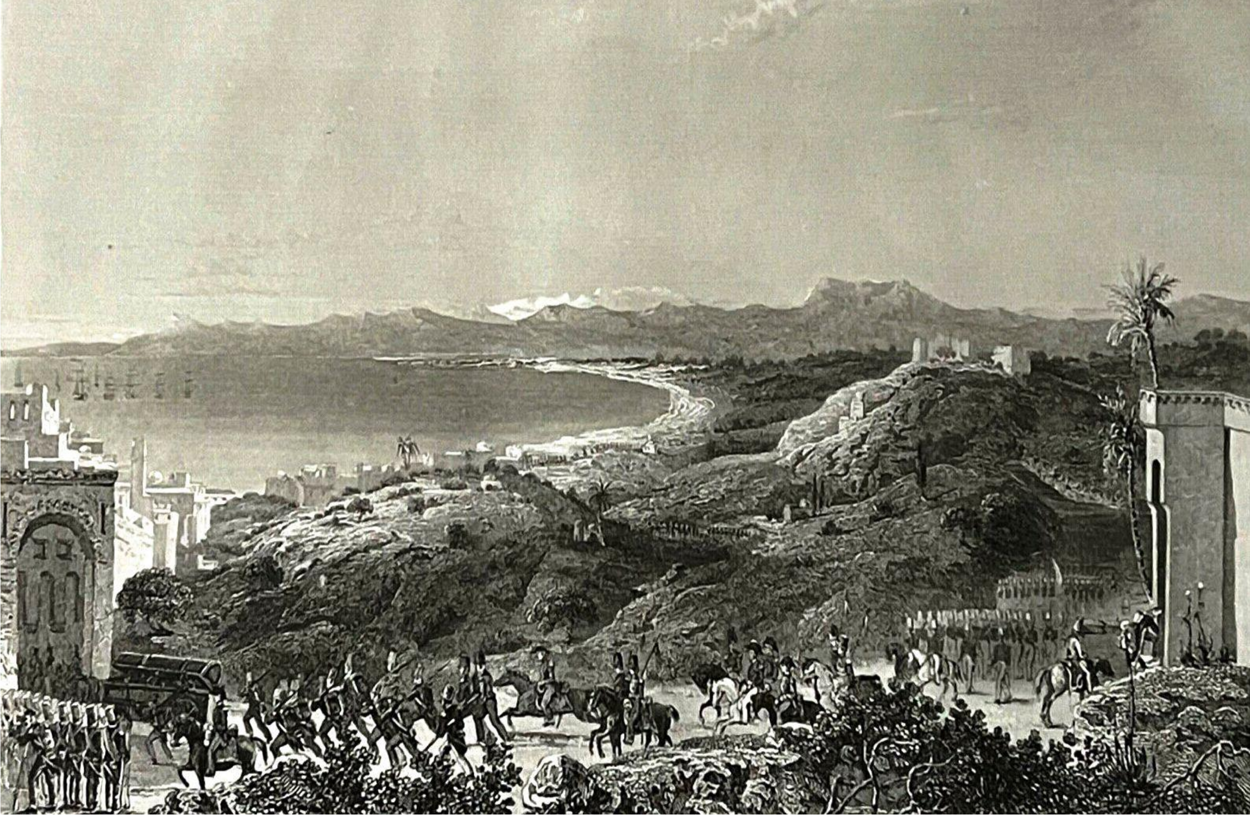
الجزائريون يقاومون من أجل إفشال إنزال القوات الفرنسية الاستعمارية في شاطئ سيدي فرج في 1830م.



رغم التعثر في سيدي فرج وحوالي برج سيدي فرج (في اللوحة على اليسار فوق قمة الربوة)، استمرت المقاومة من اسطاوالي القريبة تحت قيادة الآغا إبراهيم. القوات الفرنسية كانت تتقدّم على الشاطئ والسفن الحربية تقصف من البحر.



بعد فشل المقاومة، دوبورمون وقواته يدخلون في 5 يوليو 1830م مدينة الجزائر العتيقة من الباب الجديد قادمين من حِصن الإمبراطور في حومة الثغريين. الحصن يظهر على الربوة في الخلفية على اليمين، والباب الجديد والسُّور على اليسار.



لوحة للداي حسين بن علي وهو برفقة أهله وحاشيته، يوم 11 يوليو 1830م، بعد أسبوع من دخول المحتلين، يغادر مدينة الجزائر وكل الجزائر التي حكمها من 1818م إلى 1830م. الرحيل لم يكن خياره بل فُرِض عليه.



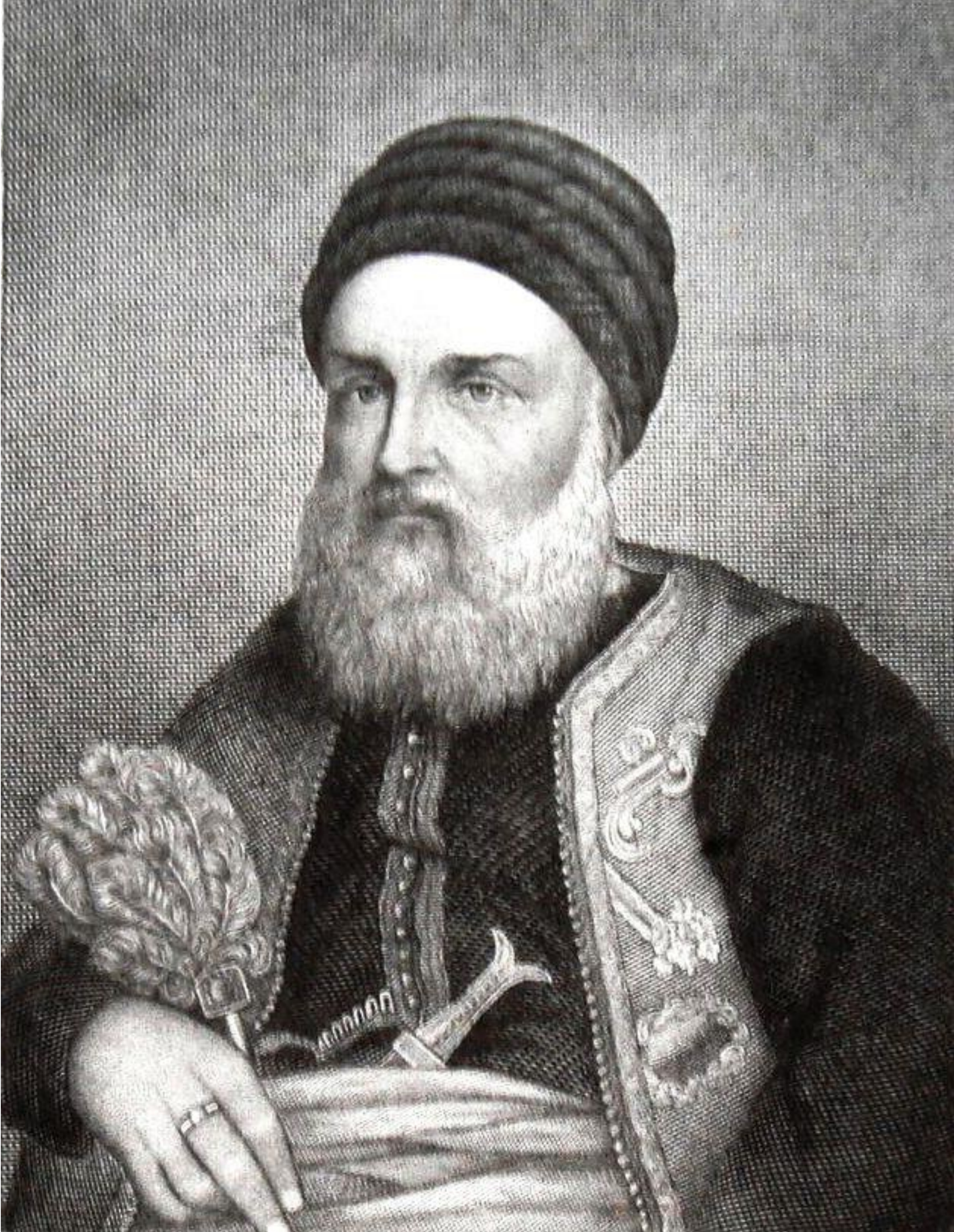
هنا في "دار السلطان"، قصر الداي أو "القلعة"، في مرتفعات المدينة العتيقة وقعت السرقة التاريخية الضخمة التي قام بها الجنرال دوبورمون وقواته حيث استولوا على خزينة الدولة وكنوزها التي وجدوها في "الخزنة". اللوحة لِمَلِكِ فرنسا نابليون الثالث متحدثًا إلى رجاله أمام باب "دار السلطان"، في عمق اللوحة، وجامع البَرَّاني، وراءه، خلال زيارته الجزائر برفقة زوجته أوجيني سنة 1865م.



داخل المرَكَّب الملكي الذي يتضمن مجموعة من المنشآت والمعروف بـ: "دار السلطان" الواقعة في حومة الباب الجديد بمدينة الجزائر العتيقة. هنا وق النهب الاستعماري منذ دخول قوات الاحتلال المدينة...مثلما حدث في العراق سنة 2003م وفي مالي قبل بضع سنوات.



الداي حسين بن علي، أو ابن الحسن حسب بعض المصادر، آخر دايات الجزائر العثمانية، توفي سنة 1838م في الإسكندرية بمصر، منفاه الاختياري منذ سنة 1833م بعد قضائه نحو 3 سنوات في ليفورن بإيطاليا. الحاج حسين الإزميرلي، نسبةً إلى مدينة إزمير التركية حيث وُلِد حوالي سنة 1773م كان عسكريا مقتدرا مشهود له بالكفاءة ومتديّنا حيث كان إمامًا في بداية وجوده بالجزائر ضمن القوات الجزائرية الرسمية، وهو ما جعله محترَمًا من طرف الجميع نظامًا وشعبًا. وكان رجلا على قدر محترَم من الثقافة وأبا طيبا لأربعة أطفال هم: نْفيسَة، أو نْفيسة هانم، وأمينة هانم وفتاة والحاج عمر.



بَابَا مَرْزُوقْ.. المدفع الجزائري الذي مازال أسيراً بفرنسا

"الصِّيدْ يْموتْ صِيدْ وَلَوْ كي يَشْرَفْ   مَنُّه الأذْيَــابْ خَايْفَــه..."

مصطفى التومي (**شاعر**)

في يوم 6 جويلية 1830م، استولى الجنرال دوبورمونت، قائد الحملة الفرنسية على الجزائر، على المدفع الجزائري العملاق بابا مرزوق الذي مرت الآن 177 سنة على وقوعه في الأَسْرِ. أسْرٌ لا يزال مستمرا حتى اليوم...

بعد الاستيلاء عليه، تمَّ اقتلاعه من القاعدة التي وضعه فيها قادة البحر الجزائريون قبل حوالي ثلاثة قرون في رأس المُولْ بيْن أبراج "القُومَانْ" و"رَاسْ عَمَّارْ" و"مَا بِينْ"... وفي يوم 6 أوت من نفس السنة، تم ترحيله إلى مدينة تولون الفرنسية على متن سفينة "لالْجِي" (L`Alger) تحت الأنظار الحزينة لسكان المدينة الذين تابعوا عملية النفي هذه من سطوح ومرتفعات القصبة وحتى من رصيف الميناء.

بابا مرزوق

لهذا المدفع العملاق اسمان، اسم اختاره له أهله الذين صنعوه، نابعٌ من ثقافتهم وقيمهم، واسم ثان اختاره له أعداؤه الذين انْكَوَوْا به بعد أن تلقوا منه ضربات وصدمات عنيفة بقيت آثارها محفورة في ذاكرتهم وفي تاريخ العلاقات الجزائرية الفرنسية مئات السنين. اشتهر في الجزائر باسم "بابا مَرْزُوقْ" بكل ما تحمله كلمة بابا من عز وتقدير.. وهي التي لم تكن تطلق سوى على الأولياء والصالحين مثل سيدي الثعالبي "بابانا" وعلى البيلربايات والدايات والباشوات مثل بابا عروج وبابا حسن.

أما في فرنسا ومعظم البلدان المتوسطية، فقد غلب عليه لقب "لاكونْسِيلِيرْ" (La Consulaire)، أي القنصلي، الذي يحمل مدلولا حزينا ومُهينا لبلاد فيكتور هوغو ونابليون بونابرت لاقترانه بحوادث وتوترات سياسية-عسكرية خطيرة بين الجزائر وفرنسا...

بابا مرزوق لم يكن مدفعا عاديا، لأنه كان حارسا استثنائيا أمينا لمدينة سيدي الثعالبي من الميناء القديم، وساهم في حسم المعارك البحرية ضد أعداء البلاد من الأمم المسيحية، كما اعتبره الجميع في عهده تحفة عسكرية جزائرية نادرة في خليج العاصمة.

في سنة 1542م، كانت الجزائر لاتزال تعيش على حكايات وأمجاد معركة شهر أكتوبر 1541م ضد أسطول شارلكان الصليبي... وكانت قد تفطنت بمناسبة هذا الحدث العسكري، الذي شكل قفزة نوعية جديدة في تاريخ إيالة الجزائر الناشئة، إلى النقائص العسكرية والدفاعية التي استغلها الأعداء. إثر هذه المعارك، أمر حسن آغا، حاكم البلد آنذاك بإنشاء مؤسسة لصناعة مختلف أنواع الأسلحة بجانب رصيف خير الدين في الميناء القديم، وسُميت عند تدشينها بعد عام 1542م بـ: دار الصناعة. تخليدا لذكرى

هذا الإنجاز الكبير، أمر أيضا بصناعة مدفع تحفة تسر له الأعين ويفزع لضخامته الأعداء... وكان له ما أراد.
هكذا جاء المدفع بابا مرزوق إلى الوجود، بحيث تَمَّ صَبُّه وإنجازُه في سنة 1542م من مادة البْرُونْزْ..، وكان ضخما كما حلم به حسن آغا، طوله 7 أمتار، وبلغ مدى قذائفه من 4800م إلى 5000م، وهذا ما منحه إمكانية ضرب سفن الأعداء عن بعد بمجرد ما تقترب من ساحل منطقة "الرايس حميدو" الحالية (La Pointe Pescade). لقد كان بابا مرزوق في عصره ما كانت عليه مدافع مدينة نافارون الإسبانية (Les Canons de Navaronne) أثناء الحرب العالمية الثانية أو رُبّما حتى ما سُمِّيَ المدفع العملاق ببغداد في تسعينات القرن 20م...

صدمة القنصلين

في القرن 17م، كانت العلاقات الجزائرية-الفرنسية بين مدٍّ وجزرٍ ويطغى عليها التوتر في بعض الفترات. وأدى التوتر إلى انفجار عدة معارك بحرية عنيفة بين البلدين في عرض مياه سواحل مدينة الجزائر في 1680م و1681م و1682م. وفي هاتين السنتين الأخيرتين تكفل الأميرال فْرَانْسْوَا دُوكَانْ (François Duquesne) بالهجمات ضد الجزائر، لكن دون جدوى، رغم ضخامة الأسطول الذي جنده لهذا الغرض والذي يتكوّن من حوالي 40 مَرْكباً بحريا حربيا مجهزا بالبطاريات والمدافع.
ذات صباح من جوان من 1683م، عاد فرنسوا دوكان بأمر من الملك لويس الرابع عشر بأسطول أكبر لينتقم للانهزامات السابقة، وأشعل نيران مدافعه على المدينة ودمر جزءا كبيرا من عمرانها وأسوارها وقلاعها. وعندما فشل الداي الحاج حسين ميزومورتو في إقناع القائد الفرنسي بوقف الاعتداء، أمر بإحضار عمال السلك الدبلوماسي الفرنسي بالجزائر وعددهم 13 وعلى رأسهم القنصل الأب "لُوفَاشِي" (Levacher) وقذفهم من فوهة بابا مرزوق الواحد تلو الآخر.
في شهر جوان من سنة 1688 عاد الأسطول الفرنسي تحت قيادة الماريشال "ديستري" إلى عرض ساحل مدينة الجزائر من أجل الانتقام للقنصل "لوفاشي" فقصف المدينة طيلة عدة أيام ودمر ثلثيها، ولم يجد الداي ميزومورتو من وسيلة لإنقاذ بلاده من العدوان سوى إعادة سيناريو سنة 1683م، فوضع 40 رعية فرنسية من بينها القنصل الجديد في فوهة المدفع بابا مرزوق وقذفهم جميعا نحو السفن الفرنسية الراسية قبالة المدينة.

متى يستفيد من الاستقلال؟

منذ هاتين الحادثتين أصبح بابا مرزوق في فرنسا وأوربا لا يعرف إلا بـ: "La Consulaire، نسبة إلى القنصلين السابقي الذكر، وبقيت الذاكرة العسكرية الفرنسية تحمل آثار الصدمتين بحقد دفين على المدفع وأهله، حتى جاءت فرصة الانتقام في 5 جويلية 1830م... فكان المدفع بابا مرزوق من أوائل ما سارعت قوات الاحتلال إلى غنمه وإرساله إلى فرنسا هدية لوزير البحرية والمستعمرات وإلى الملك الفرنسي كانتقامٍ رمزي بعد حوالي قرن ونصف من مأساة الأب "لوفاشي"...

أهداه وزير البحرية للملك، وأمر هذا الأخير بوضعه كنصب تذكاري لاحتلال الجزائر في ساحة القاعدة البحرية الفرنسية بمدينة بْرِيسْتْ (BREST) وتم ذلك في يوم 27 جويلية 1833م.

كتب المؤرخ الجزائري مولاي بلحميسي عنه في 1990 بأن "لجنة مدينة الجزائر العتيقة طالبت دون جدوى بإعادته إلى بلده على لسان الأميرال كْرُوسْ (CROS)". لكن ذلك حدث في عهد الاستعمار...

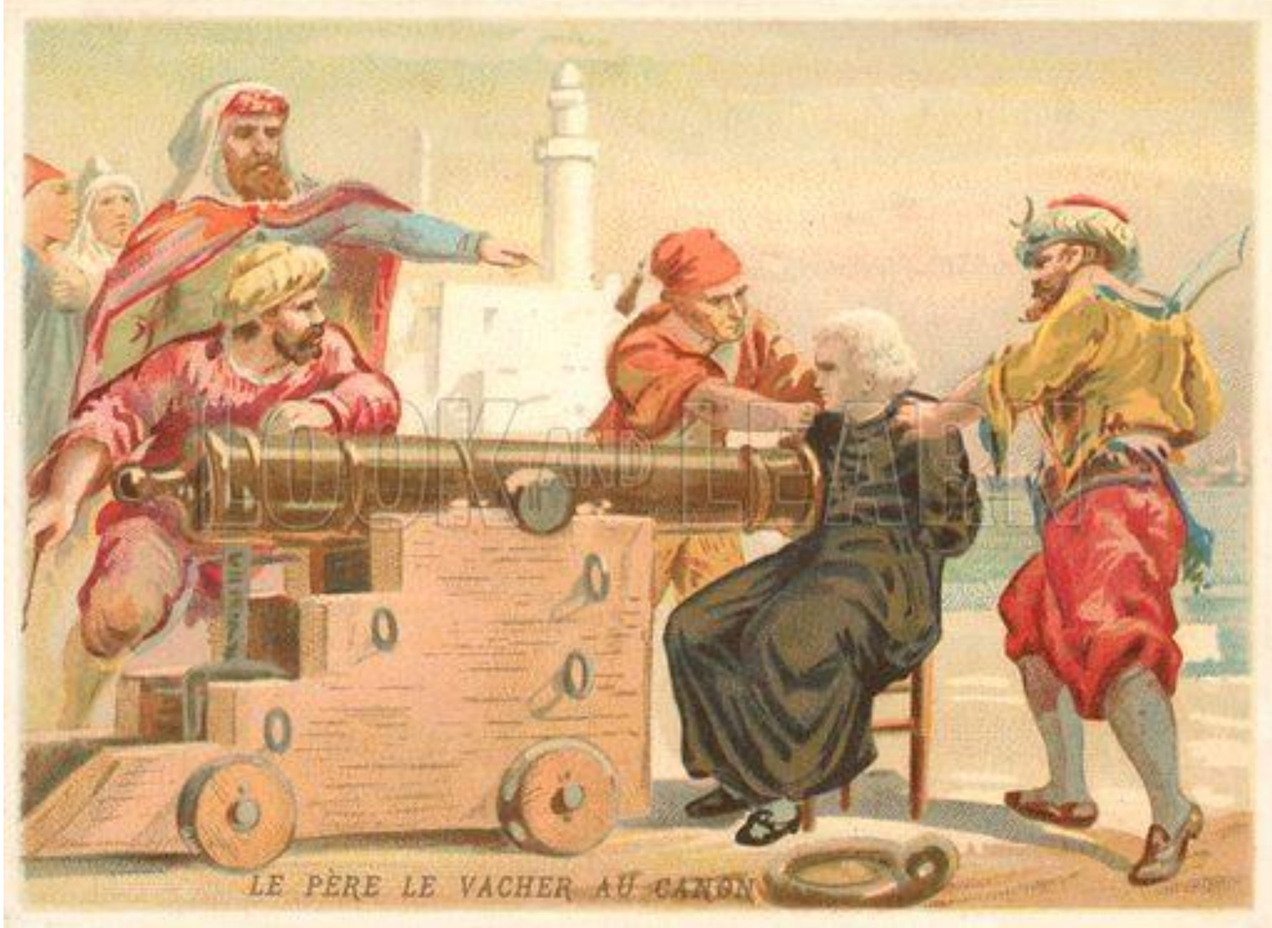
أما في عهد الاستقلال، فلم يعد يسمع ببابا مرزوق سوى المختصين أمثال بلحميسي ومحفوظ قداش وسعد الله أبو القاسم... وتجهل أغلبية الجزائريين حتى وجوده، رغم أنه لا يزال منتصبا بشموخ في مدينة بريست حتى اليوم ينتظر الاستفادة من اتفاقيات إيفيان ومن الاستقلال الذي لم يعرف طعمه بعد ...

قذف القنصل الفرنسي الراهب لوفاشي من فوهة بابا مرزوق أحدث صدمة كبيرة لدى المعتدين، فخلدوا الحادث بعدة رسوم.

لوحة لـ: "المحروسة" من شمالها، أيْ ساحل باب الوادي. من الشمال كانت تأتي الاعتداءات الأوروبية، وكان بابا مرزوق لها بالمرصاد على مدى قرون. في زمانه، كان هذا المدفع سلاحا خارقًا مِن أَجْوَد ما أَنْتَجَتْهُ الصناعاتُ العسكرية في العالم.



لوحة أخرى تعكس حجم الصَّدمة، يُظهر فيها الرَّسامُ الأوروبي الجزائريَ شرّيرًا متوحّشا وعدوًّا للإنسانية، فيما المعتدون الفرنسيون ضحايا. وفي الحقيقة، ليس الجزائريون مَن اعتدوا على الأراضي الفرنسية بل الفرنسيين هم مَن جاؤوا لِقصف الجزائر..وهذا لا يَظهر في الصورة مثلما لا يظهر الدّمار الكبير الذي لحق بالمدينة.



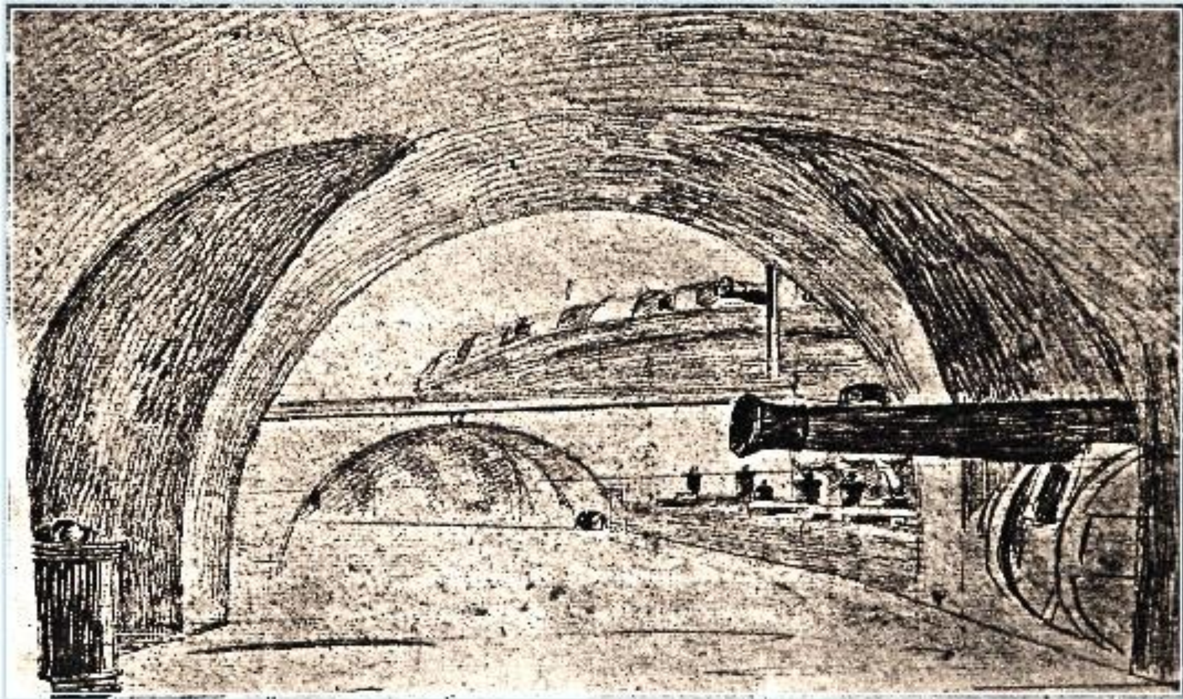
هنا مسقط رأس بابا مرزوق حيث صُنِع في 1542م في "دار النحاس" حيث هذه القبة العالية خلف السور وباب الوادي.



رسم ثالث لقصف القنصل لوفاشي من فوهة بابا مرزوق.



صورة فرنسية للمدفع العملاق بابا مرزوق في المرسى بمدينة الجزائر قبل نقله إلى فرنسا.



بابا مرزوق قَدَّم خدمات كبيرة لبلاده طيلة قرون لرد الاعتداءات الأوروبية على غرار هذا الذي يظهر في هذه اللوحة حيث يتصاعد دخان القصف المدفعي من تحصينات وأبراج المرسى ودُخّان الأضرار التي لحقت بالمدينة في باب الوادي.



بابا مرزوق ومئات المدافع كانت تدافع عن المدينة بشراسة من هنا في أبراج المرسى كبُرج القُومَانْ وبُرج الفنَار وراسْ عَمَّارْ القْدِيمْ ورَاسْ عَمَّارْ الجْدِيدْ وبرج السَّرْدِينْ وبُرج مَا بينْ. بابا مرزوق لم يكن يتولاه إلا الأكثر خبرة وكفاءة في الجيش.



المدفع الجزائري الذي ما زال أسثيرا في فرنسا: بابا مرزوق.



بابا مرزوق أسيرًا في القاعدة العسكرية البحرية في مدينة بريست شمال فرنسا. الصورة نهاية القرن 19م وبداية القرن 20م.



خُبْزُ..لُوجْيَا قصبة الجزائر

أَعْطَتُه الكَفْ وَالدَّفْ حَتَّى رَدَّتُه مَثْلْ الرَّغِيفَـة
تْقُولْ دْقِيقْهَا مْسَلَّفْ وَإلاَّ كَتَسَالْ لَلْمْعَلَّمْ حْسِيفَة

الشيخ عبد الرحمن المجذوب (شاعر)

جاءت من مدينة فيينا النمساوية إلى مدينة سيدي عبد الرحمن في بداية القرن الجاري، فَاسْتَهْوَتْ الأعين بأناقتها وأسرت البطون بلذتها، وتسببت في إفلاس تونسيي المدينة بعد أن عجز "الخْفاف" و"المَقْرُوطْ" عن منافستها..

كان العالم يُضمد جراحه بعد أن خمدت نيران الحرب العالمية الأولى، حينما بدأ نوع جديد من "الخبز فْرًنْسِيسْ" يدق أبواب مخبزات مدينة الجزائر مثيرا الإعجاب والتردد في نفس الوقت في أوساط الأهالي.
يشبه هذا الخبز الجديد صفيحة الحصان، ويقترب من شكل الهلال إلى درجة أنه يحمل اسمه باللغة الفرنسية أي: الكَرْوَاسَّانْ (Croissant) .
فتحت له مخابز باب الوادي، سوسطارة، الباب الجديد وشارع العربي بن مهيدي (Rue d`Isly)، المجال ليستعرض مفاتنه ومحاسنه على أهل "البهجة" ويعرض عليهم طعمه اللذيذ وأناقة شكله ونعومة عجينته وليونته التي لا تتوفر لا في خبز العرب والفوقاص ولا في خبز البارِيزْيَانْ (Parisien) أو الباقيطة والكورونْ الفرنسية. الكرواسان كان ثورة على الخبز الكلاسيكي في الجزائر كما في أوربا، ودعوة بصفة خاصة للجواجلة، الذين كانوا إلى جانب المعمرين الإسبان والإيطاليين والمالطيين قد انطووا على ذواتهم في نماذج الخبز الروتينية، للانعتاق من القوالب القديمة والتفتح على الحداثة ولو من نافذة الكرواسان.

الضربة القاضية ضد "الخْفَافْجِيَة"

هكذا بدأت تدريجيا المنافسة الحادة بين هذا الأخير من جهة وخبز العرب و"الخفاف" (الفطائر) و"المقروط"، أي المقروض، الذي كانت تزخر بهم المخبزات ومحلات الخْفَافْجِيَة "التوانسة" على وجه الخصوص من جهة أخرى من أجل النفوذ على موائد فطور الصباح في بيوت العاصمة.
كان الأمير خالد منشغلا بمطالبه الاندماجية في مؤتمر الصلح، والعاصمة تنهض وتنام على وقع أخبار الأحداث الساخنة في تركيا التي كانت تعيش مخاضها الأخير، في نفس الوقت الذي لم تكن تبخل فيه على نفسها بسهرات حميمية على أنغام قويطرة الشيخ السَّعيدي أو مدائح الفتى محي الدين باش طارزي.
على موائد هؤلاء بدأ الكرواسان يزحف ويفرض نفسه على شهيتهم بعد أن تحفظوا منه لأسباب سياسية-ثقافية في مرحلة أولى لكونه منتوج غريب عن الثقافة المحلية من

جهة، بالإضافة إلى اقتران وجوده في مدينتهم بالاستعمار الفرنسي من جهة أخرى. غير أن الغلبة كانت له في نهاية المطاف ما دام يُستهلك حاليا على مستوى جماهيري واسع بعد أن طُوِّر كثيرا واستُنْبِطتْ منه أنواع أخرى محشوة بمختلف السكريات والمواد الدسمة التي زادته لذة وجمالا وثراء. والدليل على ذلك أن "الخفافجية" كلهم تقريبا أغلقوا محلاتهم وعادوا إلى تونس موطنهم الأصلي، فاسْتَبْدَلَتْ العاصمة الجزائرية بالتالي الأُخُوَّة المغاربية بالمصلحة الاقتصادية وبطعمٍ جديدٍ لذيذ المذاق.

نكسة المسلمين وميلاد "الكَرْوَاسَّانْ"

في سنة 1683م كانت القوات التابعة للخلافة في إسطنبول تحاصر مدينة فيينا النمساوية للمرة الثانية وسط شتاء قارس. ولما طال الحصار أكثر مما يطاق، تقرر حفر خنادق تحت الأرض والنفاذ منها تحت الأسوار للاستيلاء على المدينة. لكن ما لم يحسب له قادة الجيش الإسلامي الحساب هو أن الخبازين في كل العالم لا ينامون ليلا لأنهم يشتغلون بتحضير حاجات المدينة من الخبز لليوم الموالي. وخلال الحفر، تفطن الخبازون النمساويون لأصوات ارتطام الفؤوس على الأرض فسارعوا إلى تبليغ سلطاتهم بها فنُصِبَتْ الكمائن ووَقَعَ المسلمون في الفخ الذي حضروه بأيديهم، واضطروا لرفع الحصار والعودة من حيث جاءوا بعد معارك ضارية... كانت هذه العملية آخر محاولة في مسلسلِ تَوَسُّعِ المسلمين في أوربا، انتهتْ كما انتهتْ في بداية فتوحات الأندلس تجربةُ عبد الرحمن الغافقي في جنوب فرنسا.

في أجواء الفرحة بالانتصار، كافأ الإمبراطور النمساوي الخبازين على الدور الحاسم الذي لعبوه في رفع الحصار بمنحهم مجموعة من الامتيازات، وحرصوا هم بدورهم على تخليد هذه الفرحة وهذا التكريم بإبداع خبز صغير كصفيحة الحصان في شكله، لكنه يشبه كثيرا الهلال؛ الرمز الإسلامي الذي كان يزين الراية العثمانية آنذاك. فوقَّعوا بذلك شهادة ميلاد "الكَرْوَاسَّانْ" الذي سيغزو الكثير من أرجاء العالم في ظرف بضعة قرون.

بعد ذلك بحوالي مائة عام أدخلت الأميرة النمساوية، التي اشتهرت، بعد زواجها في فرنسا من الملك لويس السادس عشر، باسم الملكة مَارِي أُنْطْوَانِيتْ، الكرواسان لأول مرة إلى بلاد جَانْ جَاكْ رُوسُو ولاَفُونْتَانْ من خلال مطبخها الخاص بالقصر الملكي بباريس، ثم تلتها في هذا الانفتاح على هذا الإبداع النمساوي، بعد فترة وجيزة، مخبزة عتيقة تقع قرب الجسر الجديد (بُونْ نَافْ) بشارع دُوفِينْ بالعاصمة الفرنسية، بقيت موجودة حتى بداية سنوات1880م على الأقل. فخرجت من أفرانها أول قطع الكرواسان الجماهيري الباريسي وأصبحت إثرها من أشهر وأنجح المخابز الفرنسية التي دخلت تاريخ البلاد من بابه الواسع.

غير أن الانتشار الحقيقي والواسع لهذا المنتوج الجديد اللذيذ لم يتحقق إلا منذ سنة 1889م بمناسبة معرض كبير أقيم في البلاد، يضاف إليه قدوم مجموعة من "الكوَّاشين" النمساويين من مدينة فيينا ليستقروا في باريس، فجلبوا معهم مهاراتهم "الكرْواسُّونية". وبعد أن هضمت المخبزات تقنيات وأساليب إنتاجه، أضافت له لمسة

فرنسية جميلة في سنة 1914م هذبت شكله وخففت وقعه على المعدات والأمعاء، فكان ذلك أول عهد للعالم بالكرواسون "فُويْتِي" (المُوَرَّق Feuilleté) .

الانتشار

إثر ذلك ببضعة سنوات، ظهرت موضة الكرواسان في مخبزات مدينة الجزائر في الأحياء الأوربية أوّلاً، ثم انتشرت في كاملِ "كُوشَات" المدينة، لِتعمم في مختلف مدن وقرى البلاد في ظرف بضعة عقود من الزمن. ويُؤَكِّدُ التَّحليلُ الخُبْزُلُوجِي لمدينة الجزائر بأن أهل هذه الحاضرة يأكلون حاليا هذا الخبز الفاتن بِنَهَمٍ وبِسعادةٍ كبيرة. يفعلون ذلك دون أن يعرفوا بأنهم يأكلون رمز ذكرى انحسار الإسلام على أبواب مدينة فيينا ذات شتاء في 1683م..، لكن لا حَرَج في ذلك لأن، كما يقول المَثَلُ عندنا، "اللِّي فَاتْ مَاتْ"...

وإذا كانت بعض مخابز العاصمة قد جعلتْ من الكرواسان أحد عناصر مجدها وشهرتها في الوقت الحالي مثل مخبزة "لاَبَارِيزْيَانْ" قرب الجامعة المركزية، ومخبزة شارع بَاسْتُورْ، ومخبزة بُولَحْبَالْ بباب الوادي، ومحل "بِيتْشُو" في سوسطارة، والمِيلْكْ بَارْ في الأبيار، وغيرها... إلا أن لا واحدة منها تصنع الكرواسان الأصلية بمقاديرها وعناصرها الحقيقية، لأن الكرواسان الأصيلة تُحضَّر بالزبدة وليس بـ: "المَارْغَارِينْ" (La Margarine) أوّلاً، وبكمية هامة من مسحوق الحليب ثانيا، كما يراعى فيها خفة الوزن ثالثا، بحيث يصدر عن الكيلوغرام الواحد من الفرينة 42 إلى 44 قطعة...

فَمَنْ يحترم هذه المقادير حاليا يا ترى؟ وفي حالة ما إذا احترمت، كم عدد الجزائريين الذين سيتمكنون من شرائها ما دامت سرعة تطوّر الأجور في الجزائر، منذ حوالي عقديْن، عاجزة حتى عن منافسة سرعة السلحفاة ...؟.

حصار فْيِينَا الثاني من طرف قوات الإمبراطورية العثمانية سنة 1683م فشل... وبفشله وعودة العثمانيين أدراجهم من حيثُ أتوا، شهدتْ العاصمة النمساوية فيينا ميلاد الحلوى التي أسموها باللغة الألمانية المحلية "كِيبْفِيرْلْ" (Kipferl) ومعناه الهلال باللغة العربية، أمَّا بالفرنسية فيُصبِح Croissant (الكَرْوَاسَّانْ)...

في قلب المعركة بين العثمانيين والتحالف النمساوي البولندي الأوروبي قبيل ميلاد الكرواسان.



...إلا أن شكل الكرواسان لم يولد كما هو اليوم ومرَّ بعدة مراحل مثلما تُظْهر ذلك الصورة حيث أنه استوحِي من الهلال، رمز العثمانيين وكل المسلمين، إلى أن وصل إلينا في شكله المعروف اليوم، مثلما تطوَّرت عجينته لتصبح حاليًا مُوَرَّقة (feuilletée) بعد أن كانت أقْرَب إلى الخبز و"البَرْيُوشْ" (pain Brioché).



مرَّتْ علينا أجيال من الكرواسان لا نعرف غالبيتها لأننا لم نعاصرها، لكن جدَّها الأول كان بهذا الشكل.



...هكذا الكرواسان اليوم بعد مشوار يدوم منذ قرابة ثلاثة قرون ونصف القرن...ولا مانع من أن تتغير شكلا وعجينا في المستقبل، فهذه سنة الحياة...كل شيء متحرِّك ولا شيء ثابت أو جامد...





"فُوقَــاصُ.. لُوجْيــَا"

قبل بضعة عشريات كان لا يزال يُزَيِّنُ رفوف المخابز العاصمية كل صباح، ويَلْقَى إقبالا واسعًا ومُتَمَيِّزًا من طرفِ الشيوخ والأطفال وكُلّ مَنْ خانَتْهُ الأَسْنانُ. إقبالٌ لا يُسْتَبْعَدُ أن يكون قد تَسَبَّبَ له في حزازاتٍ بينه وبين أنواع أخرى مثل "السّكُوبِيدُو" و"البَارِيزْيَانْ" أو "البَاقِيطَة" في سياق الصراع على النفوذ. أما اليوم فقد أصبح الفُوقَاصْ مُجرَّد مادة تصلح فقط للتاريخ الخُبْزُلُوجِي منذ غَزْوِ الأفران الكهربائية ذات الحركة الدائرية لِحِرْفَةِ صناعة الخبز. وإذا كان صحيح أنه "بَرَّانِي" وأُوخِذَ عليه كَوْنه أجنبي وغريب عن قصبة الجزائر وعن كل البلاد، فقد شفعتْ له في القلوب كما في البطون إنسانيتُه وبرُّه بالأفواه المنكوبة دون تمييز عرقي أو ديني. لذلك نال تقدير أهل المدينة في لمحة بصر، وتبنوه كعنصرٍ كامل الحقوق من عناصر غذائهم اليومية... وهذا جزاء المحسنين.

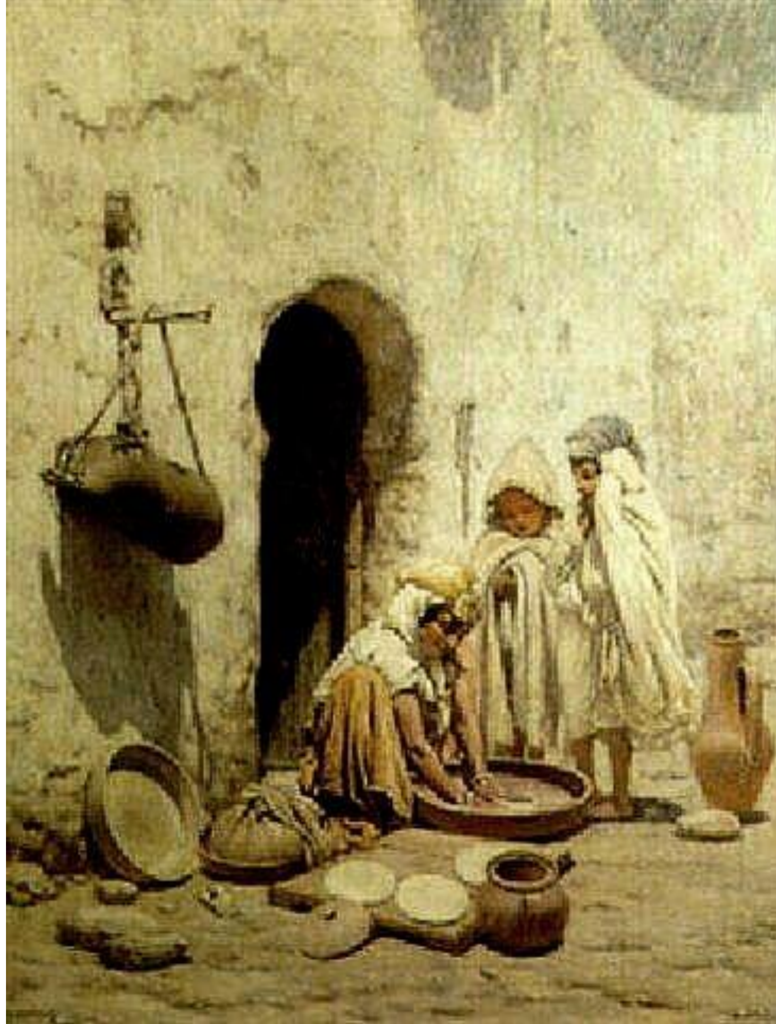
"الفوقاص" (Fougasse) خبزٌ متميزٌ عن "زملائه" بِلُيُونَتِهِ وسهولةِ مَضْغِهِ وبِشفقته على ذوي القدرات الأضْراسِية المحدودة. دخل الجزائر عن طريق عاصمتها مع المحتلين الفرنسيين ليكتشف شعبا محافظا وشديد التمسك بأصالته حتى في جانبها الخبزلوجي. لم يتمكن في البداية من إقناع البطون الجزائرية بالإقبال عليه لأسباب سياسية – روحية أكثر منها منفعية، لأن أهل البلاد تعاملوا بحذر شديد مع كل ما صدر عن الاستعمار وثقافته "الكافرة" وبقوا شديدي التمسك بخبزة البوزاعي وخبز العرب والكسرة والرغيف وغيرها من أنواع الخبز المحلي. لكن الذين تجرأوا على مخالفة التقاليد و الأعراف والمغامرة بتجريبه، لم يصمدوا بعدها أمام سِحْرِهِ وجاذبيته ورقته ولذته وحتى جماله المتميز.

الفوقاص الذي استعار الجزائريون اسمه من سكان الضاحية الباريسية ،الذين كانوا أول من أطلقوا عليه هذه التسمية عندما كانت باريس تُسَمِّيه خبز الحليب، كسر قيود الحيطة والحذر المتبادلين بين المحتلين والأهالي المسلمين ليصبح قناة للتبادل الحضاري بين فرنسا المسيحية والجزائر المسلمة. لذلك لن ينتظر كثيرا بعد الغزو العسكري لمدينة الجزائر وسهل المتيجة كي يستقطب بعضهم ويحتل شيئا فشيئا صدارة رفوف "الكواشين" المسلمين كل صباح.

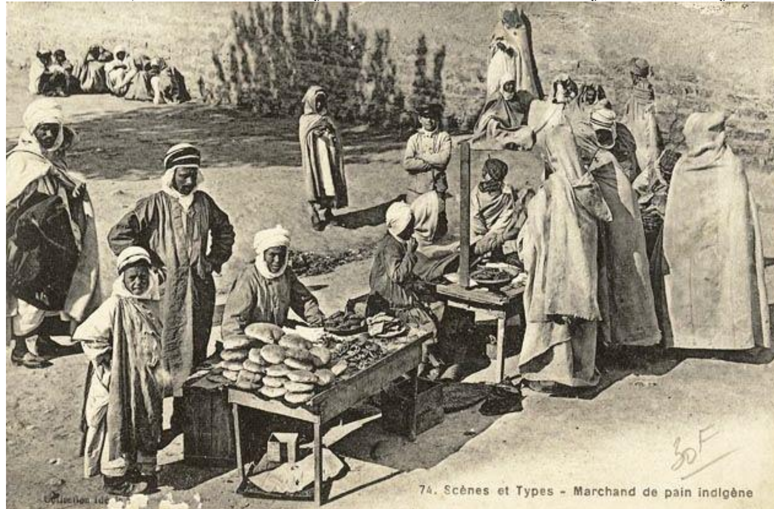
الفرنسيون الذين لم يكتشفوه بدورهم إلا في نهاية القرن التاسع عشر على يد الخبازين النمساويين، الذين استقروا بأعداد كبيرة في باريس في هذه الفترة، حافظوا على التقاليد الاستهلاكية النمساوية لهذا المنتوج، بحيث كان يُتناول مع فطور الصباح مصحوبا بالحليب. كما احترموا العناصر والمقادير التي تدخل في صنعه وهي الفرينة، الملح، الخميرة، المواد الدسمة، السكر ومسحوق الحليب بالإضافة إلى الماء. أما الفرنسيين

"التْشِتْشِيِّينْ" فقد صنعوه من الفرينة والملح والخميرة والسكر ودعموه بالزبدة والبيض والحليب السائل.
لكن مدينة الجزائر التي كانت أول من تفتحت على الفوقاص في البلاد، بِحُكْم احتكاكها المبكر بالاحتلال، فقد كَيَّفَتْهُ مع معطياتها المحلية، فحرمته من الحليب والبيض والزبدة ومختلف العناصر التي تعتبر كمالية عند الأهالي الذين أفقرتهم سياسة الاستعمار، ووسعت مجال استهلاكه إلى جميع وجبات الأكل اليومية وجميع الأطباق بما في ذلك الشربة واللوبيا وأخواتها. ثم حصرته من الناحية الاجتماعية في الشيوخ المسنين والأطفال، ولم تعط أي اهتمام لجذوره التاريخية الأرستقراطية التي بدأت من مدينة فيينا النمساوية التي كانت مركز إشعاع حضاري كبير في أوربا في القرن 19م.
وبالتالي أصبح الفوقاص في الجزائر خبزة شعبية، بل بروليتارية، متفتحة على جميع الطبقات الاجتماعية لأنه "لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى". ففتح له الأهالي بيوتهم وموائدهم بحرارة لم تتشرف بها بقية الإبداعات النمساوية الأخرى في هذا المجال مثل البَرْيُوشْ والخبز الصغير بالشكولاطة والكَرْوَاسَانْ، وباعه الخبازون بأسعار ادنى من أسعار الخبز العادي و"النمساويات" الأخرى التي بقيت تنتمي إلى عالم الكماليات إلى يومنا هذا.
ملأ الفوقاص مخابز الجزائر إلى وقت قريب وخفف على المسنين و"الفَرْمَاشِين" بشكل عامٍّ عناء المضغ بدون أسنان، لكن التطور التكنولوجي والمنافسة التجارية بين الخبازين حَرَمَتْهُ من الاستمرار في هذه الخدمات الخيْرية. وبدأ يختفي من السوق منذ أن بدأت "الكوشات" الحجرية القديمة تختفي من المخابز، إذ كُلّما انهارتْ إحداها تاركةً مكانها لـ"الرُّوتاتيفْ" خَسِرَ شيوخ الجزائر سلّة أو أكثر من الفوقاص...
لكن قد يُوجد أيضا مَنْ يُوَجِّه أصابع الاتهام إلى جَرَّاحِي الأسنان ويُحمِّلهم مسؤولية اختفائه من المخبزة الجزائرية لأنهم سمحوا للمُسنّين بتجديد طواقم أسنانهم ومَكَّنُوهُم بالتالي مِنْ تَحَدِّي كل أنواع الخبز والمأكولات مهما كانت غلظتها.
لن ندخل في مثل هذه المزايدات و لا في التعقيدات القانونية للاتهامات المتبادلة بين صناعة الخبز وجراحة الأسنان لأنها لا طائل منها..، ولأن، كما قال أبو الطيب المتنبي، "بِذَا قَضَت الأيامُ بيْن أهلِهَا   مصائب قوْمٍ عند قوْمٍ فَوَائِدُ"...

كان الخبز العائلي يُطبخ في البيوت من طرف ربات البيوت ولا يشتري الخبز من عند الكُوَّاش إلى الغريب عن المدينة الذي يعيش وحيدا دون أسرة. لذلك، كان من العار تقريبا أن يُشاهد رب عائلة يشتري الخبز عند الكوّاش.



بيع الخبز في الأسواق في مناطق داخلية بالجزائر في نهاية القرن 19م وبداية القرن 20م.



الخبز الجزائري في السوق في عهد الاحتلال نهاية القرن 19م وبداية القرن 20م.



خبز الفوقاص عند خباز في الجزائر المعاصرة وبأفران الطّهي الكهربائية الحديثة.



أفران الخبازين التي سادت في الجزائر منذ نهاية القرن 19م وبداية القرن 20م إلى أن حلت محلها تدريجيا منذ نهاية القرن الماضي الأفران الكهربائية. الفوقاص أوَّل ما يدخل في هذه الأفران بعد تسخينها قبل طهي الأنواع الاخرى من الخبز وعلى رأسها "الباقيطة" (Baguette) التي أزاحت "خبز العرب" من الرِّيادة مثلما كان عليه في بداية القرن الماضي.



الفن المعماري النِيُومُورِيسْكِي: القصبة تتحدى العمران الأوربي

"الأروقة الجزائرية"،"البوسطة"، المدرسة الثعالبية، بلدية الأبيار وبنايات أخرى تشبهها من حيث هندستها الجزائرية "القصبجية" تنتشر في أبرز شوارع المدينة الأوربية بالعاصمة متحدية انسجامها النمطي ومثيرة للتساؤلات... ترى ما سر هذا اللغز المعماري...؟

وقع للاحتلال الفرنسي بالجزائر ما وقع للملك فرديناند وإيزابيلا بالأندلس. فبمجرد إسقاط النظام السياسي و الاستيلاء على البلاد، قام بمحو آثار "البرابرة" عبر طمس ثقافتهم وتهديم مدينتهم التي لم تكن لديه القدرة على تذوق جمالها واكتشاف رقيها المعماري إلا بعد أكثر من نصف قرن. وكان المحتلون يهدفون إلى تأكيد "تفوقهم" ليس عسكريا فقط بل في جميع مجالات الحياة. لذلك اعتقدوا وبغرور فظيع أنهم الحضارة والباقي نفايات بشرية من الضروري التخلص من إزعاجها بالإبادة..أو بالترويض في أحسن الأحوال...

"الفئران" و "البرابرة"

بعد قرن من الاحتلال، وفي عز الاحتفال "بالإنجازات" التي حققتها فرنسا بالجزائر طيلة هذه الفترة، خصوصا من الناحية العمرانية، قَدِمَ لُوكُورْبِيزْيِيه (Le Corbusier)، أحد كبار المهندسين المعماريين الفرنسيين والعالميين، إلى مدينة الجزائر؛ القصبة والمدينة الأوربية معا، وعَلَّقَ على ما اكتشفه في كتابه La ville Radieuse (المدينة المُشِعَّة) الصادر في 1935م بأن "المتحضرين يعيشون كالفئران في الجحور، بينما يعيش البرابرة في الطمأنينة والرخاء". وكان هذا الموقف صفعة لقرن كامل من البناء والتشييد الاستعماري وصدمة للأوصياء على الحضارة. وكان ما قاله "الكورْبيزْييه" هو عين الحقيقة، لكن فات الأوان...

مع ذلك، كان من النخبة الأوربية الكولونيالية مَنْ فَهم هذا الواقع قبل هذا العبقري الفرنسي وناضل من أجل تغيير الذهنيات وحماية العمران الإسلامي وحتى الاستلهام منه منذ النصف الثاني من القرن 19م... لكن خدمةً لفرنسا وليس انشغالا على الجزائر كما قد يعتقد البعض. وكانت الحركة التي قام بها هؤلاء المثقفون وراء حماية العديد من القصور والدّويرات والحصون الجزائرية، التي يعود تاريخها إلى العهد العثماني، واستمرار وجودها حتى اليوم. بل تعدى تأثيرهم مجال حماية التراث، وحَفَّزَ عددًا من المهندسين المعماريين وحتى السياسيين على تجميل المدينة الأوربية، أو "الجحور" الفرنسية، حسب تعبير "الكُورْبِيزْيِيه"، ببِنَايَات مُسْتَلْهَمَة من النماذج المعمارية القَصَبَجِيَة المحلية. هؤلاء المثقفون هم المستشرق الباحث في علم الآثار هنري كلاين (Henri Klein) الذي أسس في سنة 1905م "لجنة أصدقاء مدينة الجزائر العتيقة"،

المهندس المعماري الإنجليزي بوكنال (Bucknall) الذي زار المدينة لأول مرة في سنة 1873م وافتتن بجمال القصور المحلية والتصور العام لقصبة الجزائر وارتباطها الوثيق والمنسجم بالبحر، آل فيدال (Les Vidal) الذين جاؤوا من جزيرة مينورقة في 1840م وأصبحوا بعد نصف قرن من أعيان المدينة وأشهر مهندسيها المحبين للتراث المعماري القصبجي، وكذلك المهندس الشهير "غيوشان" (Guillauchin) الذي تأسف في كتابه Alger حول مدينة الجزائر في سنة 1905م عن "تلطيخ" و"تمزيق" النسيج المعماري للمدينة الإسلامية؛ قصبة الجزائر...

"لا تحجب الشمس عن جارك"

كانت هذه المجموعة النخبوية من بين القلة القليلة الأوربية التي فهمت مبكرا بأنه ليس أليق لمناخ المدينة من الهندسة المعمارية المحلية ومبادئها الفلسفية، وليس أقبح وأكثر تعارضا معه من التصور المعماري للمدينة الأوربية. وأدركوا، بعد فوات الأوان، سِرَّ ضيق أزقة القصبة والتواءاتها وعدم انتظامها، وسر أنفاقها (أو سَبَاطَاتِها) المظلمة هي الأخرى ودروبها، وكذلك الحكمة من صغر وضيق نوافذها، وتَوَجُّه دْويرَاتها وقصورها نحو "وسط الدار" وإعراضها عن العالم الخارجي... وهي كلها خصائص تُلطِّفُ من حرارة الجو شبه الدائمة من شهر أفريل حتى شهر نوفمبر، وتُسَهِّل تهويتها، وتُطَبِّق الحديث الشريف القائل: "لا تَحْجِبْ الشمسَ عَنْ جَارِكَ". لكن هذه النخبة بَقِيَتْ في حاجة إلى عنصر ينظم طاقاتها الفردانية المبعثرة هنا وهناك في مشاريع متكاملة، لكن صغيرة، حتى جاء جُونَـارْ (Jonnart) إلى رئاسة الحكومة العامة ما بين 1898م و1900م، ثم من 1903م إلى 1911م وفي 1919م ليقوم بهذه المهمة ويَكُون الغطاء السياسي لإعادة الاعتبار للفلسفة المعمارية الجزائرية - العثمانية في قلب المدينة الجديدة الأوربية. وقد تزامن مجيئُه مع الإقبال الكبير للأثرياء الإنجليز على السياحة والإقامة في مدينة الجزائر وطلبهم المتزايد على القصور المحلية العتيقة و"الجنانات" المنتشرة في ضواحي المدينة.

لم تكتف سياسة جونار في هذه الفترة بترميم القصور العتيقة وإعادة تهيأتها، بل شجعت المهندسين المعماريين المعجبين بها على تقليدها في إنجاز المشاريع العمرانية الجديدة، بالإضافة إلى القيام بنشاط إعلامي واسع للتعريف بالآثار العثمانية وبما تبقى من قصبة الجزائر. وقد كان هنري كلاين (Henri Klein) أَبْرَزَ الذين قاموا بهذه المهمة الأخيرة من خلال مجلته المعروفة Feuillets d'El-Djazair (أوراق الجَزَايَرْ).

ثمار الاستشراق المعماري

بمجرد حلول سنة 1904م، بدأت سياسة جونار تُؤتي ثمارها، رغم انتقادات الكولون المتطرفين الذين وصفوه بـ: "الأَنْديجانوفيلْ"، وتم تدشين أول بناية مستوحاة من الفن المعماري الجزائري في يوم 6 أكتوبر 1904م تمثلت في المدرسة الثعالبية الواقعة قرب ضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي في شارع ابن شنب بالقصبة، وهي من توقيع المهندس المعماري الفرنسي هنري بُوتِي (Petit). ثم تلتها إنجازات أخرى سوف تُصَنَّفُ لاحقاً فيما يُعرف بالهندسة المعمارية الموريسكية الجديدة (Architècture Néo- Mauresque)

كمقر جريدة Alger-Républicain ، قَبْل أن يتحول إلى مطبعة الحزب بعد الاستقلال، في سنة 1906م من طرف نفس المهندس، والذي لا زال قائما إلى اليوم قبالة فندق ألْبيرْ الأوّل (Albert Premier) في زاوية شارع باستور ونهج خميستي. وفي سنة 1909م انتهى Petit من وضع اللمسات الأخيرة على بناية "الأروقة الجزائرية" الضخمة بشارع العربي بن المهيدي ذات العمومة الواضحة مع "أرْوقَة لاَفَايّيتْ" (Galeries Lafayette) الباريسية، قبل أن ينافسه من الناحية الجمالية والفخامة زميلاه Voinot وTondoire بالتحفة المعروفة بـ: "البريد المركزي" (La Grande Poste) في سنة 1910م. ثم واصلت البنايات الموريسكية الجديدة احتلال الشوارع والساحات الرئيسية بالمدينة الأوربية في العاصمة، فظهر بالتالي مقر "ولاية الجزائر" بشارع عَسْلة حسين، مقر بلدية الأبيار وبريدها، الكنيسة الأنجليكانية التي أنجزها بوكنال في 1909م بمفترق طرق أديس أبابا، فندق سان جورج (الجزائر حاليا) بتوقيعٍ من آل غيوشان، وجزء من قصر الشعب، بالإضافة إلى دار الذكرى المائوية لاحتلال الجزائر (La Villa du Centenaire) التي بناها المهندس كْلاَرُو (Claro) في سنة 1930م بالباب الجديد بالقصبة العليا بمساعدة سكان القصبة.
سوف تؤدي هذه الحركة المعمارية التي حركها جونار إلى بروز موضة الفيلات الموريسكية الجديدة التي بناها الأثرياء الكولون، الإنجليز والأمريكيين بين الأبيار وتيليملي وحيدرة التي لا زالت حية تُرزق إلى يومنا هذا. كما عبدت الطريق للمهندس كْلاَرُو ليضع بمدرسة الفنون الجميلة بتيليملي أُسُسَ عمران جديد يمزج بين الفلسفتين المعماريتين الجزائرية العتيقة والفرنسية. وسرعان ما تجسدت هذه الفكرة في البنايات الجميلة المحيطة بأعالي شارع محمد الخامس وأغلب بنايات شارع كلود ديبيسي، والتي تعتمد على نموذج العمارة الأوربية في جوهرها وعلى الزخارف الإسلامية من حيث الشكل كما يبدو في أشكال النوافذ والأبواب الرئيسية.
لكن الغريب في الأمر أن هذه الحركة العمرانية الموريسكية الجديدة التي بدأت تستنفذ طاقاتها منذ 1930م توقفت تماما بعد الاستقلال في مجال الإنجازات العمرانية العمومية الكبيرة باستثناء بناية معهد العلوم الاقتصادية بالخروبة التي بناها المهندس بوشامة في السبعينيات وقصر الثقافة في الثمانينيات. وحتى فندق "الأوراسي" الذي صُمِّمَ تصميمًا شَرْقِيًا على يد مصطفى موسى تَمَّ تهجينُه قبل وِلادتِه لِيُقَرِّرَ له المهندسُ الإيطاليُّ مُورِيتِي مستقبلاً غربِيًا يتمثل في شكله المعروف حاليا. كما أن ذلك الثلث المتبقي من القصبة عن التهديمات الواسعة التي قام بها الاحتلال في القرن 19م لم يبق منه اليوم شيء كبير يُذكر...في الوقت الذي كثر "أصدقاء القصبة" ومحاموها... بل وفاضوا عن الحاجة **!**

هكذا وجد المحتلون الديار والقصور في مدينة الجزائر وفي بساتين فحصها، وقد خلَّدها الفنانون والمهندسون المعماريون المعجَبون والمنصفون في لوحات فنية ومؤلفات متخصصة تشهد على المستوى الجمالي الراقي والدقة الوظيفية في تصوُّر البناء الجزائري في العهد العثماني. اللوحة للأمريكي فريريديريك آرثور بريجمان.





نماذج عمرانية أخرى في مدينة الجزائر...كيفية بناء المأوى صورة للمستوى الحضاري وفن العيش.



قنصلية ألمانيا في مدينة الجزائر.



قصر الداي حسن أو "دار حسن باشا" التي أقام فيها نابليون الثالث خلال زيارته الجزائر سنة 1865م، وعلى جانبها الأيسر، يوجد حَمَّام سيدنا الذي يُعدُّ أقدم حمَّامات المدينة حيث يعود إنجازه إلى بدايات العهد العثماني في القرن 16م.



خلال زيارته للجزائر في 1865م، أعجب نابليون الثالث وزوجته أوجيني كثيرا برقي الفن المعماري الجزائري. الصورة لغرفة نومه بقصر حسان باشا المحاذي لجامع كتشاوة والمقابل لدار عزيزة.



"دار حسن باشا" وجامع كتشاوة تقابلهما "دار عزيزة". في عمق الصورة، على اليسار، لا يوجد شارع "لالير" (حاليًا بوزرينة)، لأنه لم يكن قد بُنِي بعد. قبل إنجازه كانت بناياته جزائرية محضة ككل عمران المدينة العتيقة.



في الفحص بـ: تيليملي قريبًا من "جنان مصطفى باشا" أو "قصر الشعب" حاليًا.



شارل جونار الحاكم العام الفرنسي للجزائر في بداية القرن 20م المعجَب بالفن المعماري الجزائري/الأندلسي والذي شجَّع المهندسين المعماريين على البناء على نمطه وفقا لما أصبح يُعرَف بالهندسة المعمارية النيومورسكية، أيْ الموريسكية الجديدة، ما أثمر بإنجاز عدة معالم عمرانية كالبريد المركزي ولأروقة فرنسا قبل أن تصبح الأروقة الجزائرية وهي منذ بداية القرن 21م متحف.



نماذج من البنايات النيوموريسكية التي أُنجِزتْ في عهد شارل جونار أو بعده، وهي موجودة إلى اليوم: البريد المركزي على اليمين بُنِيَ بين 1907م و1910م من طَرف المهندسيْن المعمارييْن جول فْوَانُو(Jules Voinot) وماريوس تُودْوارْ (Marius Toudoire)، ومقر جريدة "La dépêche Algérienne" ثم جريدة "Alger Républicain"، على اليسار، وهي اليوم مقر صحيفة "صوت الأحرار"، من إنجاز المهندس المعماري هنري بوتي (Henri Petit) بين 1904م و1905م.



"المدرسة الثعالبية"، في عهد الاحتلال "المدرسة العربية" أو فقط "المدرسة"، أنجزها المهندس هنري بوتي في 1904م.



المدرسة الثعالبية خلال النصف الثاني من القرن 19م، وأعلاها بقايا سور المدينة المنحدر من حومة سيدي رمضان باتجاه البحر.



"أرْوِقة فرنسا" في عهد الاستعمار، "الأرْوِقة الجزائرية" بعد الاستقلال ثم المتحف حاليا. الموقع: شارع العربي بن مهيدي. تمَّ إنجازُها بين سنتيْ 1909م و1914م من طرف المهندس المعماري هنري بوتي.



"الأروقة الجزائرية" سابقا / المتحف اليوم. من إنجاز المهندس المعماري هنري بوتي (Henri Petit).



مقر ولاية الجزائر في قلب العاصمة الجزائرية بناية من البنايات النيوموريسكية التي أُنجِزتْ على يد المهندس المعماري جول فْوانُو (Jules Voinot) بين سنتيْ 1908م و1913م.



مقر بلدية الأبيار في مرتفعات المدينة التي كانت فحصًا في العهد العثماني خارج أسوار المدينة العتيقة.



دار الذكرى المائوية لاحتلال الجزائر (La Villa du Centenaire) التي بناها المهندس كْلاَرُو (Claro) بمساعدة السكان في سنة 1930م في حومة الباب الجديد قبالة مدرسة التعليم المتوسط محمد بوراس بالقصبة العليا.



وسط الصورة: بناية نيوموريسكية في شارع كْلُودْ دِيبيسي (rue Claude Debussy) سابقًا بمحاذاة مقر الأمم المتحدة في أعلى شارع ديدوش مراد بالجزائر العاصمة. تبعد بنحو 100 م، صعودًا، عن اتحاد الكتاب الجزائريين.



العمارة ذاتها بُعيد إنجازها في عهد الاحتلال في النصف الأول من القرن 20م.



"دْرُوجْ" البهجة، "وَقْتَاشْ تْجِي... الفَرْجَة!"

سلالم مدينة الجزائر، ورُبَّمَا كل الجزائر، كُتِبَ لها أن تَتَحَوَّلَ منذ نهاية القرن 20م إلى هياكل للانحراف والشذوذ الأخلاقي، ومسالك تاكْتِيكِيَة للإرهاب، و"بساتين" للوصال السِّري والمواعيد المخفية، وأشياء أخرى..، بعد أن كانت مصدرَ إلهامِ الفنانين والرَّحَّالة...

"الدْرُوجْ" في مدينة سيدي عبد الرحمن ليست ظاهرة جزائرية فريدة من نوعها ولا "مكسبا ثوريا" ولا حتى معجزة من "معجزات" الحكومات المتعاقبة. روما، صقلية، مرسيليا، طليطلة، وأثينا..، كلها سلالم تفنن المعماريون في طولها وعرضها وتعرجاتها وحتى في تصاميمها الموجهة نحو أجمل المناظر الطبيعية المتوفرة في محيط هذه المدن.

لكن سلالم مدينة الجزائر تتميز بلمسات خاصة أعطتها نكهتها الجزائرية البحتة وأدمجتها في "الطابع الجزائري" الذي تسلط على مسيرة الجزائر المستقلة بدءا "باشتراكية" بن بلة وبومدين إلى "ليبرالية" بن جديد وفوضى ما بعد بن جديد...

سلالم المدينة، زيادة على تجسيدها لحوار وصراع الحضارات المتعاقبة عليها كان من وظائفها أيضا أن تؤدي دور هياكل للانحراف والشذوذ الأخلاقي ومسالك تاكتيكية للإرهاب و"بساتين" للوصال السري رغم أنف "الرقيب"...

لم تكن مدينة بني مزغنة أثناء طفولتها في حاجة إلى السلالم. صغرها، تواضع عدد سكانها وضعف حركيتهم الاقتصادية وَفَّرُوا على معماريِّيها وبَنَّائِيها عناء شق الممرات الجبلية وتشكيلها في صورة "سْكَالِيَاتْ" خصوصا وأن المدينة كانت تتربع بصفة رئيسية على أرض بطحاء تتمثل فيما يعرف اليوم بساحة الشهداء وما جاورها. بِغض النظر عن قيمتها الجمالية والمعمارية، تكتسي السلالم قيمة منفعية هامة تتمثل في تسهيل التنقل بين أسفل المدينة وأعاليها، وفي اختصار المسافات واقتصاد الوقت... عندما كان وقت الجزائريين ثمينا...

من "الدروج" التقليدية...إلى "السكالي" العصرية

لم يكن خير الدين بربروس في حاجة إلى بناء سلالم كثيرة رغم أنه واضع اللبنات الأولى للمدينة العتيقة التي تسمى اليوم قصبة الجزائر، لأن قرية بني مزغنة كانت لا تزال تتسع بكفاية لأهلها ولسكانها الجدد النازحين من الريف ومن الخارج بعد انضمام الجزائر إلى الإمبراطورية العثمانية. خير الدين حرك ديناميكية تجديدها وتوسيعها وترك لخلفائه الباقي.

من 1529، تاريخ انطلاق بناء القصبة، إلى1830، لم تتوقف هذه الديناميكية العمرانية المغاربية-الأندلسية-التركية بدءا ببناء القلعة (دار السلطان) ومسجدي سفير وسيدي

مْحمد الشريف في "الجبل"، في أقصى أعالي المدينة، خارج الأسوار، إلى مختلف المنازل والقصور التي بنيت بينها وبين مركز المدينة، حيث الجامع الكبير وضواحيه. وبين أسفل القصبة ومرتفعاتها، سوف تفرض السلالم نفسها كضرورة حضرية للتقليص من الأوحال وتناثر التراب والغبار حول البنايات من جهة ولتسهيل التنقل واختصار المسافة والزمن من جهة أخرى. لقد بدت السلالم في ذلك الوقت كالمصاعد الكهربائية حاليا، فانتشرت وأحاطت كالأخطبوط بمركز المدينة وأطرافه.

في تلك الظروف، شهدت أبرز سلالم "البهجة" وأشهرها النور، وهي التي لا تزال إلى اليوم المسالك اليومية لمئات الآلاف من البشر، ورثوها وورثوا ثقافتها عن بابا علي ومامي الغرناوط ومصطفى باشا وعلي خوجة والمهندس الأندلسي "أوسطة موسى" وغيرهم، مثل شوارع الباب الجديد (بورت ناف)، سيدي ادريس حْمِيدُوشْ (شارع القصبة)، سيدي مْحمد الشريف (بئرالجباح) وسيدي عبد الله..، التي أجهدت الأديب الإسباني ميقال دي سيرفانتيس والدبلوماسي الأمريكي جيمس كاثكارت.. وحتى حمير وبعير المدينة أثناء ترحيل كنوز علي خوجة من قصر الجنينة بساحة الشهداء إلى دار السلطان بالقلعة في "الجبل". لو نطقت لَحَيَّتْ بصفة خاصة الجالية البسكرية التي استهلكت أجيالا كاملة من شبابها وفتيانها في صعودها وهبوطها وهي محملة بِقِرَبِ الماء النحاسية على ظهورها وأكتافها. كانت "دْرُوجْ" القصبة تُبْنَى بالحجر الأزرق، ولم تعرف العاصمة "السكاليات" الإسمنتية والمصنوعة بالصفائح الإسمنتية ("الدَّالاَتْ") إلا في عهد الاستعمار. وما ينطبق على القصبة والمدينة الأوربية الاستعمارية ينطبق أيضا على جميع المدن الجزائرية ذات الطبوغرافية الوعرة على غرار السويقة بقسنطينة، قصبة بجاية، وقصبة تلمسان...إلخ.

أدخلت الهندسة المعمارية الاستعمارية على المدن الجزائرية أشكالا جديدة من السلالم أكثر استقامة وانتظاما من الناحية الهندسية من "دروج" القصبة، لكنها أقل طولاً منها على العموم وتفتقر للنكهة الشرقية التي تتميز بها المدن الإسلامية التقليدية. وأشهر "سكاليات" المدينة الأوربية في العاصمة هي تلك المؤدية إلى قصر الحكومة، المتميزة بالفخامة والنوعية الجمالية عالية الجودة، والتي احتكرها جهاز الحزب في الثمانينات لقياداته ثم أغلقتها الأزمة الأمنية طيلة سنوات في وجه الجمهور إلى إشعار آخر...

سلالم النسيج العمراني الأوربي تتراوح بين الاستقامة أساسا ثم الانكسار والانحناء وهي مجسدة بصفة رئيسية في نهج اوريدة مداد (قامبيطة سابقا) بمحاذات القصبة، شارع 19 ماي 1956 الواقع بين شارعي الدكتور سعدان والدكتور ترولار بالجزائر الوسطى، وسلالم شارع محمد التوري المؤدية إلى المسرح الوطني الجزائري بساحة بور سعيد..، إضافة إلى السلالم الطويلة والمُجْهِدَة بِحيّ محي الدين وسيرفانتيس بالحامة، وتلك التي تربط بين مقبرة القطار و"مناخ فرنسا" والتي تثير الرعب في نفوس العجائز والكهول منذ أن بناها شيخ مدينة الجزائر ونائبها في الخمسينات جَاكْ شُوفَالِي. أما "سْكَالِيَاتْ" شارع "بِيرْدُو" المتصاعدة نحو نهج محمد الخامس فهي متميزة عن غيرها بوقاحة انتهاكها لِحُرُمَاتِ البيوتِ الممتدةِ على جانبيْها من أعلاها إلى أسفلها

دون اعتبارٍ للقِيَمِ المحلّية، بحيث حَوَّلَتْهَا بهذا الاختراق إلى معرضٍ مفتوحٍ على المارّة، وفي الهواءِ الطلقِ، للبيوتِ الجزائريةِ الحديثةِ بكل زخمِ رَوَائِحِ تَوَابِلِهَا وضجيج أطفالها ونسائها...

وعندما دخل الكهرباء إلى الجزائر حُقنت سَلالِم المدينة بِشُحنةٍ من التكنولوجيا الجديدة، فَظَهَرَتْ السّلالم الميكانيكية-الكهربائية الرابطة بين شارعي كْلُودْ دِيبِيسِي ومحمد الخامس بالجزائر الوسطى وبَرَزَتْ كقمّة ما توصل إليه الإبداع الكولونيالي في هذا المجال. إبداعٌ، بِمجرد عودة الاستعمار إلى بيته سنة 1962م، توقفتْ دواليبُ حركيّتِه وتَطَوُّرِهِ، ودخل تاريخ السلالم الجزائرية بموجب ذلك في مرحلة الانحطاط وهو الذي تَحَمُّلِ سراء وضراء أهلها قرونا طويلة.

من تشريف الملوك إلى..انحطاط السلوك

هذه الأخيرة التي كانت مسالك فاخرة في عز أيامها، تشرف بعبورها يوميا القناصلة الأوربيون والملوك ورياس البحر والجنرالات الفرنسيون، من البيلرباي خير الدين بربروس والداي حسين والقنصل الفرنسي دوفال والأمريكي ويليام شيلير إلى مراد رايس والعلج علي والرايس حميدو..، وحتى الجنرالات دوبورمونت وكلوزيل وبيجو والملك لويس فيليب ونابليون الثالث...

لكن دوام الحال من المُحال، إذْ تَعيشُ هذه السلالم اليوم أقصى درجة من الرداءة عرفتها منذ أن دخلت في النسيج العمراني للعاصمة الجزائرية، ليس فقط على مستوى النظافة والصيانة، بل حتى في وظائفها. لقد حُوِّلتْ عن دورها الحقيقي المبدئي نحو أغراض أخرى مثلما كما حُوِّلتْ أشياء كثيرة عن مسارها الصحيح في الجزائر المستقلة... فتعددت وتنوعت صلاحياتها حسب التحولات العميقة السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تشهدها البلاد.

فيفري 1992... أول عملية افتُتِحتْ بها الأزمة الأمنية نُفِّذَتْ بالاعتماد تاكتيكيا على "دْرُوجْ" شارعيْ "مِيدِي" (Médée) والباب الجديد بالقصبة. عملية اغتيال الوزير الأسبق بوبكر بلقايد تمت وِفْقَ نفس التاكتيك بالاعتماد على "سْكاليات" المسرح الوطني الجزائري و"دْرُوجْ" شارع ميدي، وقد اضطرت لذلك السلطات الأمنية إلى غلق الأولى طيلة سنوات تحسبا لمفاجآت أخرى...

كما اسْتُغِلَّت سلالم حي "بُوبِيُّو" قرب قاعة حرشة سنة 1994 في محاولة اغتيال فاشلة ضد وزير سابق للتجارة..، وتنطبق نفس القاعدة التاكتيكية على جميع هذه المسالك في الأحياء الشعبية سواء في العاصمة أو غيرها من المدن لأنها تسمح للمنفذين بالذوبان السريع وسط الزحام والتحرك السريع والمرن من شارع إلى آخر. بن سعد الله، المناضل البارز في حركة مجتمع السلم، لقي حتفه في حي البدر بالقبة وفق نفس السيناريو في مطلع 1995.

طورت شريحة أخرى من الجزائريين قدرات السلالم في التأقلم مع تحولات المجتمع. "نقابة" "الزَّرَّامِينْ" التي تعتمد على السرقة في وضح النهار بالخطف والانتشال فهمت جيدا إمكانيات الفرار والنجاة الفعالة التي توفرها لها هذه المنافذ. لذا فإن أبرز فضاءات

هذا النوع من السرقة وأكثرها مردودية بالنسبة "للزَّرَّام" هي تلك المحاذية "للسكاليات" التقليدية والحديثة على السواء. وهذا هو سر شيوع انتشال العقود والقلادات الذهبية من رقاب النساء في شارع العربي بن مهيدي، عادة قرب المنافذ السُّلَّمِيَة المؤدية إلى شارعي طنجة وعسلة حسين أو تلك المحاذية لسينما الأولمبيا (الشهاب) أو تلك المتصاعدة نحو شارع ذبيح شريف والقصبة. قد يُفسِّر ذلك جزئيا كَوْنِ شارع ديدوش مراد الذي يفتقر نسبيا إلى مثل هذه المنافذ هو شارع ينخفض فيه معدل الانتشال. أما أخصب فضاء للزَّرَّامين فهو القصبة السفلى التي تتواجد فيها أكبر نسبة للسلالم التقليدية التي تعود إلى العهد العثماني... هذه الأخيرة تُسْتَغَلُّ أيضا كمقرات اجتماع لهيئة أركان شبكات الخطف والانتشال لإعداد استراتيجيات الغزو والكرّ والفرّ وتقاسم الغنائم... أمّا أكثر هذه "المقرّات" المُفزعة التي ترتعد لها أوصال الناس فهي "دْرُوجْ" مقبرة القَطَّارْ.

سلالم الحب البائس

السلالم في الجزائر تفهمت مشاكل الشباب أكثر من الحكومات، وتخصصت المعزولة منها عن المارة للتكفل بالحاجة العاطفية والجنسية لهذه الشريحة لتعويض الحرمان الناتج عن أزمة السكن وارتفاع تكاليف الزواج.

سلالم المعهد الوطني للفنون الجميلة وحديقة الحرية في تِلِيمْلِي، "سلالم الحب" (Escaliers de l'amour) في القبة، "دْروج" غابة الأقواس قرب مقام الشهيد، "دْروج" ثانوية الأمير عبد القادر وحديقة "مارانْغو" بباب الوادي، وكذلك "دروج" "التاغاران" في أعالي نزل الوراسي التي اضطرت السلطات المحلية إلى اقتلاع الشجيرات المحيطة بها بعد أن كان يستتر خلفها العشاق عندما تفيض عواطفهم عن قدراتهم الكَبْتِيَة وعندما تجيش أحاسيسهم الرقيقة والخشنة وتعصف نزواتُهم مُخترقة بهم الآفاق... هذه السلالم المشهورة والمحبوبة أيضا في أوساط المراهقين والشباب كانت ولا تزال، رغم "الاختلالات" والإزعاجات التي تَسَبَّبَ فيها الإرهابُ والمحافظون على العموم، أدوات فعالة للحكومات الليبرالية المتعاقبة لضبط وتسيير الأزمة العاطفية والبؤس الجنسي...

أما أطفال القصبة بالعاصمة فقد أَثْرَوْا "دروج" مدينتهم العتيقة، المنحدرة عبر شبكة معقدة من السلالم نحو البحر، بوظيفة رياضية تتمثل في لعب كرة القدم وبعض مشتقاتها من التسليات والألعاب المُكَيَّفَة مع الطبيعة المتدرجة الوعرة للأرضية مثل "الكافويَاجْ" ولعبة "اللِّي يْقيسُو يَخْرُجْ"، أو "قِيسْ مُوتْ" كما تسمى في القبة وبراقي، إضافة إلى "الوَاسْطَة"، وألعاب أخرى عديدة مثل "تْشَبْتْشَاقْ المَارِيكَانْ" و"تْشِيلَة"...

والسلالم المراحيض

غير أن أقبح ما تعرضت له سلالم المدن الجزائرية وليس القصبة فقط، دون احترام لا لفضائلها على الناس ولا لعراقتها، هو تحويلها من طرف جزائريين وجدوا صعوبات كبيرة في الاندماج في ثقافة المدينة وقواعدها بعد أن لفظهم الريف منذ بدايات الاستعمار، إلى مزابل عمومية متعفنة شوهت البيئة وحولت السلالم إلى منبع للأمراض والأوبئة. هذا ما يحدث يوميًا في "دروج" شارع بُونْ، أو"عنابة"، وشارع "الليل" (Rue de Nuit) ببلدية القصبة، و"سكاليات" الدكتور تْرُولاَرْ بالجزائر الوسطى على مقربة من

قصر الحكومة وغيرها. هناك كُلَّمَا حَلَّ الليل تتهاطل عليها أمطار بل عواصف من النفايات والقاذورات وفضلات الأكل من نوافذ المطابخ وغرف الحمام.. بالجملة والتفصيل، أي في أكياس القمامة أو بدونها..، وإذا كانت القطط والفئران سعيدة بهذه الآفات، فإن البشر يعانون من الروائح الكريهة الحامضة ومن المنظر البشع "لِلْبَانْدَاتْ" العازلة التي تستعملها النساء أثناء الحيض، الشيء الذي أوحى أحيانا لبعض الغرباء بحدوث مجازر إرهابية جماعية...

أما قمة ما أبدعه أعداء المدينة والمدنية من آفات هو إثراء السلالم بوظيفة استثنائية نادرة جدا في بقية مدن العالم... إذ نجحوا في تحويلها إلى مراحيض في الهواء الطلق "مزينة" بكل "الخيرات" التي تفرزها دوريا الأجهزة الهضمية البشرية. وقد فاقت بعضها عن الأخريات في أداء هذا الدور الجديد، مثل "السكاليات" المقابلة للجامعة المركزية والمؤدية إلى شارع "شاراس" رغم وقوعها في أرقى أحياء المدينة الأوربية في العاصمة الجزائرية. قبل الاستقلال كانت ملتقى للنخبة المثقفة الكولونيالية مثل أَلْبِيرْ كامُو، شَارْلْ رُوبِيرْ آجِرُونْ، شَارْلْ أَنْدْرِي جُولْيَانْ، جَاكْ دِرِيدَا وجَانْ سِينَاكْ وغيرهم... واحتضنت بَعْدَهُ صفوة النخبة الجامعية الجزائرية.

هذه السلالم العاصمية التي فتنت الكاتب الفرنسي أندري ثابت وأخاه حتى جَسَّدا جمالها و"غرائبيتها" في كتاب "قصبة أبي" الذي تَحَوَّلَ إلى فيلم "بِيبِي لُومُوكُو"، أنهكها اليوم "الطابع الجزائري"، فتشوهتْ بعد أن حرمها أهلُها من دورها الحقيقي المواصلاتي والجمالي-العمراني. إنها تعكس لسكان "البهجة" بطريقة صارخة المستوى العجيب من الرداءة والانحطاط وضعف الحس المدني الذي "نجحوا" في تحقيقه في ظل عشريات "التنمية" وعشرية "اقتصاد السوق".

هل لا تزال تمتلك حظوظا في استعادة جمالها وسحرها الذي فتن سِيرْفَانْتِيسْ، كَاتْكَارْتْ وثِيُوفِيلْ قُوتْيِي...؟

اسألوا "الولاية" لأنها خير من يملك إمكانية الرد على هذا السؤال في الوقت الحالي... لكن دون نسيان الحس المدني أيضا...

شارع القصبة/سيدي إدريس حْمِيدُوش في "القصبة العليا" قريبا من حومة الباب الجديد.



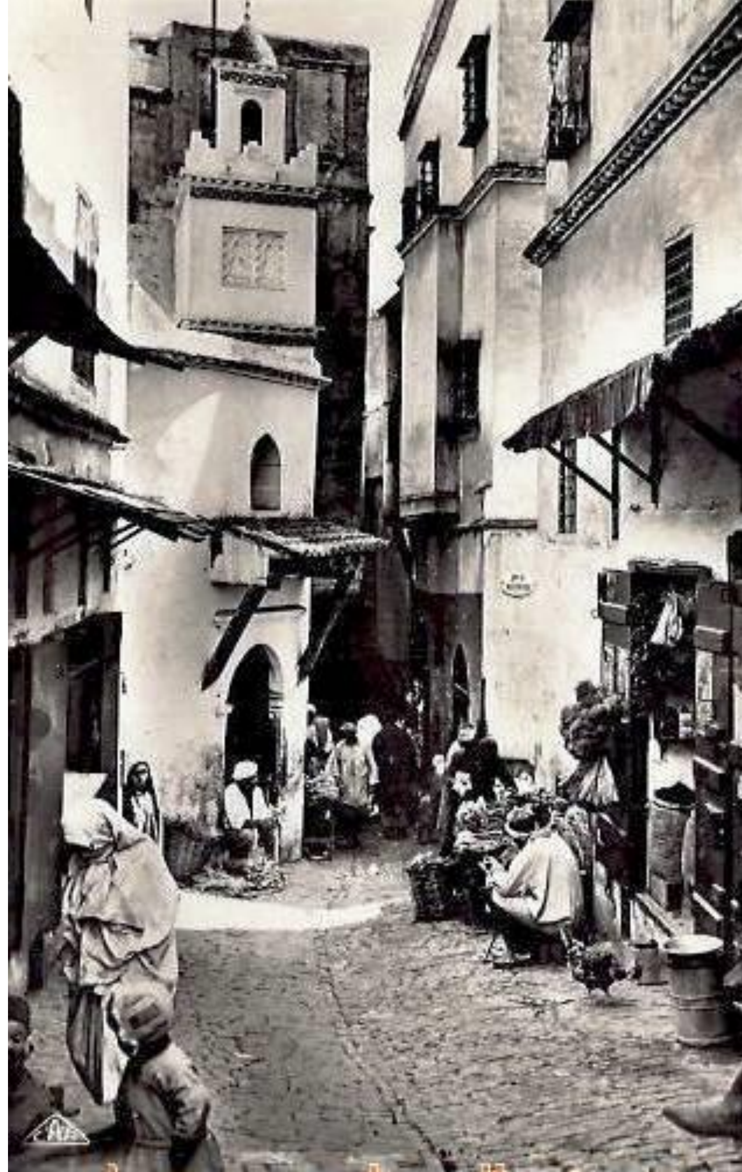
"دْرُوجْ" شارع الباب الجديد (Rue de la Porte Neuve) عند تقاطعه مع شارع عمَّار علي (أو rue Randon) في عهد الاحتلال.



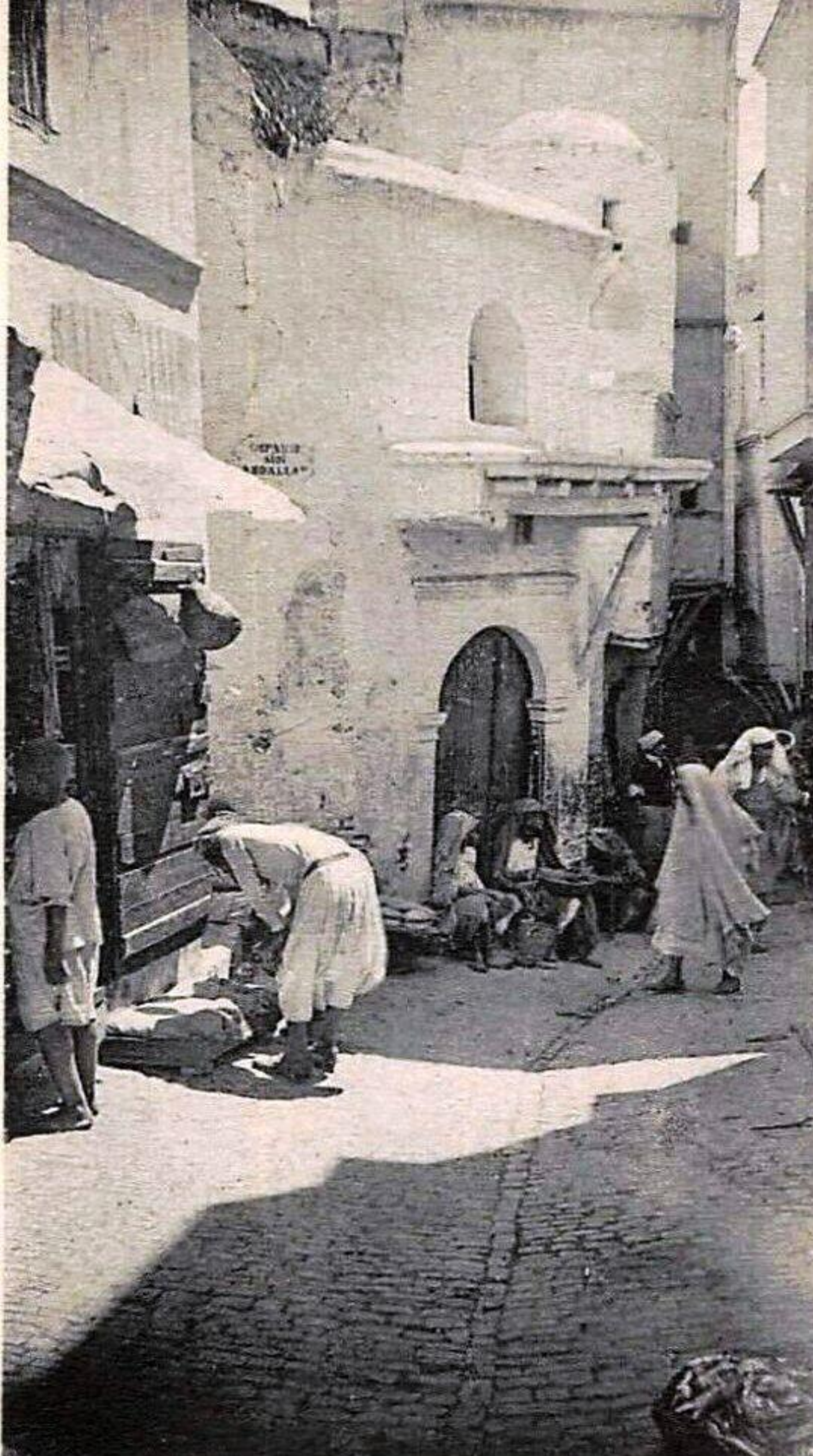
"دْرُوجْ" شارع الباب الجديد من جهته العليا قريبا من حوْمة "قهوة العريش" وجامع صفر/سفير.



حوانيت سيدي عبد الله وجامع سيدي عبد الله...بعد الجامع، توجد السلالم المؤدية إلى شارع عَمَّار علي وجامع بن فارس أو "جامع اليهود" سابقًا.



جامع سيدي عبد الله وبعده "الدّْروجْ" حيث محلات الشعانْبة الجَزّارين.



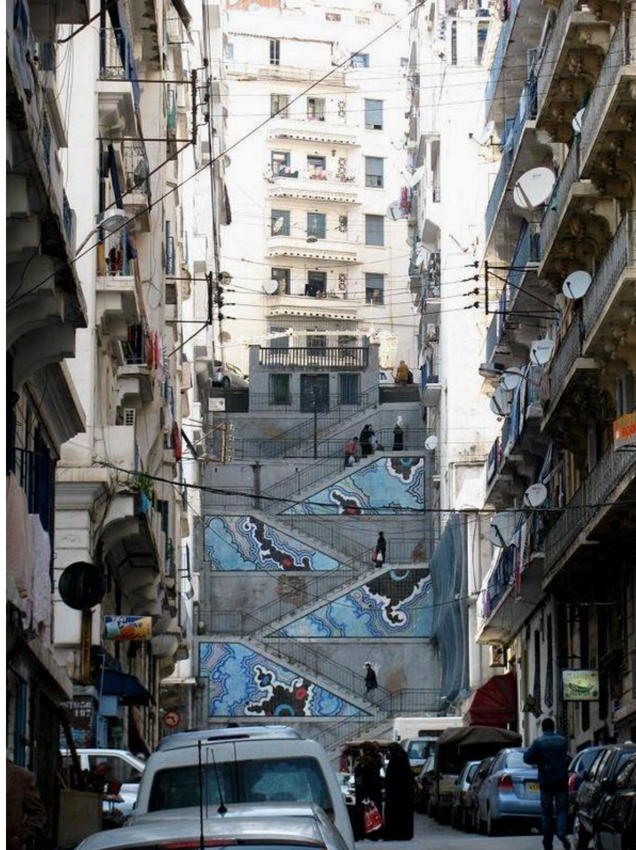
"دْروجْ مْسيدْ دوزْدوزْ" خلفَ شارع العربي بن مهيدي، في الأعلى، وقريبًا من قصر الحكومة.


123. ALGER — Rue Levacher
GYMNASTE-CLUB
D'ALGER
Collection Idéale, P. S.

المسرح مقابلا حديقة ساحى بور سعيد وعلى جانبيه السلالم اللمعروفة بـ: "دْروج الأوبرا". خلفَ المسرح، تود ساحة وسوق بوزرينة/لالير سابقا، ووراءه شارع وْريدة مَدَّاد/قامبيطة سابقًا.



بمحاذاة شارع الدكتور سعدان وجامعة الجزائر.



تمـاثيـل البـؤس والـرداءة

حظ التماثيل في الجزائر سيئ جدا، قد يستدعي تنظيم أنفسها في إطار جمعوي للدفاع عن حقوقها ومصالحها، ولحماية مستقبلها من امتدادات الأزمة الشاملة التي عصفت بالبلاد ومن ضعف الحس المدني والأخلاقي.. لكن هل يمكن أن يكون لها حظ أجمل من حظ البشر البؤساء الذين صنعوها..؟

لأسباب دينية، أو اعتُقد أنها كذلك، لا تتوفر عاصمة الجزائر على تماثيل هامة تذكر، لا من حيث الضخامة كما هو الشأن في أوروبا والدول الاشتراكية سابقا التي زرعت رموزها في مختلف الساحات العمومية، ولا من حيث الجمال. ففي سنة 1964 عندما عزمت سلطات المدينة على تنصيب تمثال الأمير عبد القادر، رغم الاحترام الكبير الذي يتمتع به في قلوب الجزائريين، واجهه عدد من المواطنين بمظاهرات وصدامات مع الشرطة للمطالبة بإلغاء المشروع بسبب ما اعتبروه مخالفة للتعاليم الإسلامية التي تحرم الأصنام. وربما أيّدهم الأمير نفسه في احتجاجهم لو تمت استشارته بحكم تدينه الشديد وانتمائه إلى زاوية معروفة بمحافظتها الشديدة أيضا.
مع ذلك، نجحت السلطات المحلية في تجاوز هذا الطابو وزرعت تدريجيا عددا من التماثيل البسيطة والمتقشفة جماليا في عدد من الأحياء والحدائق العمومية. لكن الرداءة وتدهور الحس المدني والمضاربة السياسية الميكيافيلية بالرموز الوطنية تسببت كلها في أضرار بالغة لهذه التماثيل ماديا ومعنويا...

مجاهد باب الوادي و.."قرعة الروج"

في 1985، تم تنصيب تمثال كبير الحجم باب الوادي قرب شاطئ "بادوفاني" (PADOVANI) يجسد المجاهد الجزائري أثناء حرب التحرير بالبندقية و"القشّابية" نال إعجاب الناس في حينه وغضبت عنه في نفس الوقت بعض أجنحة التيار الإسلامي للأسباب السابقة الذكر.
بعد ثلاث سنوات من تنصيبه، دفع غاليا ثمن أخطاء رداءة السياسيين، بحيث تعرض لاعتداء مُهين من طرف "أطفال 5 أكتوبر 1988" فَجُرد من سلاحه الذي عوضوه إياه بـ "قرعة روج" وضعت بين ذراعيه وصدره، وعلقوا له إطار عجلات مطاطي حول رقبته استهزاءً وتنكيلا بنموذج المجاهد الذي اشتغل بعد الاستقلال بتحطيم الثورة التي صنعها بيده وبدمائه. وبقي هذا التمثال على هذا المظهر طيلة أسابيع قبل أن تستدركه السلطات المحلية بتخفيف "البهدلة" عنه في مرحلة أولى، ثم بتهديمه نهائيا بعد سنوات... فبذلك "تْهَنَّى الفَرْطاسْ من حُكّانْ الرّاسْ" كما يقال... وكان من الأفضل له أن يختفي ويعود إلى أصله كمادة أولية تتكون من إسمنت وحجارة على أن يستمر في الوجود دون "عزة أو كرامة"...

الأمير عبد القادر يصاب بـ: "البرْص"

أما الأمير عبد القادر، فقد كان أسعد حالا منه، بفضل رصيده الطويل من الكفاح التحرري والكاريسماتية التي يتمتع بها. لكن ذلك لم يعفه من الإزعاجات المختلفة من طرف الأطفال بـ: "البالون الشْكارة" (كرة القدم المصنوعة بأكياس الحليب) من جهة ومن طرف السلطات العمومية التي رحّلته إلى مسقط رأسه بمدينة معسكر في فترة شاعت فيها موضة ترحيل سكان بعض الأحياء العاصمية إلى المناطق الداخلية في منتصف الثمانينات. أما تمثاله الجديد بالساحة المعروفة باسمه بشارع العربي بن مهيدي فقد كان كارثة لأن حجمه أكبر من أن يوضع في مثل هذه الساحة الصغيرة، ولأنه أقل شبه بالأمير عبد القادر من التمثال السابق، وأيضا لأنه ضعيف من الناحية الجمالية. أما المصيبة الأكبر التي حلت به خلال منتصف التسعينيات فتتمثل في عملية غسله بالماء والجافيل وربما حتى الصابون وكأنه قندورة أو سروال جينز.. وهذا أمر لم تشهده من قبل التماثيل البرونزية في العالم، بل هو "إنجاز" جزائري بحت أدى إلى إصابة الأمير بما يشبه مرض "البرص". ولتدارك هذه المصيبة، قررت السلطات المحلية دهنه بـ: "لالاك" (LA LAC) باللون الأخضر، فانطبق عليها المثل القائل "جَاتْ تْكَحْلُه عَوَّرَتُّه".. وهذا أيضا "إنجاز" و"مكسب" جزائري مائة بالمائة، تَوَقَّع الناس إثره أن ينسحب الأمير عبد القادر بحصانه من الساحة احتجاجا على هذا التنكيل به والمساس بسمعته. خصوصا بعد أن تعرض للتسييس باقتلاع لوحته التذكارية التي تحمل اسم الشاذلي بن جديد وتعويضه بلوحة أخرى نكرة.

"رَايَسْ و... هَفُّوهْ"

لم تتوقف أزمة التماثيل في مدينة الجزائر عند هذا الحد، بل امتدت أيضا إلى أحد أكبر رموز البحرية الجزائرية في العهد العثماني. فالرايس حميدو الذي أقيم له في منتصف الثمانينات تمثالا جميلا وسط حديقة تتوسط قصر الرياس والمديرية العامة للأمن الوطني بباب الوادي، تعرض للسطو في 1993/1992 بحيث سرق منه سيفه البرونزي وتحدثت عنه الصحافة الوطنية دون جدوى، فبقي هكذا مشوها لفترة طويلة قبل أن يعوض له سيفه. وكانت هذه الحادثة الغريبة إهانة ثانية لهذا البحار البطل مع سبق الترصد والإصرار بعد الإهانة الأولى المتمثلة في إطلاق اسمه على مرقص معروف يقع بين شاطئ نادي الصنوبر وموريتي.

الأسد المنكوب و...الإله الضائع

في منتصف الثمانينات دائما، وفي إطار تجميل المدينة، أقيم تمثال الأسد بالخروبة، يتوسط الطريق السريع على أرض خراب في انتظار إعادة تهيئة هذه البقعة. ومنذ ذلك الوقت لم يطرأ أي تغيير على دار لقمان، كما يقال، بل نال الصدأ من صحة الأسد وحَرَمَتْهُ أيادي مجهولة من ذيله في السنوات الأخيرة ويكون أحد أطرافه العلوية قد أصيب بأضرار حسب الأصداء الأخيرة... ومَنْ قال إن "الصِّيدْ يْمُوتْ صِيدْ"؟.

وعلى مقربة منه أصبح تمثال الحمال الذي يتوسط المدخل الرئيسي للميناء ومحطة الحافلات مقرا لـ:"القمارجية" الذين جعلوا منه حَكَمًا في لعبتي "الروندة" و"البوكير"

وحتى "البْتِي بَاكِي" (PETITS PAQUETS) وهو يحمل كيسا ثقيلا في وضعية جد متعبة منذ أكثر من عشر سنوات.
ربما يعتقد البعض أن أحصنة "قاع السور" التي جعلت اسم هذا الشاطئ العتيق يتحول إلى "رميلة العواد" أكثر حظا ما دامت لم تتعرض لأي أذى، لكن في الحقيقة هذه التماثيل الحيوانية كانت أولى ضحايا رداءة مُسَيِّرِي العاصمة. فبعدما نصبها المهندس المعماري الكبير "بويون" (POUILLON) إلى جانب تمثال الإله الإغريقي نبتون (NEPTUNE) في إطار مشروع بناء حي "ديار المحصول" (1956/1954) في تناسق وانسجام رائع، قرر أحد مسيري مدينة الجزائر في السنوات الأولى للاستقلال تجريد الإله الإغريقي من أحصنته وغرسها قرب "قاع السور" لأسباب مجهولة عجز عن فك رموزها حتى الإله نفسه الذي أصبح، هو الآخر، يعيش وضعا مزريا يرثى له منذ سنوات.
رغم كل هذه النقائص في تسيير التماثيل والنصب العمرانية، غامرت سلطات المدينة بتنصيب تماثيل لكبار مجاهدي الثورة التحريرية بمقام الشهيد بالإضافة إلى تمثال جديد وجميل وضع مؤخرا بساحة مدينة سطاوالي للبَحَّارِ الجزائري – التركي خير الدين بربروس.
فهل ستمتد إليها يد الهمجية هي الأخرى أم أنها ستسلم ولن تضطر إلى "المؤتمرات الطارئة" و"المسيرات العفوية" لتدارك أوضاعها...؟

أوّل تمثال الأمير عبد القادر في ساحة الأمير عبد القادر بعد استقلال البلاد قبل استبداله بالحالي منذ بداية ثمانينيات القرن 20م.





تمثال الرايس حميدو بن علي في باب الوادي الذي سُرِق منه سيْفُه ذات يوم..."رايسْ...وْهَفُّوهْ"...



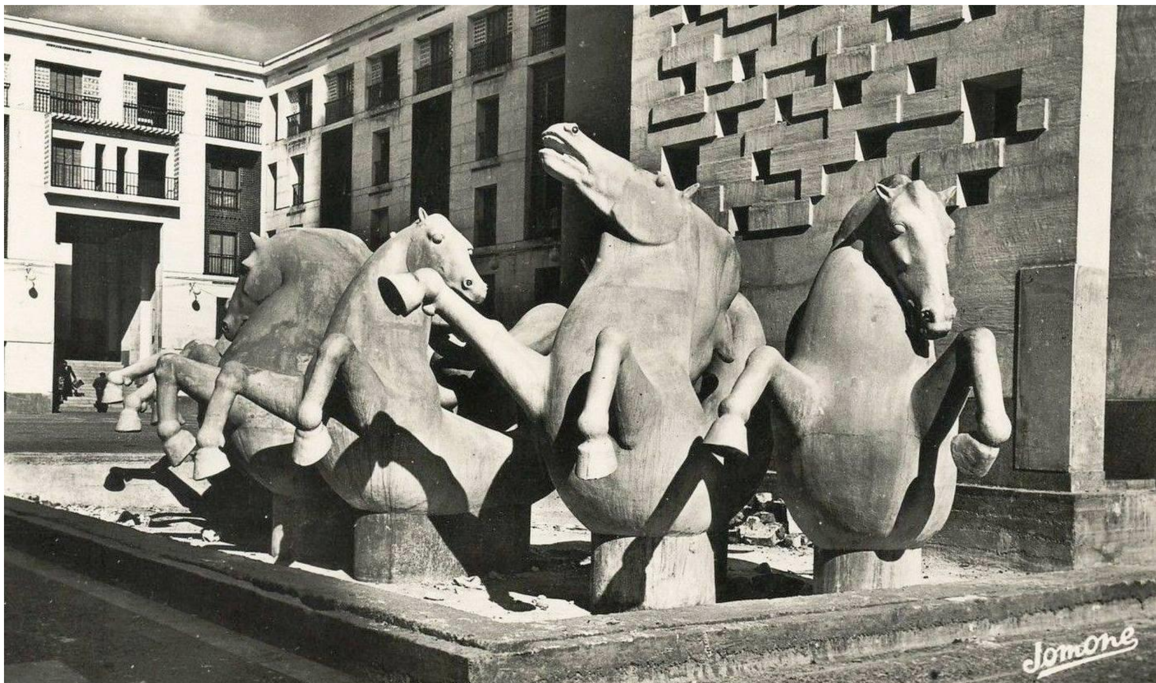
تمثال أسد الخرُّوبة قرب محطة الحافلات في الخرُّوبة بالعاصمة الجزائرية مقابلاً البحر ولسان حاله يقول كالشاعر إيليا أبو ماضي: "جئتُ، لا أعلمُ مِن أين ولكنني أتيتُ..أتمنى أن أدري، ولكن لستُ أدري..أنت يا بحر أسير آه ما أعظم أسْرك..أنتَ مثلي أيّها الجبّار لا تملك أمرك...فمتى أنجو من الأسْر وتنجو..لستُ أدري...".



تماثيل الحيّ السّكني "ديار المحصول" بعد استقلال الجزائر في حومة "قاع السور" بباب الوادي بمحاذاة قصر الرّيّاس المطل على البحر في الخلف.



تماثيل الحي السَّكني "ديار المحصول" الذي أنجزه المهندس بويون (Pouillon) في منتصف خمسينيات القرن 20م.



بؤساء.. "ديدوش مراد"...

يأتون كل يوم إلى شارع دِيدُوشْ مُرَاد حاملين معهم "جنونهم" الجزائري، معاناتهم النفسية، ولغة فرنسية ممتازة.. ليصنعوا بها الحدث والمفاجآت وحتى المشاهد المُضحكة المُبْكِيَة...

"مجنون" الأحلام السياسية الوردية

آخر مرة شاهدتُ فيها "فِيلِيبْ" كانت في أواخر شهر سبتمبر 1995م أثناء جمعه للتوقيعات من أجل الترشح للانتخابات الرئاسية.. آنذاك كان يحلم بمنافسة لْيَامِينْ زَرْوَالْ، "المترشح الحر"، وكان يعتقد أن عدد التوقيعات التي جمعها فاق ما جمعه سعيد سعدي زعيم التجمع من أجل الثقافة والديمقراطية...

كان يجوب شارع ديدوش مراد ذهابا وإيابا داعيا الناس لحضور التجمع الذي قال إنه سينظمه في يوم 28 سبتمبر من نفس السنة بقاعة حرشة في إطار الحملة الانتخابية. وكان المسكين مؤمنا بما كان يقوم به وحتى بإمكانية فوزه برئاسة الدولة الجزائرية.. المسكينة هي الأخرى.

كان يعد الناس الملتفين حوله بـ: "زرع المراقص والملاهي الليلية والحانات كالفطريات..على طول سواحل الجزائر أكثر من الشاذلي بن جديد"، وباستيراد باخرة من الفتيات الإسكندنافيات العذراوات هدية للشباب الجزائري، وحتى بتوقيف العنف لأنه "مَخْدُومْ"، على حد تعبيره..، ويكفي، بالنسبة إليه، أن "يَزْقِي" على صَانِعِيه بعد أن يتولى الرئاسة كي تستتب الأمور وينتهي كل شيء في رمشة عين...

وهو يقوم بـ: "حملته الانتخابية"، حرص فيليبْ على التأكيد في كل مرة للناس بأنه مترشح "بْرِيفِي" (Privé) وليس مترشحا كالآخرين، أيْ "التَّابِعِين"، ليتبرأ من السلطة وأخطائها ويتفادى تقويض حظوظه...

من بين جميع المترشحين آنذاك تَمَيَّزَ فِيلِيبْ بخاصية لم تتوفر في غيره وهو إنه أحد ما تَبَقَّى من الأنقاض النادرة للجالية الأوربية الكولونيالية بشارع ديدوش مراد... أمُّه وأبُوه فرنسيان تَخَلَّيَا عنه قبل سنوات وتركاه وحيدا يتخبط في جنسيته المزدوجة وجزائره الغارقة في الأزمة وهو في عز ثلاثيناته... تخليا عنه لأنهما اقتنعا بأن "المستقبل" في هذه البلاد نائم ولن يفيق من غفوته قبل سنوات طويلة، في الوقت الذي بقي هو مؤمن بـ"بابا نويل" وكراماته ويبحث عنه صباحا ومساء في مقهى "حليب إفريقيا" وقاعة "النهضة" (La renaissance) ومطعم "فيكتور هوغو" بشارع ديدوش مراد. هاجر الوالدان إلى فرنسا..، أمّا هو، الذي يعاني أصلا من بعض أعراض التخلف الذهني، فقد هاجر نهائيا إلى عالم الجنون، حسبما كانت توحي به تَصَرُّفاتُه وحسبما تردد عنه قبل اختفائه عن الأنظار نهائيا، إذ أصبح خطرا عموميا حقيقيا على مرتادي شارع ديدوشْ.

يتحدث فِيليبْ الفرنسية بطلاقة ويكتبها بطلاقة أيضا، يتكلم باللهجة العاصمية وكأنه ابن "بِيرْ جَبَّاحْ" أو "الزُّوجْ عْيُونْ" بالقصبة.. يرتدي "الكُوسْتِيمَاتْ" الرفيعة "المَارْكَة" بِوَسَامَة وبِذَوْقٍ جمالي مُلْفِتٍ للانتباه .. يجمع في ذاته المضطربة تناقضات التاريخ الجزائري. فهو فرنسي بثقافة جزائرية وجنون جزائري، يقيم في شارع ديدوش الممزق مثله بتاريخه المضطرب؛ الشارع الأوربي الروح والشكل والذاكرة لكن بسكان جزائريين.. فَلاَ يجب أن ننسى بأن شارع ديدوش ليس سوى شارع "ميشلي" (Michellet) في العهد الاستعماري؛ جسد معماري غربي باسم جزائري... وفيليب ليس أقل منه تناقضا، فهو لحم ودم واسم فرنسيين لهوية جزائرية جديدة لم يسعها لا جواز السفر الأخضر ولا جواز السفر الأزرق...

إذا كان فيليب أبْرَزَ وأَلْطَفَ "مجانين" شارع ديدوش مراد، فإنه ليس الوحيد، لأن حصة هذا الحي من الاختلال العقلي لا تقل أهمية عن حصص الأحياء الأخرى..؛ فيه القدماء، وفيه المختلّون الهيكليون، وفيه الجدد من مختلف الأعمار الذين حطمتهم الأزمة العامة التي قامت بزيارة عمل طويلة المدى إلى بلادنا.

"مجنون" مَدَامْ مُونْتِيرُو

بالمقارنة مع "البْلِيدِي"، الطويل، النحيف، وآخرين من زملاء الداء، يبدو فيليب متحضرا، رقيق الطباع، بل "أندلسي" الجنون، لأن "البليدي" إذا هاج يتحول إلى بركان يضطرب له كامل شارع ديدوش مراد، ويساهم قبح وجهه مثلا ولحيته الصغيرة ووسخه وثيابه السوداء المهلهلة بقدر كبير في "إرهاب النساء" والفتيات العابرات السبيل مثل أحدب نوترودام ، إلى حدٍّ كان يَسْتَدْعِي تَدَخُّلَ الشرطة أحيانا.

مع ذلك يبدو "البليدي"، عكس فيليبْ، أكثر ثقافةً حسب الكتب التي كان يحملها دائما تحت إبطه واللغة الفرنسية السليمة التي كان يتكلمها ورقيّ حسه الجمالي الذي كثيرا ما أدى إلى انهيار جنونه وإلى استسلامه للهدوء كلما مَرَّ أمام واجهة أحد محلات شارع ديدوش الذي يحمل اسم "حلويات مَدَامْ مُونْتِيرُو".

أمام هذا المحل يمضي "البليدي" كالقط الوديع ساعات طويلة متأملا بهيام ليس الحلويات والشكلاطة المعروضة في واجهة المحل، بل إحدى النساء العاملات به؛ قوية البنية، شقراء، وعلى قدر معتبر من الأناقة والجمال. كانت تمنّ عليه وترحمه من حين لآخر بقطعة حلوى أو بابتسامة لطيفة، فَتهدأ عفاريته وتسكن نفسه وتطمئن روحه لساعات وساعات، لكن بما إن دوام الحال من المحال فعندما يبلغ به الوجد مداه، يَعْبُرُ إلى الرصيف المقابل حيث مقهى "مَونْتِي كَارْلُو" ويصرخ بكل قواه حتى يرتعد جسدُه النحيف: "Je vous aaaaaaaaaaaime"!.. وتكتفي سيدتُه بالابتسام...

هكذا كانت وتيرة يومه كلّما مَرَّ من هناك...

"سقراط" الماجن

في الطابق الثالث من نفس البناية التي يوجد بها محل الحلويات السابق الذكر، كان شخص آخر ينافس "البليدي" في استقطاب اهتمام المارة بشارع ديدوش مراد، يقال أنه من قدماء أساتذة مدرسة الفنون الجميلة؛ قويُّ البنية، طويل القامة و"يرتدي" لحية

سوداء كثيفة على طريقة الرئيس الكوبي فِيدَالْ كَاسْتْرُو ، ويعشق الخمر أكثر من أبي نواس..، لكن بجدية الفلاسفة...
كل مساء، ابتداء من الساعة الخامسة حتى المغرب أو أكثر بقليل، تَعوَّد الناس على ضجيجه الذي كان يوزعه على الشارع من شرفته وينثره في صيغة خطب أخلاقية أو سياسية شديدة اللهجة حتى قال البعض إنه ينتج نصف ضوضاء "ديدوش مراد".
ينتقد نفاق المجتمع وانحطاط قِيَمِهِ، يَشْتمُ بِعبارات قوية ولاذعة السياسيين بلغة فرنسية ممتازة وبحركات سُلطانِية، مُلوِّحًا بـ: "قَرْعَة الرُّوجْ" في إحدى يديْه المرتفعتين إلى السماء.. وكأنه "المَاسِيمُو" فيدال كاسترو أو تشي غيفارا يُخاطب "الكُومْبَانْيِيرُوسْ"..
وعندما يسخن رأسه جيّدا يُخْرِجُ قدميْه فوق "دَرْبُوزْ" الشُّرفة ليغسل رِجليْه بماءٍ ينتهي إلى رؤوس وأكتاف المارة على الرصيف. أما إذا بلغت درجة حرارة رأسه الغليان، فإنه يشرع في إلقاء قارورات الخمر و"المْحَابَسْ" إلى الشارع غير آبهٍ بمخاطر ذلك على الناس، حتى اضطر أعوان الأمن مرارا للتدخل وتهدئة أعصابه، ليختفي بعدها عن الأنظار مؤقتا...
فِيلِيبْ، "البليدي"، و"كَاسْتْرُو الجزائري" ليسوا استثناءً في شارع "ديدوش"، فأمثالهم كثيرون وإن كانوا أقل شهرة وأقل أقدمية: فمنهم الصامت الغارق في التأمل ومنهم الساكن الضائع في الحزن، ومنهم التائه الخائف من كل شيء وحتى من هبوب الريح...
لكن أغربهم على الإطلاق هو ذلك الفتى في بداية عشرينياته الذي كان يهوى التغوّط أمام الناس قرب الجامعة المركزية ثم "يُرَسْكِلُ" فضَلاَتَه إمّا بِأَكْلِها بكُلِّ تَوَاضُع..، أو بِطَلاَءِ جسدِه بها مع اهتمام خاصٍّ بِوَجْهِهِ ورأسه ثم تهديد المارَّة: "أعطوني 10 دج وإلاّ..."؛ أيْ وإلاّ يطليهم كما طَلاَ نفسَه... وتصوروا كل الفزع والهلع الذي كانت تُحدثه هذه التهديدات على طول عشرات الأمتار المحيطة بهذا الشخص الظاهرة خاصةً في الأوساط النَّسْوية...
هكذا حالُ شارع "ديدوش" التسعينيات وهكذا بدتْ فيه آنذاك بعضُ أعراض الأزمة الجزائرية الشاملة. فلا هو بقي "مِيشْلِي" الأربعينيات و الخمسينيات ولا فحصَ قصبة الجزائر الذي أسماه الناس في زمانه "جنان مصطفى باشا" أو"جنان الآغا"، ولا ندري ما سيكون عليه في المستقبل، ولو أن النّزعة الحالية هي كما قال أناس زمان تجد كل تعبيرها في المثل الشعبي القائل: "اليومْ اللّي يْرُوحْ خِيرْ مَنْ اليوم اللّي يْجِي"...

شارع دِيدُوشْ مُراد وسط العاصمة الجزائر.



شارع دِيدُوشْ مُراد



الجنة الضائعة

ورثتْ قصبةُ الجزائر في فَحْصِهَا البَحْرِيِّ جَنةً ساحليةً بلغتْ شهرتُها حتى مدينة هوليوود الأمريكية...لكنها لم تنجحْ في الحِفاظ عليها... بعضُها أصبح عُمْرَانُه اليوم مُجَرَّدَ أطلالٍ وبعضُها الآخر أتَتْ عليه قنواتُ تَصريفِ المياه القذرة.

لم تكن فرنسا تتصور بأنه سيأتي اليوم الذي تضطر فيه للتخلي عن الجزائر و العودة من حيث أتتْ في صيف 1830م. لذلك، بمجرد بداية القرن العشرين، صنعت من الشواطئ و الخلجان الصغيرة الممتدة من باب الوادي حتى "بَايْنَامْ" جنة صغيرة بين زرقة السماء و البحر و نور الشمس الساطعة فوق مدينة الجزائر. لقد جعلوا منها "كُوتْ دَازُورْ" إفريقية أو "كُوبَا كَابَانَه"في قلب الضفة الجنوبية للبحر المتوسط، استقطبت الأمراء و الملوك الأوربيين و نجوم السينما الأوربية و الأمريكية الذين كانوا يقصدونها كل صيف بصحبة عائلاتهم لقضاء عطلهم الصيفية في أجواء ممتعة و سعيدة.

الشواء، "البُويابَسْ" و الموسيقى

من قاع السور و بادوفاني، أو ما نُسَمِّيه حاليا "الرُّوشِي كَارِي"، حتى "الجمليْن" (Deux Chameau) و الساقيتيْن (Deux Sources) و الطاحونتيْن (Deux Moulins) و رَأْس بِيسْكَادْ (Pointe pescade) و مِيرَامَارْ و الجَمِيلَة (La Madrague)...كان صيفُ الفحْصِ السَّاحلي لقصبة الجزائر كله حيوية وبهجة و فرحة؛ فرحة الأطفال الصغار على الرمال و في مياه البحر، و حميمية لقاء الكبار حول أواني الشواء و "القازوز" و مختلف طيبات البحر المتوسطية وأنغام الحاج مريزق و العنقاء التي تتناوب مع أغاني إِدِيثْ بْيَافْ و شَارْلْ أَزْنَافُورْ...

"السُّوفُورْ" (Sauveur) في شاطئ الجميلة كان سيد الأطباق السمكية و بقي كذلك حتى السنوات الأخيرة. وسط قاعة هذا المطعم، لا يمكن لزواره الجزائريين و الأوربيين في نهاية الخمسينات أن يستنشقوا غير رائحة "البُويَابِسْ" و "الكْرُوفَاتْ" و "المِيرْلُونْ" و "الرُّوجِي" و"السِّيبْيَا" و"الكابَالا" و "البَالُومَا"... و كانت مثل هذه المطاعم الفخمة تنتشر على طول الساحل الغربي لمدينة الجزائر و صنعت لها سمعة سياحية دولية، دفعت نبلاء وأثرياء أوربا و أمريكا إلى التهافت على اكتشاف هذه الأصداف السياحية بمدينة الجزائر. فَرَسَتْ زوارقُهم و سفنُهم ويُخُوتُهُم بالأميرالية طيلة العطل الصيفية، واغتنموا فرص هذه الرحلات إلى عاصمة "قراصنة" القرن 18م لاكتشاف أُبَّهَةِ القصبة و فخامة قصورها و هندستها المعمارية. و كان من أشهر تلك الشخصيات الأمراء الإسبان و الأنجليز و الدُّوق الكبير جُوزِيفْ فْرَنْسْوَا أحد أحفاد إمبراطور النمسا فْرَانْسْوَا جُوزِيفْ و زوجته آنْ النمساوية حفيدة دُوق تُوسْكَانْيَا الأكبر و ابنتهما بِيَاتْرِيسْ

الذين زاروا العاصمة في صيف سنة 1953م، و خَلَّدُوا ذكرى هذه الرحلة الممتعة بصور تذكارية بمختلف أحياء القصبة و المدينة الأوربية وشواطئ البحر و حتى بضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي.

جنة النبلاء و الأدباء...

على طول الشريط الساحلي الغربي للمدينة، بنى الأثرياء الأوربيون أرقى القصور و الفيلات و البَنْغَالُوهَات فوق صخور البحر، و نحتوا المدرجات عليها للوصول إلى الشاطئ مباشرة من هذه الإقامات، و زودوها بمغارات جميلة محفورة في الصخور لإرساء مراكبهم الصغيرة و زوارقهم في سَانْتْ أُوجِينْ (بُولُوغِينْ) كما في "بَانْ رُومَانْ" (الحَمَّامَات الرُّومَانِيَة)...ألهمت كبار الفنانين و الأدباء من مرتادي "دار عبد اللطيف" و غيرها من النوادي الفنية. فأعطت للأدب الفرنسي "قصبة أبي" لأندري وجان ثابت الذي تحول من رواية إلى الفيلم الشهير "بِي بِي لُو مُوكُو"(Pépé Le Moko) الذي أداه الممثل الكبير الراحل جَانْ غَابَانْ (Jean Gabin) و شارع البحرية (Rue De La Marine) لنفس الكاتب و "مَازَالْتُوبْ" (أيْ "مَبْرُوك" باللغة العِبْرِيَة) للأديبة بْلاَنْشْ بن دَهَّانْ (Blanche Bendahan) في 1930م، والبحر الأحمر (La Mer Rouge) للكاتبة مَاكْسِيمِيلْيَانْ هِيلَرْ (Maximilienne Heller)... كما حَرَّكَ جمال هذه الشواطئ العاصمية قرائح السينمائيين الذين أنتجوا أفلاما كثيرة عن "الإيكْزُوتِيزْمْ" الجزائري خصوصا منذ نهاية العشرينيات الماضية...

...و الآن

مرت الآن 45 سنة على الاستقلال...ماذا بقي من هذه الجنة الساحلية و هذه الشهرة السياحية؟ عدد كبير من القصور و البنغالوهات المطلة على الشواطئ تهاوت متأثرة بالرطوبة وضعف الحس الجمالي و المدني لسكانها الجدد و لِمُسَيِّرِي المدينة، كما تحولت الكثير من الفيلات الجميلة إلى أحواش خصوصا بعد أن أُضِيفَتْ لها غرف "فوضوية" ب:"البَارْبَانْ" و "التِّرْنِيتْ"... و لم يسلم منها سوى عددٍ قليلٍ لا زال يحتفظ بشكله و رونقه الأصلي.

أما الثقافة السياحية، فقد تراجعت سنين طويلة إلى الوراء و لم تبق منها في هذه الشواطئ و الخلجان سوى "سياحة الأطفال" الفقراء المصحوبين بـ: "كَاسْكْرُوطْ قْرَنْطِيطَة" أو"بيْض مغلّي" و10دج، ثمن تذكرتي الذهاب و الإياب بواسطة حافلات النقل الحضري، و ألعاب البحر التي تطغى عليها مسابقات الغَطْسِ المتفاوتة الخطورة من الصخور العالية، و "التَّنْفِيسَاتْ" الطويلة، بالإضافة إلى صيد "البُورِي" عند فوهات قنوات تصريف المياه القدرة. أما الآداب و الفنون، فقد هجرت هذه البقعة...ربما إلى الأبد.

منظر لشاطئ الطاحونتيْن قبل الوصول إلى مرسى الذّبّان أو "لا بْوانتْ بيسْكاد". هذه الجهة من العاصمة الجزائرية كلها فيلاَّت جميلة بُنيتْ غالبيتها الساحقة خلال العهد الاستعماري. واليوم غالبيتُها في حالة متردِّية وبعضها على حافة الانـهيار لعدم ترميمها وإصلاح ما أفسد الدَّهر.



الصخرتان، أو لِي دُوزِيلُو (Les Deux îlots) قبالة شاطئ لابْوانتْ بيسْكاد وشاطئيْ "لاَرَاسْكَاسْ و"لاَ مَارِينْيِيرْ".



"سِلِيكْتُو"، الذي كان اسمه في البداية "فيكْتورْيَا" (Victoria)، هو أحد أهم المشروبات الغازية لشركة حَمُّود بوعلام في مدينة الجزائر حيث تأسست الشركة في سنة 1878م على يد يوسف حَمُّود، هذه المؤسسة هي أقدم من شركة كوكاكولا الأمريكية، ونالت عدة جوائز محلية ودولية على جودة مشروباتها. الشركة موجودة إلى اليوم في العاصمة الجزائرية، وتُصدِّر مشروباتها أيضًا إلى فرنسا على الأقل. تُعتبَر مشروبات حمُّود بوعلام أكثر من مشروبات بل هي تراث ثقافي واجتماعي في "بهجة" سيدي عبد الرحمن الثعالبي كانت ومازالت محبوبة لدى الجميع، بما في ذلك المستوطنون الأوروبيون خلال الحقبة الاستعمارية والذين ما زالوا يحنون إليها إلى اليوم ويذكرونها بحنين في مؤلفاتهم. شركة حمُّود بوعلام ساهمت ماليًا في بناء الجامع الكبير في باريس. في نهاية سنوات 1940م، أصبحت شركة المشروبات مشترَكة بين أحفاد حمود بوعلام وأبناء عمهم حَفِيظْ (أيْ "حفيظ" بِلَكْنة تركية حيث يُنطَق حرف "ظ" وكأنه "ز" كما في مصر وبلاد الشام بسبب التأثير اللساني العثماني).



المشروب الغازي الذي كان يُسمَّى "المَلَكية" أو السلطانية"، الأصل بالفرنسيية "La Royale" (لاَ رْوَايالْ)، يُعد من أهم ما أنتجته شركة حمود بوعلام ونال الجوائز الدولية. اليوم يُعرَف شعبيًا في الجزائر بـ: "حمُّود البيضاء".

إلى جانب صورة "القازوز"، أدناه، صورة إشهارية لمشروبات حمود بوعلام بريشة الفنان الصحفي عمر راسم تعود إلى بداية القرن 20م بشعرٍ شعبي من 3 أبيات، جاء فيه: "هذا القازوز صافي...وبِهْ القلب ينشْرَحْ... من كل داء يْعَافِي... يْضَوِّي القلبْ ويْصَحَّحْ...هو في الكيلْ وَافِي...وَاظبْ عْلِيهْ تَفْرَحْ".

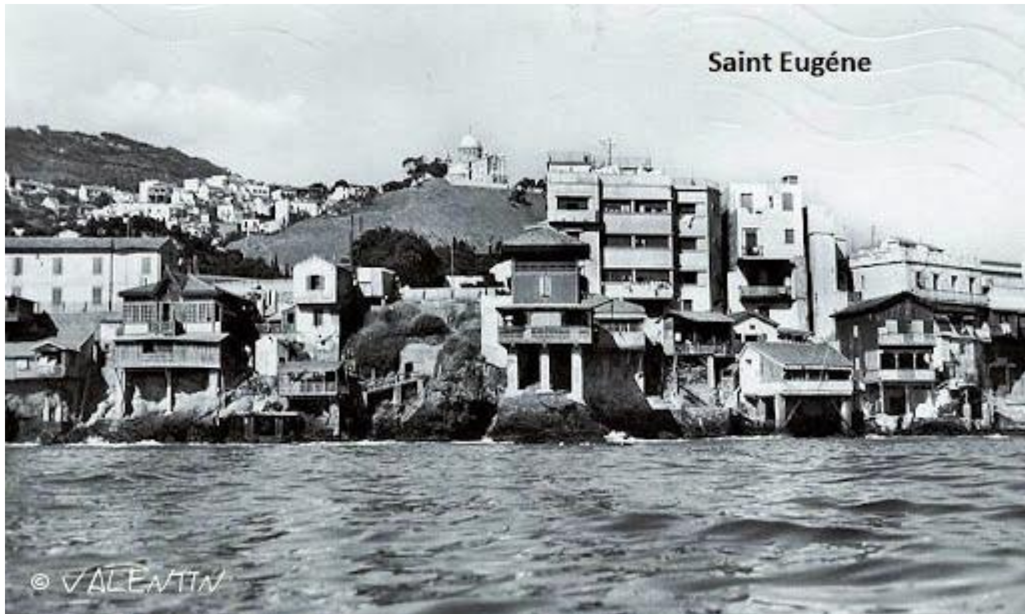




هكذا كان فحص باب الوادي في جهة مرسى الذبان، لا بوانت بيسكاد"..فيلات وقصور للمحتلين مطلة على البحر... هنا، شاطئ الساقيتان (Les Deux Sources).



فحص باب الوادي، في جهة بولوغين أو سانت أوجين (Saint Eugène) خلال عهد الاحتلال. في قمة الربوة كنيسة سيدة إفريقيا (Notre Dame d'Afrique)، وهي موجودة إلى اليوم.



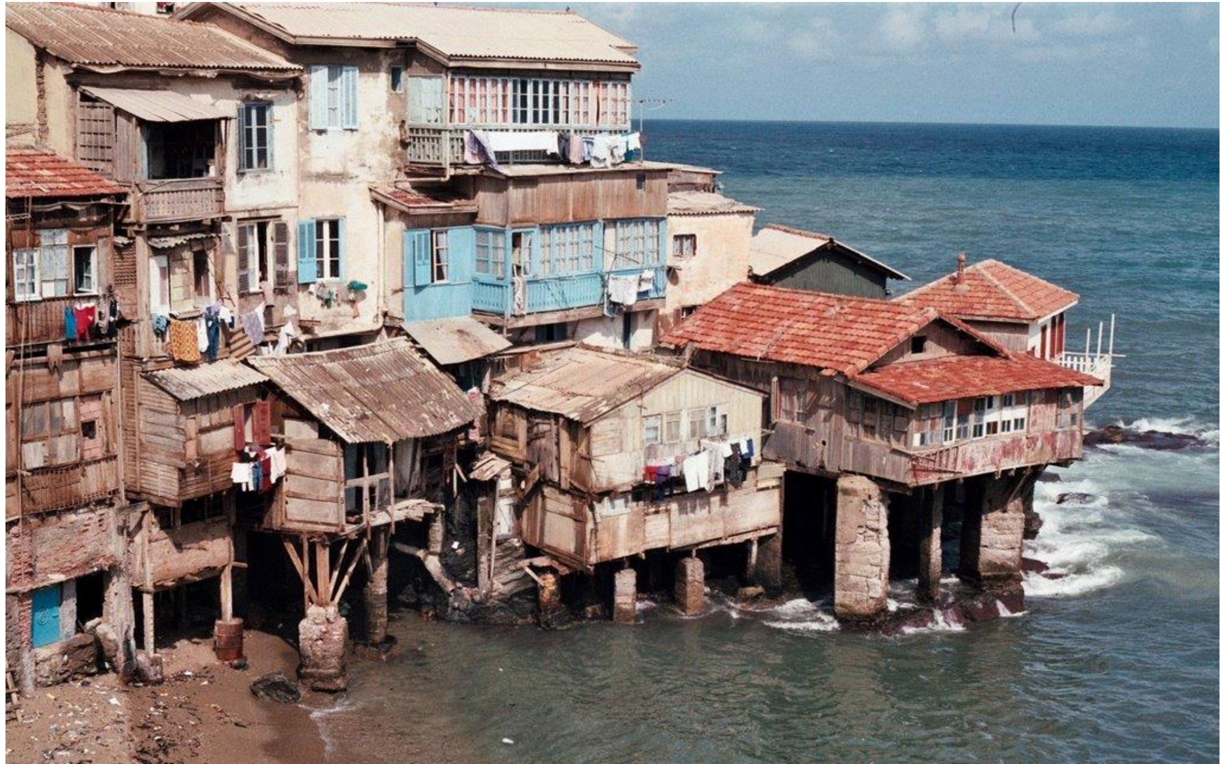
شاطئ الطاحونتيْن (Deux Moulins) قرب مرسى الذبان، أو لابْوانتْ بيسكاد، في فحص باب الوادي. في أعلى الربوة كنيسة "سيدة إفريقيا".



شاطئ وخليج الطاحونتيْن (Deux Moulins). في العمق على بُعد بضعة كيلومترات شاطئ مرسى الذبان (لابْوَانتْ بيسْكادْ). الديار المبنية على الصخور، على اليسار، انهارتْ منذ عقود لغياب الترميم والتجديد بعد أن نال منها الزمن.



بين البارح واليوم...





الفصل الخامس:

المدينة "البهجة"

مدينة النعايم والخير الكاثر حدايق أشجار وأغصان
منازه و.......

فقهـاء ينقـذون الغناء الأندلسي

سَرَقَ الغُصْنُ قَدَّ مَحْبُوبِي واخْتَفَى في الوَرَقِ
قرح الجَفن دَمْعِي المِدْرَار وَالحَشَا فِي حرقِ

عندما كانت الموسيقى الأندلسية مهددة في منتصف القرن 18م بمستقبل غامض، وَجَدَتْ خَلاَصَهَا ليس على يد الدايات والبايات أو "شيخ البلاد" الذي يُعادل محافظ الجزائر الكبرى بمفاهيم اليوم، وإنَّمَا أُنْقِذَتْ من الضياع بواسطة الذكاء والعفوية الصادقة للنخبة الدينية ـ الثقافية للمدينة.

في هذه الفترة بدأ الإرث الأندلسي يشهد انحسارا مقلقا وانطواءً في الأوساط النخبوية التي أدخلته أفنية قصورها الجميلة بالقصبة وضواحيها بعد أن كان فنا شعبيا يترنم به الأندلسيون في الأسواق والأزقة و"الحومات" أكثر منه في البيوت والقصور والبساتين الأرستقراطية.

تشويهات اليهود

في نفس الوقت كان اليهود يمارسونه ويتذوقونه بإعجاب كبير وشغف لا يقل عن شغف المسلمين خصوصا وأن فيهم شريحة هامة أندلسية الأصل جاءت الجزائر في السفن اللاجئة من محاكم التفتيش المسيحية في سنوات 1236م، 1391م ثم عند سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين بالأندلس في 1492م. لكن هذا الإعجاب والشغف سواء من طرف هذه الجالية الأندلسية الأصل، التي سميت الجالية الميغوراشية بالعبرية أو من طرف الجالية التوشابية التي تعني ذوي الوجود الأقدم والعريق بالبلاد، لم يرافقهما الاحترام الكافي للنوبات وقواعد أدائها ولا حتى للنطق السليم للقصائد والموشحات والأزجال عند الغناء.

هنا بدأ خطر التشويه ثم الضياع يُخيِّم على ما تم الحفاظ عليه حتى ذلك الوقت منذ زرياب وابن قزمان ومقدم ابن معافى القبري (القرن 9م) في الوقت الذي تراجع فيه المستوى الثقافي بالبلاد من حيث النوعية واشتغل فيه الجزائريون بمشاكلهم السياسية الداخلية والخارجية التي طغت عليها المعارك والحصارات البحرية.

في ذلك الوقت، كان لمدينة الجزائر نخبة مثقفة ثقافة دينية اشتغل أغلبها بالقضاء والإفتاء والإمامة وفق المذهبين المالكي والحنفي، الذي كان يتبعه الأتراك، لكن تدينها لم يمنعها من قول الشعر بمختلف أنواعه وأغراضه، بما في ذلك الغزل، وتلحينه وحتى غنائه في المجالس الحميمية النخبوية. وقد اشتهر من بين هؤلاء كل من سيدي محمد بن محمد بن يوسف العلج المعروف بابن علي، وهو شاعر ومفتي حنفي، وتلميذه سيدي بن عمار، وسيدي محمد بن الشاهد، وسيدي أحمد المانقلاتي، الذين عاشوا عهدا طيِّب الأثر ازدهرت فيه الآداب والفنون، وعاصروا ألمع أقطاب الثقافة والسياسة الجزائرية

في ذلك الوقت، ليس في مدينة الجزائر فحسب بل في كل أطراف البلاد، أمثال المفتيين محمد بن النِّيكْرُو ومحي الدين بن عبد اللطيف وعبد القادر بن الأمين، ومن الحُكَّام علي باشا بوصْبَاعْ ومحمد عثمان باشا.

الفقهاء ينقذون الموسيقى

أحست هذه النخبة بالخطر الذي أصبح يهدد مستقبل الموسيقى الأندلسية بمختلف نوباتها فاجتمعت، حسبما يشاع في الجامع الكبير لتتخذ المبادرة المناسبة لحمايتها والحفاظ عليها. ووقع الإجماع على فكرة إسقاط أنغام النوبات على قصائد المدح النبوي كي تبقى حية ما بقيت هذه المدائح محفوظة في قلوب الناس الذين كانوا يرددونها في كل الأعياد والمناسبات وحتى في غير مناسبة كبردة البوصيري الشهيرة وقصائد سيدي بن علي (أجدادُه نزحوا مع العثمانين الأوائل إلى الجزائر..، وكانت له خصومة شهيرة مع بن النِّيكْرُو أدّتْ إلى وفاةِ هذا الأخير في 1152هـ) وسيدي بن عمار وكذلك أحمد المانقلاتي، التي لا زالت شائعة حتى عند الشباب، كما تُبيِّن ذلك الاحتفالات بيوم ذكرى المولد النبوي الشريف في ضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي. أثناء إحياء المولد النبوي، ذكر بن عمار أن شعراء المدينة كانوا يتفننون منذ حلول شهر ربيع الأول في نظم القصائد والموشحات النبوية وتلحينها "بالألحان المعجبة، ويقرأونها بالأصوات المُطْرِبة" على حد تعبيره في اجتهادات وتنافس لم يعد لهما وجود اليوم.

بهذه الحيلة البسيطة بقيت الألحان سليمة من الارتجالات اليهودية وحتى من تشويهات الفنانين المسلمين الضعفاء الكفاءة، وأمَّا القصائد فقد وجدت الدواوين المخطوطة لتصحيحها من الأخطاء النحوية والإضافات أو الحذف اللغوي، وبقيت الأمور تسير بهذه الطريقة حتى اليوم، إذ تحول المدح بالأسلوب الموسيقي الأندلسي تقليدا شبه مقدس، وذلك في نفس الوقت الذي كان فيه أقطاب ورموز الغناء الأندلسي يقومون بتصحيح الاعوجاج قدر المستطاع حتى جاء عهد التسجيل على الأسطوانات والأشرطة والأقراص المضغوطة، فبلغ إرث زرياب بالتالي شاطئ الأمان.

مع ذلك لا تزال مدرسة "الصَّنْعَة"، أي مدرسة مدينة الجزائر، تحتاج لعملية تسجيل شاملة ل: "ديوانها" كما يُقال، حتى يُطوى كابوس "الضياع والتحريف" نهائيا. وليست الإمكانيات التي تنقص بقدر ما تنقص الإرادة لإتمام هذا المشروع الذي لن يكون سوى تتويج لمجهودات سيدي بن عمار و تلميذه سيدي محمد بن الشاهد -كان على قيد الحياة في 1839م حسب وثيقة فرنسية- وسيدي بن علي "أديب العصر وريحانة المصر" الذي تولى الإفتاء والتدريس بجامع حسين ميزومورتو منذ 1196هـ. ونذكر أن لابن الشاهد قصائد رائعة منها تلك التي رثى فيها سقوط المدينة بيد الاحتلال.

"سَرَقَ الغُصْنُ قَدَّ مَحْبُوبِي"

لقد كانوا، حسبما يبدو، رغم تدينهم الشديد أكثر حرصا على ثقافتهم من بعض الإطارات والمسؤولين الأوصياء على الفن الأندلسي في الوقت الحالي...

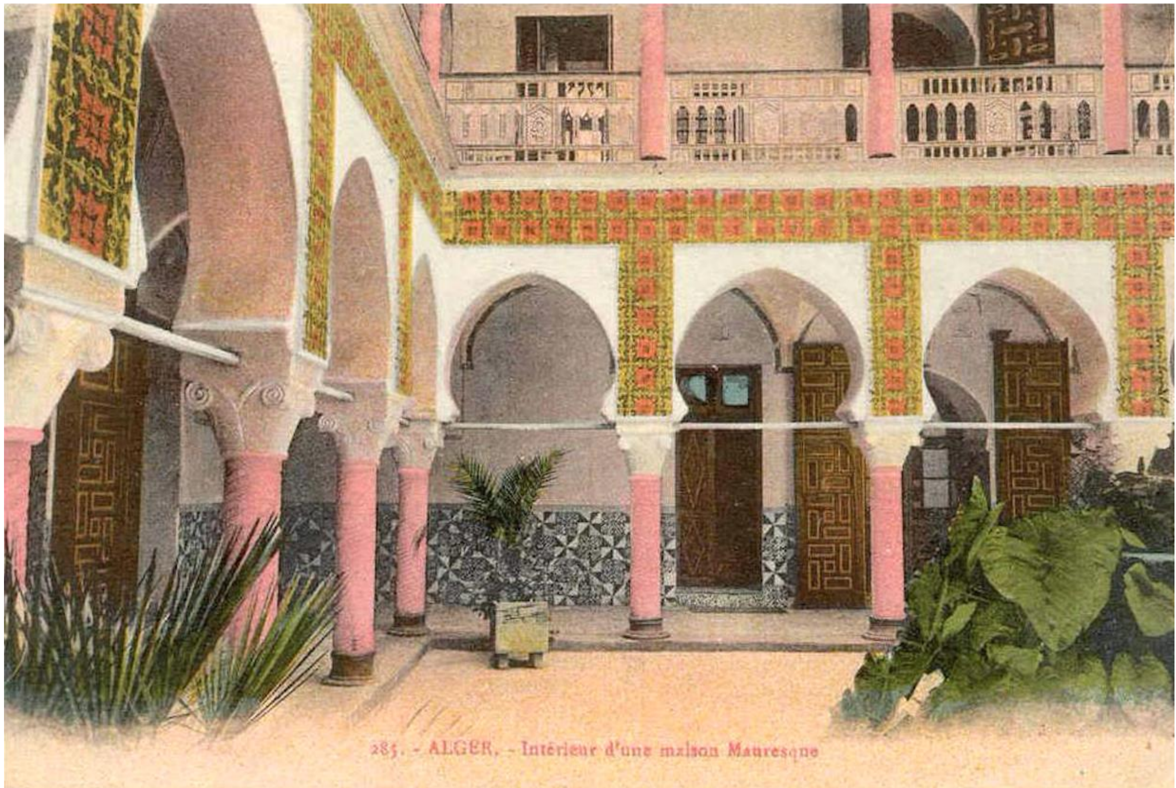
هؤلاء الأئمة والفقهاء والقضاة والمفتيون لم يكتفوا فقط بحفظ ما ورثوه من الضياع بل أثروه بقصائد وألحان من إنتاجهم شخصيا مثلما هو الحال مع سيدي بن عمار الشاعر

الرقيق العاطفة الذي برع في الغزل دون غيره وكان من بين تحفه الخالدة الزجل "سَرَقَ الغُصْنُ قَدَّ مَحْبُوبِي"، التي افتتحتْ بها يوم 25 جوان 1999م جمعيةُ الجزائرية - الموصلية الربيعَ الموسيقي التاسع في قاعة ابن خلدون. ويرى أحمد لكحل، أحد المثقفين العاصميين في بداية القرن 20م، بأن بن عمار نظم شطرها الأول وأكملها سيدي محمد بن الشاهد ولحنها وهو في طريقه من مقر عمله بالجامع الكبير إلى جنان بحي "قصر الشعب" الحالي عبر تيليملي على ظهر بغلة مسرجة مرفوقة بخادم زنجي.
سيدي محمد ابن الشاهد، الذي مات في السنوات الأولى للاحتلال وهو ضرير فاقد للبصر يَمُدُّ يَدَه تَكَفُّفًا، (آخر خبر عنه حسب سعدالله يعود إلى وثيقة بتاريخ 1831م)، لم يكن وزيرا ولا "شِيخْ البْلاَدْ" ولا حتى رئيس جمعية موسيقية..، ومع ذلك نجح في الإسهام في إيصال التراث الأندلسي والمَدْحِي إلى جيلنا إسهامًا فَعَالاً، فهل سَيُبَرْهِنُ الوزراءُ وشيوخُ البلاد على نَفْسِ الحسّ الحضاري...؟

الجامع الجديد أو الجامع الحنفي، لأنه كان حنفيا حتى الاستقلال في 1962م. هنا أيضا مقر المفتى الحنفي، والفقهاء الذين يتبعون مذهب أبي حنيفة، وهم غالبا من العثمانيين. هذا الجامع والجامع الكبير وضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي لهم فضل كبير في حماية التراث الموسيقي الديني والدنيوي (الأندلسي) من الضياع بتكزينهم الشباب في فن التجويد والترتيل والذكر على المقامات الموسيقية الأندلسية. اللوحة بريشة الفنان لويس تيسون (Louis Tesson).



اللقاءات بين الميسورين من نخبة البلاد كانت تتم في مثل هذه الديار والقصور وفيها قد تُتَّخذ قرارات تخص شؤون الدولة والمجتمع.



فناء قصر "جنان المفتي" في فحص مدينة الجزائر. في مثل هذه القصور كان يلتقي الأدباء والفقهاء في مجالس أدبية.



VILLA DJENAN EL MUFTI, ALGIERS.

قصر أحد دايات الجزائر في فحص باب الوادي وهو، تحديدا، "جنان حسان"، أي الداي حسان باشا، في باب الوادي الذي حل محله مستشفى "مايو".



إيدمون يافيل والموسيقى الأندلسية: من مطعم اللُّوبْيَة إلى... قاعة الأُولِمْبْيَا

كان أبوه صاحب مطعم شعبي متخصص في اللُّوبْيَة، أما هو فقد اختار الموشَّحات والأَزْجَال والقصائد الأندلسية التي جعلته أحد أبرز أساتذة إرث زرياب في مطلع القرن العشرين...

يافيل.. هو اسمه المتداول عند الناس، أما اسمه الكامل فهو: إيدمون يافيل ابن شباب (Edmond yafil ibn Sh'bab) الذي ولد بالقصبة السفلى في سنة 1874م. هناك تربى ونشأ بين مطعم اللوبيا، الذي كان يمتلكه أبوه بشارع بْروسْ (Rue Bruce) بساحة الشهداء، والمقاهي الشعبية التي كانت تحتضن أقطاب الفن الأندلسي في مدينة الجزائر كالشيخ ْمحَمَّد، أو عَبْد الرَّحْمَن في بعض المصادر، مْنَمَّشْ والشيخ سْفِنْجَة وبَنْ فَرَاشُو...

البدايات بالقصبة

يافيل جزائري عريق لم يكن يختلف عن بقية أبناء القصبة في عهد الاحتلال إلا من حيث معتقده لأنه كان يهوديا، وهذا هو سر بنية اسمه المتكونة من بُعديْن حضارييْن مختلفيْن؛ "ابن شْبَابْ" العربي- الإسلامي و"إيدمون يافيل" اليهودي – المسيحي. لكن الصحف الكولونيالية كانت تُصِرُّ على وَصْفِهِ بـ: "اليهودي الأهلي" (Juif Indigène) لأنه كان مُتجذرًا في الثقافة الشعبية بالقصبة وأَقْرَبَ في طِباعِه إلى "الأهالي" منه إلى المعمرين الأوربيين.

لم يمنعه انشغاله بمطعم اللوبيا من متابعة الحفلات والسهرات التي كان يُحْيِيهَا مُحَمَّد بن علي سْفِنْجَة وبن فَرَاشُو بصفة خاصة دون أن يتوقع له أنه سيصبح ذلك "الأستاذ الكبير" في الموسيقى والغناء الأندلسيين، حسب تعبير الشيخ لحلو أحد فناني الشعبي والأندلسي بالعاصمة، وكتب عنه محي الدين باش طارزي في مذكراته بـ: "أنه كَرَّسَ حياتَه من أجل البحث في مجال الموسيقى العربية وتدوينها حسب رموز "السولفاج" الموسيقية الحديثة التي كانت آنذاك مجهولة تماما في أوساط الفن الأندلسي".

تتلمذ هذا الشاب اليهودي المعتقد ذو الثقافة العربية على يد محمد بن علي سفنجة ومجموعة من المشايخ اليهود النابغين في إرث زرياب على غرار مُوزِينُو، لاَهُو صِرُورْ، شَالُومْ... الذين كان كثير التردد على حفلاتهم وأعراسهم، مع العلم أنهم كانوا جميعا ينتمون إلى جوق واحد هو جوق محمد بن علي سفنجة.

في نفس الوقت تابع دراساته حتى تمكن من الحصول على شهادة البكالوريا، بالإضافة إلى شهادة في اللغة العربية. فأهلته هذه المميزات لأن يصبح، كما قال محي الدين باش

طارزي، "موسيقيا بارزا وأستاذا عاصميا في النصف الثاني من القرن19 وبداية القرن20م".

الإنجازات والمآخذ

عن مقاهي القصبة الشعبية مثل "البُوزَة" و"مَالاَكُوفْ" و"بُوشَعْشُوعَة" ومن مختلف المجالس الفنية الموسيقية والحفلات والأفراح تَلَقَّنَ يَافِيلْ ابن شباب أصول "الصَّنْعَة"، كما يُسَمّي أهل القصبة أسلوبهم في غناء النوبات الأندلسية، ليعتلي أحد أبرز الأدوار الطلائعية فيها، خصوصا بعد الفراغ الذي تَرَكَتْهُ وفاةُ كل من مْنَمَّشْ وسْفِنْجَة وبن فَرَاشُو اليهودي. فانطلق طالقا العنان لموهبته في مختلف أنحاء الجزائر وأوربا لنشر هذا الفن وإعادة اكتشافه من جديد، وكان له الفضل في إخراجه من البيوت والدّوِيرَات الصغيرة بالقصبة ومن المجال العائلي الحميمي، أو "الحَوْمِي" في أقصى تقدير، إلى عالم الموسيقى الاستعراضية أو المْيُوزِيكْ-هُولْ (Music-Hall) الذي كان في أَوْجِ انتشاره. صحيح إن يافيل لم يَأْتِ بجديد ولم يؤلف مقطوعات أو أغاني أندلسية جديدة كما أشاعت ذلك بعض الصحف الاستعمارية، لكنه لعب دورا كبيرا في حفْظِ هذا التراث من الضياع بواسطة جَمْعِهِ للقصائد والموشحات والأزجال، وحتى لبعض الألحان، وتدوينها جميعاً. تَجسّدتْ عُصارةُ هذا المجهود ذي النَّفَس الطويل في قيام يافيل بِنَشْرِ النُّصوصِ الشِّعريةِ والألحان المجموعةِ في مُؤَلَّفَيْنِ ضَخْمَيْنِ مِن جُزئيْن حوالي سنة 1920، كما ترك بالاشتراك مع الباحث الفرنسي جولْ رُوَاني (Jules Rouanet) مقالات ودراسات جمعت تحت عنوان: Repertoire de musique Arabe et mauresque (ديوان الموسيقى العربية والموريسكية). لكن ما يُؤخذ على يافيل هو عدم احترامه للأمانة العلمية ولمجهودات الذين سبقوه إلى هذا الميدان، بحيث استفاد كثيرا من الوثائق والدراسات التي تركوها دون أن يذكر ذلك في كتابه. لقد أهمل فضلَ هؤلاء لِيُقَدِّمَ نَفْسَهُ للرأي العام كرائد وعميد للموسيقى الأندلسية في جزائر بداية القرن 20م.

أشارت نادية بوزار- قصبجي في كتابها حول الانبعاث الفني في الجزائر في القرن 20م إلى أن يافيل يكون قد اعتمد بصورة رئيسية على كتاب الفنان الباحث المسلم التلمساني أبي علي الغوثي الذي حمل عنوان "كَشْفُ القِنَاع عن آلاَتِ السَّمَاع" الذي نُشِرَ في مدينة الجزائر في سنة 1904م.

كما أعاب عليه كبار الأساتذة العارفين بهذا الميدان أخطاءً لُغَوِيَةً ونحوية كثيرة وَرَدَتْ في الأشْعار التي جمعها في ديوانه حتى وإن بقي الديوان الأساسي الذي اعتمد عليه الفنانون مُنْذُ نَشْرِهِ حتى السبعينيات الماضية. وحتى وزارة الأخبار في عهد الوزير الراحل مُحمّد الصّدِّيق بن يَحْيَ لم تجدْ مفرًّا من الاستفادة من ديوان يافيل من أجل إعداد الديوان الكبير المعروف بـ: "الموشّحَات والأزْجَال" في ثلاثة أجزاء.

يافيل ومحي الدين باشْ طَارْزِي

وينسى الجميع أيضا بأن لهذا الأخير الفضل في نبوغ محي الدين باش طارزي في الغناء الأندلسي بحيث أصبح "تينورا" (Ténor) ممتازا منذ أن علمه يافيل أسرار "النوبة" بجمعية المطربية. الجمعية التي تُعتبر الأولى من نوعها وأوّل إطار عصريّ، لتنشيط

الموسيقى الأندلسية وتَعْلِيمِهَا للشّباب. وسوف تصبح موضةً أعطت ميلاد عشرات الجمعيات الجديدة التي حذت حذوها وسارت على نهجها بما فيها الجمعيات المعروفة حاليا كالجزائرية – الموصلية والفخارجية.
وقد تشرفت جمعية المطربية في سنة 1921 بإحياء حفلة غنائية أندلسية بباريس بمناسبة تدشين مسجد باريس وبمبادرة من إمامه ومديره الأول ومؤسسه الشيخ قَدُّور بن غُبْرِيطْ التلمساني الجزائري الذي كان في نفس الوقت مدير تشريفات ملك المغرب آنذاك. ولمع فيها بشكل متميز الشاب محي الدين باش طارزي الذي انتزع إعجاب كل من حضر تلك الحفلة الكبيرة بما ذلك الأوربيين.
وبفضل يافيل أيضا غنى هذا الأخير لأول مرة في حياته وفي تاريخ الموسيقى الأندلسية بِكُبْرَيَاتِ القاعات الباريسية مثل قاعة الأولمبيا ولُومْبِيرْ (L`empire) ثم في راديو باريس بشارع هوسمان الفخم. وهذا ما جعله يكتب عنه مايلي: "كان إيدمون يافيل بالنسبة إليَّ أستاذا رائعا، بحيث لم تكن له في حياته سوى هواية واحدة هي ولعه بالموسيقى العربية"، مضيفا: "لقد كان على مستوى كبير من الوعي بقيمة تراثنا الموسيقي وعلى قدرٍ كبيرٍ من الاحترام له، إذْ كان يفتخر على Jules Rouanet بِكَوْنِهِ "الأوّل الذي جمع هذا الكنز الذي لا يُقَدَّرُ بِثَمَنٍ (...) (الذي) بقي عُرْضَةً لجميع الطوارئ طيلة ستة أو سبعة قرون (والذي) لَوْلاَ عملية نسخه الموسيقي لضاع في غياهب النسيان".
في شهر أكتوبر 1928، توفي إيدمون يافيل ابن شباب بمدينة الجزائر بعد أن رَسَّخَ اسمه في تاريخ الموسيقى الأندلسية بالجزائر كصانع مرحلة هامة وثرية منها، "لقد كان، حسب تعبير الباحثة نادية بوزار - قصبجي، الرجل المناسب الذي أتى به القدر... لحركة نهضة فنية تمثل الموسيقى العربية الأندلسية بذرتها الأولى".

المُعَلَّمْ إيدمون يافيل بن شْبابْ بزيِّه الجزائري.



حوْمة إيدمون يافيل في شارع بروس في عمق الصورة بالقصبة السُّفلى. في مقدمة الصورة على اليمين، توجد "دار عزيزة" ويقابلها جامع كتشاوة و"دار حسان باشا". بعد "دار عزيزة"، يوجد مقهى الإسماعيلية.



مقهى الإسماعيلية المقابل لـ: "دار حسان باشا" (مديرية الشؤون الدينية الملاصقة لجامع كتشاوة)، وخلفَهُ في الصورة القصر المعروف بـ: "دار عزيزة".



إيدمون يافيل بالزي الأوروبي جالسا في الصف الثاني على اليمين وعازفًا على الكمنجة. في الأسفل: على اليمين، بوعلي الغوثي مُطِلاً من النافذة وعلى يمينه الحاج العربي بن ساري عازفًا على القانون، وعلى اليسار إيدمون يافيل (yafil.free.fr).







من اليمين إلى اليسار: يافيل بآلة الموندولين، صِرورْ بالقويطرة، بن فراشو بالرّبَابة، مخلوف بوشَعْرَة بالكَمنجة، يوسف بالطّرّ، وحَيِّيم أزولاي بالقانون (yafil.free.fr). الصورة تعود إلى نهاية القرن 19م.



الشيخ محمد بن علي سفِنْجة بآلة القويطرة وعلى يمينه بآلة الطّرّ الشيخ الشريف، أما على يساره فالمُعلَّم موزينو بالكمنجة وبعده المُعلَّم صِرورْ بِقْويطْرة في شكل إجَّاصة. الصورة تعود لنهاية القرن 19م إلى بداية القرن 20م (yafil.free.fr).



على اليمين: شاؤول دوران (1865م – 1928م) الشهير بـ: المْعَلَّم موزينو في شيخوخته عازفًا على الربابة، وهو من مواليد قسنطينة في عائلة ميسورة الحال قبل الرحيل في شبابه إلى مدينة الجزائر ليهتم بالغناء الاندلسي وفقًا لأسلوبها بعدما كانت بداياته الموسيقية في فن المالوف/الأندلسي الإشبيلي الأصل. على اليسار: موزينو في شبابه.





مقهى الفنان اليهودي الجزائري المْعَلّم السَّاسِي، واسمه الحقيقي أَلْفْرِيدْ لِبْرَاتِي (Alfred Lebrati)، ويظهر في الصورة واقفًا خَلْف المحسب على اليسار. يقع هذا المقهى في شارع لالير/بوزرينة حاليا في الجهة اليُمنى عندما ننزل من سوق لالير/بوزرينة باتجاه جامع كتشاوة الذي لا يبعد إلى بخطوات قليلة عن المقهى (yafil.free.fr).



جيل يافيل يُعلم الشباب الغناء الأندلسي في جمعية "الموصلية" بمقرها في مدينة الجزائر حوالي سنة 1933م. في الصورة: 1 الفنان محيي الدين الأكحل. 2 مخلوف أو مْخيلف بوشعرة. 3 الصادق بويحي المعروف بـ: الصادق البجاوي. (yafil.free.fr)



المْعلم مخلوف بوشعرة جالسا يعزف على الكمان آلْتُو وعلى يمينه المْعلّم لاَهُو صِرُورْ عازفُ على القْوِيطْرة (yafil.free.fr).



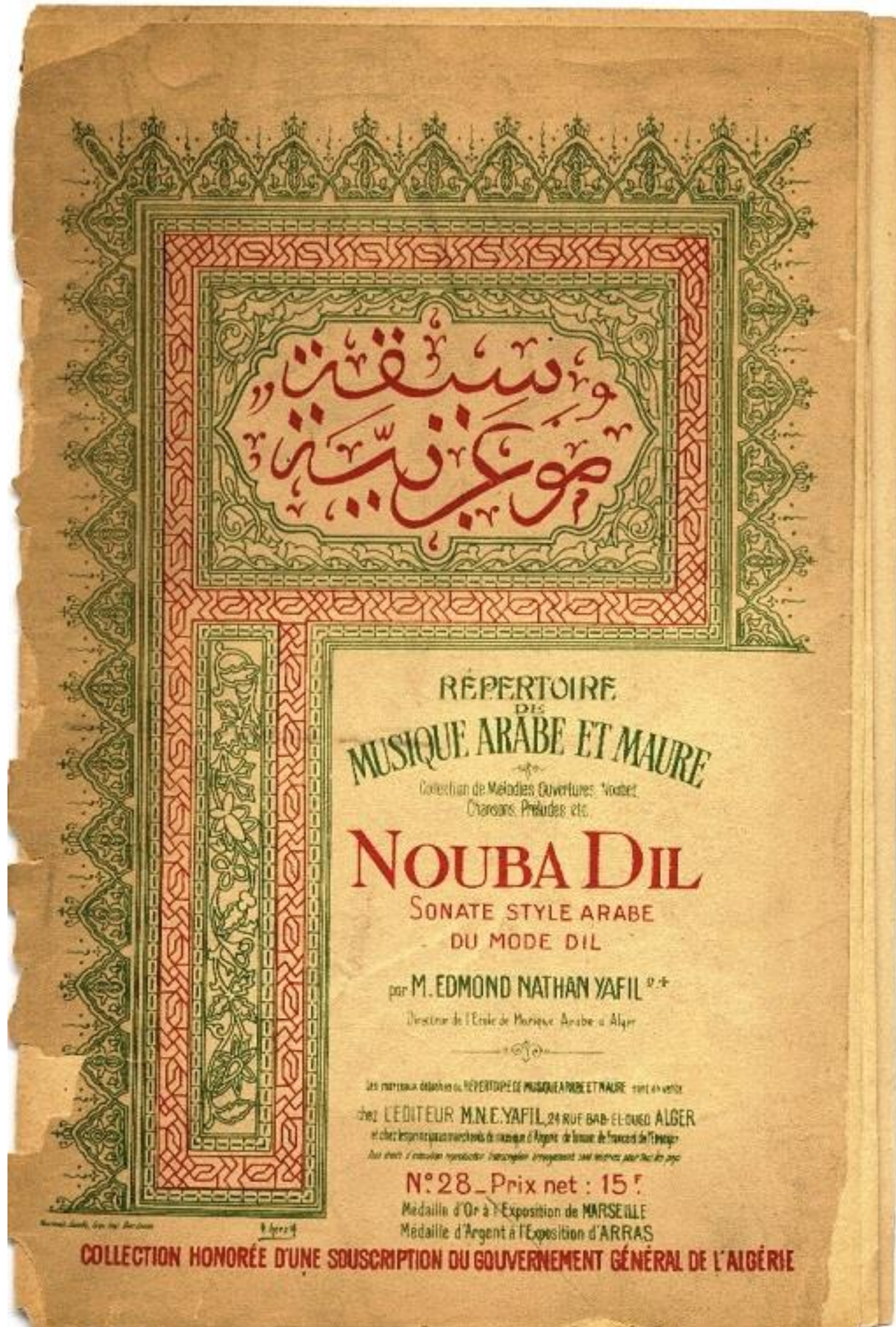
Maalem Laho SEROR (Kwitra) Maalem Bouchara (Alto) David SEBAG (Tambourin)
Photo: A. Perinet (petite fille Bouchara)

جمعية "المطربية" التي أسسها إيدمون يافيل، في بيت عائلة باش طرزي في ضاحية بولوغين. محي الدين باش طرزي يتوسط المجموعة في الصف الثاني. على يمين محيي الدين المْعلَّم صِرور جالسا يعزف على القْوِيطْرة، وعلى يساره جاكوب العَجمي، أو العْجِيمي شعبيًا، عازفا على آلة الكمان آلْتو، وهو من مواليد مدينة الجزائر من أبٍ يهودي مغربي وُلِد في فاس (yafil.free.fr).

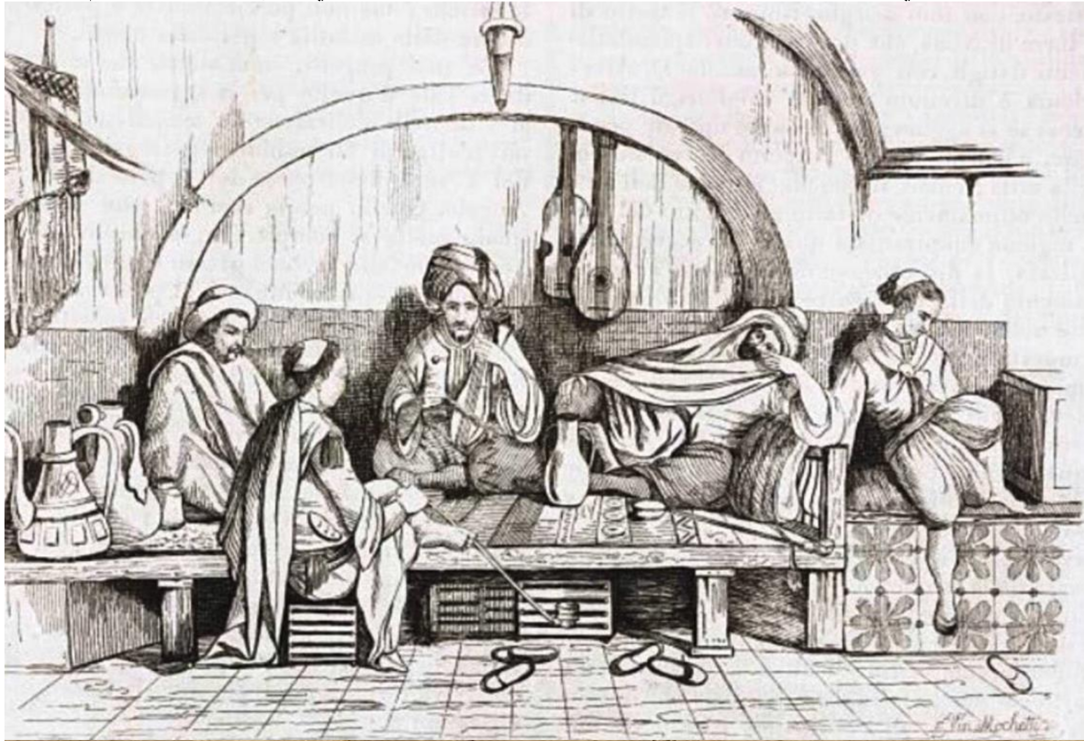




غلاف الكتاب الذي أصدره إيدمون يافيل بعد أن جمع فيه التراث الأندلسي المتداوَل في مدينة الجزائر معتَمِدًا بشكل خاص على شيخه محمد بن علي سْفِنْجة عنوان الكتاب: Repertoire de musique Arabe et mauresque (ديوان الموسيقى العربية والموريسكية).



كانت مقاهي مدينة الجزائر مجالس للغناء والطرب خلال العهد العثماني وإلى غاية القرن 20م.





الفنان المسرحي والمغني الممتاز محيي الدين باش طرزي المتخرّج من الجامع الجديد "باش حَزَّاب" قبل بلوغه العشرين من العمر لصوت الجميل وإبداه في التجويد وتلاوة القرآن الكريم.



"والله مَا نْسِيتَكْ يَا لِيلة البَارَحْ...!"

هُمَا نْزَاهَةْ الدَّنْيَا مَا فِيهَا كْلاَمْ
هُمَا السّْرُورْ وَالسُّلْوَانْ هُمَا البْنَاتْ وَالكِيسَانْ فِي بْسَاطْ سُلْطَانِي مَزْيَانْ
العُودْ وَالرّْبَابْ يْجَاوْبُه بِفْصَاحَة بِالمَايَة وَالقُبَّاحِي تَسْمَعْ حَسّْ الأَطْيَارْ فُوقْ مْنَابَرْ الأَدْوَاحْ

الشيخ بن عمر البَصِير المَرَّاكْشِي (شاعر)

على خطى طُوَيْسْ و خَوْلَة، حَمْدُونَة وعُلَيَّة...، بَرَزَتْ اللاَّيامْنَة بنت الحاج المهدي، مَرْيَمْ فَكَّايْ وفضِيلَة الجزائرية في قصور ودْوِيرات القصبة لِيُجَسِّدْنَ حَرَكَةً غنائية نسوية جديدة في مدينة الجزائر، بل في كل الجزائر. حَرَكَةٌ أَسَّسَتْ للفترةِ الذهبيةِ للَمْسَمّْعات في تاريخ المدينة المعاصر,,, لكن ماذا بقي مِنهنّ اليوم...؟

عندما كانت فضيلة الجزائرية تجلس جلسة "مْرَبّْعَة" إلى جانب المْعَلّْمَة مريم فكاي، كانت كل نساء القصبة يحبسن أنفاسهن للاستمتاع بصوتها في سكون قداسي، ولا زال صدى "والله ما نْسِيتَكْ يَا لِيلَةْ البَارَحْ..." يتردد في الأذهان بحنين رغم أن فضيلة قد فارقت الحياة منذ 30 سنة.

"رَانَا جِينَا...نَارِي يَا نَارِي"

فضيلة التي وُلدتْ في حَوْمَةِ "جْنَانْ بيتْ المَالْ" و تَشَبَّعتْ بثقافة مدينة سيدي عبد الرحمن، كانت آخر عمالقة "المْسَمّْعَاتْ"، أو 'المْسَامَعْ"، في هذا القرن مثلما كان الرَّايسْ حَمِّيدُو آخر عمالقة رياس البحر الجزائريين في العهد العثماني. فضيلة التي انطلقت من الموسيقى البدوية تحت رعاية خْليفي أحمد و حَدَّاد الجِيلاَلِي في بداياتها، لم تكن تعلم أنها أخطأت الطريق وإن الحظ كان ينتظرها في ميدان الموسيقى الحضرية الأندلسية ومشتقاتها كالحَوْزِي والعْرُوبِي والزَّنداني. ولم تكن تتوقع أيضا أنها آخر وريثات فن اللاّ يامنة بنت الحاج المهدي التي توفيتْ في القصبة سنة 1932م والشيخة طيطْمَة التلمسانية التي أبدعت في الحوزي وبلغت شهرتها كل المدن والحواضر الجزائرية.

وبفقدان الجزائر لفضيلة الجزائرية، الفنانة، والمجاهدة التي اعتقلها الاستعمار في سنة 1956م وسجنها لمدة 18 شهر بسجن سَرْكَاجِي، سقطت تقاليد المْسَامَعْ وتَهَاوَتْ أركانُها أمام الفراغ الذي تركته بنت جنانْ بيتْ المَالْ وخرّيجَة سُطُوح ومَنَازِه "القصبة".

بعد فضيلة، لم تشهد مدينة الجزائر وأَفْنِيَة دويراتها سوى "مسامعيات" هاويات أغلبهن موسميات بَقَيْنَ أسيرات ما تَرَكَتْهُ الشيخة من تراث، ولم يستطعن حتى التخلص من طقوس ومراسيم افتتاح العرس التقليدية التي تبتدأ عادة بـ: "رَانَا جِينَاكْ..وَيْدُومْ هْنَاكْ..وَيْزِيدْ فَرْحَكْ..نَارِي يَا نَارِي". ولا نَرْجِس، ولا نادية بن يوسف ولا غيرهما

تمكنَّ من خلافة الراحلة رغم قدراتهن الصوتية الهائلة، لأن المجتمع الجزائري آنذاك، وعاصمته بصفة خاصة، كان يشهد تغيرات جذرية في نظامه الاجتماعي- الثقافي تحت تأثير استراتيجية الصناعات المصنعة و الثورة الزراعية. فضلَمْ يَعُدْ عهد المسمعات ابن عصره وكان عليه وهو يفقد وَهْجَهُ أمام جاذبية التكنولوجيا أن "يَتَجَدَّد أو يَتَبَدَّد"...
هكذا طوت العاصمة أحد أهم تقاليدها الموسيقية - الاجتماعية التي صمدت قبل ذلك طيلة قرون في وجه الاضطرابات الكبيرة التي تلت سقوط الأندلس ثم الاحتلال الإسباني من جهة، وفوضى أواخر العهد العثماني بالإضافة إلى القمع والتغريب الاستعماري من جهة أخرى.

جــذور

كانت طُوَيْسْ، خَوْلَة، وجميلة التي توفيت سنة 714م، إحدى أشهر نجوم الموسيقى النسوية العربية في صدر الإسلام والعصر الأموي، إذ تركن بصمات عميقة حتى في مسار الموسيقى العربية - الإسلامية بصفة عامة عبر التاريخ بألحانهن، أصواتهن، عزفهن على العود، وطريقة أدائهن. حتى إن الرجال لم يَتَرَدَّدُوا في أخذِ بعضِ فنِّهم عليهن. وعلى الخطوات التي خطاها هذا الجيل، سوف تدخل الموسيقى والغناء حتى بيوت وقصور الأمراء والملوك العباسيين ليستقرا بين أفراد أُسَرِهِم وحريمهم. الخليفة ابراهيم بن المهدي الذي تولى الخلافة قبل أخيه هارون الرشيد كان أحد ثمار هذه الخطوات وتلك العلاقة المرنة، بل الحميمية، بين الإسلام والموسيقى. غير أن مفاجأة خلفاء ذلك العصر فهي أخت الخلفاء هارون الرشيد وابراهيم، عُلَيَّة بنتْ المَهْدِي، التي كانت، كما يقال، حجة زمانها في الغناء والعزف على العود إلى درجة أن نبوغها وشهرتها جعلا أبو الفرج الأصفهاني يخصص لها الكثير من وقته وحبره وأوراقه في كتابه الشهير "الأغــاني".
وفي نفس الفترة تقريبا برزت على الساحة الفنية حَمْدُونَة وعُلَيَّة أخرى هما ابنتا أبي علي الحسن ابن نافع المعروف بـ: زِرْيَاب، في قرطبة الأموية عاصمة أحفاد صقر قريش.
تقاليد ممارسة النساء للموسيقى والطرب ليست جديدة في الجزائر. كما إن لظاهرة المسمعات جذور عميقة عمق التاريخ الموسيقي العربي- الإسلامي حتى ولو أنها تشبعت بالموسيقى الأندلسية أكثر من المشرقية لظروف تاريخية - جغرافية تتمثل في الروابط الوثيقة بين الأندلس و"بَرِّ العُدْوَةِ" (المغرب العربي) من جهة، والنزوح الديمغرافي الأندلسي نحو هذه المنطقة في سنة 1236م، 1391م ثم 1492م عند سقوط غرناطة آخر إمارات المسلمين في الأندلس من جهة أخرى..، دون أن ننسى عشرات الآلاف الموريسْكِيِّين و المُدَجَّنِين الذين توافدوا على البلاد بسبب قرار الطرد الجماعي الذي أُخضعوا له بالقوة مابين سنة 1609م و1619م من طرف السلطات الإسبانية

"آشْ رَى مَنْ لاَ شَافْ البَاهْيَاتْ في بْسَاطْ..."

و مِنْ صُلب التقاليد الموسيقية العربية – الأندلسية التي فتحت أبواب المشاركة النسوية و الشهرة في وجه فنانات عالميات في ذلك الوقت مثل تلميذات زرياب، غُزْلاَنْ، هُنَيْدَة،

مُتْعَة، ومَصَابِيح...، سوف تبرز في الجزائر العديد من الجواري والقيان والحرائر لِيَسِرْن على نهجهن رغم الذهنية المحافظة جدا للجزائريين، وسوف يجدن في وجدانيات بن سَهْلَة وبن مْسَايَبْ وبن التُّرِيكِي و وَلْدْ الرِّزين وغيرهم، وهم أندلسيو الأصل في أغلبيتهم، مادة ثرية وجميلة لأغانيهم حسب الطبوع و النوبات الأندلسية.

اللا يامنة بنت الحاج المهدي (1859م - 1933م) في شبابها ثم في خريف عمرها.





"القلب بات سالي والخاطر فارح..والله ما نسيتك ياليلة البارح..."



"حين تصفر العشية نتوحش الزيار..ياربي توب عليَّ وابعد عنا الغيار"



" وما دْريتَكْ تنساني...تنسى وَكْرِي واحْسَاني...يَستْاهل مَن يَعشق في القْلوبْ اللي ما يْحنُّه"



"كَاسِي يَا كَاسْ غَازُوزْ... نَشْرْبُوهْ أَنَا وعَزُّوزْ"

"عْجُوزَة مْخَمْلَة وَلَا عْرُوسَة مْقَمْلَة"

لم تكن مدينة الجزائر حاضرة لرياس البحر والدايات وقَعْقَعَة السُّيُوف ودَويّ المدافع فقط، بل كانت أيضا، ولا زالت، مدينة الحكماء وصناع الكلمات الرقيقة القوية التعبير القائمة على الصور اللغوية القوية، الجميلة والفصيحة.

في "دْروجْ" العمارات، في البيوت، في: "منازه" القصبة ، وعلى السطوح، غنت نساء العاصمة وأبدعن في الأهازيج منذ قرون، وليس منذ اليوم فقط، في سهرات رمضان، في الأعياد والأعراس..، قبل أن تُسكتها قاعات الحفلات والدِّيسْكْ جُوكِي.
ليس كل العائلات كانت تملك إمكانيات إقامة حفل أو عرس أو حتى "وَعْدَة" بالمْسامْعِيات، لذلك سوف تضطر العائلات المتواضعة الحال إلى تحقيق الاكتفاء الذاتي غنائيا وتجنيد فتياتها وجميع المدعوات لصنع البهجة وإنجاح العرس بالغناء الجماعي المرافَق بالتصفيقات والزغاريد والرقص على إيقاعات الدربوكة والطار، أو حتى على إيقاع دلْو فقط عندما لا تتوفر الوسائل...

"حجَّة وفَرْجَة"

في مثل هذه الحفلات النسوية الحميمية جدا تصنع المدعوات البهجة والطرب وتستمتع بهما في نفس الوقت... "حجّة وفَرْجَة"، كما يُقال، في حين إذا حضرت المسامعيات أو "الدِّيسْكْ جُوكِي" تكتفي النسوة بالمتابعة فقط وحديث الأذنين، فيكون الحماس أقل والتركيز والاستمتاع أضعف.
كانت هذه الأعراس مجالس شعرية – غنائية لنساء العاصمة تلتقي فيها الوجدانيات بالفخر والغزل وبالحوارات والمناظرات الشعرية الطريفة التي تخص الحياة الاجتماعية اليومية للمرأة العاصمية. ولعل أشهر ما صدر عن هذه اللقاءات الحميمية في الستينيات حتى بداية الثمانينيات من أغاني نسوية تلقائية هي " ولأَيْ لِيَا، وَلأَيْ لِيَا..محبوب قلبي عَزُّوهْ عْليَّ". لكن أعراس ذلك الوقت لم تكن قد استغنت عن بعض الأغاني الحَوْزِيَة أو الغْرُوبِيَة التقليدية التي اشتهرت بها كل من فضيلة الجزائرية، مَرْيَم فَكَّايْ والشيخة طيطْمَة وقبلهن المْعَلَّمَة يامْنَة بنت الحاج المهدي، مثل الافتتاحية الشهيرة: "رانا جيناكْ يا نور عَيْنَيَّ" والخاتمة "أبْقاوْ على خيرْ وَاحْنا مْشينا.. واللِّي يْحَبْنا يحلفْ علينا"، أو حتى "سيدي جابْ الزَلِّيفْ.. واعطاني غيرْ النِّيفْ.. سيدي جابْ اللَّحَمْ .. واعطاني غيرْ العظمْ..." وهي أهم مقاطع أغنية "فَرْشي لعْجُوزْتَكْ وقُولِي لْهَا لالَّة". وقد نالت هذه الأخيرة شُهرةً كبيرةً قبل منتصف العشرية الماضية، وتَحوَّلتْ إلى أداة شجار غنائي بين جيليْ الحموات و"العْرايَسْ" في الحفلات والأفراح. وتُعْتَبَرُ هذه الأغنية تحفة فنية شعبية

تتضمن شحنة احتجاجية قوية ضد "طغيان" "العجايز" واستبدادهن بالسلطة داخل البيوت على حساب زوجات أبنائهن. ثم تدعمت في الثمانينات بـ: "نُوصِيكُمْ يَا البْنَاتْ زُوجْ بْزُوجْ، مَاتْدِيرُوا الأمانْ في العْجُوزْ". لكن العجائز لم يبقيْن مَكتُوفات اليديْن ولم يَسْكُتْنَ عن هذه الاستفزازات وغَنَّيْنَ هن الأخريات أغاني طريفة عن جيل "الزبدة"... ولا شك أنهن يقفن وراء مثل هذه الحملات الانتقادية اللاَّذعة على العرائس التي تنطلق من شعارات ذات شحنة عُدوانية شديدة مُحمَّلة بالرؤوس النووية على غرار: "عْجُوزَة مْخَمّْلَة و لاَ عْرُوسَة مْقَمّْلَة"... وعندما يبدأ الضغط في الارتفاع داخل العرس، تتدخل بعض الحكيمات بأغاني عاطفية لتلطيف الأجواء ووضع حد للتوترات تفاديا لقيامِ حربٍ باردة أولأَيِّ مَكْرُوهٍ آخر.

"نُوصِيكُمْ يَا البْنَاتْ دَالَة بْدالة..."

ومن بين أهم المواضيع التي كانت النساء تتناولهن بحماس كبير وتلقى إقبالا مماثلا من الحاضرات هي الرجال والخيانة والتنكر لـ: "العَشْرَة" و ما شابه ذلك. وهي مواضيع تعبر بفصاحة كبيرة عن العلاقة بين النساء والرجال في الجزائر حيث يختلط فيها الحب والهيام بالعزة بالنفس والرغبة في السيطرة على الآخر والحذر المتبادل وضعف الثقة بين الطرفين. فالرجل يميل إلى اعتبار المرأة شيطانا يجب الحذر منه أقصى ما يمكن، وهو الطرح الشعبي الذي تؤكده مثلا أغنية الشاب مَـامِي: "مَا فِيكُمْ أمانْ يَا نْسَاء مَا فيكُمْ أمانْ ... نِيَّتْكُمْ دِيمَا نَاقْصَة ، يَا ويحْ الغفْلانْ...". في نفس الوقت تميل النساء إلى اعتبار الرجال معدنا لا ينضب للخيانة، "الرجال خدَّاعين" بالفطرة تقول النساء، لذلك يجب الاحتراز منهم وعدم الثقة فيهم ثقة مطلقة. وبهذا غنين كثيرا في الأعراس خلا العشريات الماضية حتى بحَّتْ حناجرهن:" نوصيكم يا البنات دالة بدالة.. ما تْديروا الأمان في الرَّجَّالة". مع ذلك لم تَكُفْ النسوة أبدا عن التسامح مع الرجال إلى حد إنكار الذات، فيضعن تصفية الحسابات جانبا في كل مرة لينطلقن في أغاني الغزل والغراميات وكأن شيئا لم يحدث، لا خيانة ولا تنكر لـ: "العَشْرَة". فَتُبْعَثُ في حماس فيّاض من نوافذ الشقق بالعمارات العاصمية أنغامٌ وكلمات جميلة كل يوم خميس بعد الظهر، خصوصا في فصلي الصيف والخريف، أنغام وكلمات تتغنى بفضائل الرجال وعطفهم وجمالهم وأسمائهم، وهي أغاني أصبح الجميع يحفظها حرفيا لجمالها أو لطرافتها أو لكثرة ما ترددت. ولعل أشهرها في العشرية الماضية: "كاسي يا كاسْ غازوزْ.. نشرْبوهْ أنا وعزُّوزْ" أو"أَعْطُونِي دُورُو يَا الأَحْبَابْ، أَعْطُونِي دُورُو... نَطْلَعْ للجْبَلْ وَنْزورُه...".

انهيار ثقافة...

لكن تأثير الإذاعة والتلفزيون وأشرطة الكاسيت والأسطوانات، التي بدأت تعرف رواجا جماهيريا كبيرا منذ بداية السبعينات عندما بدأ مستوى المعيشة يشهد بعض التحسن، سوف يؤدي إلى إضعاف مستوى الإنتاج النسوي العفوي لمثل هذه الأغاني الفلكلورية وركون النساء إلى السهولة بالاكتفاء بترديد الأغاني التجارية. بذلك بدأت أغاني سليم الهلالي مثل "مَحَنّْي الزين يا مَوْلاةْ العينين" و"الحبيب دْيالي وينْ هُوَ" و"السَّانية والبير" تغزو بقوة ديوان الأعراس. ولم تبق هذه الأخيرة معزولة عما كان يحدث في مكاتب

قصر الحكومة وقصر الشعب وداخل المؤسسات الوطنية، فتبنت الأعراس النسوية حتى أغاني الثورة الزراعية مثل "سي بومدين أعطينا الأراضي"، و"خُذْ المفتاح يا خُويَا وافْتَحْ دَارَكْ يَا فَلاَّحْ" للمطرب رابح دَرْيَاسَة التي مجد فيها بناء القرى الفلاحية النموذجية الاشتراكية. كما غنتْ هؤلاء النسوة عندما يطغى عليهن الحماس وتسخن رؤوسهن: "وانْ..تو.. تْري..فيفا لاَلْجيري".

اليوم لم يعد سهلا إقامة عرس في البيوت التي ضاقت بأهلها، ولا في السطوح لعدم قدرتها على استيعاب العدد المتزايد للأهل والأقارب والجيران بغض النظر عن "التّْحَرْحيرَة" والفوضى التي أصبحت العائلات تتفاداها. لذلك ظهر نموذج جديد للاحتفال بمختلف الأفراح، يتمثل في أعراس قاعات الحفلات الذي لازال في طور تَكَوُّنِه وسط فوضى عارمة... ومع ظهور هذا التحول الراديكالي، سكتت أصوات النساء وصمتت قرائح الشاعرات منهن أمام دوي مكبرات الصوت لتفسح المجال للديسك جوكي وتُعلن عن نهاية عهد جميل من عهود الأفراح في عاصمة الجزائر. وبهذا"الإنجاز العصري" فقد العرس العاصمي روحه وجماله الداخلي ودفأه الإنساني وطوى صفحة عريقة من الثقافة المحلية لم تنجح في الصمود أمام اكتساح التكنولوجيا و الآلة. وتلك سنة الحيـاة...

"داخل الحريم": لوحة للفنان إيمانويل – جوزيف لوري إيني (Emmanuel-Joseph Lauret Ainé) تعود لسنة 1880م.



"...شوفوا حْبيبي كي يَبْغيني...جابْ الطاكسي وجاء يَدِّيني..."





مَرْيَمْ فَكَّايْ... آخـر المْسَـامْعِيَـاتْ

"رَانَا جِينَاكْ يا ضَوْ عِينَيَّ   دارْ عْلَى دَارْ   أحْنَا سْكارَى ورَبِّي غفَّارْ..."

في 18 جويلية 1961م، فارقتْ الفنانةُ الجزائرية مَرْيَم فَكَّايْ الحياةَ عن عمرٍ يناهز 72 عاما كآخر عمالقة "المْسَامْعِيَات" اللّواتي تَكَوَّنَّ في مدرسة القرن 19م وأَوْصَلْنَ التراثَ الحَوْزِي التلمساني والعروبي العاصمي إلى أجيال القرن الـ20م.

بعد وفاة فَكَّايْ، لم تبق على الساحة سوى تلميذتِها فضيلة "الدْزِيرِيَة" التي انتقلتْ هي الأخرى إلى رحمة الله في سنة 1970م لينتهي عهد "المسامعيات" ويترك مكانه "للدّيسْكْ - جُوكِي" والمطربات الهاويات للأغنية التجارية الخفيفة.
في نهاية القرن الماضي وفي خضم النهضة الفنية التي كانت تخطو خطواتها الأولى بمدينة الجزائر على يد كل من الشيوخ مْحَمَّد مْنَمَّشْ ومُحَمَّد بن علي سْفِنْجَة وابن التّفَاحِي وغيرهما، وُلدتْ مريم فَكَّايْ بقصبة الجزائر في سنة 1889م من عائلة بسْكرِية. عائلة يُشيرُ اسمُها "الفكَّايْ"، الذي هو تحريف لـ: "الفكَّاك"، بأنها منحدرة من شخصٍ مَا اشتغل بِتجارة فَكِّ الأَسْرِ عن العبيدِ أو الأسرى بواسطة الفِدية خلال العهد العثماني...
بعض الذين عاصروا هذه الفنانة يؤكدون أنها ولدت ببسكرة وقدمت صغيرة إلى القصبة أين نشأت وتربت في أجواء الموسيقى الأندلسية وتأثرت كثيرا بأصوات شيخات الحوزي والعروبي على غرار اللايامنة بنت الحاج المهدي التي توفيت في 1932م والشيخة طيطمة التلمسانية التي فارقت الحياة هي الأخرى مطلع الستينيات بعد أن عاشت سنوات طويلة بمدينة الجزائر.
في ذلك العهد الذي كانت فيه العائلات الجزائرية على درجة من المحافظة تدفعها إلى مقاطعة أبنائها إذا دخلوا عالم الغناء والتمثيل، برزت مريم فكاي بشجاعة كبيرة على الساحة الغنائية في الأعراس والحفلات النسوية بقامتها الطويلة وفخامة "قَعْدَتْهَا" و"مْحَرْمَتْهَا" المُرصَّعة بالجواهر والحلي الذهبية، وكذلك بصوتها القوي والشجي الذي لا زالت مؤسسة التلفزيون تحتفظ ببعض تسجيلاته إلى اليوم.
احتكت مريم فكاي بالشيخة طيطمة واشتركت معها في إحياء عدد من الأعراس على سطوح مدينة الجزائر وبِأَفْنِيَةِ دوِيرَات وقصور القصبة، كما غنّتْ في العديد من المدن الجزائرية في جولات فنية طويلة.
من الشيخة طيطمة تعلمتْ أصول الحَوْزِي، وقلَّدتْ أداءَ اللاَّ يَامْنَة، وتعلمتْ بالحِفظ والتقليدِ العْرُوبي العاصمي حسب أسلوب المْعَلّْمَة يامنة التي جعلت منها مثلها الأعلى

والمدرسة التي استنارت بها ليس هي فحسب بل كل الفنانات في مدينةِ جزائرِ ذلك العهد.
فَكّايْ التي فرضتْ نفسَها بقوة على الساحة الغنائية نجحتْ في حَمْلِ مشعل أستاذتَيْها بعد وفاتِهما، وأصبحتْ بعدهُمَا الثالثةَ من حيْث الأهمية. لكنها لم ترْق إلى مستواهما الكبير ولم تملأ الفراغ الذي تركتاه؛ ففي الوقت الذي كانت طيطمة فيه عازفةً ماهرةً على الكمَنْجَة واللاّ يامنة تعزف بإتقان على جميع الآلات المتداولة في ذلك الوقت من الكمنجة والقْوِيطْرَة والسّْنِيتْرِة إلى النّاي والعُود والبْيَانُو والرّباب إلى غيرها من الآلات الإيقاعية، اكتفت مريم فكاي بالدَّرْبُوكَة والغناء حسب الطّبوع والنوبات التي تَدَاوَلَتْهَا "المْعَلّْمَة" يَامْنَة.
لكن فكّايْ استفادتْ بذكاء من الأستاذتيْن بحيث أصبحتْ تتحكَّم إلى حد كبير في الحوزي والعروبي على حدٍّ سواء عكس الكثير من فنانات جيلها مثل الشيخة زَهِيَة وليلى فَاتح وفَطُّومَة البُلَيْدِيَة ورِينَاتْ سُلْطَانَة دَاوُود الوهرانية. كما أضافتْ إلى إرث طيطمة ويامنة تقاليد جديدة تتمثل في إدخال فرقة راقصة على جوقها زادتْ في جمال أدائها وأبْرَزَتْ أكثر الأصالة العاصمية في عروضها، مع العلم ان فَكَّايْ نفسها ابتدأت مشوارها الفني كراقصة في الأعراس وفي الحفلات التي كان يُحْيِيهَا المرحومُ مُحْيِ الدِّين بَاشْ طَارْزِي وجمعيتُه الشهيرةُ "المُطْرِبِيَة".
الأستاذ أحمد سِرّي الذي عاصرها وعرفها عن قرب في بعض المناسبات التي كان من المَدْعُوّين فيها إلى بيتِها قال بأن "دخولَها عالم الرقص والغناء كان مبادرةً شجاعةً من طرفِها في عهدٍ كان من النادر أن تبرزَ فيه النساءُ في الميدان الفني". ويضيف بأن فكاي وغيرها من مطربات جيلها "كُنَّ رائدات الأغنية النسوية في القرن العشرين".
في شهر أوت 1929م أدّتْ مَرْيَمْ فَكَّايْ لأوّل مرة، تحت إشراف محي الدين باش طارزي، كُلَّ أغانيها الشهيرة مثل افتتاحية الأعراس النسوية "رَانَا جِينَاكْ..."، و"القَلْبْ بَاتْ سَالِ وَالخَاطَرْ فَارَحْ..." و"مَنْ نَهْوَى رُوحِي ورَاحْتِي..." للشاعر التلمساني العاطفي مُحَمَّد بن مْسَايَبْ.
في الثلاثينات انضمتْ إلى جمعية المُطْرِبِيَة التي كان يُديرها ويُنشِّطُها آنذاك محي الدين باش طارزي، والتي كانت متخصصة في الغناء الأندلسي قبل فتح فرع المسرح والتمثيل والرقص..، وساهمتْ أيضا في إحياء العديد من السهرات إلى جانب الجمعيات الأندلسية الكبيرة كالجزائرية والموصلية والغرناطية وحتى في بعض حفلات جوق سِي مُحمّد فَخَّارْجِي بِـ: "رَادْيُو الجَزَائِر".
في سنة 1935م أنشأتْ مريم فكاي جوقَها الخاصّ الذي نال شهرةً كبيرةً ونجح في استقطاب احترامَ العائلات الجزائرية التي تبنّتْ فنَّها، وأصبحتْ الأعراسُ بمدينة الجزائر لا تحيا إلا بصوتِها ورقصاتها. كما فتحتْ المجالَ لِبُروزِ مواهب جديدة لامعة مثل فضيلة "الدْزِيرِيَة" التي التحقتْ بها في بداية الخمسينيات.
بعد 46 سنة من رحيل فكاي و36 سنة من وفاة فضيلة، لم يبق من تقاليد "المسامعيات" أشياء كثيرة تُذكر، بحيث زالتْ نماذجُ الأعراس التقليدية وتأثرت مداخيل العائلات

بالأزمة الاقتصادية، فأصبح اللجوء إلى "الدِّيسْكْ-جُوكِي" يُغْنِي عن المصاريف الباهظة التي تطلبها "المسامعيات". كما تخلَّتْ المطربات الصاعدات عن تقاليد "الحَطَّة" العاصمية وأغانيها وفَضَّلْنَ عنها أغاني الرَّايْ والإيقاعات الخفيفة التجارية.
لذلك يمكن اعتبار فكاي وفضيلة آخر "المسامعيات" في القرن 20م.

البهجة في ديار وقصور "البهجة"... لوحة من القرن 19م في بدايات عهد الاحتلال. على اليمين، جنديان فرنسيان.



تسجيل غنائي على أسطوانة للفنانة مريم فكّايْ



مريم فكَّاي تُغني في تسجيل للتلفزيون.



مريم فكاي بآلة العود في حفلة مُسجَّلة للتلفزيون.



الفنانة فضيلة الجزائرية رفيقة درب مريم فكاي في تسجيل تلفزيوني.



فضيلة الجزائرية مع الفنان أحمد سري عازفا على آلة المونْدُولْ في تسجيل تلفزيوني.



قاعة الأُوبِرَا: الصَّخرة التي تَحَوَّلَتْ إلى... مسرح

كانت سوقًا لِبيْعِ الفَحْمِ وفضاءً للتَّدْرِيبِ على الرِّمَايَة... هذه الصخرة سوف تُحَوَّلُ إلى أكْبَرِ وأَهَمِّ مسرحٍ في كامل التراب الجزائري.

لم تكن حدود مدينة الجزائر قبل الاحتلال تتجاوز الأسوار المحيطة بالقصبة... أمَّا مَا بعد الأسوار فَلَمْ يَكُنْ يُشَكِّلُ أكثر من بضعةِ بُيوتٍ ومحلاتٍ تجارية وخِيَمٍ للعرب الرّحالة. كما كان محطةً لقوافل الجِمَالِ المُستريحة من عناء السفر والتِّرحال بعد أن عُبأت بمختلف البضائع التجارية القادمة من الصحراء وحتى من العمق الإفريقي أو بلاد السودان بِتَعَابِيرِ ذلك الوقت. ما بعد الأسوار كان أيضا فضاءً روحيًا تَتَخَلَّلُهُ المقابر وأضرحة الأولياء الصالحين المنتشرة عبر ريفٍ شاسعٍ رومانسيٍّ وموحشٍ لعل أشهرها ضريحا سيدي بَتْقَة (أبا التُّقَى) وسيدي علي الزواوي ومقبرة بني ميزاب التي كانت تقع على مقربة من ما يُعرف حاليا بـ: شارع طَنْجَة (Rue de Tanger).

صخرة الرماية وسوق الفحم

على يسار الخارج آنذاك من باب عزون، كان الناس يتجمعون يوميا في ساحة صغيرة سُمّيت: سوق الرَّحْبَة، حيث ساحة بور سعيد حاليا، للمتاجرة في القمح وبعض أنواع الحبوب. أما على اليمين، فقد طغت على المنظر المنحدرات الوعرة الممتدة من الباب الجديد حتى البحر، وبصفة متميزة، برزت صخرة ضخمة وواسعة الأطراف حوَّل السكان جزءا منها إلى سوقٍ للفحم واستغلَّها العسْكر في في جزئِها الآخر للتدريب على الرِّمَايَة.

هذه الصخرة العتيقة والشهيرة التي شهدت سقوط مئات جنود وضباط شَارْلُكَانْ (شارل الخامس) الصليبيين أمام باب عزون في سنة 1541م تحت ضربات المقاومة الجزائرية، وتابعت عن قرب المصيبة التي حلت بالإسكافي الفقير سيدي منصور في 1646م، وشاهدت آلاف الرؤوس والجماجم تُلقى طيلة ثلاث قرون من فوق السور إلى المنحدرات عقابا على جرائم ارتُكِبَتْ..، سوف يَتَغَيَّرُ مصيرُها جذريا بعد عشريتَيْن من دخول الاستعمار إلى الجزائر. سوف تتحوَّل هذه الصخرة إلى مبنى المسرح الوطني الجزائري الذي لازال قائما إلى اليوم، أي "الأوبِرَا" حسب التسمية التي سادت في العهد الاستعماري.

في سنة 1850م كان المهندس شاصيرْيُو(Chasseriau) قد انتهى من إعداد تصميم هذا المشروع التحفة. أما إنجازه فلم يستغرق أكثر من أربع سنوات، بحيث تمكن في سنة 1853م من تجسيد حُلمٍ قديمٍ رَاوَدَ الكولون الأوائل وقادَتُهم العسكريين منذ 1830م وخاصة الجنرال كْلُوزِيلْ.

البدايات المسرحية والكولونيالية

لكن هذا الإنجاز لم يكن نَبْتَةً في أرضٍ جرداءٍ قاحلةٍ ثقافيا. بالعكس، لقد جاء تتويجًا لنشاطٍ مسرحيٍّ بدأ ينضج بعد حوالي عشرين سنة من الممارسة في ظروف صعبة

وبهياكل جد ضعيفة. هذا دون ذكر مسرح عرائس القَرَاقُوز وعُروض خيال الظلّ التي كانت تتمتع بشعبيةٍ كبيرةٍ في أوساطِ الأهالي المسلمين منذ العهد العثماني والتي دخلتْ السِّريّة منذ أن مَنَعَهَا الاستعمار.

فأوّل مسرح شهد النور بالعاصمة الجزائرية أسَّسَتْهُ إدارة الاحتلال في الأشهر الأولى لغزو البلاد بشارع القناصِلة (La Rue des Consuls) قرب شاطئ قاع السور، وقد شَجَّعَ وُجُودُه على بُروزِ جمعياتٍ فنيةٍ مسرحيةٍ مثل الجمعية العاصمية "للكُوميدْيا والأوبرا المتنوعة" في عام 1853م. كما تلاها ميلاد السِّيرك الأولمبي بساحة باب الوادي (Esplanade Bab-el-Oued)..، حيث تابع المعمرون والعسكر بِمُتْعَةٍ كبيرةٍ، طيلة أسابيع، مسرحية خير الدين بربروس (Hariadan Barbarousse)..، لكن هذه المتعة كانت أُحَادِيَة الجانب حيث غاب عنها الأهالي الذين قاطعوا كل نشاطات الاستعمار التي يمكن مقاطعتها. ثم حوَّلتْ الإدارة الاستعمارية مقر المسرح لفترة طويلة إلى شارع "الأنْتونْدونْصْ" (Rue de L'Intendeance) الذي بدأت تُنافِسُه هياكل جديدة كالمقهي الغنائي (Café chantant) المُسَمَّى "الجوهرة" (La Perle) و"قاعة غامْبيني" (Salle Gambini) ثم المسرح الإسباني بشارع "لافونْدْرِي" (La Fonderie) بمكان الزُّوجْ عْيُونْ حاليا.

قاعة الأوبرا

كان على مدينة الجزائر المحتلة أن تنتظر حتى شهر ماي 1850م لتنطلق أشغال قاعة الأوبرا على يد كل من المهندسيْن شاصيريو وبُونْصَارْد (Ponsard) ويتم إنجازها في شهر سبتمبر 1853م بساحة بور سعيد، (Square Bresson) سابقا، بعد أن كانت مُبرمجة في ساحة "لاَرِيجُونْصْ" أي ساحة الشهداء. وتم تدشينها في يوم 29 سبتمبر بحضور الماريشال رَانْدُونْ (Randon). وفي 09 مارس التالي لحفل التدشين قاد الموسيقار السيمفوني الشهير آنذاك فْرَانْسِيسْكُو سَلْفَادُورْ دَانْيَالْ أوّل حفل موسيقي بهذا الصرح الفني الجديد. في يوم 10 ماي 1865م، زاره الملك الفرنسي نابليون الثالث وتابع فيه برنامجا فنيا ساهرا بعد توسيعه في سنة 1856م. وبعد عملية التهيئة والتوسيع الثانية في 1871م تَعَرَّضَ المسرحُ لِحريقٍ مهولٍ في يوم 19 مارس 1882م لم يُبْقِ فيه سوى على الجدران الخارجية وقضى على جمال واجهته التي بُنيتْ حسب الجماليات المعمارية التي سادت في عصر النهضة الأوربية في مدن كالبندقية و جِنْوَة.

رمَّمه المهندس أُودُو (Audot) ومسح عنه آثار النكبة، ثم أضاف له كل من تَافُورُو وغِيرْمون- بيريزْ تعديلات ولمسات جديدة في سنتي 1937م و1939م. أما بعد الاستقلال فقد شهد ثلاث عمليات ترميم وتجديد؛ الأولى في سنة 1969م تحضيرا للمهرجان الإفريقي، والثانية في 1972م والثالثة في سنة 1999م بمناسبة الاحتفال بألفية مدينة جزائر بني مزغنة على يد شريف رحماني باشا...

من "القَرَاقُوزْ" إلى مسرح باش تارزي

أما الأهالي الذين حال الاستعمارُ دون تَطَوُّرِ ورُقي ثقافتهم وفنونهم الشعبية، عندما لم يقضِ عليها إلى الأبد، فقد بقوا على هامش النشاط المسرحي الحديث الذي كان يجري بقاعة الأوبرا حتى جاءت جمعية المطربية بفرعها المسرحي في أواسط العشرينيات

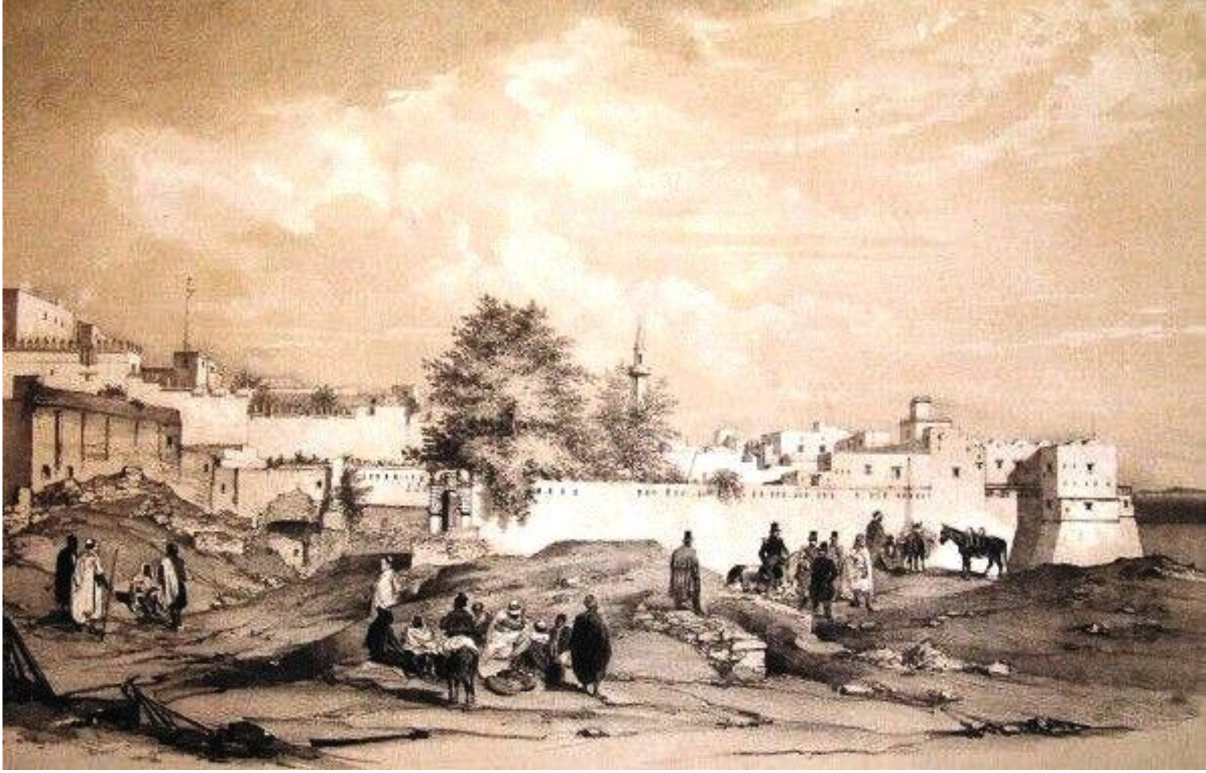
لِتسدَّ هذا الفراغ. فبعدما كان النشاط شبه المسرحي الوحيد السائد في المدينة أثناء العهد العثماني يتمثّل في حلقات إنشاد الشعر الشعبي من طرف المداحين الذين يقصُّون السِّيَر والأخبار ومغامرات الأبطال والفرسان، وبعد أن لعبتْ "فَرْجات" عرائس القراقوز و خيال الظل، اللذيْن أدخلهما الأتراك إلى البلاد، طيلة قرون دورَ نواةِ المسرح الجزائري الذي سيتشكل في المستقبل والتي كانت تُنظَّمُ على أطراف القصبة حيث توجد الفضاءات الواسعة وتَقلّ الشوارع والدروب الضيقة الملتوية..، بعد هذا كله جاء المسرح الجزائري ليُعبِّر بأساليب فنية حديثة عن هموم الأهالي اليومية، وذلك بفضل الفنان محي الدين باش تارزي ابن "الفْنارْجي" الكائن، في ذلك الوقت، بشارع "رانْدونْ" (جامع اليهود). وبالتالي بدأ الجيل الأول من الممثلين والمسرحيين الجزائريين مثل ابراهيم سعدالله الملقب بـ: دَحْمُونْ ورشيد القسنطيني وجلول باش جراح وكلثوم..، يعرض أعماله بقاعة الأوبرا لأول مرة.

صحيح أن الباحثيْن البريطانييْن فِيلِيبْ سادْغْروفْ و شْموئيلْ مُورِيه (Philip Sadgrove & Shmuel Moreh) يدَّعيان في كتابهما Jewish Contributions to Nineteenth-Centry Arabic Theater (الإسهامات اليهودية في المسرح العربي للقرن التاسع عشر) الصادر في لندن في عام 1996م أن أول مسرحية في الجزائر وفي الأدب العربي في مُجمله هي "نزهة المشتاقْ وغصة العشاقْ في مدينة تَرْياقْ في العراقْ". المسرحية التي كتبها آبراهام دانينوسْ (Abraham Daninos) في 1848م، و هو يهودي من مدينة الجزائر وُلد في 1797م على عهد الداي حسان باشا و توفي في 7 فيفري 1872م. وبالمناسبة، للذين لا يعرفونه، اشتغل دانينوس، حسب الترمينولوجيا الاستعمارية، "مُترجما ومرشدا" لدى جيش الاحتلال منذ أواخر شهر جوان1830م. بمعنى أنه كان خائنًا لوطنه بالمقاييس الجزائرية...

غير أن ما هو صحيح أيضا يتمثل في كَوْنِ ادِّعاءِ كلٍّ من سادْغْرُوفْ و مُورِيه يبقى حتى الآن غير ذي أثر ولاَ صدى في السّاحة الأدبية. لكن قبل الحسم في صحة أو دقة ذلك يجب التريُّث ريثما يُدلي أهل التخصص العرب والجزائريين برأيهم في هذه المسألة إن كانت قد بلغتهم أخبارها...

بعد الاستقلال، أُسْنِدتْ إدارة هذا الصرح الفني، الدي تحول اسمه إلى "المسرح الوطني الجزائري"، للمناضل الشهيد محمد بودية الذي التحق في نهاية الستينيات بالثورة الفلسطينية حتى سنة 1973م، تاريخ اغتياله من طرف أجهزة الموساد بباريس. وعاشت هذه البناية بين مد وجزر ثقافيين حتى شهدت قبل سنوات مديرها الجديد آنذاك الممثل عزالدين مَجُّوبِي يُغتال عند بابها الرئيسي... وباغتياله اغتيلتْ مشاريع مسرحية طموحة سوف يأتي في يوم ما، دون شك، من يُعوِّضها، وسوف يَضيفها المسرح إن تحققت إلى قائمة أجمل ذكرياته؛ منذ أن كان صخرةً في خدمة باعة الفحم ورُماة الإنكشارية إلى غاية ذلك اليوم المرتقب...

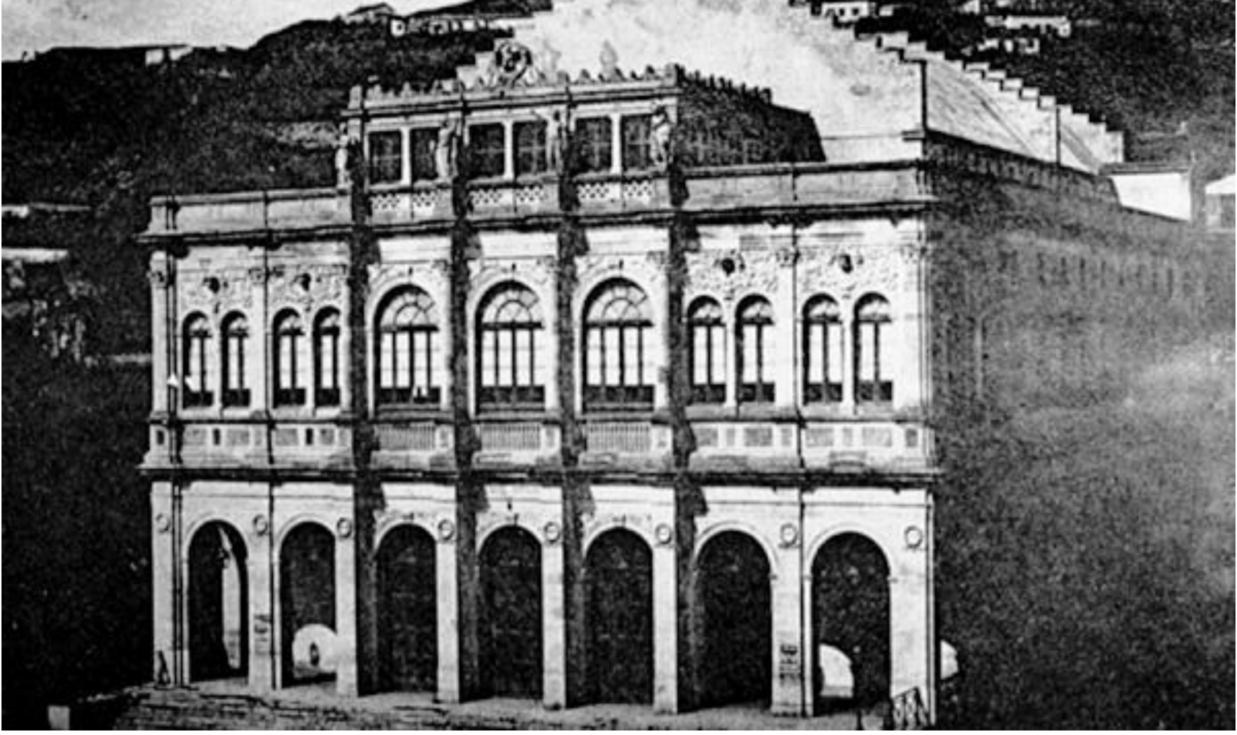
باب عزون وسور "المحروسة" وشجرة سيدي منصور ومئذنة جامع الداي الحاج حسين ميزو مورتو، الإيطالي الأصل، بُعيْد احتلال المدينة. أما الساحة خارج السور فهي بشكل عام ما أصبح يُعرف بـ: ساحة بور سعيد.



هنا، ما كان يُعرَف في العهد العثماني بـ: "رحبة الفحم" في لوحة رُسِمتْ بعد بضع سنوات من احتلال الجزائر. في هذا البقعة التي كان يتمرَّن فيها الجنود الجزائريون على الرّمي بالسلاح الناري باتجاه صخرة كبيرة، بُني الأوبرا أو المسرح في سنة 1853م. في عمقق الصورة، سور "بهجة" سيدي عبد الرحمن والباب الشهير بـ: باب عزون وأوراق شجرة الدّلب المتدلية فوق السور والمظللة لضريح سيدي منصور.



المسرح في 1853م بعد بضعة أيام من افتتاحه. حينذاك، مقهى طانطونفيل" المحاذي، على اليسار، لم يكن قد أُنجِز بعد. والمرتفعات ما زالت لم تُعمَّر بعد بالمباني التي نعرف اليوم.



صورة أخرى للأوبرا، أو المسرح، بعد 1853م، في أوَّل عهده قبل الحريق الذي تعرَّض له في سنة 1882م.



الأوبرا، أو المسرح، في مرحلة لاحقة تضاعف فيها العمران المحاذي في الخلف وعلى اليسار حيث مقهى "طونطانفيل".



الأوبرا، أو المسرح، في نفس الفترة تقريبا، ويظهر في الصورة على اليمين "نادي الضباط" الحالي الذي كان ثكنة خلال العهد العثماني.



الأوبرا ومقهى "طانطونفيل"، حاليًا "مقهى الجزائر"، الذيُ ظهر إلى الوجود في سنوات 1870م. على اليمين، خَلْف الأوبرا، تظهر الثكنة التي كان جنودها الجزائريون خلال العهد العثماني يتمرنون في هذه البقعة على الرّمي بالسلاح الناري. الثكنة في الحقيقة ثكنتان تم إدماجهما ببعضهما في العهد الاستعماري، والحومة كانت تُسمى حومة الخضَّارين قبل أن تُصبح شارع ميدي (Rue Médée) إلى غاية 1962م، واليوم هي "نادي الضبَّاط" التابع لوزارة الدفاع الجزائرية.



سور باب عزون والرَّحْبَة خارجَهُ التي تَحَوّلتْ لاحقًا إلى ساحة بور سعيد والأوبرا/المسرح. أول صورة التُقطت لهذا المكان وتعود لسنة 1844م.



الأوبرا في بداية القرن 20م.





مدير الأوبرا/المسرح بعد استقلال الجزائر: المجاهد في ثورة التحرير الجزائرية والشهيد من أجل تحرير فلسطين محمد بودية الذي اغتيل في باريس سنة 1973م.



المسرح اليوم، وقد أصبح يُسمَّى "مسرح محيي الدين باش طرزي" نسبة إلى رائد هذا الفن في الجزائر والمغني الباهر في مجال الطرب الأندلسي محيي الدين باش طرزي "وْليدْ الفْنارْجي" كما كان يُعرَّف هو وأشقاؤه في "القصبة".



قاعة العروض في مسرح محيي الدين باش طرزي/الأوبرا في صورة حديثة تعود لبضع سنوات.



محيي الدين باش طرزي الفنان المسرحي الذي بدأ مشواره مجوّدًا للقرآن ومرتلا ثم مغنيا متخصصا في الغناء الأندلسي.





الأطفال و إبداعات زمان.. "يَا حَسْرَة كِي كُنْتْ صْغِيرْ"...

الحاجة هي أم الإبداع، و الذين أسعفهم الحظ في التردد على مقاعد مدرسة "الجُوعْ والحْفَا" هم أَدْرَى الناس بالقوة السحرية الخَلاّقَة للفقر و بالمعجزات التي قد يتمخض عنها الضعف، و حتى بسعادة الأشياء البسيطة بساطة الفقراء.
قبل دخول التلفزيون و الحاسوب و الألعاب الإلكترونية إلى بيوت الجزائريين، كان الأطفال سعداء بنفس القدر الذي يسعد به أطفال اليوم بِرُسوم "وَالْتْ دِيزْنِي" المتحركة مثل "بوكاهونْتاسْ" و"الملك الأسد" و"ثَلُّوجَة البيضاء" و"سنْدرِلاَّ"...
هؤلاء الذين ينتمون إلى جيل الستينات والسبعينات لم يكن لديهم لا حديقة التسلية بابن عكنون ولا شواطئ البحر المجهزة ولا قاعات الألعاب الإلكترونية أوالهياكل الرياضية والثقافية المتوفرة حاليا. مع ذلك قضوا طفولة ممتعة وسط لُعَبِ وألعاب وتسلية بسيطة مُكيَّفَة مع ظروفهم الاجتماعية المتواضعة لا زالوا يحنُّون إليها. و لو سنحت لهم الفرصة لاستعادة طفولتهم والاختيار بين أساليب التسلية العصرية الحالية و أساليب زمان المتواضعة لاختاروا الثانية دون تردد.
"كنا راضين بظروفنا المعيشية العسيرة، يقول عزيز البالغ من العمرحالياً 42 سنة، و لم نكن نشعر بالسخط و القلق الناتج عن النهم السائد في الوقت الحالي"، و يضيف: "كانت أبسط الأشياء تُسلِّينا وتَبْعَثُ فينا السعادة إلى درجة أنني أتحدث عنها الآن بحنين كما ترى".
كان ذلك في عهد "النيّة"، كما يقول، لأن "القناعة" كانت قاعدة سلوك الناس قبل أن تطغى عليهم مادية فلسفة السوق.

استفد مما تملك

كانت تسلية الأطفال آنذاك مجانية لأنها مستوحاة من أبسط الإمكانيات المتاحة في المحيط العمراني. لذلك كانت ميزانية الأولياء معفاة من الانشغال بهذا الأمر طالما كان أطفال الستينيات والسبعينيات يؤمنون بشعار الكُونْتْ دِي مُونْتِي كْرِيسْتُو: "تَعلَّم كيف تستفيد ممّا تملك حتى لا تحتاج إلى ما لا تملك".
استفاد طفل العقود السابقة من تراث الأقدام السوداء من الألعاب و هَجَّنَهُ بأساليب التسلية المحلية بطريقة اقتصادية وذكيّة جدا ليحصل على نظام جديد ومخضرم للَّهْوِ يتناسب مع الإمكانيات المتاحة و مع الثقافة المحلية. فعرَّب لعبة الغميضة "دِي صَايِي" (Dis: ça y est !) و حوَّل "Tu es là" إلى "تْشِيلَة" القريبة جدا من اللعبة الأصلية، و جعل من "Délivrer" (الانقاذ) لعبةً جديدة تحمل اسم "دِينِيفْرِي". كما احتفظ بـ: "جاكْ آ دِي آسِي" (Jacques a dit : assis) من حيث التسمية بعد أن بسّط قواعدها لتناسب أطفال الجزائر المستقلة الذين لم يكونوا يتقنون اللغة الفرنسية كأبناء أوربيِّي الجزائر. و قد تكفل الباحث نُورْبِرْتْ بِيلْ - آنْجْ، المنحدر من الجالية اليهودية الجزائرية التي رحلتْ إلى

فرنسا بعد الاستقلال، والمولود بمدينة مستغانم، بإنجاز رسالة دكتوراه كاملة حول أساليب ونماذج التسلية التي كان يتسلى بها أبناء الأقدام السوداء في "الجزائر الفرنسية"، وذلك تحت إشراف الروائي الأديب ألْبِيرْت بن سُوسَان الذي ينتمي هو الآخر إلى نفس الجالية و نفس المعتقد.

"تْشِيلَة"، "الرَّشَّايْقَة" و الأُخْرَيات

لكن أطفال جزائر الستينات و السبعينات تخلصوا بسرعة، عكس أوليائهم، من عقدة الاستعمار التي بقيت مسيطرة على الكبار ودخلوا في مرحلة "الإبداع" الذاتي دون التخلي عن إرث الأقدام السوداء. ففي الوقت الذي استرجعوا فيه علب "الشمَّة" الفارغة التي كانت تنتجها مصانع بن تْشِيكُو ليلعبوا بها "لاَ مَارِيلْ" (La marelle) كأبناء "النَّصَارَى"، كانوا يصنعون منها أيضا "الصّْنوجْ" والتْشْنَاتْشَنْ" مثل تلك التي تستعملها فرق "القارْقابُو" واستوحى منها المخرج الإيطالي الراحل "بُونْتِي دِي كُورْفُو" موسيقى فيلمه الشهير "معركة الجزائر". و في نفس الوقت الذي أبقوا فيه على لعبة "تْشِيلَة"، اشتقوا منها لعبة محلية أطلقوا عليها "تشيلة فونْتوماكْسْ"؛ و هي صيغة مُطَوَّرَة وأكثر حيوية للأولى. كما اخترعوا أساليب جديدة مستوحاة من التقاليد المحلية مثل لعبة "ليزانْزْلي" التي تعتمد على خمس مكعّبات حجرية أو عظمية، و"لِي بِيكْ" (Les pics)، أو "الرَّشَّايْقَة" حسب مناطق أخرى من البلاد، التي تقوم على "رَشْق" كل لاعب لقضيبه الحديدي في قطعة أرض مبللة تُقَسَّم إلى مناطق خاصة بكل واحد يُشار إليها بـ: "بْلاَدِي" و "بْلاَدَكْ"...

لكن استنباط مثل هذه الألعاب من البيئة المحيطة والأرضية اليومية التي يجتمع فيها أطفال "الحَوْمَة" تجعل ممارستها مرتبطة بحالة الجو والمناخ ارتباطا وثيقا.

ذلك ما فهمه الأطفال فهمًا جيّدًا، فنظّموا ألعابَهم بذكائهم الفطري تنظيما منطقيا يتناسب مع الفصول الأربعة للسنة و مع العطل المدرسية.

الكوَيْرَات

"كنا نلعب الكويرات أو "البِيزَانْ"، حسب التسمية العاصمية، في الخريف، لاستحالة ذلك في الشتاء لأن الأرض المبللة و الطين الدي يلتصق بها يعرقل السّيْر الحسن لهذه اللعبة" حسب تأكيد الدكتور الجراح ب. محمد الذي كان أحد عباقرة الكويرات في حيه أثناء طفولته. و يؤكد بأنه كان يُميّز بين"البَازْ" الجيِّد و "البَازْ" الردئ، و بين الجميل و البشع و المتواضع والفاخر... ونظرًا للمستوى الهام من الخِبرة الذي كان يتمتع به في هذا المجال جعل منه الرفاق مستشارهم الأساسي في سوق واقتصاد "البيزَانْ" جعله يشرف على أغلب التعاملات في هذا "القطاع" بين أترابه.

أما هو فكان يفضل استخدام الكويرات التي تصنعها الطبيعة وينفر من تلك الصّناعية المزركشة الألوان، وذلك قبل ظهور أحزاب حماية البيئة. غير أن ترفًا كهذا كان يقتضي معرفةً دقيقةً بـ: "المعادن" التي كان يُستخرج منها "البازْ" الإيكولوجي، وهذا ما لم يكن يتوفر عند كل من هبَّ ودبَّ من الأطفال. آنذاك كان شاطئ قاع السور، حيث يقع قصر رياس البحر بباب الوادي، الورشةَ الطبيعيةَ التي كان الدكتور ب.محمد

يقضي فيها أياما كاملة بحثا في أعماق الرمال وبين الصخور والحصي عن "الباڒ" الأمثل الذي كانت تجود به أمواج البحر من حين لآخر كما تجود بالأصداف. و"الباز" الأمثل الذي كان يثير لعاب الأطفال في ذلك الوقت لم يكن سوى ما كان يُعرف عند العارفين بأسرار هذه اللعبة الشعبية القديمة بـ:"بَازْ آنَقَالْ" المختلف الأحجام و الألوان الذي تقترب مادته من معدن الرخام.
غير أن المفارقة التي لم يتوقعها أحد هو أن هذا الطفل خبير الكويرات أصبح بعد 30 سنة طبيبا اختصاصيا في الجراحة في قسم أمراض الثدي بأحد أكبر مستشفيات مدينة الجزائر، وربما تَطَلَّبَ الأمرُ استشارة الخبراء النفسيين لمعرفة إن كان لهواية الطفولة علاقة مباشرة بِحِرْفَةِ الرُّجولة لأن الاثنين يتعاملان مع شكل هندسي واحد...

دعم ديوان الحليب و مشتقاته

في السبعينات بدأ الأطفال يَصِلُونَ إلى مرحلةِ الاكتفاء الذاتي في ابتكارِ الألعابِ الأصيلة، فانتقلوا من "يَدَاسْ" التي اشتهرت عبر كامل التراب الوطني منذ أن اتخذ منها المفتش الطاهر و مساعده يحي بن مبروك عنوانا لفيلم ممتع، إلى لعبة "اللّي يْقِيسُو يَخْرُجْ"، و"تْشَبْتْشَاقْ المَريكَانْ" المستنبطة في جوهرها من "الغُمَّيْضة"، ثم لعبة "بالونْ الشْكارة" التي ظهرت منذ ميلاد الديوان الوطني للحليب ومشتقاته في بداية السبعينات. فهذه المؤسسة التي التي كانت أوّل من سَوَّقَتْ الحليبَ في الأكياس البلاستيكية بدلاً من القارورات الزجاجية "بَطّـوشْ"، وَفَّرَتْ للأطفال الفقراء فرصة صنع كرات القدم من أكياس الحليب بواسطة حشوها بأوراق الجرائد والتعليب و بكل أنواع "الكْواغَطْ". و بالتالي أصبح بإمكان الفقراء إجراء مقابلات في كرة القدم دون الاضطرار إلى إنفاق حوالي 6 دج، آنذاك، لشراء كرة حقيقية بلاستيكية. ولا يجب الاستخفاف بهذا المبلغ الذي قد يبدو لا قيمة له اليوم، لأنه كان في عصره الذهبي قادرا على شراء 15 قطعة "مِيلْفَايْ" أو ستة قارورات "غازوز" "سِيلِيكْتُو" أو حتى 16 خبزة من نوع "الباقيطة".
أحيانا كانت المزابل العائلية وحتى العمومية تشهد فترات ندرة في الأكياس الحليبية تُزعزع استقرار الأطفال... عندئذ لم يكن أمام هؤلاء من حلٍّ آخر سوى التنقيب في أعماق عبقريتهم لإيجاد البدائل..، ولم يكن الخيال لينقصهم... فأفتى بعضهم بأنه لا حرج إن أُجْرِيتْ مقابلات كاملة في كرة القدم بعُلَبِ الطماطم المصبّرة أوعُلب المعجون الفارغة. و بطبيعة الحال، لم يكن متوقعا من الرأي العام الـ: "طفولي" أقل من الارتياح والاستحسان، فكانت الفائدة من هذه الفتوى فائدتين؛ أولاهما ضمان استمرارية أطفال الأحياء الشعبية الفقيرة في ممارسة رياضة كرة القدم وهو ما سيُهيّأُ لكرةِ القدم الوطنية لاعبين دوليين من عِيار علي بن الشيخ مثلا..، وثانيهما الحفاظ على البيئة ببراعة باعتماد سياسة استرجاع النفايات وإعادة تأهيلها... ولا داعي إلى الخوض في فائدة هذه الفتوى من الناحية الاقتصادية...

فصل "المَشْمَاشْ" و التراشق بالحجر

استغل الأطفال أيضا فصل الفواكه الصيفية ليخترعوا من نواة المشمش لعبة شعبية كبيرة في مختلف أرجاء الوطن تُسمى في العاصمة "الدِّينْوايو" وهي مشتقة من الكلمة الفرنسية (Les noyaux)؛ أي النواة. في نفس الفترة، علّم أهل الصحراء أطفال الشمال أن يتسلوا ب:"الزَّرْزومية" و يستأنسوا بها في البيوت حتى جعل منها "السُّوافَة" لعبة شعبية و.. بالأحْرى تجارة مربحة في بقالاتهم بمدينة الجزائر.

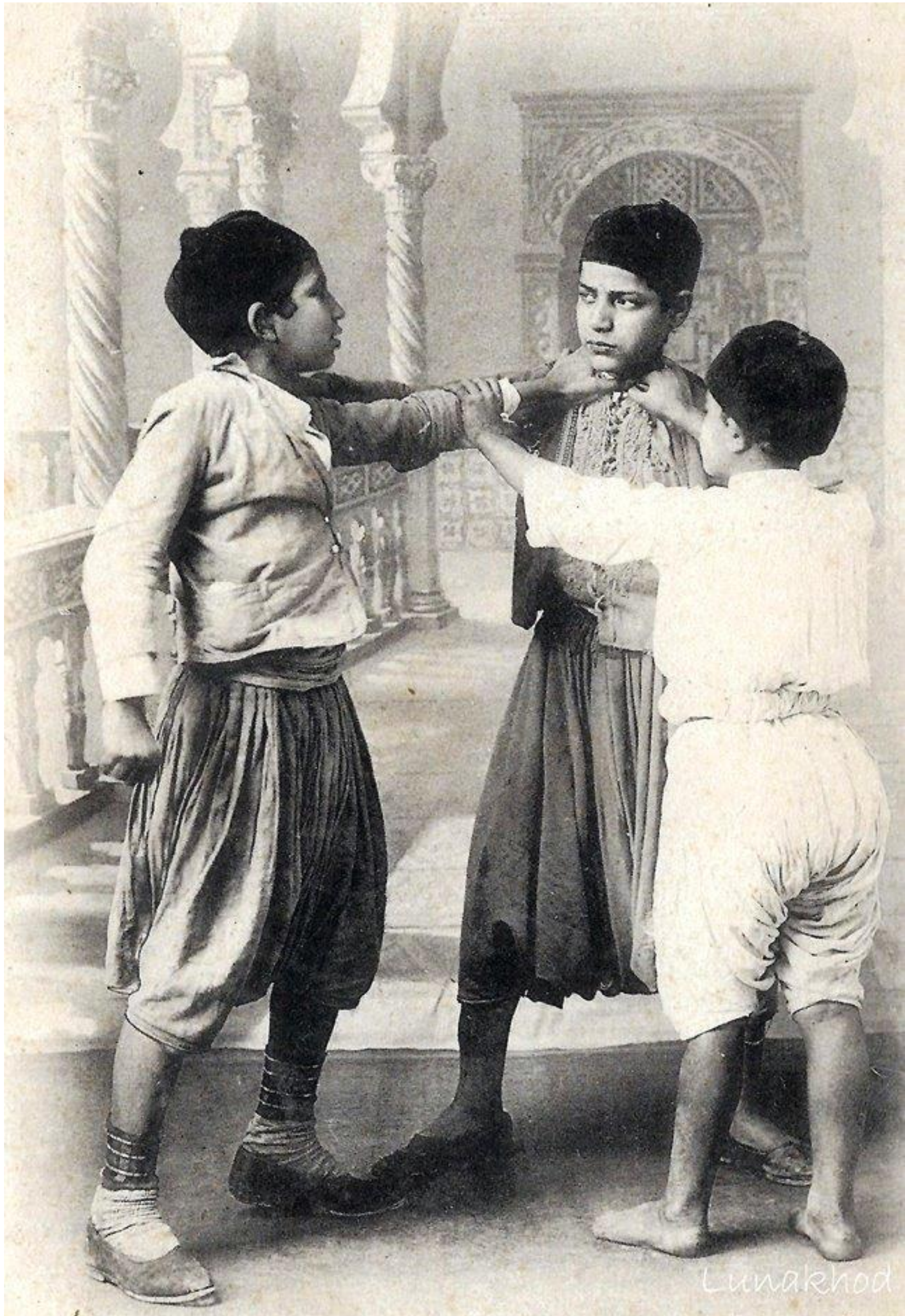
غير أن اللعبة الأكثر اقتصادية عند أطفال تلك الفترة تتمثل في تنظيم مسابقة بين طفلين أو أكثر، حيث يتبنى فيها كل واحد نوعا أو لونا معينا من السيارات، و الفائز هو الذي يمر أمامه أكبر عدد من النوع أو اللون الذي اختاره. كانت هذه اللعبة، في الحقيقة، خاصة بالكسلاء أو الذين لا يتركهم أولياؤهم أن يخرجوا ألى الشارع أو ما كان يسمى بـ: الطفل "البَبُّـو"...

أما الأطفال الأكثر حيوية وجرأة فكانوا يميلون إلى الألعاب التي تقوم على العنف و روح المغامرة، لذا كانوا يفضلون عموما المشاجرات وإزعاج الناس برشقهم بالبرتقال والطماطم الفاسدة أوتنظيم مباريات شديدة العنف ينقسمون فيها إلى مجموعتين تتقابلان في ميدان واسع لتتراشقا بالحجارة طوال ساعات، وتنتهي عادة بإصابة بعضهم بجروح متفاوتة الخطورة. و قد اشتهرت هذه اللعبة باسم "لاطاكْ"(L'attaque) أي الهجوم.

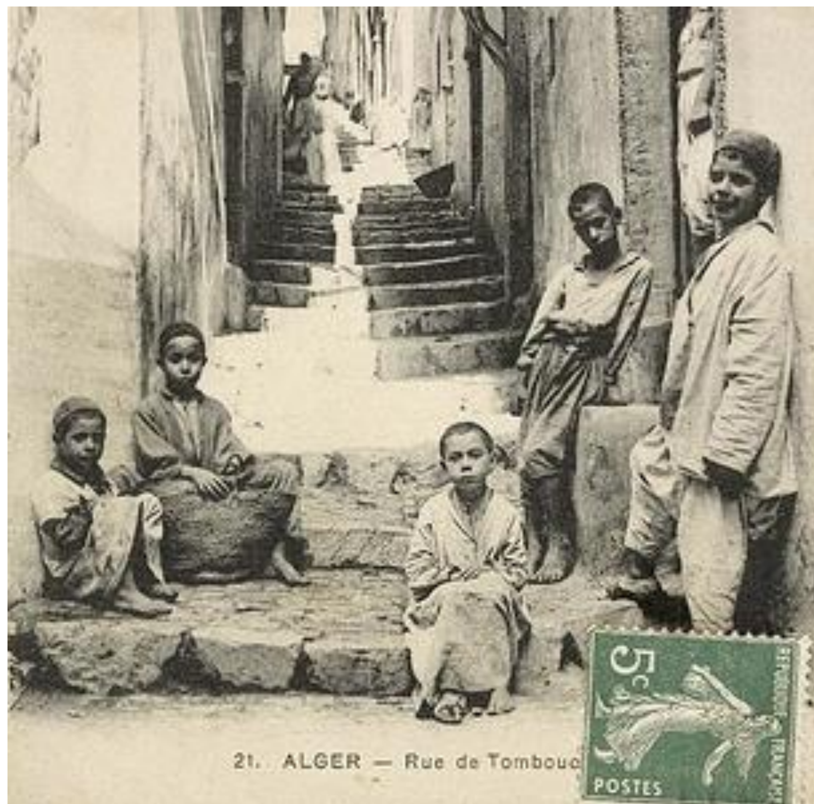
وتبقى قائمة هذه الألعاب الشعبية المحلية طويلة تحتوي على أنواع كثيرة بما فيها "الزُّرابَطْ" (أي الدوامات) واصطياد "الكوكْسينالْ" و"الزُّواوَشْ" (العصافير)، بالإضافة إلى مسابقات أخرى كانت تمُارس بعيدا عن أعين الكبار تفاديا للعقاب، مثل مسابقات "البْزاقْ" (البصاق) قذْفاً أرض- جو و جو- أرض و ما شابهها وهي كثيرة...

أطفال الفيديو و الألعاب الإليكترونية و الـ: "دِّي- في- دي" لم يحافظوا سوى على عدد قليل من هذا لتراث. و لو رجعوا إليه لوَفَّرُوا على أوليائهم بعض المصاريف، و على الدولة بعض النفقات الاجتماعية لتسديد الديون الخارحية عندما كانت عاجزة على التسديد...

الطفولة المصادَرة في مدينة الجزائر في عهد الاحتلال في بداية القرن 20م.




Alger


21. ALGER — Rue de Tombouc
5c
POSTES







في نـهاية الستينيات أو بداية السبعينيات من القرن 20م في "القصبة".




© MARC RIBOUD

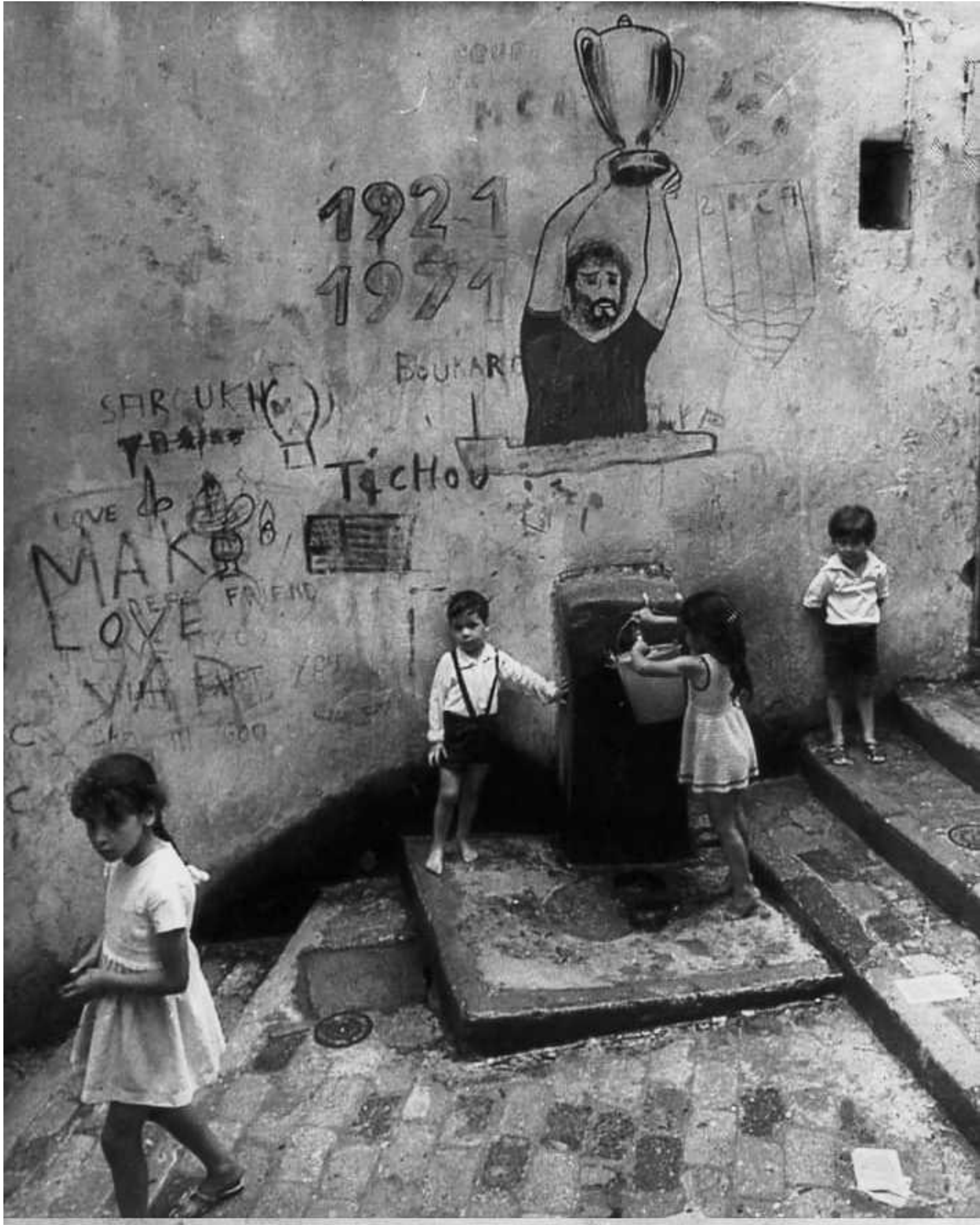
الممثلة الفرنسية الدانماركية آنا كارينا مع أطفال القصبة سنة 1967م.



في "دْرُوجْ" سينما "النجمة" بمحاذاة جامع بن فارس/جامع اليهود في "القصبة" في السبعينيات.



أطفال "القصبة" سنوات 1970م.




VE LE
PEUPLE




اللّه اكبر
واعتصموا بحبل الله جميعا ولا



شارع الباب الجديد وحومة "قهوة العريش". المحل حيث الرجل واقف على اليمين كان محل الفحّام في بداية السبعينيات.



عند باب جامع سيدي عبد الله في حومة حوانيت سيدي عبد الله... كانت المدينة العتيقة تُنظَّف بالماء كل صباح حتى منتصف الثمانينيات من القرن 20م على الأقل.



أطفال الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي أطفال نشأوا في أجواء ثورية ناصرت فيها الجزائر كل ذي حق مهضوم في العالم، بمن فيهم الأمريكيون السَّود الذين لجأوا إليها. هنا في شارع القصبة مع قادة "الفهود السُّود".

THE BLACK PANTHER

25 cents

Black Community News Service

VOL III NO. 16 — SATURDAY, AUGUST 9, 1969

PUBLISHED WEEKLY — THE BLACK PANTHER PARTY — MINISTRY OF INFORMATION BOX 2967, CUSTOM HOUSE SAN FRANCISCO, CA 94126

PANTHERS IN KASBAH

COIFFEUR

since t… have bee… Israeli con… otaged their… troyed strat… lations (from … zim, railway, … plants) have a… these news con…
The purpose … to destroy the ec… social, and polit… "Israel", as we… attention to the… possesed, uproo… Palestinian people.

ALGIERS

…K PANTHERS AT PAN-AFRICAN CULTURAL FESTIVAL

SEE INSIDE

شباب بداية السبعينيات، شباب الأمل، الذي جَسَّده بواقعية كبيرة فيلم "عمر قتلتو" للمخرج مرزاق علواش.



مشهدان من فيلم "عمر قتلتو الرّجْلَة": موح سْمينَة وبطل الفيلم عمر.





في "القصبة" في نهاية السبعينيات أو في الثمانينيات.





طفولة هؤلاء هي أيضا طفولتي وذاكرة المدينة كذلك ذاكرتي... مع تحياتي...



هذه المدينة...

قُولُوا لِي يا سَامْعِينْ رِيحْةْ البَهْجَة وِينْ

عبد المجيد مسكود (مطرب)

هذه المدينة، التي نَتفرَّجْ اليوم على انهيارِ ما تَبقَّى مِن أطلالِها بِقدرٍ كبيرٍ من اللامبالاة، تتنفس التاريخ وتعيش عليه، تحفظ الذاكرة و تزجر الذين غرقوا في النسيان أو الذين لا يُحْسِنون احترامَ الجذورِالتي أنْبَتَتْهُم...
فهي بمجرد وجودها على قيد الحياة، و لَوْ في حالةِ الاحتضار، تُؤَدِّي دورَ الجدّ والجدّة، وسط أيّ عائلة، ساهرةً على استمرارِ القِيم و تَوَاصُلِها مابين الأجيال، وتقف مثل مِسْمَار جُحَا في وَجْهِ العاجزين على فهْمِ المَثَل القائل "الجْدِيدْ حَبُّه و القْدِيمْ لاَ تْفَرَّطْ فِيهْ"...
قَصَبَةُ الجَزائر أو قصبة بني مَزْغَنَّة اليَوْم حِصْنٌ ثفاقيٌّ ثقيلٌ بالرُّموزِ والقِيَم رغم مظاهر الشيخوخة التي شوّهتها وانهيار الجسد المثقل بمئات السنين وآلاف الأحداث و الحكايات. و كأن قدرَها شاء أن لا تكون عبر التاريخ سوى حِصنٍ وجبهة متقدمة لحماية الذات عسكريا وثقافيا وحضاريا... لذلك ليس غريباً أن تغضبَ و تنقمَ و تزجرَ و تنتفضَ كُلَّمَا اقتضتْ الأمورُ..، بل قد لا تتردد، وهي المعروفة بالشهامة و الأنفة والإباء، حتى في المواجهة والصِّدام الذي قد يصل إلى حد الدماء والدموع للتعبير عن عدم رضاها...

هذه هي قصبة الجزائر في ماضِيها كَمَا في حاضرِها...

لكنها ليست هذا وحسب، بل هي أيضا أرضٌ لِصناعة الجمال و الأحلام، و مَهْد الأساطير العجيبة و الحكايات الشعبية، و الغناء، و الفنون، وغَنْم "السّاعات الهَنِيَّة" و"النزاهات" في البساتين و الرِّيَاض و القصُور... وهي كذلك تلك الأرض التي كانت أرضُ كلّ الفُرَص؛ تَحْتَضِنُ كلّ مَن عَبَسَتْ في وجْهِهِ الحياة، و تمسح بِرِفْقٍ مسحة الحزن مِن على جبينِه، وتُعيد له الابتسامةَ المفقودةَ.

قصبة الجزائر هي أيام وليالي "النّْزَاهَة" التي كانت تجمع حول الرَّبَابَات و الكَمَنْجَات و العِيدَان و القْوِيطْرَات أَجْمَل ما كان يَتَدفَّق من أصواتٍ مِنْ حَناجر خَيْرَةِ مُطربِي المدينة على أنغامِ خليطٍ موسيقيٍّ جزائري – غَرْنَاطِي – قُرْطُبِي – بَلَنْسِي في غاية الرِّقَّة و الإبْدَاع حول أكواب الشاي و فناجين القهوة و أطباق المقروض و البَاقْلاَوَة و"القْنِيدْلاَتْ"...!

هذه المدينة هي أيضا أرضُ "البُوقَالاَتْ" التي كانت تُنظمها النساء في سهرات رمضان في أفنية الدِّيَارِ والقُصُورِ كما في اللقاءات النسوية المُنْتَظِمَة في الحَمَّامَات. نساءٌ جَعَلْنَ مِنْ المقابر فضَاءً روحِياً حميمياً رومانسيا تلتقي فيه الموتُ بالحياةِ و الدُّنيَا بِالآخِرَة وَسَطَ تِلاوة القرآن ونحيب الباكيات وزَقْزَقَةِ العصافير و خَرِيرِ قطرات المياه المُنْسَكِبَة على فتحات القبور المُورِقَة والمُزْهِرَة بمختلف الأزهار وبالياسمين تحت الظلال الوارفة للدوالي والصَّبَّار ومختلف الأشجار......

قصبة الجزائر هي كذلك المقاهي التي فاق عددُها السّتين مقهًى شعبيًا والتي كانت مراكز ثقافية، بكل مايحمله هذا التشبيه من معانٍ، نابِضةً بالحَياة طيلة أكثر من ثلاثةِ قُرون حتى جاء الاستعمارُ لِيُهَدِّمَ أغلبَها وأهمَّها.

هذه القصبة هي الكتاتيب، والمدارس، والمساجد، والجوامع، والمؤسسات الوقفية، والأسواق، والسّويقات، والحوانيت. و هي أيضا الأزقة المُلْتَوِيَة الضيّقة، والمرسى، والبحر الأزرق الأزلي الحضور؛ الشاهد الذي لا ينطق أبدا، الذي يكتفي منذ بداية الكون بالنظر إلى هذه البقعة من الأرض في تأملٍ عميقٍ عن إيمانٍ بأن الصمتَ حِكمةٌ...

تُرَى أيْن هِيَ هذه القَصَبَة اليَوْم؟ أين هو الجَمَال.. و أين طيْب العَيْش.. وأيْن البهجة التي صنعت "البهجة"...؟